من الفكر
السياسى
والاشتراكى

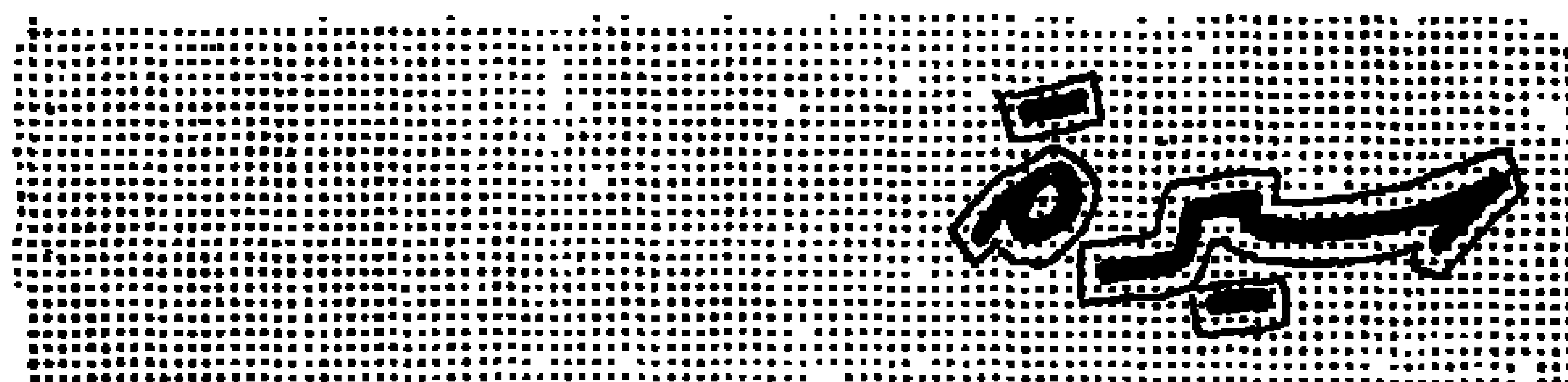


سيرة لينين

بقلم
عصام الدين حفنى ناصف

وزارة الثقافة
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

من الفكر السياسي والاشتراكي



لنين

بقلم عصام الدين حفني ناصف

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

أهم المراجع

A commission of the C.C. of the C.P.S.U. (B.)
History of the communist party of the Soviet Union (Bolsheviks)

Valeriu Marcu
Lenin

Christopher Hollis
Lenin

D. S. Mirsky
Lenin

James Maxton
Lenin

R. Palme Dutt
Life and teachings of V.J. Lenin

René Fülöp-Miller
Lenin and Gandhi

R. Page Arnot
A short history of the Russian Revolution
V. 1 : from 1905 to February 1917.

الحالة الاقتصادية

في روسيا القيصرية

قضت الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ على قنانة الأرض(١) فى فرنسا. أما فى روسيا فقد ظل هذا النظام الاقطاعى قائما حتى أرغمت الحكومة القيصرية على الغائه سنة ١٨٦١ بعد أن باءت بالهزيمة في حرب القريم بين سنة ١٨٥٣ و ١٨٥٦ وجبه الفلاحون سادة الأرض بالتمرد والعصيان • بيد أن الطريقة التى تم بها تحررهم أوشكت أن تسلبهم أراضيهم التي يجنون منها أقواتهم ، فلم يجدوا لاستنقاذها ندحة عن أن يدفعوا لسالبيهم ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ر٢٠٠ جنيه صاغرين ، وسرعان مارزحوا تحتأوقار الضرائبالفادحة التى ضربها عليهم القيصر ، فشرعوا يهاجرون من قراهم فزعين الى المدن التماسا للعمل فى رحاب المصانع التى كانت قد أنشئت حديثا ، فنجم عن تزاحم العمال وكس أجرة العامل •

كان العمال حول سنة ١٨٨٠ يعملون ما لا يقل عن ١٢½ ساعة فى اليوم ، بل لقد كانت ساعات عملهم فى مصانع النسيج تصل الى ١٥ ساعة ، وكانت المصانع لا تؤمن العمال عند شركات التأمين ، ولا تتخذ من وسائل التحوط ما يكفل حماية العمال من معاطب العمل ، فكان يصاب منهم من يصاب فيتحمل أجر علاجه دون أن تبض له يد المصنع بشيء ، ويقتل منهم من يقتل فلا ينال عياله تعويضا ولا يجرى عليهم رزق • أما أجرهم — بعد ذلك كله — فكان لا يذرف (فى غير مسابك المعادن ومصانعها) على ٧٠ أو ٨٠ قرشا فى الشهر (٢) ، ذلك الى أن المصانع كانت تسلك معهم من الأساليب المرذولة ما تخدعهم به عن بعض أجورهم، فكانت تخفضها بين الحين والحين ، وكانت توجب عليهم كذلك شراء حاجياتهم من حوانيت لها بأثمان مرتفعة •

---

(١) serfdom

(٢) وذلك على أساس آن الروبل كان يساوى ١٠½ قرش أيام كانت العملة فى مصر وفى روسيا محتفظة بقيمتها الذهبية •

ضاق العمال بهذه الحال ذرعا فأخذوا يضربون عن العمل اضرابات معها تحطيم الآلات وتخريب المصانع • ومن ذلك اضراب عمال مصنع موروزوف فى يناير ١٨٨٥ ، وكانوا يناهزون ٨٠٠٠ عامل ، بعد ان خفض صاحب المصنع أجورهم بضع مرات بلغ الخفض فى المرة الأخيرة منها وحدها ٢٥٪ ، ولما أحيل زعماء الاضراب الى القضاء ظهر فى أثناء محاكمتهم أن صاحب المصنع كان يغصبهم بأساليبه الماكرة ما بين ٣٠ و٥٠ فى المائة من أجورهم •• ونشب فى العام نفسه اضراب آخر من هذا الطراز فى مصانع ايفانو ـ فوسنسك ، فاضطرت الحكومة آخر الأمر الى سن قانون يحتم بانفاق الغرامات المقتطعة فى احتياجات العمال أنفسهم فلا تعود الى خزائن أصحاب الأعمال •

وقد كان نمو الصناعة متعذرا فى ظل الحكم الاقطاعى ، فلما ألغيت القنانة شرعت الصناعة تنمو وتزدهر ، ومع ذلك ظلت روسيا بلدا زراعيا فى المقام الأول • واستطرقت الرأسمالية الى الأرياف وأخذ الزارعون يتشققون طبقات ، فظهرت طبقة الكولاك (١) وهم البرجوازيون الريفيون الذين يعيشون على استغلال الفلاحين • وكانت الملكية الزراعية موزعة توزيعا سيئا ، فبينما كان ثم ٥٠ مليونا من الفلاحين (بين رجال ونساء وأطفال) يفلحون ٧٥ مليونا من الأفدنة الروسية كان ثم ٣٠ ألف أسرة تملك وحدها ٧٠ مليونا من الأفدنة • ثم أخذ أبناء الريف يزدادون عددا وأخذ ما لديهم من ماشية عجفاء يقل وظلت رقعة الأرض الزراعية على ماهى عليه من ضيق فنقص مايملكه الفرد الى مايقرب من نصف ما كان يملك قبلا • وقد كتبت احدى الجماعات الزراعية سنة ١٩٠٣ فى تقرير قدمته الى كونت فته تقول :

« عندما يكون انتاج الغلة بمقداره المألوف يحصل الفلاح على غذاء يقل ٣٠٪ عما يحتاج اليه فسيولوچيا » •

ولم يكن للفلاح فى العهد القيصرى حقوق سياسية ، وحسبنا دليلا على ذلك ماجاء فى مرسوم معروف صدر فى سنة ١٩٠٠ من أنه :

« ليس لامرىء أن يبرح قريته ليلا لأية علة ، ولا أن يغيب عنها أكثر من ٢٤ ساعة ••• ومن خالف ذلك بغير ترخيص من السلطات عوقب •• ولو أقام الدليل على أن رحيله من القرية لم يكن لسبب مريب أو لعمل مناف للقانون » •

---

(١) Kulaks

وهكذا حرم الفلاح حقوقه المدنية ليقسر على خدمة المالك الكبير ، وبقيت السخرة أثرا أخيرا للقنانة الملغاة . وكان الفلاح يعاقب في سرقته بقرة جاره بالحبس بضعة أسابيع ، فاذا جرؤ على أن يسرق بقرة سيده سجن بضعة أعوام. وكانت ضياع كبار الملاك تحيط بأراضي الفلاحين من كل جانب ، فقوى ذلك من تبعية الفلاحين لهم وزاد من اذعانهم لمشيئتهم. ومما زاد الطين بلة أن الفلاحين كانوا اذا مدوا الى كبار الملاك ايديهم ليستلفوا منهم ما يؤدون به الضرائب الملقاة على كواهلهم كان عليهم ان يعملوا في ضياعهم أو يوفوا الدين أضعافا مضاعفة . ومن تقاعس منهم عن أداء الضرائب فجزاؤه أن يساط كما يساط لأية هفوة تبدر منه ، فقد كان الضرب عقابا قانونيا ، وكان كل امرىء عرضة لأن يضربه رئيسه ، فالمرأة يضربها بعلها والمدرس يضربه ناظر المدرسة والمؤمن يضربه القس وضابط الشرطة يضربه المدير وولي العهد يضربه القيصر . وهذا ما عبر عنه تورجنيف على لسان أحد شخوص قصصه اذ يقول :

« لقد استحققته يا أبت الصغير ، لقد استحققته ، وما من امرىء يعاقب في مملكتنا بغير سبب معقول » .

وهكذا ظل الفلاحون رهن مشيئة سادتهم السابقين ، والسادة يرهقونهم من أمرهم عسرا ، فكدت حقولهم ، وجدبت أراضيهم ، فعم القحط ، وتفشت المجاعة .

اليانوفسك

ولد لنين في مدينة سمبرسك على نهر الفلجا الى الجنوب من مدينة قازان ، وكان يقطنها في ذلك العهد ٣٠٫٠٠٠ نفس ، وقد استبدلت باسمها القديم اسم « اليانوفسك » تكريما لابنها الفذ وتمجيدا لجهاده .

تقوم اليانوفسك على الضفة اليمنى من النهر والى الضفة الأخرى البراري الشاسعة المقفرة . وقد عاشت تلك المدينة عن غيرها بمعزل ، وكانت الصلة بينها وبين ضواحيها التي الى الضفة اليسرى من النهر غير

ميسرة ، اذ أن عبور الفلجا في ذلك العهد لم يكن بالأمر الهين خلال أشهر معلومة من العام • وكثيرا ما نزلت بساحتها المجاعات وعصفت بها هوج الرياح فنالت هذه وتلك منها وأرهقتها شدة وعنتا،ثم أن حرارتها كانت تعلو في الصيف الى الدرجة ٤٦ مئوية وتنحط في الشتاء الى الدرجة ٤٤ تحت الصفر ولم تكن هناك أجهزة لتبريد الهواء وتدفئته ، فكان لهذا التباين في درجات الحرارة أثر في تلوين مزاج أهلها فنزعوا الى الغلو والافراط وأصبحوا لا أثر فيهم للتوسط بين الحالين •

في تلك المدينة قضى لنين صباه ، وكان يمضي العطلة المدرسية في ريف قازان حيث يقيم بنو خئولته •

وكانت تلك هي البيئة التي اتصل فيها لنين أول ما اتصل بالفلاحين والعمال وعرف آمالهم وتبين رغباتهم ، فكان لذلك من الأثر في نفسه مالا يقل عما حصله بالقراءة والدرس• وربما كانت تلك البلدة المتنائية عن لهو المدن المبرأة من تلك الأشياء التافهة التي تشغل الناس وتصرفهم عن العمل الجاد هي المدرسة التي أكسبته الصلابة والعزم ، فأكب على القراءة وكان في كل ما يقرأ يدون ما يعن له من آراء وما يسنح له من ملاحظات •

وقد عاش في تلك المدينة (سمبرسك) الى جانب لنين رجل آخر من رجال التربية نشأ أولاده على التفكير الثوري ألا وهو كرنسكي ناظر المدرسة التي انسلك فيها لنين سنة ١٨٧٩ وهو في التاسعة من عمره ، وكان لابن هذا الناظر شأن هام في انقلاب فبراير ١٩١٧ •

آل اليانوف

ايليا نكولايفتش أليانوف سليل أسرة من الطبقة الوسطى أصلها في أستراخان • وقد انحدرت زوجته ماريا ألكسندروفا من أسرة من صغار الأعيان ، كان أبوها طبيبا في بطرسبرج ثم اعتزل منصبه بعد موت زوجته واشترى ضيعة صغيرة في قرية كوكشكينو في ولاية قازان ، نزح اليها مع

أسرته فاشتغل بالزراعة ، وكان يعين بطبه فلاحى تلك الجهات ، وكان معروفا بآرائه التقدمية ٠

اقترن ايليا بزوجته فى صيف ١٨٦٣ ونزحا الى نجنى نفجرد ، اذ عين مدرسا للفيزيقا (الطبيعة) والرياضة فى احدى مدارسها.ثم ترك هذا العمل بعد سنوات مؤثرا منصب مفتش للمدارس فى سمبرسك ليوجه عنايته فى تلك الأصقاع المتخلفة فى الثقافة الى أولئك الذين كان آباؤهم أقنانا والذين لم يكن من الميسور لهم أن يرتشفوا من مناهل العلم ما ينقع الغلة ٠ وكانت ماريا بعد زواجها تذهب هى وأسرتها الجديدة الى ضيعة أبيها لقضاء بعض الوقت فى الصيف ٠

وفى ١٠ أبريل (١) من سنة ١٨٧٠ ولد لايليا ولد اسماه فلادمير ايليتش (أى ابن ايليا) ، واستطاع الأب بماله من حقوق وامتيازات كسبتها اياه رتبته أن يبعث ابنه الى المدرسة العامة فى مستهل حياته ٠ وكانت الحكومة القيصرية تسخو فى منح الرتب كى تخلق طبقات من الأشراف تشد بهم أزرها ، فأعدت لذلك قوائم معقدة تشمل ١٤ رتبة من رتب الشرف تقوم على حمايتها لوائح تنتظم عديدا من مواد القانون. وكانت كثرة الذين فى أدنى الطبقة العليا هم من أبناء ملاك الأراضى الذين ولدوا فى القرى وارتبطت حياتهم بالأرض ثم نزل بهم الفقر فأصبحت أمانيهم هى أمانى الفلاحين : أن يحصلوا على بقعة من الأرض ، غير أنهم كانوا أقدر من الفلاحين فى التعبير عن هذه الأمانى التى يصبون اليها ، وكانوا يتعزون عن أمانيهم المكبوتة بالقراءة فيما يخرجه الغرب من كتب كان يقوم بنشرها بالروسية فيساريون بلنسكى ٠ ولسنا على بصر بآراء ايليا السياسية ، فقد كان أمثاله من الموظفين المدنيين يؤثرون فى تلك الأحوال والملابسات ألا يظهروا بميول سياسية ٠ بيد أن لنين وأخويه ألكسندر ودمترى وشقيقاته الثلاث أنا وألجا ومارى قد شبوا جميعا على تفكير ثورى جعل الشرطة تشملهم برقابتها ، وطوعا لهذه الملاحظة يسوغ لنا أن نرجح أنه كان لتربيتهم المنزلية أثر فى ذلك ٠ وقد ماتت ألجا

---

(١) وهو يوافق اليوم ٢٢ أبريل اذ أن بين التقويم اليوليانى القديم الذى كان معمولا به فى روسيا قبل الثورة وبين التقويم الجريجورى المعمول به الآن فى كل مكان ١٣ يوما ، ولهذا يحتفل الاتحاد السوفيتى الآن فى نوفمبر بعيد ثورة ٢٥ أكتوبر ، كما ان الاقباط ومن اليهى يحتفلون بعيد ميلاد المسيح فى ٧ يناير بدلا من ٢٥ ديسمبر ، وسيحتفلون به فى القرن الحادى والعشرين فى ٨ يناير ، وفى القرن الثانى والعشرين فى ٩ منه وهلم جرا ٠

بمرض معد وكانت طالبة طب ، أما دمترى وأنا ومارى فقد برزت أسماؤهم قليلا أو كثيرا فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ثم فى الحزب الشيوعى. أما الولد البكر ألكسندر ايليتش فسيظل له شأنه الرمزى فى تاريخ الحركة الثورية الروسية فهو حلقة الوصل بين الثوار القدامى أى ثوار ما قبل العهد البرولتارى وبين زعيم البرولتاريا (١) العظيم ٠

الحركات الارهابية

١ ــ تألفت فى سنة ١٨٦٦ جماعة « الجحيم » الارهابيــة بزعامة اشوتن ، وكان لهذا الزعيم ابن عم حاول فى ٤ أبريل من تلك السنة أن يغتال القيصر الكسندر الثانى فأخفق فى محاولته ، وعمدت الحكومة بعدها الى اصطناع العنف فى قمع الحركات الثورية ٠

٢ ــ وأسس نفر من أعضاء تلك الجماعة فى سنة ١٨٧٦ جمـاعة سرية أخرى باسم «الأرض والحرية» كان أعضاؤها ، وجلهم من المثقفين ، ينبثون بين الفلاحين فى القرى فيعايشونهم ويلقنونهم الأفكار الثورية ، وكان هؤلاء الأعضاء يعانون الكثير من أمية الفلاحين وجهالتهم وشـيوع الخرافات بينهم وما طبعتهم عليه القنانة من الذلة والاستكانة ٠

ثم انقسمت الجماعة قسمين هما :

(ا) جماعة حرية الشعب ، وهى أرهابية صريحة ، فقد أعلنت أن قتل القيصر أول الضرورات اذ هو رمز الحكم المطلق ، وأن البلاد لن تخطو قبل التخلص منه خطوة واحدة الى الأمام فى سـبيل تأسيس الدولة الاشتراكية ٠

(ب) الجماعة السوداء لاعادة التوزيع ، وقد آثرت أن تجعل وسيلتها الدعاوة والاثارة ، وكان على رأسها چورج پلخنوف الذى نبه شأنه وشبت

---

(١) Proletariat وهى طبقة العمال الاجراء ٠

منزلته بقيادته المظاهرات الصارخة بطلب السلم فى بطرسبرج سنة ١٨٧٦ ٠

وكانت الجماعتان على تفاهم ووئام ٠ وكانت هناك جماعات أخرى ٠

فما هى المبادىء التى كان الثوريون يؤمنون بها على تعدد جماعاتهم، ويطيب لهم فى سبيلها ان يقتلوا وأن يقتلوا ؟

لقد كانوا على ٤ أنحاء :

١ ــ فاللاحكوميون (الفوضويون) أتباع باكونين كانوا يسعون الى قلب نظام الحكم دون أن يفكروا مليا فيما يكون من بعد ٠

٢ ــ والعدميون (الصفريون) كانوا يشنون الحرب لا على النظام السياسى وحده بل كذلك على سائر الأوضاع ــ أو كما يسمونها الأكاذيب ــ التى تواضع عليها المتمدنون كآداب السلوك والمسيحية ٠

٣ ــ وأتباع اشوتن كانوا يعملون لفرض سلطانهم المطلق لكى ينقذوا البلاد من الأزمة المحدقة بها ٠

٤ ــ والاشتراكيون بزعامة پلخنوف كانوا ينادون بالاشتراكية ، ولكن اشتراكيتهم لم تكن ماركسية بحال، اذ أن آثار ماركس لم يبدأ باذاعتها فى روسيا الا سنة ١٨٧٠ ، وكانت نظرياته تعد فى تلك الأيام قليلة الملاءمة لروسيا لأنها لم تكن يومئذ دولة صناعية رأسمالية بل كانت دولة زراعية تدور مشكلاتها حول الزراعة ٠

ويلاحظ على الثوريين فى ذلك العهد ٣ أشياء :

١ ــ أنهم كانوا يعملون لهدم النظام القائم دون أن تكون فى أذهانهم صورة واضحة للغرض الذى يبتغون تحقيقه ، فلو أنهم أفلحوا فى هدم النظام القائم لما تسنى لهم انشاء حكومة نظامية ، فتعم الفوضى زمنا حتى تعصف بهم حكومة بونابرتيه (١) ٠

٢ ــ ان الحركة الثورية لم تكن برولتارية البتة ، بل هى ــ وان ضمت بعض النابهين وبعض السراة من أمثال الأمير كروبتكن وبلخنوف

---

(١) قضت الثورة الفرنسية الكبرى على النظام الاقطاعى فى فرنسا ، ثم تناحر زعماؤها فيما بينهم حول بعض المسائل التفصيلية ، وآل الامر فى النهاية الى رجل مغامر لا يمت الى الثورة بصلة ، وهو الضابط نابليون بونابرت الذى نصب نفسه امبراطورا ٠

نفسه ـ كانت ما تزال حركة المثقفين من أبناء الطبقة الوســـطى ، الذين كان يتاح لهم أن يتعلموا وأن يتثقفوا ولكن لم يكن يتاح لهم أن يجدوا في ظل الحكم المطلق مكانا للافادة والاستفادة بكفاياتهم ، وتلك هي الطبقـة التي نبغ منها لنين .

٣ ـ أن الحركة الثورية كانت جادة تزخر بالاعتداءات وعندما أوشك لنين أن يتم الحادية عشرة طلبت احدى الجماعات الارهابية متطوعين لتنفيذ الواجب الأعظم الذي عاهد الفدائيون أنفسهم عليه فتقدم لها ٤٧ شخصا اختارت بعضهم ليضربوا ضربتهم في ١٩ أبريل (الموافق في التقويم الحالي أول مارس) من سنة ١٨٨١ .

وبينما كانت مركبة القيصر الكسندر الثاني تسير وقناة القديسة كاترينا ببطرسبرج ألقى عليها أحدهم «ريزاكوف» قنبلة لم تصب القيصر بل أصابت أحد حرسه ، فوقف القيصر الموكب ليؤسى المصـــاب ، واذا بثوري آخر «جنفتسكي» يلقي قنبلة أخرى راح هو والقيصر فريسة لها .

وحكم على خمسة ممن دينوا في الاعتداء بالقتل ، كما حكم على آخرين ممن كانت لهم به صلة بالسجن في قلعة شلسلبرج فلم يخلوا الا بعد ثورة سنة ١٩٠٥ . ولم يكن ثمة رأي عام كاف متـــــأهب للثـورة ، فارتبك الثوريون ولم يستبينوا ما الخطوة التالية لما بدءوا ، ووضح لهم أنهم كانوا قد غلوا في تقدير اعتدائهم الذي قدم بنجاحه برهانا تاريخيا جديدا على أن الأوتوقراطية التليدة لا تقف آلتها عن الحركة بما يصيب بعض آحادها من أحداث .

الكسندر اليانوف

خاتم عهد مفعم بالبطولة

كانت سجون سيبيريا ومعاقل روسيا ومصحات العقول فيها تفهق بعدد من المجاهدين قدر عليهم أن يدفنوا فيها أحيـــاء ، وتكاثرت جهود المجاهدين ردحا من الوقت بعضها اثر بعض ثم أدركها الفتور وران عليها النوم ، وأخذ الناس في أرجاء البلاد ينزعون الى التســـوية بين شتى

العقائد السياسية ويقلون من المبالاة بمـــا كان وما يكون وينصرفون عن أندية المؤتمرين بالحكام الى الأديار البيزنطية ، فقد كان الناس فى روسيا يتجهون الى الله حين تسود الرجعية الاجتماعية على حين يساور الأوربيين الغربيين فى مثل تلك الأحوال الشك فيه ٠

وقد بلغ كفاح الرعيل الأول من الثوريين للحـــكم القيصرى ذروته باغتيال القيصر ألكسندر الثانى سنة ١٨٨١ ٠ وناصر خلفه ألـــكسندر الثالث الرجعية فى صرامة وقسوة واتخذ من سيبيريا مبردا للحماســة الثورية وقتل الكثير من الاشتراكيين فلم يجد النشاط الاشتراكى بدا من أن يستخفى تحت الأرض ومضى يعمل فى سر ٠ وظلت الحركة الارهابية حينا من الدهر تستكمل صفوفها بمن تضم اليها من الشباب المثقف ٠ ثم أخذ يساور شباب روسيا بعد سنة ١٨٨٤ يأس من اندلاع ثورة مظفرة ، وجعل عدد الارهابيين العاملين ينقص ويتضاءل ، وأصبح من بقى منهم لعبة فى أيدى الشرط ، اذ أخذ الشرط يستأجرون المحرضين المستفزين (١) للتغرير بالسذج المتحمسين وحثهم على الائتمار بولاة الحكم تمهيدا للقبض عليهم ، فتفشى سوء الظن وأصبح القوم يرتاب بعضهم ببعض حتى صار المرء يحاذر أقرب عشرائه اليه وألصق جيرته به ٠ ولم يكن ثم شىء أيسر من أن ينتقل المرء من مؤتمر محترف الى جاسوس مرتزق ، وبدا المستقبل غامضا مبهما ، أما خلوة السجن فقد كانت هى وحدها الجلية الواضحة.

على أنه كان لايزال ثم رجال حمس عاهدوا أنفسهم أن يبعثوا الحياة فى الماضى الثورى ٠ والحق أن تفجر (القنابل) لم ينقطع ، ولكن نفوذ الارهابيين فى المجتمع ما فتىء يتناقص ويتفانى ، وأخذ موقف المثقفين يتبدل بتبدل الأحوال الاجتماعية فأصبحوا لايبالون هذه الأعمال الارهابية، ولم يكن لذلك من معنى الا أن الحركة المناوئة للقيصر أصـــبحت تتطلب أساليب جديدة ٠

***

قبض أليانوف مفتش التعليم فى سنة ١٨٨٦ وبقيت أرملته وحدها تعانى ما يرفرف فوق أولادها من مخاطر ٠

وكان ابنهما البكر ألكسندر طالبا فى بطرسبرج ، فرمى بنفســـه فى أحضان الحركة الثورية ، وكأن يعتقد أن الحركة انما تعانى ما تعانى افتقارا الى البطولة فطابت نفسه أن يجدد شباب التقاليد الثورية الهرمة

---

(١) agents provocateurs

بما ينفخ فيها من شبابه ، وكان في روعه أنه لابد من عمل يجرى ، فكون مؤامرة قوامها ١٥ متآمرا لا ينتمون الى جماعة تسندهم من ورائهم ، غير أن تدبير المؤامرات فن دقيق لم يكونوا يحذقونه على حين كان رجال الشرطة قد وسعوه علما في السنوات الست التى تجرمت منـــذ مقتل القيصر الكسندر الثاني ، واقتبسوا فيه حنكة ٠

وقد دبر المتآمرون أن يكون اغتيالهم للطاغية الجديد فى يوم الذكرى السنوية السادسة لاغتيال سلفه وفى الشـارع نفسه وفى مثل الساعة التى قتل فيهـا ٠ اذ كان المتبع فى يوم ذكرى القيصر المقتـول أن يزور رمسه خلفه وسميه الكسندر الثالث ، فأراد الشبان أن يجعلوها زورته الأخيرة ، وأخذوا يدرســون عاداته ٠ وفى ٢٥ فبراير ١٨٨٧ عقـــدوا اجتماعهم الأخير ، وتلا ألكسندر اليانوف على رفاقه برنامجهم الاجتماعى السياسى ليكونوا على بصر بما يحسن بهم أن يقولوه ان أخفقت المؤامرة ، ودلفت الجماعة الى شارع نفسكى ليقوموا بتجربة فى الشارع نفسه الذى ينتظر أن يسلكه القيصر ٠ غير أن الشرطة كانوا قد علموا بالأمر اذ وقعت فى أيديهم رسالة الى طالب فى خركوف يؤكد فيها مرسلها عودة الأعمال الارهابية ، فلما اعتقل المرسل اليه باح باسم المرسل ، وشوهد هذا فى شارع نفسكى بصحبة خمســة آخرين يحملون تحت ملاحفهـم أشـياء يحاولون اخفاءها ، فروقبوا وقبض عليهم فى أول مارس وهو اليوم الذى كانوا قد اعتزموا أن ينفذوا فيه خطتهم ٠

وألقى ألكسندر أليانوف ، بوصفه زعيم المتآمرين خطابا أمام القضاة دافع فيه عن قضيته ، دافع فيه عن القتل ، لا على أنه سلاح الشعب فى وجه الطغاة ، بل على أنه سلاح القلة في وجه الكثرة ٠ قال فى عرض كلامه :

« الارهاب هو الســـلاح الدفاعى الوحيد البـاقى عنـد القلة التى لا تملك من قوة غير روحها ومعرفتها بحقهـــا ، ازاء ما للكثرة من قوة مادية » ٠

لقد كان يتحدى الديمقراطية كما كان يتحـدى الأوتوقراطية . وأعلن أنه لا يهاب الموت ، وتكهن كما تكهن رفاقه جميعا بأن آخرين سيصلون الكفاح حتى توضع نهاية للطغيان ٠ وقد تكهن ، مثلهم ولكن فى الاتجاه المضاد ، الجنرال شبكوف الذى تولى التحقيق ، فى التقرير الذى أرسله بعد الحكم الى القيصر تبيانا لما فى كشفه من خطر ، بأنه لم يبق بعد للارهابيين من باقية ، وبأن آخرهم ، وهم الفئة القليلة الملتفـــة حـول الكسندر أليانوف ، قد باءوا بالخيبة ، وبأن روسيا ستصبح بعد الآن

الدولة الأوربية الوحيدة التى لا مجال فيها للاشتراكية والنشاط الثورى .

وصدر حكم محكمة « امبراطور روسيا بأجمعها وحاكمها المطلق وقيصر بولونيا وغراندوق فنلاندا ... » الخ .. الخ .. على المؤتمرين جميعا بالقتل خنقا بحبل مع التماس الرحمة لهم ، ثم استبدلت بالحكم على عشرة منهم الأشغال الشاقة المؤبدة ، أما الخمسة الآخرون فكان عليهم أن يجرعوا كأس المنون .

وقبل أن تستيقظ بطرسبرج فى صبيحة ٨ مارس ١٨٨٧ القارسة البرودة كان خمسة شبان يفعة محمولون فى قفص ذى عجل يمرون على ضفة النيفا فى آخر رحلة لهم تحرسهم ثلة من الفرسان ، ثم أقلتهم باخرة نهرية مخرت بهم أربع ساعات الى شلسلبرج أقدم سجون روسيا .

كان ذلك السجن يضم ٢٤ مسجونا (١) كلهم فى مقدوره أن يشهد تنفيذ الحكم من نافذة غرفته . ولئن كانت قد سالت عند التنفيذ عبراتهم لقد أبهج نفوسهم أن علموا أن فى خارج السجن ، فى أرجاء تلك الامبراطورية العملاقة حيث تمتد روسيا الأم متكاسلة « وفى قبضة يدها الغليظة قنينة فودكا ورأسها يصطدم بالقطب الشمالى الغاص بالثلوج وقدماها ترفسان القوقاز » رجالا يدأبون فى تقويض عرش الاستبداد .

***

كانت هذه الكرة اليائسة التى باءت بالخيبة هى آخر عمل للحركة الثورية القديمة . أما الحركة الثورية الجديدة فنشأت باتصال جيل جديد من المثقفين الثوريين ، ملكت عليهم الفكرة الثورية شعورهم ، بالعمال الذين تنبهوا من سباتهم . وكان ألكسندر اليانوف خاتم أبطال الحركة القديمة وكان أخوه فلادمير طليعة أبطال الحركة الجديدة .

***

كان فلادمير ايليتش أليانوف وله من العمر ١٧ عاما قد أوشك فى ذلك الوقت أن يتم دراسته الثانوية . وقد كان يقرأ النظريات الثورية منذ حداثته ، ولكن مقتل أخيه المحبوب طبع روحه بطابع لم يزايله قط

---

(١) كان عليهم ٣٠ حارسا ، وكان كل مسجون يكلف الدولة ما يربى على ٥٠٠ جنيه من ذهب فى العام .

وجعله ينذر حياته للثورة ، وبذلك كان لمقتل ألكسندر اليانوف في التاريخ شأن لم يكن يتكهن به لا هو ولا قاتلوه ، واليه يرجع ذهاب أخيه الى قازان وقد وهب نفسه للثورة . ولقد ظلت ذكراه مقدسة عند لنين ، بيد أنه ينبغي ألا نغلو في تصوير ما تركه مقتله في أخيه من أثر على نحو ما يزعم بعضهم من أن أخاه قد أشربت نفسه المرارة ، فأقام يكافح في سبيل الانتقام من الحكم القيصرى الذى سلبه أخا حبيبا ، فان لنين لم يظهر في حياته مظهر من أشرب المرارة ، وليس هناك ما يشير الى أن نشاطه كان مسخرا لخدمة غرض يتصل بشخصه ، بل لعله كان لتلك المأساة أثر عكسى اذ أقنعته بعقم الأعمال الارهابية التى يقوم بها بعض الأفراد فى وجوه أشخاص من ذوى المناصب العالية لاحداث تغييرات اجتماعية ذات خطر ، وجعلته يفهم فى مزيد من الوضوح أن السلطة فى أى نظام اجتماعى انما تكون فى يد أكثر الطبقات مالا ، فلكى تكون حركة التحرير مجدية حقا يجب أن تكون وسيلتها لا اغتيال أفراد الطغاة بل تنظيم العمال وسلكهم فى طبقة تضع نصب عينيها أن تقبض على السلطان الاقتصادى . لقد حملته خسارته لأخيه على أن يختبر أغراض أخيه ويروز وسائله وأن ينتهى الى الرأى الذى لبث حياته يؤمن به وهو أن تلك الغايات والأهداف لا يمكن الوصول اليها بطريقة أخيه مهما يكن من شناعة الطغاة وبطولة الثائرين . وقد قال حين نعى اليه أخوه ورفاقه الأربعة :

« كلا . اننا لن ننجح بهذه الطريقة . انها ليست الطريقة المثلى » .

وعكف من ذلك الوقت على اعداد الخطة التى رأى فيها الطريقة المثلى لتحرير روسيا من طغيان القيصر .

***

وقد صب هذا الحادث على الأسرة كلها لعنة الشرط وعرضها لمضايقات ومتاعب شتى (١) ، ولولا معونة بعض ذوى النفوذ وفى مقدمتهم كرنسكى

---

(١) وقد قص لينين كيف هجر الأسرة معارفها وازوروا عنها بعد القبض على اخيه حتى انه لم يستطع أن يتصيد رفيقا يصطحب أمه عند سفرها من سمبرسك الى بطرسبرج فى أحوال وملابسات صعبة لتزور ابنها فى سجنه اذ لم يكن ثمة من يريد اصطحاب والدة لسجين . وقد كان لهذا الجبن العام اثر عميق فى نفس لنين .

ناظر مدرسة سمبرسك لما سمح لفلاديمير أن يؤدى اختباره النهـــائى بتلك المدرسة وقد كان مجدا وكان ، كما سنراه فى جميع أطوار حياته ، قادرا على العمل نافضا عنه تأثير ما يلم به من حوادث وخطوب ، ولذلك استطاع مع قسوة الأحوال التى كانت تكتنفه ان يجتاز الاختبار بتفوق وأن يظفر بالاجازة التى تبيح له الانتظام فى الجامعة ، وقد كتب عليهـا كرنسكى ناظر المدرسة أنه «موهوب جدا دءوب مواظب» وأن ينال الجائزة الأولى التى استحقها بفوقه •

قازان

رحل لنين من سمبرسك الى قازان وهى على مبعدة ٣٠٠ كيلومتر ونيف ، وانسلك فى جامعتها ليدرس القانون •

وقد أنشئت تلك الجامعة فى أوائل القرن التاسع عشر على أن تكون ذات نهج خاص فقد جرى المرســوم القيصرى المنظم لها بأن على أساتذتها أن يتناولوا بالتبيين والشرح سير الشـهداء والنساك مفيضين فى ذكر ما كانوا يتصفون به من حكمة وطهارة وأن يجلوا للطلبة،مع ضرب الأمثال، أن القديسين حقا هم من أخلصوا للتاج من بين مستشاريه وقواد جيشه ، وعليهم كذلك أن يثبتوا أن كل ما يعده الوثنيون فضيلة أو حكمة ان هو الا غرور يرتد أمام الصليب مذموما مدحورا •

بيد أن الطلاب الذين يدرسون هذا المنهاج فى تلك الجامعة أصبحوا اليوم من طبقة غير طبقة طلاب الأمس ، فقد انصرف أبناء الأشراف عن هذه الجامعة اذ كانوا كآبائهم لا يســتسيغون التعليم الدينى وقيــوده ويؤثرون أن يقضوا عهد دراستهم فى شبابهم ممتطين صهوات الجياد فى المدارس العسكرية ، وقد عجز بعض من نزل بهم الفقر من أبناء الطبقة العليا عن أداء الرسوم الدراسية فى تلك الجامعة وكانت تربى مع أثمان الكتب وما اليها على ٤٠٠ روبل فى العام ، غير أن طائفة منهم ومن أبناء الموظفين ، ممن تفطنوا الى ما للاجازات العلمية من شأن فى نيل المناصب التى تكفل سعة العيش كانوا يقدمون من الأرياف للدرس والتحصيل ،

وكانوا يتغلبون على النفقات الباهظة بالتعاون فيما بينهم فيقيم كل خمسة منهم فى حجرة ويشترك كل ثلاثة فى كتاب • وكانوا يخوضون فى أحاديث عن الحرية الدينية وينتهى بهم الأمر الى بث الدعـوة لالغاء حكم القتـل (الاعدام) •

الطالب المنفى

الى هذه البيئـة قدم فلادمير ايليتش أليـانوف ومعه شهادة سيره وسلوكه وفيها أنه شقيق ذلك الذى أوشك أن يكون قاتلا للقيصر ، على أنهم لم يتجشموا ترصد خطواته طويلا فقد قام الطلبـة المتأججو العاطفة فى ديسمبر بحادث من حوادث الشغب المألوفة التى كانت فى تلك الأيام هى المظهر الوحيد للاستياء العام ، ولسنا ندرى الى أى مدى أسهم لنين فى احداث ذلك الشغب ، ولكن الشرطة تذكرت شقيق من هو •• ففصلته الجامعة ولم يكن قد أتم فيها شهرا ، ونفى الى ضيعة أمه فى كوكشكينو حيث كانت كبرى شـقيقاته انا تعيش فى ظل مراقبة الشرط ، وهكذا أمضت فيه الدولة أولى عقوباتها وهو فى السابعة عشرة .

لم يكن فى وسـع لنين أن يبدى نشـاطا وهو فى عزلته فى تلك الأصقاع التى كثرة أهلها من التتر ، فعكف يقرأ كتاب رأس المال لماركس• على أنه لم يدع أن يفكر فى الدراسة بل أخذ يسعى ليؤذن له فى العودةالى جامعته أو الانتظام فى غيرها من الجامعات الروسية فأخفقت مساعيه جميعا ، فطلب أن يؤذن له فى السفر خارج البلاد ليتم دراسته هناك ، فأبت الشرطة ذلك أيضا عليه خشية أن يتصل ببلخنوف وصحبه من الثوريين . لقد سلكت السلطات بازائه مسلكا كله حماقة ورعونة فلم يخمد ذلك ما يضطرم فيه من ثورة بل لقد زاده سورة .

ولما أعيته الحيلة فى أن ينتظم فى احدى الجامعات أخذ يحصل العلم فى منزله وذلك بين سـنة ١٨٨٨ و ١٨٩٠ وجعـل ينشىء فى الريف الجماعات الماركسية وينظمها ويعقـد صلات التعارف فيما بينهـا • وكان طوال هذه المدة يدرس الى جانب القانون ، الفلسفة الماركسية والاقتصاد الماركسى ، ولا ريب أن هذه الدراسة عرضت لعقله صورة مناقضة للقانون القيصرى وأنها كانت ذات أثر عميق فى توجيه حياته •

بين سيرتي لنين وماركس

كان ماركس أيضا يدرس القانون فى جامعة بن ثم فى جامعة برلين، ولم يلبث أن استخلص نفسه لدراسة التاريخ والفلسفة ، نابذا فكرة الدراسة القانونية والظفر بمنصب مرموق كما كان يبغى له والده • ونال الدكتوراه من جامعة يينا ، وعمل على أن يكون مدرسا باحدى الجامعات ، ولكن آراءه أوصدت فى وجهه الباب الذى أراد أن يلج منه فانكفأ على يراعته يكسب بها عيشه وينفث أفكاره فى التشيع للحرية ، فكان هذا السير المتعرج فى حياة ماركس ولنين وما صاحبه من آراء متطرفة هو الذى حبا العالم برجلين من أعظم رجالاته •

وقد أنكر ماركس آراء من سبقه من الاشتراكيين ، قائلا ان تقدم الانسان على مدى الأعوام لم يكن وليد المصادفات بل كان خاضعا لقوانين علمية جرى على وفقها ، فعلى الاشتراكى أن يكشف هذه القوانين وأن يصوغها جلية قوية حتى يتسنى لمن يريدون تقدم الانسان أن يتخذوا لهم منها منارا •

ولم يزل ماركس مثابرا على عمله حتى انتهى الى وضع قواعد تامة ، أهم عناصرها :

١ ــ التفسير المادى للتاريخ •

٢ ــ نظرية كفاح الطبقات •

٣ ــ تلك الحقيقة الاقتصادية ألا وهى أن فائض القيمة هو العامل الاقتصادى الذى يسبب تكدس رءوس الأموال والذى ينشأ عنه آخر الأمر تناقض لا حل له فى النظام الرأسمالى •

وقد تكهن ماركس بأن الرأسمالية،وهى لم تجلب للعمال الا الارهاق والمهانة والفقر ، ستدمر نفسها ، وبأن الطبقة العاملة هى الطبقة التالية فى التتابع التاريخى التى ستعتلى منصة الحكم ، وان استيلاءها على السلطان ، وهى آخر الطبقات ، سيؤدى الى خلق مجتمع لا طبقى •

لقد أصبح لماركس منزلة كمنزلة المسيح فى أذهان عمال أوربا(١)

---

(١) باستثناء انجلترا حيث قامت جماعة الفابيين بزعامة سدنى وب تنشر الافكار التى اقتبسها هربرت سبنسر من داروين ، فلم تزدهر فيها الاشتراكية الماركسية الخالصة،

وقد أوجز لنين — وهو أبرز من اهتدوا بهدى ماركس — ما لماركس من مكانة فى عالم الفكر بقوله :

لقد تابع ماركس وأكمل الاتجاهات الأساسية الثلاثة التى كانت تمثلها فى القرن التاسع عشر الدول الثلاث التى كان لها السبق فى مضمار التقدم ، وهذه الاتجاهات هى الفلسفة الألمانية الكلاسيكية والاقتصاد السياسى الانجليزى الكلاسيكى والاشتراكية الفرنسية ٠

قرأ لنين فى السنوات التى فرض عليه أن يقيمها فى كوكشكينو (١٨٨٨ — ١٨٩٠) ، بعد أن تجرم على موت كارل ماركس نحو ١٥ سنة ، كل مؤلفات ماركس من البيان الشيوعى الى رأس المال وكل مؤلفات فريدرش انجلز وبعض مؤلفات المريدين وشراح الماركسية وعلى رأسهم كارل كاوتسكى ٠

وكانت قد بدأت كذلك تصانيف قومية روسية فى الاشتراكية ٠

كارثة سنة ١٨٩١

ولم تكن الحقائق البشعة الماثلة أمام بصر لنين دون ماكان يقرؤه فى الكتب أثرا فى نفسه، فقد طمت المظالم وعمت الجهالات وفشت الأمراض وانتشرت الخرافات وتدهورت اقتصاديات الدولة وأجدب الأهلون وفتكت بهم المجاعات ، وناهيك المجاعة التى شهدها لنين فى منفاه سنة ١٨٩١ ٠

حاق الجدب بالبلاد فى أوائل تلك السنة فجفت الأكلاء فى المراعى وجفت كذلك الحيوية فى أجساد الفلاحين ٠ ومع أن الفلاحين كانوا أشد من الأكلاء صبرا وأطول ذماء فقد غدوا من فرط المسغبة جلودا ملفوفة على عظام منزوفة ، خفافا كالريش خماصا من الطوى أو منتفخين من الورم ، وضوى الأطفال فما كان يسمع من أصواتهم الا همس خافت لا يكاد يؤانس وشرع القوم يهقون من القرى زرافات زرافات هائمين على وجوههم وقد زاغت أبصارهم وتبدى اليأس والوحشية على سحنهم فانطلقوا يلتمسون لهم رموسا ٠ واختتمت المجاعة بانتشار التيفوس والهيضة (الكوليرا)٠

وسرت القشعريرة فى أوصـال القيصر والقصر والحرس والشرط والولاة والسراة ، اذ اسـتبان لهم فجـأة أنهم هم أيضـا لا عاصم لهم من المنون ، واشفقوا أن يلج الموت الذى أودى بحيـاة الملايين من الدهمـاء قصورا لهم احكموا سك أبوابها . فانهم اذا كانوا بمنجاة من المخمصة وهى تفتك بنصف الشعب ، الشعب الذى كانوا فى عزلة عنه لا يشعرون بآلامه ، فليسوا اليوم فى حرز حريز من أمراضه وأوبئته وهى تتهدد باقتحام قصورهم عليهم لا ترد غائلتها الأدوية والعقاقير .

كانت الشرطة جنتهـم الوحيـدة فحشـدوها لتـذود عنهـم المجاعة والتيفوس والكوليرا واتخذت الشرطة من مكافحة الأوبئة مغنمـا وطريقا للكسب ، فأصـبح الضباط وضـباط الصـف هم الذين يجمعون المرضى لعزلهم ، فكانوا يأخذون السكارى الذين يتعثرون فى الطرقات ويحشرونهم فى المستشفيات فاذا أفاقوا ألفوا أنفسهم لايستطيعون البراح الا اذا بذلوا أجر ذلك بسخاء . وقد قص الذين نجوا من منازل الموت هذه والذين أفلتوا من القرى التى ضرب عليها الحجر الصحى قصصا غريبة عن سلوك الموظفين الصحيين وخبث تدبيرهم وما كانوا ينصبونه من أحابيل . وقد أثارت تلك الحوادث ، الى جانب ما كانت تفرضه الحـكومة من اجراءات ، ريبة الجمهور فاعتقد أنها هى التى أحدثت الهيضة . وجهر الـكثيرون بأن الهيضـة لم تكن قط من قبل ، فحطمت الجماهير مركبات الاسعاف واقتحمت المستشفيات وضربت الأطبـاء وانتزعت المرضى المشفين على الموت من مضاجعهم وخلت بينهم وبين أن يرجعوا أدراجهم .

واستولى الاضطراب والخبل على أهالى المدن الريفية فجعلوا يسيرون فى الطرقات مواكب يحملون أيقونات القديسين ويرفعون الرايات والشموع ويرتلون الأناشيد ، وكانوا يجثون ساعات أمام المحاريب وقد استبد بهم الفزع والهلع فى انتظار معجزة من المعجزات ، وينثنون أحيانا فيثخنون المتهمين بالهرطقة ضربا . وكان منظر الشموع المشتعلة والأناشيد المرتلة والأدعية المرفوعة بهـا العقائر يلقى فى الروع أن ثمة عالمـا يموت على الخطيئة والاثم . وانخرط الفلاحون من بيوتهم مهطعين وقد أصبحوا يخيل اليهم أن النجوم أخذت تنتثر وتتهاوى على الأرض تهاوى أوراق الشجر الذاوية فى الخريف وأن السماء قد تدلت على الأرض ممزقة قطعا لا تكاد تتماسك ، وأن أرهاطا من الملائكة أقبلت تطوف فى شـوارع الأرض الفانية فى هيئة القوزاق تبحث عن العدالة فى الهياكل والفنادق وأن قسيسين ورهبانا مخمورين يدلفون الى الأطباء والممرضات ليتلوا عليهم فى أصوات راجفة نبذا من كلام القديس يوحنا .

وقد تآزر الناس ردحا من الوقت على دفع غ ئلة المجاعة ثم انتكسوا فبرزت الانانية وعادت المغـانم الخاصة تلتمس طريقهـا ، غاضة النظر عن النفع العام ، فان الطبقات الاجتماعية ، على خلاف الأفراد ، لا تستطيع أن تنزل عن نفعها فى سبيل المثل العليا •

***

وقد كان لتلك المجاعة اثر كبير فى تأجج الحركة الثورية فى روسيا، فان الأفكار وحدها ــ كما يقول لورد باكون ــ لا تنطوى على القوة الضرورية لاثارة الثورات ، اذ ليس ثمة كثير من الناس يعنون بها ، وانما هى بحاجة الى قوة دافعة من كلب الجوع لتستحيل أعمالا •

ومما ساعد على تقـدم الحركة الثورية فى روسـيا أن الجياع وجدوا معلمين ثوريين لا يقفون عند تنبيه الشعب الى أنه بائس تاعس بل يدلونه كذلك على مصـدر هذا البؤس ومنبع هذا التعس •

ثورى محترف

فصل لنين من منفاه سنة ١٨٩١ بدرجة جامعيـة فى القانون وايمان راسخ بالماركسية • وتفتحت فى وجهه أبواب المناصب التى توفر لشاغليها جليل الامتيازات وعلو القدر فى المجتمع ، بيد أنه لم ينجرف بتيـار هذه المغريات حين نازعته نفسه اليها ، اذ كان يرى نفسه رسولا فى الأرض لانقاذ شعبه وشعوب العالم أجمع من الجور والاستغلال • وقد كان يؤمن بنفسه ايمانا شديدا ، كما أن ما قرأه فى الـكتب من خطير الأحداث وما رآه عيانا من أهوال المجـاعة ومن شتى الأحداث الجسام كان له فى نفسه أكبر الأثر ، ولعل ذكرى أخيه الذى اقتبس منه « لنين » اسمه الكفاحى كانت تشدد عزمته وتقوى مريرته فلم يبطىء به تردد ولم يقعد به احجام، ومن ثم أخذت سحب المستقبل الغائم تلقى عليه أول ظلالها •

ورحل الى سمارا ، وكانت آخذة فى التحول الى مركز صناعى ،

فاشتغل فيهـا محاميـا فى التمرين ، ولم يكن راضـيا عن هذا العمل ولا ناجحا فيه •

وفى ذلك البلد بدأ حيـاته ثوريا محترفا وكون جمـاعة ماركسـية واستهل نشاطه الثقافى بأن يلقى على جماعته المحلية دروسا وخطبا (١) يحمل فيها على الناردنى •

حزب الناردنى :

كان رجال الناردنى (٢) يزعمون على الحركة الثورية الروسية قبل ظهور الماركسية واشتداد عودها ، وكانوا لايزالون آخذين بزمام الطبقة العاملة عنـدما كثر عددها وعظم خطرها غير أنهم لم يقـدروا ما عليهم من واجب خطير نحو تلك الطبقة ولم يدركوا أنها أكثر طبقات المجتمع تطلعا الى التقـدم ونزوعا الى الثورة وأنهم عاجزون عن العمـل بغير معونتهـا • فوجهوا قصـارى عنايتهم وغاية هممهم الى الفـلاحين متوهمـين أنهم هم ، لا العمـال ، أهم القوى الثورية ، خائلين أن الثورات الفلاحية تستطيع أن تقضى وحـدها على حكم القيصر وكبار ملاك الأراضى ، فكانوا ينادون بضرورة القيـام بالثورة الاجتماعية قبـل أن تقضى الرأسـمالية على الكومونة الزراعية التى هى فى عرفهم نواة الاشتراكية القادمة .

لقد كان من الممكن أن تحتمل هذه الآراء المارقة أيام أن كان التطور الصناعى بطيئا وكانت الطبقة العاملة قليلة الوعى سلبية الموقف ، ولكن الاضراب الكبير الذى حدث سنة ١٨٨٥ فى مصانع موروزوف على مقربة من موسكو أكره الحـكومة على أن تعترف بأن للعمال مسألة وعلى أن تسن

---

(١) وقد بقيت واحدة منها لم تمسسها يد البلى وهى نقد لكتاب أصـدره أحد الناردنيين فى شئون الفلاحين فى جنوب روسيا ، وهى تكشف لنا عما كان لكاتبهـا من الخصائص النادرة التى نتبينها فى وضوح فى آثاره التالية •

(٢) وقد اشتق اسمهم Narodniki هذا من كلمة Narod أى الشعب •

لشئون المصانع تشريعا رجعيا بالبديهة، ثم نمت الحركة العاملية حثيثا فى السنوات التالية فأصبح من الحتم على الثوريين أن يعترفوا بأن الرأسمالية قد جاءت لتبقى . وهكذا مهدت الأرض الروسية لتقبل الاشتراكية .

كان رجال الناردنى يسيرون فى سياستهم على أن فى المجتمع أبطالا يعملون ورعاعا يلبثون هادئين سلبيين يستغلون ما ينجزه الأبطال من أعمال ، ومعنى ذلك أن التاريخ انما يصنعه أفراد قلائل أفذاذ ، أما الشعب أو الرعاع كما كانوا يسمونه ، فلا قبل له بالأعمال الواعية المنظمة ، وعليه أن يسلم قياده للأبطال وأن يتبعهم فى عماء . ومن ذلك نرى :

١ - أنهم حولوا انتباه الطبقة العاملة عن أن تقوم بوصفها مجموعة موحدة بمكافحة الطبقة المستغلة بوصفها كتلة واحدة .

٢ - وأنهم عاقوا طبقة العمال والفلاحين عن تنمية نشاطها الثورى وجعلوها تغفل عن واجبها فى قيادة الثورة وصرفوها عن أن تنشىء لها حزبا مستقلا .

وعندما قصر الفلاحون ، أو الشعب كما كانوا يسمونهم، فى تأييدهم قرروا أن يعملوا وحدهم ، وبذلك ارتطموا فى خطأ أجسم وأضخم .

وقد سحق القيصر جماعة الناردنى الثورية ولكن أفكارها ظلت باقية منتشرة بين المثقفين ذوى التفكير الثورى ، وكان لذلك أثر كبير فى تعويق انتشار الماركسية ، فلم يبق أمامها سبيل الى النمو والازدهار الا القضاء على الناردنية ، وذلك ما تجرد له « بلخنوف » و « جماعة تحرير العمال » ومضوا فيه شوطا غير قصير .

بلخنوف

نشأ جورج بلخنوف بين صفوف الناردنى، ولكنه كان لايقر الاغتيال اذ كان يرى أن ما ينشأ عنه من ظفر وقتى يكلف ثمنا فادحا ، على حين أن ثمة وسائل أخرى تؤدى الى الغرض نفسه باليسير من الكلفة .

وقد كان على صلات ودية بالذين اغتالوا القيصر ألكسندر الثانى ، ولذلك رأى — وان لم تكن له صلة بالحادث نفسه — أن يخف الى سويسرا . وهناك اتصل بالاشتراكية الأوربيسة الغربية ، بالعقيدة الماركسية ، وأشربتها نفسه فى نهم وشره دون رعى الى مابين بلاده وأوربا الغربية من فروق ، فأصبح من كبار الداعين اليها والمروجين لها .

تحرير العمال

وقد أدرك أنه لا غنيان عن تأليف حزب اشتراكى ديمقراطى للعمال والفلاحين ينتظم بلدان روسـيا جميعا ، فوضـع هو ونفر قليل من الثوريين المهاجرين فى جنيف (١) فى سنة ١٨٨٣ ، الأساس الأول لحزب عاملى روسى أسموه « جماعة تحرير العمال » (٢) ولما كان كل حزب هو الى حد ما تجسـيم لفكرة رجل واحد ، كان هذا الحـزب هو فكرة بلخنوف . وقد مثله بلخنوف سـنة ١٨٨٩ فى المؤتمر الأول للدولية الثانية ، فقدم العـامل الروسى الى الاشـتراكية الدولية فى خطاب كان له حظ من الذيوع والشهرة .

وقد رفعت « جماعة تحرير العمال » ، وهى أول جماعة ماركسية روسية ، علم الماركسية فى روسيا فى ظل حكومة غير ديمقراطية وجاهدت فى سبيل نشرها دون كلال أو ملألة ، وترجمت الى الروسية كثيرا من آثار ماركس وانجلز وطبعتها فى الخارج ثم نقلتها الى روسيا ووزعتها فيها سرا كما نشرت مؤلفات أعضائها فى شرح الاشتراكية العلمية ، بيد أن أعمال هذه الجماعة كانت كلها أعمالا نظرية لا تتصل اتصالا وثيقا بحركة العمال ، اذ أن الحركة الاشتراكية الديمقراطية لم تكن قد ولدت بعد بل كانت كما قال لنين « تنمو كما ينمو الجنين فى رحم أمه » .

ولنين هو الذى ربط بين الماركسية وحركة العمال .

---

(١) نذكر منهم باول آكسلرد Axelrod وفيرا سسولتش Sassulitch وديتش Deutsh

(٢) وكانت هذه الجماعة أول أمرها لا تزال متأثرة بآراء النارودنى ولهذا كانت تؤيد أعمال الارهاب الفردية .

بلخنوف يحمل على النـاردنى

أقام بلخنوف خارج بلاده يرقب حوادثهـا ويعمل لتوجيهها كما كان فولتير يعمل لتهيئة بلاده للثورة الفرنسية . ويصح أن يوصف بلخنوف بأنه كان أستاذا للنين على النحو الذى يصح التحدث به عن أستاذية چان چاك روسو لروبسپيير (١) .

وقد حمل بلخنوف على رجال الناردنى اذ كانوا هم العقبة الفكرية العظمى فى سـبيل تسرب جماعته « تحرير للعمال » الى جموع العمـال والى المثقفين ذوى النزعات الثورية واظهر أن آراءهم لا تمت بأية صلة الى الاشتراكية العلمية وان كانوا قد أسموا انفسهم أشتراكيين (٢) ، وأنهم لا يفقهون قوانين التطور الاقتصادى والسياسى للمجتمع ، وانهم لذلك ينكرون عمل الطبقات وكفاحها فى التاريخ ، وأبان ان الرأسمالية ليست شيئا عابرا فى روسيا وأنه من العبث أن يتساءل الناردنيون أيجب أن تصبح روسيا رأسمالية أم لا ، لأنها تسـير فعلا فى طريق الرأسمالية وستنمو فيهـا الرأسمالية وتزدهر ، وأن واجب الثوريين هو أن يحيطوا القوى الثورية التى أوجدتها الرأسمالية ، أى الطبقة العاملة ، بما يكفل لها الثبـات والمنعة وذلك بتنمية وعيها الطبقى وبتنظيمها ومساعدتها على خلق حزبها العاملى .

وذكر بلخنوف أن العمـال طبقة مطردة الازدياد العددى والنمو السياسى ، وأن مصيرهم مرتبط بتقدم أساليب الصناعة ، على خلاف الفلاحين الفرديين فان مصيرهم مرتبط بتأخر أساليب الزراعة وبالكومونة الزراعيـة التى يبسـط عليها الكولاك سـيطرتهم ويمتصون عصـارة مجهودات الفقراء من أهاليها امتصاص العلق للدم ، وقد كان الفلاحون من أبنائها الذين ليس عندهم خيل يحرثون بها حصصهم من الأرض يضطرون الى التخلى عن تلك الحصص للزراع الميسورين ويقتاتون هم من الأجر الزهيد الذى ينالونه على العمل عندهم . وهكذا نجد أن هذه الكومونات التى كان المفروض نظريا أن تكون شيوعية يشترك أعضاؤها

---

(١) وقد وصف لنين كتاب بلخنوف فى « تطور الرأى الخاص بوحـدة المـادة monis'ic فى التاريخ » الصادر فى سنة ١٨٩٥ بأنه ساعد فى تنشئة جيـل كامل من الماركسيين الروس .

(٢) ولذلك تورطوا حوالى سنة ١٨٩٠ فى الدفاع عن الكولاك .

فى الانتاج ويتوزعون المنتجات أنصبة متساوية قد أصبحت عمليا وسيلة لتوطيد سيادة الكولاك وآلة قليلة النفقة تجمع الحكومة القيصرية بها الضرائب من الفلاحين ، فمن الخطأ أن تعد مباءة التباين فى الثراء هذه جنينا للاشتراكية أو أن يفكر فى اتخاذها أساسا لبنائها .

وأنكر بلخنوف على الناردنيين ماكانوا يزعمون من أن تطور المجتمع وليد ما يقوم به الأفذاذ « الأبطال » ومن أنه لا اعتبار لما يقوم به الرعاع، واتهمهم ب « المثالية » وقال ان الحقيقة لا تتطابق هى والمثالية بل تتطابق هى و « مادية » ماركس وانجلز ، وان المجتمع لا يتطور وفاق مشيئة الأفذاذ من أبنائه بل وفاق ملابساته وأحواله المادية والتغير فى أساليب انتاج الثروة المادية المطلوبة لمعيشته وفى العلاقات المتبادلة بين الطبقات التى تنتج تلك الثروة المادية ، ووفاق كفاح تلك الطبقات فى سبيل مكانتها فى الثروة المادية وتوزيعها . فليست الأفكار هى التى تغير حالة الناس الاجتماعية والاقتصادية بل ان تلك الحالة هى التى تغير أفكار الناس ، وليس الأبطال هم الذين يصنعون التاريخ بل ان التاريخ هو الذى يصنع الأبطال . وانما يكون للأفذاذ شأن هام فى حياة المجتمع لقدرتهم على فهم ملابسات تطوره فهما جيدا وعلى معرفة السبيل الى تغييرها ، أما اذا تقاصروا عن فهمها وجرت أفكارهم ورغباتهم فى اتجاه مضاد لاحتياجاته التاريخية ، كما هو شأن الناردنى ، فمآلهم الخيبة والاخفاق .

وقد صدعت حملات بلخنوف على الناردنيين من نفوذهم بين المثقفين ولكنهم لم ينهاروا الانهيار كلـه حتى أهوى لهم لنين بالضربة القاضية اذ كانوا عنده من ألد خصوم الماركسية .

وقد أصلح لنين كذلك الخطأ الذى وقع فيه بلخنوف .

١ ــ بتعويله على معونة أحرار البرجوازيين للثورة .

٢ ــ وبتقصيره فى أن يدرك أن العمال لا يستطيعون التغلب على القيصرية دون أن يستعينوا بالفلاحين وقد كان ذلك الخطأ هو النواة للآراء المنشفية التى جهر بها بلخنوف فيما استقبل من حياته .

ســمارا

ومن سمارا أرسل لنين الى احدى الصحف مقالا فى « الحركة الاقتصادية بين الفلاحين » لم تنشره الصحيفة وكان للشرطة السرية فضل انقاذ هذا المقال من الضياع والاحتفاظ به فى أضابيرها مدى ثلاثة عقود من السنين حتى أتاحت له الثورة سبيل الفكاك .

على أن نشاطه الماركسى فى قازان وسمارا لم يكن الا تدربا فى الشئون النظرية اذا قيس بما اضطلع به فى مستقبل أيامه من مهام .

العاصمة

فانه لم يلبث أن اقتنع بأن الثورات يجب أن تصنع فى العواصم وأن ما ينفق فى الأرياف من نشاط ، قليل غناؤه . لقد علم من تاريخ الثورات التى نشبت فى فرنسا بلد الثورات أنها صنعت فى باريس على غير رغبة الأقاليم بل على الرغم منها . ولم يكن لنين ممن يؤمنون بالصوفية الديمقراطية التى تجعل للأصوات الانتخابية ، على تباين أصحابها ، قيمة واحدة عند السياسيين المحترفين ، ولم يكن يتوهم أن النظام سيسقط من تلقاء نفسه عندما يقتنع ٥١ فى المئة من الشعب بضرورة سقوطه (١) فمن الضرورى الاستيلاء على السلطة أو — على الأقل — شل الحكومة فى مستقرها من قلب البلاد ، فلا تلبث الفوضى أن تشمل اقاليم الدولة جميعا .

---

(١) اذ أن الرأسماليين والاقطاعيين والملكيين ومن اليهم يتجمعون للذياد عن طبقتهم عندما يحسون استشراء الخطر على امتيازاتهم الطبقية وينقلبون على شعوبهم انقلابات مضادة للدستور والديمقراطية والمصلحة العامة كما حدث فى ايطاليا بزعامة موسولينى وفى ألمانيا بزعامة هتلر وفى اسبانيا بزعامة فرانكو .

ورحل فى أغسطس ١٨٩٣ الى بطرسبرج ، وكانت ملتقى المثقفين الديمقراطيين ومضطرب نشاطهم ومرادا لكثير من العمـال فكان من الطبيعى أن تصبح كذلك المركز الرئيسى للحركة الماركسية .

واخذ لنين يحيا فى بطرسبرج بشخصية مزدوجة ، فهو فى الظاهر محام فى التمرين وفى الباطن ثائر ، غير انه لم يلبث ان راى أن استدرار الرزق من المحاماة والدعاوة للاشتراكية فى الوقت نفسه أمر متعذر فى بطرسبرج تعذره فى سمارا ، ولذا نبذ التكسب بالقانون ظهريا كما فعل أستاذه ماركس من قبل ووقف نفســه على الدفاع عن طبقة العمال . وظل يعمل خارجا على القانون حتى أصــبح اكبر واضــع للقانون فى روسيا والدول التى تسير سيرتها .

وقد سبقت لنين الى بطرسبرج شهرته باتساع معارفه فى التعاليم الماركســية اتســاعا منقطع النظير وبعلمه العظيم المعزز بالاحصاءات الدقيقة لكل ما يجرى فى روسيا . وقد اتصل لنين بنفر ممن هم على شاكلته فى التفكير معظمهم من أعضاء « اتحاد المجاهدين » فى بطرسبرج لتحرير الطبقة العاملة (١) » وكانت مهمته دراسة مؤلفــات ماركس واجتذاب صفوة العمال الى حظيرة الماركسية .

***

وعندما حط لنين رحله فى بطرسبرج كان الاشتراكيون الفلاحيون المسمون بالناردنى قد أنشأوا حزبا جديدا أسموه حزب « حق الشعب » عده لنين قمامة قذرة ، وبخاصة لأن الفلاحين فى ذلك العهد لم يكونوا اشتراكيين ولم يكن الاشتراكيون فلاحين . أجل سيأتى الوقت الذى ينتفع فيه الاشتراكيون بجهود الفلاحين فى تأجيج الثـورة ولكن هذا شيء آخر .

وقد دأب لنين يحذر الثوريين من مسايرة الحركة الاصلاحية ،

---

(١) نذكر منهم الأخوة كراسين Krassin وهم الذين صار لأحدهم ليونيد كراسين اثر مذكور فى الثورة واصبح بعد نجاحها سفيرا لبلاده الى لندن وكرزيزا نفسكى الذى كان له مع لنين شأن كبير فى إثناء اقامته بسيبيريا والذى صـار أخيرا رئيسا للجنة وضع الخطط بالاتحاد السوفيتى ونادشدا كونستانتينوفا كروبسكايا التى صارت حليلة لنين ومعاونته التى شاركته فى كل مغامراته ، وكانت ثورية ملتهبة فزادت بحماسها نار الثورة فى نفس لنين التهابا واضطراما .

الزراعية (١) وأبدى كذلك ضيقه بتلك الشيوعية البدائية الا وهى شيوعية القرية اذ كان يعلم أن الزراعة الروسية تسير سيرا حثيثا نحو الرأسمالية ، وكان ذلك يرضيه من جهة أن الرأسمالية خطوة الى الاشتراكية .

لقد كان على لنين أن يناهض النظام القائم ، غير أنه رأى أن عليه أيضا أن يناهض الثوريين الذين ينتهجون خططا غير سديدة من شأنها أن تفوت الغرض الذى يكافحون فى سبيله . ولقد رأى أن ذلك الوقت لم يكن بالذى يصلح لتكوين جبهة متحدة من أولئك الذين لا يجمعهم الا السخط القلق على الأحوال القائمة ، وانه من الخير للحركة الثورية أن يضم رجالها الى جانب اخلاصهم عقولا مستنيرة تتبين الأمور فى وضوح، ولو كان من وراء ذلك نقصان عددهم .

***

لم يكن لنين شاعرا يجنح الى الزخرف والفخامة ، وانما كان يؤثرالدقة والتحقيق فيما يصدر عنه من آراء ، ولذلك اكب ، منذ بلغ الثانية والعشرين ، على دفاتر الاحصاءات الضخمة التى نشرت معلقا عليها أو دون تعليق ، فكان يدرسها دراسة من يتهيأ لاجتياز امتحان ، وقد خرج من ذلك فى سنة ١٨٩٤ بأنه كان فى تلك السنة فى الولايات الخمسين التى تنتظمها روسيا الأوربية ١٣½ مليون فلاح يعملون بآلات يدوية و١٥½ مليون فلاح غير هؤلاء يبحثون عن عمل ومليونان فرضت عليهم الهجرة من الأرياف التى شبوا فى مرابعها ، بعضهم الى المناطق الصناعية حيث يقفون أمام أبواب المصانع يسألون عملا والآخرون وهم كثرتهم يهيمون على وجوههم باحثين عن أراض خصبة ، فهم يعرفون أن مملكة سيدهم واسعة الرحاب مترامية الأطراف ؛ ولهذا يواصلون السير الى قاصيات الحدود فاذا ما أخطأهم التوفيق وضلوا الطريق عهدوا الى واحد منهم له المام بالكتابة أن يرسل باسمهم الى سدة القيصر فى بطرسبرج رسالة مثل الرسالة الآتية : « لقد شددنا الرحال ياصاحب السعادة الى أوربا الآسيوية ، وهى مكان معروف لكم تمام المعرفة ياصاحب السعادة ولكننا لا نستطيع أن نهتدى اليها فى أى مكان » .

وقد بحث لنين عن مباعث الهجرة فألفاها لم تكن حب المغامرة ولا رغبة الضرب فى الفيافى والفلوات استجابة لاغراء المكان الشاسع غير

---

(١) agrarianism

المحدود ، وانما كانت الهجرة لاختلال التوازن بين الطبقات فى القرية ، فقد الفى فقراء الفلاحين أنفسهم أعجز ما يكونون عن منافسة أغنياء المزارعين وذلك لعوزهم الى الآلات والدواب ، فآل الأمر بالأغنياء الى التسلط على الفقراء وانتزاع أراضيهم منهم واقتلاعهم منها دون حاجة الى عون الشرطة . وهكذا ظلت جموع الفلاحين توغل فى سيرها صوب بطرسبرج ، وعمد اصحاب المصانع الى استغلال هذه الحالة بغية خفض الأجور ، فانتهز الماركسيون الفرصة للتنديد بهم وأخذوا ينظمون سلسلة من الاضرابات لم يكن للعمال منها كبير جدوى ولم يكن غرض الشيوعيين منها أن يكسبوا للعمال اقلالا من ساعات العمل او زيادة فى الأجور أو تلطيفا لما هم فيه من ويلات ليس لها علاج فى ظل النظام الرأسمالى بل كان غرضهم اضعاف النظام القائم ادناء لساعة تقويضه وقد أدركوا بعض النجاح فى ذلك سنة ١٨٩٤ .

واخذت تنمو فى مشارف العاصمة مصانع پوتيلوف كما شيدت مصانع شتى على امتداد طريق شلسلبرج دون أن تراعى فى تشييدها مقتضيات المحافظة على صحة العمال ودون أن تزود بأنابيب لتصريف المياه منها ، فكانت المياه القذرة تفيض على ما يجاورها من الأراضى فتتخلل البيوت ، وكانت مداخن المصانع تنفث الدخان والسخام حتى اضطر بعض سكان القرى المجاورة ، على قذارتهم ، الى الجلاء عن مواطنهم . أما الحجرات التى كان العمال والعاملات يأوون اليها ليلا فكانت تكتظ بأخلاط منهم يتعاونون فى كرائها وهو قرابة ٦ روبلات فى الشهر لكل حجرة ، وكان يأوى الى كل حجرة ٥ الى ٩ ينامون دون أسرة أو حشايا ، فان وجدت اشترك فى كل وساد منها ٣ الى ٥ ، وقد يلابس الرجال النساء فى فراش واحد .

بيد أن مدينة بطرسبرج كانت تضم أحياء جميلة وكان نهر النيفا ينساب فيها بين ضفتين محمرتين مما فرشتا به من أحجار الجرانيت . وكان هذا التباين بين قصور بطرسبرج وبيوت طريق شلسلبرج يثير فى سكان تلك البيوت الوضيعة احساسات مرهفة وعواطف حارة كانوا يعبرون عنها بالخطابة وأحلام اليقظة .

وقد خيل الى الناردنيين أن انتشار الصناعة هو منبع الشرور والأرزاء ، وكانوا يرون أن جماعات التعاون الريفية (١) هى التى تلائم الخصائص القومية للحياة الاقتصادية الروسية وأنها وسيلة الى الحياة دون احتياج الى ادخال أى نوع من الصناعة .

(١) artel

أما لنين فقد كان يفسر الأمور بقوانين الحتم الجبرية مبعدا من تحليله فكرة الصــواب والخطأ ، فهو يقــول بالاذعــان لقوانين التغير الاقتصادى مرضية كانت أو غير مرضية وباطاعتها كما يطيع المرء رئيسه لا لأنه يحبه بل لأنه مرءوس له . وكان يرى أن الناردنيين اذ ينظرون الى قدوم الراسمالية الى روسيا على أنها خطوة رجعية قد اطرحوا وراء ظهورهم كل الحقائق التاريخية وأضاعوا الوقت فى الموازنة بين العهد القائم الذى بدأت فيه الصناعة الحديثة والعهد الذى قبله ، وكانوا ــ كتعبيره ــ « لا يرون ضرورة لأن يدخلوا فى مناقشة الأحوال الروسية عنصر الطبقات الاجتمــاعية المختلفــة وما ينشــأ بينها من المشاحنات ، ذلك العنصر الذى هو رأس مال العلم الحديث ، وينظرون الى نظام جماعات الفلاحين على أنه خير وأرقى من النظام الراسـمالى».

***

وأخذت الرأسمالية تشق طريقها فى روسيا فمدت خطوط السكك الحديدية واحتفرت مناجم الفحم والحديد وثمرت المقادير الوافرة من الأموال الأجنبية فى أعمال صناعية . ونشأت ، بهجرة الفلاحين المحررين من قنانة الأرض الى المدن ، البيئة الصالحة لنمو الايمان بالماركسية ، وأخذت الآلة التى تصنع الأشياء المادية فى سرعة ووفرة تصنع أيضا هؤلاء الأقنان الآبقين من الأرض ، وان للآلة من الحكمة والبصــيرة ما يجعلها تعد خدامها وتنضجهم ، ولئن كان ضجيجها يبلد احساس العمال انه ليقوى فيهم فى الوقت نفسه ضروبا من الشعور ، وان النتائج الهامة التى يصل اليها العامل الواقف الى الآلة ، بحركة صغيرة من أنمله لترسخ فيه الثقة بقــانون العلل والمعلولات . وان هذه البيئة الجديدة لتولد فى نفوس العمال آمالا ومطامح جديدة ، وانها لتطرد عن نفوسهم ما كان يفرغه عليها الصليب من روح ورضا بالمقسـوم ، فهم يستبدلون بمحراب الكنيسة محرابا جديدا هو الكتاب ، ويحسون عند القراءة بالغبطة والانشراح اللذين كانوا يشعرون بهما عند حجهم الى كييف ، ويشعرون بأنه من الممكن أن يحيوا حياة جديدة .

وقد أصبح للدين الجديد ، للعلم ، معابد أقل اتساعا من معابد يسوع ، بيد أن الكنائس لم تكتظ يوما حتى تضــيق بالقادمين . أما المتعطشون للعلم والمعرفة من العمال والدهماء فانهم كانوا لا يجدون فى المكتبات الثلاث التى كانت فى بطرسبرج سنة ١٨٩١ متسعا كافيا لهم ، فكانوا يحلأون عن ورودها لاكتظاظها بمن فيها ، وكان الذين يصلون متأخرين لبعد منــازلهم قلما يرجعون أدراجهم بل يظلون صابرين فى

انتظار أن يشغر مقعد فى القاعة ، وكان يحدث فى أحيان كثيرة أنه لا يخلو مقعد الى وقت الاقفال ·

وقد احست السلطات بأنها فى حاجة الى جماعة من عمال المصانع يمتازون بالذكاء تتخذ منهم موظفين أو جواسيس ، فأنشأت لذلك مدارس ليلية ومدارس يوم الأحد فكان الثوريون يندسون فى تلك المدارس ليعبثوا منها مجنديهم ، وفيها كانوا يعثرون على خير العقول وأصلحها لتلقى مبادئهم وتفهم تعاليمهم .

وقد جعل لنين من تلك المدارس ميدانا لنشاطه ، فكان يتصل بالمدرسين ويتحدث اليهم فى طرق التعليم ويوازن بين اساليبه فى الدعاوة وأساليبهم ، واستطاع أن يصطفى منهم نفرا عهد اليهم فى ترويج الاشتراكية الديمقراطية .

وطفق لنين يختلف الي اندية العمال فى بطرسبرج ليلقن عددا صغيرا من الناس آراء كثيرة ، وكان كدأبه يتحدث الى سامعيه بلغتهم دون اصطناع للاستعارات الراقية ، بل كان يعمد الى استغلال الأساطير المنتشرة بين الفلاحين . وكان من دأبه أن يسأل سامعيه فى ختام حديثه عن شئونهم وشئون مصانعهم ، فلم يكن هو بل هم الذين يتحدثون عما يجرعون من آلام واوصاب . كان يفيدهم فى أول الليل ويستفيد منهم فى آخره ، وكان يصغى اليهم وهم يتحدثون اليه اصغاء التلميذ الى أستاذه . وقد عاشت أقاصيصهم فى ذاكرته فلم ينسها طوال حياته .

وقد كان يبث الدعاوة بينهم ويلقى النظريات الماركسية عليهم ، شارحا ما بنيت عليه من أسس فى تفصيل واسهاب كما يلقيها على المثقفين الماركسيين ، مع مقاومته لما كان يبدو من بعض رفاقه من نزعة الى معاملة العمال معاملة من هم أقل منهم ثقافة ومن رغبة فى الاكتفاء باظهارهم على صورة مبسطة من النظريات الماركسية . وكانت دروسه تطلع عليهم طلوع الفجر غب السحر فتحيل آلامهم آمالا ، فاذا ما آبوا الى منازلهم فى غبش الليل ساروا اليها فى خطى متزنة ثوابت .

وقد جرى لنين منذ بدأ نشاطه فى بطرسبرج على أن يتخذ اسم « لنين » علما له ، تفاديا من أن تلوك الألسن اسمه الأصيل ، وأخذ بدأب فى تنظيم صفوف معاونيه ، الذين كانوا يزدادون باطراد ، ويعنى بدرس الخطط اللازمة وتعرف الحاجات الفنية كالمساكن ذوات المخارج المتعددة . واتسعت دوائر أنصاره فأصبح للمخابىء التى يلوذون بها استخفاء من الشرطة ما كان للنظريات قبل من جليل الشأن ، وقد علم معاونيه ، لا أن يهزوا العالم بخطابات رائعة ، بل أن يتكاتبوا بالحبر

السرى وأن يتخاطبوا برموز خاصـــة (١) وأن يحذقوا التنـكر بلحى مستعارة ، واتخذ له جواسيس وحرسا وعهد الى بعض أعوانه فى جمع ما يتيسر لهم جمعه من المال لتغذية الحركة .

وقد شهدت السنتان ١٨٩٤ و ١٨٩٥ انفجارا فى النشاط الأدبى الماركسى ، بيد أن الكتاب الماركسيين الفوا انفسهم مضطرين ، تخلصا من مضايقة الرقيب ، الى الكتابة على نحو ما يكتب أساتذة الجامعات ، بل لقد عمدوا الى اصطناع الغموض والابهام . وشاركهم لنين فى ذلك فترة ثم لم يحتمل هذا الضرب الكتابى المنافى لطبيعته ، فكان اذا كتب شيئا بدرت من خلال أسطره مخالب الأسد . وقد اشترك فى سنة ١٨٩٥ مع ستروفه وپلخنوف فى وضع كتاب موجز فى الماركسية ، فكان اشتراكه فيه سببا فى حيلولة الرقيب دون ظهوره .

وسمحت السـلطات بنشر بعض مؤلفات معتدلة فى الاشتراكية رأى لنين أنها لا تستحق ما يبذل فيها من جهد ، ولذا اتجه بعظم نشاطه الى أعمال « تحت الأرض » أى مخالفة للقانون المتعسف الذى كانت تحكم به البلاد اذ ذاك ، ثم رأى أن يوسع نطاق عمله فلا يفهم قلة من الناس بكثرة من النظريات بل ينشر نظريات قليلة فى كثير من الناس ، فأتى بمطبعة صغيرة أودعها حجرة فى ضاحية منعزلة ورتب للعمل عليها نفرا من الرجال ، فكانوا يلزمون تلك الحجرة لا يبرحونها فى ليل أو نهار ، شأن الرهبان فى أديارهم ، وكانت أوراق الطبع ترسـل اليهم خفية فتطبع ثم توزع لا يستريب بها أحد .

وأهم ما صدر عن لنين فى ذلك العهد كتاب طبعه سـنة ١٨٩٤ بالهكتوجراف فى ثلاثة أجزاء عنوانه « من هم أصدقاء الشعب وكيف يكافحون الاشـتراكيين الديمقراطيين (٢) وهو أول بيان ماركسى ثورى صريح صدر فوق الأرض الروسية ، وقد تضمن تحليلا بديعا للتطور الاقتصادى وعرضا قاسيا لنظرية الناردنيين يضطرم سـخطا على ما تنطوى عليه من عناصر رجعية . وقد أوضـح فيه أن الماركسـية ليست عقيدة يلقنها الناس ليؤمنوا بها بل هى نظرية علمية تكتسب مالها من جليل الخطر بمطابقتها للواقع ، و ختمه متكهنا بهذه الكلمة التى

---

(١) Code

(٢) وقد كتب هذا الكتاب ليقرأه مئات الالوف ، بيد أن التوفيق لم يسعده اذ ذاك بالعثور على ناشر أو طابع فاكتفى بأن يطبع منه ٢٥٠ نسخة بآلات بدائيـة ، ولذلك لم يتجاوز الكتاب صفوة من القراء .

يوجز فيها تكهنه بما يتمخض عنه التاريخ المقبل للطبقة العاملة فى روسيا :

« انما يعنى الاشتراكيون الديمقراطيون قبل كل شىء بطبقة العمال الصناعيين ، فعندما تشرب نفوس الممتازين من أعضاء هذه الطبقة أفكار الاشتراكية العلمية وفكرة ما للعامل الروسى من شأن فى التاريخ ، وتذيع آراؤهم ذيوعا واسعا ، ويقوم العمال بخلق منظمات ثابتة تحول الحرب الاقتصادية الناشبة الآن فى غير اتصال وترابط الى كفاح طبقى واع منظم : عندئذ ينهض العامل الروسى على رأس العناصر الديمقراطية جميعا فيقضى على الحكم المطلق ويقود الطبقة العاملة الروسية (ومعها الطبقات العاملة فى بلدان العالم كله) فى الطريق السوى للكفاح السياسى الجلى نحو ثورة شيوعية مظفرة » .

السفر الى الخارج

ظل لنين يعمل على هذا النحو حتى سنة ١٨٩٥ اذ عرض له عارض من داء تبلغ به فسمح له فى صيف تلك السنة(١) أن يرحل الى خارج البلاد يستطب لدائه .

كان السفر الى الخارج شائعا وقتئذ بين أبناء المدن الروسية ، فالأعيان يغلقون قصورهم ليزجوا بعض الايام فى بلاد الغرب ، والطلبة يؤمون الجامعات الغربية التى طبقت شهرتها بلادهم ، والثوريون يفرون من ازعاج الشرط ويلتمسون النجاة من السجن بعبور الحدود الى حيث يقيم زعماؤهم . وكانت ألمانيا فى تلك الايام أرض الميعاد للشبان الماركسيين الروس ، ففيها تحقق حلم من أحلامهم الا وهو المنظمات العمالية ، وقد كانوا ــ وهم الذين لا يتجاذبون الحديث الا همسا والذين يعدون تناقل الرأى بين عشرين منهم مغامرة ذات خطر ، والذين يشاهدون كيف أن توزيع منشور فى بلادهم يجر الى تجريد حملة من أساورة القوزاق ــ عندما يسمعون أن الحركة الالمانية كان قد صار لها فى سنة ١٨٩٢ مئة

(١) وكان منذ فصل من جامعة قازان لايزال تحت أعين الشرطة .

صـــحيفة ونيف يقرؤها أكثر من ٦٠٠٠٠٠ قارئ ، يخيل اليهم أنهم يسمعون تنزيلا من السماء ٠

وكذلك رحـــل لنـين الى برلين ، حيث حضر بعض اجتــماعات للاشتراكيين واستمع الى نفر من خطبائهم ، فصبت نفسه الى أن يجد في وسعه يوما أن يخطب آمنا جماهير غفيرة من السامعين ٠ ثم عرج من فوره على جنيف ، على بلخنوف ٠

* * *

كان بلخنوف يرى من خرق الرأى الاعتماد فى اذكاء نار الثورة على مثقفى الطبقة الوسطى ، فان هذه الطبقة ، مع كثرة ما تشكو من القيصر ، ماتزال لها امتيازاتها وأسلوبها الخاص فى الحياة ، فهى اذا ثارت فانما تثور للقضاء على امتيازات الحكم الفردى ولتقويض حكم الاعيان كى تحل حكمها هى محله ، وذلك ما فعله الرأسماليون في غرب أوربا اذ اطرحوا الحكم الاقطاعى وأحلوا محله حكمهم ثم غدروا بالعمال بعد أن أستعانوا بهم ٠ ومن ثم فعلى الماركسيين الروس أن يشعلوا الثورة على كبار الملاك وأساطين الرأسماليين معا أى على من يسمون خطأ بالبرجوازيين(١) ٠ أجل ان أوان هـــذه الثورة لمـا يحن بيد أنه لا ريب حائن يوما ، فان الرأسماليين عاكفون على حفر أجداثهم ، وها هم أولاء الفرنسيون والألمان والبريطانيون قد أخذوا يثمرون أموالهم فى الاعمال الصناعية فى روسيا٠ وبذلك يطرد فى الازدياد عدد الطبقة العاملة التى لا تحصل الا على أجور ضئيلة ، أعنى الطبقة التى ينطبق عليها قول ماركس انها « ليس لديها ما تفقده سوى أغلالها » ٠

كان بلخنوف يعمل لتوجيه الثورة الروسية ، حيث تتجه الحركة الثورية فى أوربا ، فأخذ يبين للناس أن الانتاج وتكوين الثروات هو الذى له الأثر فيما بين النـــاس من علاقات وهو الذى يخلق الطبقات ، وذكر لهم أن ذوى المصالح يجتهدون فى أن يسيطروا على شئون الدولة وأن يفرضوا عليها سلطانهم المطلق فرضا تاما وأن الحكم القيصرى يجد نفسه مضطرا الى مصانعتهم غير أنهم لا يلبثون أن يقلبوا له ظهر المجن ويطالبوه ببعض حريات يكفلها دستور يسمونه حقوق الانسان الخالدة ، وهو مجهود يجب على الطبقة العاملة أن تؤازره دون أن تخشى نمو القـــوة الاقتصـــادية للبرجوازية فان هذا النمو يجعل من الممكن « أن ينجح الكفاح فى سبيل الحرية فى روســـيا بوصـــفه حركة عاملية أو لا شىء البتة » وقال ان

---

(١) bourgeois

الرأسمالية تبدأ في أطوارها الاخيرة نموه نفسها لتظهر مظهر مدنية راقية وتحل طرق الانتاج الحديثة محل الطرق القديمة ، وعاب رأى القائلين بأن الصناعات المنزلية ، لا العمل الصناعى ، هى التى ستظل الشكل السائد المتغلب في روسيا ، وأفهمهم ما في القياس على الحالة التى كانت قبل الغاء القنانة من خطأ ، اذ كان أصحاب الصناعات يجدون أنه أجدى عليهم أن يسلموا المواد الخام الى الفلاحين ليصنعوها في أكواخهم بأجر زهيد — من أن يشيدوا هم بأموالهم الخاصة مصانع يعمل فيها العمال ، وأبان أنه كان لدى الحكومه من الاسباب ما يحفزها الى معاونة هذه الطبقة العاملة ، ومع ذلك لم تعد معاونتها تنميق الأحاديث الجوفاء تطرى فيهـا العمال وتثنى بالخير على خلالهم القومية •

كان بلخنوف أول من كشف عن هذه الامور من كتاب المعارضة ، ولم تكن خشيته للرأسمالية بأكثر من خشية الرأسماليين أنفسهم لها • وكان لنين يذيع هذه الافكار في رسائل صغيرة • وهاهو ذا قد قدم الى الاستاذ وانطلق يفيض عليه من أخبار روسيا •

ولقد قدر بلخنوف وصحبه في لنين الخـاصة التى لم يفطروا هم عليها ، ألا وهى التفكير الواقعى • وكم من مهاجر من أشياعهم وفد عليهم في منفاهم فلم يتوسموا فيه الا القصور والفشـل ، فلم يكن منهم من يستطيع أن يغير مجرى التاريخ،وكذلك لم يكن ثم وجه للموازنة بين أى منهم وبين لنين •

لقد أثر لنين فى نفس بلخنوف تأثيرا كبيرا ، فعده المعلم أهم من وفد عليه من روسيا طول مقامه فى المنفى •

وقال مرتوف « لقد طفقت أنا وبلخنوف زمنـا طويلا نروج الآراء الماركسية على غير طائل ، أما أولئك المعاونون الذين اكتسبناهم بعد لأى ، أولئك الاشتراكيون الديمقراطيون الأحداث الذين فصلوا من روسيا الينا فقد كان قصورهم السياسى يوقعنا فى خيبة تلو خيبة ، وقد لبثنا كذلك حتى لقينا أليانوف فتنفسنا الصعداء ، وها نحن أولاء الآن يقول كل منا لصاحبه : لقد غدونا نشعر بالراحة فان زمام الاشتراكية الديمقراطية الروسية هو الآن فى يد أمينة ، لقد وجدت الاشتراكية زعيما عمليا جديرا بها » •

وقال أكسلرد يتحدث عن التقائه الأول بلنين « لقد شعرت اذ ذاك أنى بين يدى الرجل الذى سيكون زعيم الثـورة الروسية ، فهو ليس

ماركسيا فحسب ــ وان الماركسيين لكثيرون ــ بل هو كذلك شخص يعرف ما يريد أن يعمل ويعرف كيف يعمل • ان المرء ليتذوق فيه طعم الارض الروسية • ولقد اقتنعت بمجرد أن قرأت رسالته الاولى أنه قد صيغ من الجوهر الذى يصاغ منه الزعماء » • وهو يعنى بكلمته هذه أن لنين رجل حقائق وأنه على اتصال بالاحوال القائمة فى روسيا •

كان رجال جماعة تحرير العمال قد غادروا روسيا منذ سنوات فلم يشهدوا نمو الحركة الصناعية فيها ، وكانوا يحسون فى قرارة أنفسهم بهذا النقص ويوقنون أنه يجب أن يكون الزعيم الذى يقودهم الى النصر قد شهد الاحوال الاخيرة عيانا • وها هو ذا الزعيم قد جاءهم آخر الامر •

قضى لنين فى رحلته هذه من أبريل الى أكتوبر ١٨٩٥ ، وقد تزود فيها من پلخنوف وصحبه بخطط وأفكار جديدة بصدد العمل فى المستقبل، وكان من أهم أغراض رحلته كذلك أن ينـظم فى ألمانيـا طريقة لتهريب المطبوعات التى تطبع فى سويسرا الى روسـيا ، ثم عاد الى بلاده ومعه أكداس من المؤلفات التى لاتجيز تداولها قوانين البلاد ومطبعة لطبع صحيفة اشتراكية ، وكان تهريب ذلك كله معه وهو يعبر الحدود عملا بالغ المشقة والعسر •

القبض على لنين

وأخذ لنين ، بعد عودته ، يتأهب لاصدار الصحيفة وأسماها «هدف العمال» • ولعل تحمس صحبه للمغامرة الجديدة ألهى بعضهم عن اتخاذ الحيطة المألوفة ، وكانت الشرطة تتأثر « اتحاد المجاهدين » منذ زمن فقبضت على لنين وكتاب الصحيفة وعلى الكثرة من أعضاء الاتحـاد فى ٩ ديسـمبر ١٨٩٥ فى الوقت الذى أعد فيه العدد الاول من الصحيفة للطبع(١) ، وبذلك قضى على المشروع فى برعمه •

(١) فلم ينج من الاعتقال الا القليل منهم ، نذكر منهم كربسكايا التى لم تعتقل الا بعد أن انقضى ما يقرب من سنة •

الاضراب

وحرم لنين رؤية الاضرابات الواسعة النطاق التي انتظمت البلاد طولا وعرضا ، والتى كان يعمل على تهيئة أسبابها فى الوقت الذى كان يقوم فيه بالدعاوة والعمل الثقافى ٠

كان العمال أول عهدهم بالعمل فى المصانع أشبه مايكونون بالمجندين الجدد الذين يقسرون على أن يتعلموا كيف يقاتلون ، وقد أقيمت منظماتهم خلال ما أقامته المصانع من منظمات ، فليس ثم أفراد بل جماهير متراصة يرقب بعضها بعضا فيرون ما بينهم من تشابه وتماثل ، وكانوا اذا مادوت صفارة المساء ذهب فريق منهم في استخفاء للقاء غيرهم من عمال المصانع الاخرى ، ولم يلبثوا أن أدركوا قتامة حياتهم وانحطاط مستواها فرفعوا العقائر شكاة يستنكرون وأرسلوا مندوبيهم الى جلالة القيصر ليدلوا اليه فى تهتهة بشـــكاواهم ، فكانوا يعتقلون أو يضربون ، فما الشكوى عند جلالته الا مروق من الطاعة ٠ على أن ما كانوا يلقونه على شكاواهم من مكروه واذية هو دون ما كانوا يلقونه فى حياتهم التاعسة ايلاما وتبريحا٠ أما أصحاب المصانع فقد آخذوا يضجون من قيام الدولة بتفتيش مصانعهم اذ كان ذلك فى زعمهم يفسد ما بين العمال وسادتهم من صلات فيحرض على الشكوى ويفتح الأبواب للشرور فتكون عاقبة ذلك الضر بدل الخير ٠

كان العمـال يخلصون للقيصر ، اذ أنهم حملوا معهم الاخلاص من الريف الذى نزحوا منه ، فقد ظل الفلاحون منذ عهد الاسكندر الاول الى عهد نقولا الأخير يحجون الى سدة القيصر ، وكانوا اذا مابرح بهم الاعساف ونهكهم الارهاق يثورون بسادتهم ويتمردون عليهم باسم القيصر ، وسار العمال هذه السيرة فأخذوا أيضـــا يتمردون باسم القيصر ولكن القوات المسلحة كانت هى الحجة التى تدحض بها مطالب العمال ٠

وظل القيصر والأشراف كأســـلافهم يتمادون في غيهم غافلين عن اصبع القدر التى تشير اليهم بالتهديد ، ولم يدر فى أخلادهم شيء عما أعتد لهم من ألم ومهانة ٠

وشرع العمال يثورون ، ولم يكن للسياسة فى ذلك اصبع ٠ وأخذوا يعقدون الاجتماعات ، وكفت أمهاتهم عن الولولة عندما كانوا ينصرفون عن المصانع الى مجتمعاتهم ، وكف آباؤهم عن ضربهم عند أوبتهم قبـل مجيء

الشرط لضربهم والقبض عليهم ، فقد كان تمرد الابناء جهادا فى سبيل الأمهات والآباء .

وفطن لنين الى الفرصة فاهتبلها وطفق يمهد للاضراب فى مصنع ثورنتن للنسج (١) وكان العمال يشتغلون فيه أكثر من ١٤ ساعة فى اليوم ولا ينالون من الاجر الا سبعة روبلات فى الشهر . وبدأ الاضراب فى ٢٣ أكتوبر من سنة ١٨٩٥ .

وفى ٢٨ من ذلك الشهر وضع عمال مصنع لافرم للفائف التبغ حدا لما عرف عن العمال من الرخاوة ، وانكفأت العاملات اللواتى كان الرؤساء يجازوهن بالضرب ، فرحن يكسرن النوافذ ويحطمن الآلات ويقذفن بالمنتجات التامة الصنع فى أمواه النيفا .

كان « اتحاد المجاهدين » الذى كونه لنين لا يحوى فى ذلك الوقت الا عاملا واحدا ازاء كل عشرة من المثقفين ، وكان هؤلاء العمال منصرفين الى التعلم فى شعب خاصة بذلك ، فلم يكونوا يغشون الاتحاد نفسه الا لماما ، بيد أنهم أبدوا فى هذا الاضراب نشاطا عظيما ، فمن خطب تثير حماسة المضربين الى منشورات تنثال عليهم الى بيانات بمطالب العمال تتضمن أنباء حركاتهم ومساعيهم .

ونشر لنين رسالة ندد فيها بالمصانع لأنها لا تنهج فى دفع أجور العمال نهجا صالحا ولا تجرى على نظام ثابت ولأنها تشتط فى ايقاع الغرم بهم وتذهب فى ذلك كل مذهب، فقد كان بعض المصانع يقتطع من العامل أجر شهر بأكمله اذا اعتزل العمل بمحض اختياره . وكان من نص لائحة مصنع شلبه الكيميائى أنه « اذا ترك العامل المصنع قبل انتهاء مدة خدمته لا يمنح الا نصف الأجر المتفق عليه » ، وكان فى لائحة مصنع بالين ومكاروف أن العامل أو مقدم العمال الذى ينتظم فى سلك العمل فى عيد الفصح « يتحتم عليه أن يبقى الى أكتوبر والا استصفى أجره عن مدة عمله كاملا » ، وكانت شركة السفانة على نهر الفلجا تفرض على كل من يلتحق بها من العمال أن يوقع عقدا ورد فيه « أتعهد بأن أودع دائما عشر راتبى الشهرى عند الصراف ... وأن أنزل نهائيا عن هذا العشر اذا أوقع بى عقاب لأى ذنب من أى نوع » .

---

(١) وربما كان قد وقع اختياره على هذا المصنع دون غيره لأنه مملوك لبعض الانجليز، والاجانب لا يشعرون بما يشعر به أصحاب المصانع الوطنيون من فخار الاسهام فى ترقية بلادهم من سبيل هذه الصناعات ، بل هم لا يعنون بغير الربح . فاذا ما تعرضت أعمالهم للمتاعب فقد يستعيدون أصول رءوس أموالهم ويثوبون الى بلادهم ..

أورد لنين هذه الحقائق كلها في رسالة مفصلة بأسلوبه الخاص ، وهو يمتاز من أسلوب من سبقه من الزعماء الذين كانوا يوطئون للثورة الفرنسية ومن أسلوب الانسكلوبيديين ، باستناده الى معلومات غير معروفة لجمهرة الناس يدعم بها كلامه وبالنهج الخاص الذى توحى به مقتضيات الدعاوة من حيث تكرار الكلمات وترديد الأفكار واتخاذ لهجة خاصة يقصد بها الى تعليم البدائيين • ذلك كان أسلوبه دائما ، جل الموضوع الذى يكتب فيه أو دق ، سواء أكان يكتب فى ضرورة تقديم الشاى للعمال فى المصانع بالمجان أم فى دكتاتورية البرولتاريا(١) أم كان يحمل على كنت(٢) أم كان يؤيد هجل (٣) •

لقد كان دائما يكتب للفلاحين ، وكان اذ يكتب يتمثل قارئيه جلوسا حافين من حوله فيكتب لهم بلغتهم هم لا بلغته هو •

وقرأ المضربون رسالته ووعوا منها عبارات راحوا يرددونها. فتوثقت الروابط بين « اتحاد المجاهدين » والعمال • وأضرب عمال مصانع الاحذية أيضا فسقط فى أيدى المديرين ولم يجدوا مناصا من منح العمال بعض الامتيازات فكان لذلك فى عمال العاصمة فعل السحر •

وأدركت الشرطة بفراستها أن لنين هو كاتب تلك المنشورات التى بلغ من كثرتها أن كانت تجلل مداخل المصانع عقب الاضطرابات كما تجلل أوراق الشجر أديم الرياض ابان الخريف •

وتتالت الاضرابات محتذية النموذج الذى قدمته مصانع ثورنتن فى العام السابق ، فقرر الاضراب ٣٠٠ مندوب لعمال الغزل والنسج بالعاصمة يمثلون ٣٥٫٠٠٠ عامل ، مطالبين بنقص ساعات العمل اليومى من ١٣ الى ١٠½ ساعة ، وقد ظل هذا القرار سرا مكنونا فى صدور الألوف من العمال يتناجون به دون أن يتناهى خبره الى الشرط • واستمر الاضراب شهرا

---

(١) وهو النظام المؤقت الذى يتخذه الشيوعيون فى دولة ما عقب تغلبهم على النظام الرأسمالى ، فتراهم يأخذون بقايا الاقطاعيين والرأسماليين بالشدة والعنف ويجهزون على فلولهم ليدرءوا عن انفسهم بذلك انتقاض اولئك الرجعيين على الحكم الجديد ومحاولتهم استرداد سلطانهم القديم من طريق التخريب ومظاهرة الدول المعادية •

(٢) ولد الفيلسوف الالمانى عمانوئيل كنت فى كونجزبورج سنة ١٧٢٤ وتوفى سنة ١٨٠٤ . وله مؤلفات كثيرة نذكر منها «الشكل مبدأ العالم الحسى» و « نقد العقل الخالص » •

(٣) ولد الفيلسوف الالمانى جورج فلهلم فريدريش هجل سنة ١٧٧٠ وتوفى سنة ١٨٣١ •

فكان لطول مدته واتساع مداه وللنظام الذى ساده – أثر كبير فى عمال بطرسبرج ، فدهش المثقفون لهذه الظاهرة الجديدة ، وأيقن الكثيرون أن المعدن قد بلغ من السخونة مبلغ الصلاحية لأن يطرق ٠

وألقت الشرطة القبض على عدد جم وحاولت أن تسوق المضربين الى العمل راغمين ، وأعلن وزير المالية ڤته عزمه على نقص ساعات العمل ، مصرا على الا تكون مفاوضات فى ذلك حتى يعدل العمال عن الاضراب ويعاودوا العمل ٠ وبما أن أولئك النساجين لم يكونوا يملكون ما يمسك أرماقهم فقد اضطروا الى العودة الى الآلات بعد أن لبثت معطلة ٤ أسابيع ٠

وتناست السلطات ماقطعته للعمال من عهد فعاد النساجون الى الاضراب فى ٢٠ ديسمبر ١٨٩٦ وأفلحوا هذه المرة فى حمل الحكومة على سن قانون بخفض ساعات العمل اليومى الى ١١½ ساعة ٠ وكان لهذا النجاح أثر محسوس فى شبوب منزلة « اتحاد المجاهدين » وذيوع اسمه فى أرجاء الامبراطورية وانتقاله من العمل سرا تحت الارض الى العمل جهرا فوق ظهرها ٠ وكان لكثرة المعتقلين وطول اعتقالهم فضل فى اقتناع الكثيرين بصحة مايدعو اليه لنين وفى انضمامهم الى الاتحاد ، وانتقلت الاثارة بين العمال من النواحى الاقتصادية الى النواحى السياسية ، واتسع نطاق العمل أمام جماعة لنين، وهكذا شقت الطرق وسط غابة التاريخ الروسى البدائية ٠

السجن

وشاهد لنين أول مرة ما وراء أسوار السجن فلم يهن ولم يضعف اذ كان من قبل قد وطن النفس على التجافى عن لذيذ المآكل وفاخر الملبس٠

كان الحبس طورا عاديا من أطوار حياة المجاهدين فى سبيل الاشتراكية ٠ وكان مباحا للمسجونين السياسيين أن يتلقوا من أصدقائهم الكتب والرسائل بعد أن يفتشها الرقيب ، ولكنهم كانوا قد حذقوا وسائل الاتصال بعضهم ببعض أو بالعالم الخارجى فكانوا يتكاتبون بالمداد غير

المرئي أو بوضع نقط تحت بعض الحروف أو باستعمال جمل ذات معان مصطلح عليها أو بالكتابة الرمزية (الشفرة) أو برشوة حراس السجن.

وقد ظل لنين خلال الأربعة عشر شهرا التى قضاها فى انتظار الحكم يراسل زملاءه ويستحثهم على العمل ، بل لقد كان يرسل الى خارج السجن بمنشورات ورسائل ثورية ملتهبة كان لها أثر فى الاضراب الذى حدث فى مايو ١٨٩٦ • وقد تجرد فى محبسه الأحادى (المنفرد) لوضع كتاب فى « تطور الرأسمالية فى روسيا »(١) كما وضع رسالة فى الاضراب •

قضى لنين عام ١٨٩٦ كله فى محبسه ، وكان نظام السجن صارما لا يطيقه كل من أوقعه عثور الجد تحت وطأته ، ولكن لنين كان شديد المنة موثق الخلق صافي الذهن فأخذ يستغل أيام حبسه الانفرادى قدر استطاعته •

كان المتهمون بالجرائم السياسية فى عهد القيصر الأخير لا يحاكمون أمام القضاء بل كان القيصر يبت فى مصايرهم بنفسه حسبما يقترح صاحب الشرطة •

وكانت الاجراءات بطيئة السير ، ومن ثم قضى لنين ورفاقه فى السجن قرابة ١٤ شهرا حتى تحدد مصيرهم فى يناير ١٨٩٧ اذ قضى عليهم بالنفى الى سيبيريا الشرقية ثلاث سنوات لا تنقص منها مدة الحبس رهن التحقيق •

المنفى

والى سيبيريا كان مصير كل من يحفظ عليه الحكومة : القائد الذى يجاوز فى سرقته ما جرى به المألوف دون أن يسلم الى رؤسائه أنصبتهم مما غنم ، والأفاق الذى يجوس خلال القرى دون أن يكون معه جواز ،

(١) فكتب معظمه فى السجن ثم أتمه فى المنفى بسيبيريا ونشره سنة ١٨٩٩ •

والعجوز التى تنافس الدولةفى تقطير الخمور فتثلم بذلك ثلمة فى أسوار الاحتكار ، وأتباع الطرق الدينية التى لا يرضى رجال الكهنوت عن طريقتها فى رسم الصليب ، وفلاحى نواحى أودسا الذين يؤثرون أن تلتهمهم النيران أحياء على أن يدعوا الحكومة تحصيهم عدا ، والرجال والنساء الذين يطالبون بالدستور ، وأولئك الذين يرغبون فى أن يكون لهم نظام مثالى لا حكومة فيه ، وهم الفوضويون ٠

وكذلك عبر لنين الأورال(١) فى تلك السياحة التى لم يكن له منها مناص ، وقد سمح له ، تحقيقا لرغبته ، أن يسافر الى منفاه على نفقته طليقا من الحراسة ، وكان اذ ذاك يناهز ٢٨ عاما وتقرب سنه من سن جل أنصاره واخوانه فى العقيدة كما يشبه مصيره مصيرهم فليس منهم من بلغ الثلاثين دون أن يحتويه السجن حيث يتسنى له أن يلقى التحية على السجناء من ثوار الجيل السابق ٠

بدأ لنين رحلته فى مارس قاصدا الى كرازنويارسك ، وهى مدينة متوسطة غير بعيد من مناجم الذهب ، وقد حمل معه توصية به من أحد الثوريين الى تاجر بتلك المدينة كانت له مكتبة عظيمة أعانت لنين على أن يرضى ولعه بالقراءة والكتابة ، ثم نقل بعد شهرين الى قرية شوشنسكوى على مقربة من التخوم بين سيبيريا ومنغوليا فى أصقاع لم تكن سلطات موسكو قد كشفتها بعد ولذلك لم تكن تحصل من أهلها الضرائب ، وقد طالما ارتاد المغول البدو تلك الجهات لجهلهم بالحدود التى تنتهى عندها رقعة المملكة الصينية ٠ وعاش لنين ، فى تلك القرية التى يسكنها ١٫٥٠٠ نسمة ، فى دار من دور الفلاحين لها نافذة صغيرة تطل على البرارى التى لم تطأها قدم ولم تنبعث منها نأمة تدل على حياة ، وكانت جبال المغول تبدو منها بيضاء تتلألأ كأنها تشكو وهج الضوء ٠ كانت دور الفلاحين فى تلك الأصقاع تتكون عادة من حجرتين رحبتين نيرتين غطيت أرضهما بالحصر ومطبخ يتوهج فيه فرن كبير ، والى الجانب الآخر من الدار حظيرة الماشية ومخزن الحبوب وآلات الزراعة ٠ أما الطرقات فكانت كئيبة تبدو كأنما قد صنعت للاوز والبط والخنازير الباحثة عن برك تهبطها ٠

كانت المعيشة فى تلك العزلة مضجرة ولكن لنين عرف كيف يتغلب على السأم ويستثمر وقته ، فسرعان ما بطن بالكتب جدران غرفته الصغيرة

---

(١) هى سلسلة الجبال التى تفصل بين روسيا وسيبيريا ومن ثم تفصل بين أوربا وآسيا ٠

النظيفة وأقام في وسطها نضدا هو لوح من الخشب ذو أربع قوائم كان يهدد بالانهيار تحت وقر ما كدس فوقه من الاسفار • وعكف على القراءة وكان يقرأ لهجل وكنت والطبيعيين (ناتورالست) الفرنسيين وبشكن ولرمنتوف ونكرسوف كما كان يقرأ قصص ترجنيف وتلستوى وشرنيشفسكي • وكان يقضي كذلك جانبا من الوقت في اصطياد البط وغيره من الطيور وأحيانا في اصطياد الارانب ، وكذلك كان يزجي بعض الوقت في الشطرنج أو في ملاعبة الاطفال أو الانزلاق على الجليد ، كما كان يقوى من عزائم من يتصل بهم من المنفيين السياسيين ويسدد آراءهم السياسية ويغريهم بالقراءة •

وانما تمتع لنين بما تمتع به من الحريات في تلك القرية المنعزلة في أقصى المعمورة بمجهود من سبقه من المنفيين السياسيين الذين استخلصوا تلك المزايا باعلانهم التذمر كرة بعد كرة وبكفاحهم الموصول في داخل السجن بشدة تفوق كفاحهم خارجه • فكانوا يحدثون بأنفسهم جراحا مفظعة تبعث الرعب في الحراس ومأموري السجون ومحافظي الاقاليم ، وقد عمد بعض الرجال والنسوة الى احراق أنفسهم أحياء وأزم آخرون عن الأكل أسابيع وانقض آخرون على حراسهم فقتلهم هؤلاء ، وهكذا استطاع السجناء السياسيون آخر الأمر أن يروضوا حراسهم وأن يكسروا من شرتهم • ولقد كان على أولئك الأسرى ، مع ذلك ، أن يقاوموا كآبة الحياة القروية في تلك الآصقاع النازحة وأن يقاوموا كذلك اغراء الحياة لهم بالعزلة عن اختيار في تلك الحرية النسبية وغواية الخمر والتكاسل ولسع الرياح المقرورة وقرس الليالي الجليدية ونباح الكلاب الضالة والتماس الراحة بالانتحار ، فكان يعد سعيد الطالع من يقضي هناك سنوات دون أن يصاب بالخبل أو الدرن أو تهافت القوى •

الزواج

وقدمت في تلك الأثناء نادشد كنستنتنوفا كريسكايا •

كان لنين قد تعرف اليهـا فى المدارس الليليـة لتعليم العمـال ببطرسبرج ، وكانت جذابة المحيا مبسوطة الجبهة فى طبعها دعة وعليها مسحة ذلك الجمال الطبيعى الســاذج الذى وسم به عدد غير كبير من الثوريات الروسيات • لقد كان النساء يشتركن كثيرا فى الأعمال الثورية وكان مما يساعد فى ذلك أن الحكومة القيصرية تفسح لهن فى مجال التعلم ولكنها تضيق فى وجوههن مجال العمل •

على أن نادشدا لم تكن من أولئك النسوة المتطرفات الخوارج على طبيعة جنسهن ، اللائى يتقلدن السلاح أو يصحبن كل جملة يتفوهن بها ايماءة مهتاجه وتفيهقا يفسدان الحديث بما يثيران حولهن من جو هستيرى• لقد كانت هى على العكس من ذلك ذات سمت ملوكى تحسن الاصغاء فى انتباه وصمت ، فأعجب بها لنين •

قبض على كريسكايا مع بعض الثوار من الرجال والنساء فى أغسطس من ســنة ١٨٩٦ وحكم عليها بالتغريب الى المحافظات الشمالية ثلاث سنوات، وقد سمحت لها السلطات مع ذلك، بأن ترحل الى شوشنسكوى فى الجنوب لتتزوج لنين وتقيم معه وذلك على أساس أن المحافظات كلهن على سواء •

وقد تزوجها فى ٩ يوليو ١٨٩٧ ، ودعا الى عرسه بعض الثوريين المنفيين ، ولكن السلطات لم ترخص لهم فى شـهود العرس خشية أن يهربوا اذ كان أحد الثائرين المنفيين قد هرب حديثا الى خارج البلاد •

نشاط لنين فى المنفى

أتم لنين فى المنفى كتابه « تطور الرأسمالية فى روسيا » وهو أحد الكتب القليلة التى توصف بأنها « صانعة للعصر » ويحتوى على كثير من الاحصاءات ، وقد دحض فيه ماذهب اليه النارودنيون من أن الفلاحين طبقة متجانسة ، مبينا ماحدث داخل هذه الطبقة فى ظل الرأسمالية من تباين وتفاوت •

ووضـــع كذلك كتابا فى « واجبـــات الاشـــتراكيين الديمقراطيين الروس»(١) دون فيــه الأفكار التمهيدية للخطة التى فصلهــا بعد ذلك بوضوح فى كتابه « ما العمل ؟ » ، ونشر فى صحيفة « العالم الجديد » مقالات يحذر فيها أتباعه من افساد المبادىء الماركسية ابتغـاء الألفة مع الناردنى ، وترجم كتاب سدنى وب فى «نقابات العمال من ناحيتى النظر والتطبيق»(٢) ليرى العمال الروس أن قد مر ببريطانيا أيضا عصر حيل فيه بين العمال وانشـاء جماعات لهم غير أن العمال انتصروا آخر الأمر باصرارهم على بلوغ مأربهم ·

ويجدر التنبيه هنا الى أن لنين لم يكن ينشد اسـتخدام النقابات لزيادة الاجور وتقليل ساعات العمل كما هو الشأن فى بريطانيا بل كان يريدها على أن تتجه وجهة السياسة فى الأغراض الثورية العامة ·

وكان يبعث الى أكسلرد برســائل ـ يسلمها أولا الى بعض أعوانه فيرسلها هؤلاء الى شقيقته المقيمة فى برلين فتنسخها وترسل صورة منها الى أكسلرد · وكان يراسل ثوريين آخرين بطرق مثل هذه ·

لقد كان يضايقه أول عهده بالمنفى توقه الشديد الى أن يعرف مصير بعض رفاقه ، على أن الأخبار أخذت تتسرب اليه فى بطء شديد من روسيا الأوربية ، حيث حدثت عقب نفيه أحداث جسيمة فى عالم الخفاء ·

المؤتمر الأول للاشتراكيين الديمقراطيين

فقد اجتمع فى أواسط مارس ١٨٩٨ فى منسك مؤتمر سرى للعمال الاشتراكيين الديمقراطيين كان أول مؤتمر من نوعه يعقـــد داخل البــلاد

---

(١) طبع خارج البلاد سنة ١٨٩٨ ·

(٢) هذا مع اعتراف لنين بأنه حين ذهب الى انجلترا لم يكن يستبين كلمة مما يجرى على ألسنتهم باللهجة الانجليزية ·

الروسية ، وفيه التقى ٩ مندوبين يمثلون « اتحـــادات المجـاهدين » فى بطرسبرج وموسكو وكييف ، وأجمعوا الرأى على أن يجمعوا هذه الاتحادات وغيرها لتكون حزبا موحدا ، وعهدوا الى بيتر ســتروفه فى اعداد بيان يعلن فيه انشاء هذا الحزب ويبين أغراضه ٠

وانتخب المؤتمر لجنة مركزية له وقرر اصدار صحيفة ، غير أنه لم ينقض غير ٩ أيام على هذا النجاح النظرى حتى خطت الحكومة خطوة عملية ناجحة اذ اعتقلت ٥٠٠ عضو من أعضاء الحزب الجديد فانهارت بذلك لجنته المركزية قبل أن تضع برنامجا مفصلا ولائحة داخلية ، وكانت الصلة بين مختلف الجماعات الماركسية أوهى من نســـيج العنكبوت حتى ليمكن أن يقال ان الحزب لم يكن قد وجد حقا .

النهازون

يحاولون تشويه الماركسية

وارتأى بعض من تركت لهم حريتهم أن يدافعوا ــ دون أن يعرضوا أنفسهم لفقدان تلك الحرية ــ عن سياسة جديدة تدعى «الاقتصادية»(١) مشتقة من تعاليم اليهودى الألمانى برنشتين الذى كان يخطىء ماركس فى قوله ان المجتمع ماض فى الانقسام قسمين : قسم الرأسماليين وقسم العمال ، ويزعم على نقيض ذلك أن الطبقة الوسطى هى التى يطرد نموها وهى طبقة تنفر من الثورة (٢) .

---

(١) economism

(٢) وكان يرى أنه من الخير للاشتراكية أن تتريث فى سيرها فيتم تقدمها بالتدريج جريا على سنن التطور دون أن تتصادم الطبقات فى ثورة عنيفة ٠

وكان ينكر أن النظام الرأسمالى الى اضمحلال وأنه بالغ حدا ينهار عنده ، ويصور الامر على أن هذا النظام يتطور باطراد نحو صورة من صور التنظيم الاجتماعى أكثر سمواً، مستعينا فى ذلك بارشاد الفكر الاشتراكى وبنفوذ الحركة الاشتراكية ٠ اذ أن تقـدم الصناعة الرأسمالية سيؤدى الى تحسين حياة الطبقة العاملة وستصبح زيادة الانتاج ممكنة عن طريق تحسين حال المجتمع ، ومن ثم فان ضرورات الرأسمالية نفسها ستجعل من =

كان لنين قد قرأ بعض مقـــالات برنشتين فى صـــحيفة فرانكفورت (فرنكفرتر تسـايتنج) وتبين فيها أعراض التسليم بالاوهام البرجوازية.

أما كتاب برنشتين «مبادىء الاشتراكية» (١) فقـد قـراه لنين وزوجته فى منفاهما وكتب عنـه الى والدته يقـول « أن محتوياته تزيد دهشتنا باطراد ... فهو من الوجهة النظرية ضعيف الى حد لايعقل وهو من الوجهة العملية يمثل الانتهازية (٢) أو هو أحـرى بأن يعـد فى الفابيانزم (٣) اذ أن بعضـا مما يشتمل عليه من أفكار وما يتخلله من مراء يرجع الى أصول مثبتة فى كتب آل‌وب الأخيرة » .

وقد سمي « الاقتصاديون » بهذا الاسم لأنهم كانوا ينكرون أن يكون للعمل السياسي جدوى وينادون بحركة اقتصادية محضة . لقد نفخ فى أوداجهم نجاح العمال فى اضرابهم وتوفقهم الى انتزاع بعض المزايا من أصحاب الأعمال .فبدءوا ينزعون نزعة النقابية البريطانية • وقد زعموا كذلك أن العمال وصلوا فى ظل الأحوال الرأسمالية الى أن صار لهم رعى طبقي واضح . فأصبحوا لاشأن للمثقفين بهم الا أن يعينوهم فى كفاحهـــم الاقتصادى لأصحاب الأعمال ، وزعموا أنه ليس ثمة بين مطامح العـامل على الآلة وبين الجهاد الثورى للديمقراطية سوى علاقة واهية مبهمة بيد أن الساسة انما يلجـأون الى العمـال ليعتضـدوا بهم فى سـلطانهم السياسى (٤) •

= الحتم صبغ الحكومات بالصبغة الديمقراطية وتجعل الحكم القيصرى مستحيلا • ومن‌واجب الحزب الاشتراكى ان يساعد العناصر التقدمية على الاسراع فى احلال الديمقراطية فى البلاد وأن يقنع القوم أن التقدم الاقتصادى لا يمكن أن يكون تاما الا على صورة اشتراكية • وهذه الخطط لا حاجة فى تنفيذها الى فرض نظام صارم أو الى القيام بأعمال مفعمة بالبطولة ، الا في البلاد التى ترزح تحت الطغيان الاسود مثل روسيا ، وهى كذلك لاتقتضى تحديدا دقيقا للاغراض المنشودة • .

ويعرف اتباع برنشتين باسم التنقيحيين اى المطالبين بتنقيح المبادىء الماركسية . • وليست الهوة التى تفصل بين هؤلاء الاشتراكيين وبين الاحرار الاصلاحيين بالواسعة فمن الممكن عبورها عندما تدعو الى ذلك الحاجة .

(١) وقد طبع فى انجلترا باسم « الاشتراكية التطورية »

(٢) opportunism

(٣) اشتق اسم الجمعية الفابية فى بريطانيا من اسم القائد فابيوس كنكتاتر الذى حارب هانيبال •

(٤) ومع هذه الآراء فقد كان بيتر ستروفه وزمرته المنادون بسيادة البرجوازيين يؤمون منتديات العمال لسبب آخر ، ذلك أن المراتب الدنيا من المجتمع هى التى كانت أكثر من غيرها استعدادا للعمل •

كانت تلك السياسة مناقضة كل المناقضة لسياسة لنين التى كان من همها أن تربط كل معارضة للنظام القائم، بالغة من الضآلة ما بلغت، بكفاح عمال المصانع فى سبيل الخبز والزبد حتى تلتقى كلمة الشعب بأجمعه على المناداة بالثورة ، على أن يكون لحزب لنين الاشتراكى اصدار الأوامر التوجيهية اذ كل الشئون الروسية تهم الاشتراكية السياسية .

كان پيتر ستروفه ، مع رغبته فى تحرير بلاده من بقايا الملابسات الآسيوية والعلاقات البطريركية بين الانسان والانسان ، يرى أن الوقوف عند مطالب الطبقة العاملة الثورية والتشبث بها مما يثبط الهمم ويقوى الرابطة بين القيصرية وسادة الانتاج فمن الواجب ترك أحزاب مثقفى البرجوازيين والأحرار تعمل للحكم النيابى ومساعدة العمال بحمل نقاباتهم على السعى لزيادة الأجور وتقليل ساعات العمل .

وقد زعم أن ماتكهن به ماركس سنة ١٨٤٠ قد تحقق زيفه بما بدا من ارتفاع فى مستوى معيشة الطبقة العاملة فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر .

ويبدو أن الكثيرين لم يفطنوا على الفور الى مافى آراء «الاقتصاديين» من تزوير فى الوقائع وتشويه للمبدأ ولم يتبينوا ماتنطوى عليه من خطر، ولكن هناك شخصين راعهما هذا الانحراف هما پلخنوف فى غرفته الصغيرة ولنين فى كوخه الريفى ، فكانا ينظران فى شرود : الأول الى بحيرة چنيف والآخر الى قلل الجبال المجللة بالثلوج على تخوم منغوليا .

وقد أصدر جماعة من الاقتصاديين وغيرهم (١) بيانا أنكروا فيه الماركسية الثورية وعارضوا فكرة انشاء حزب سياسى للعمال ، فلما علم لنين بذلك دعا زملاءه الذين فى مستعمرات المنفى القريبة منه ، فاجتمعوا بمنزله فى قرية يرماكُسكوى حيث كشف لهم عما فى بيان الاقتصاديين من تضليل ووضح لهم أنهم يعملون على تثبيط النشاط العاملى والحيلولة دون الصراع بين راس المال والعمل ومنع استفحال التذمر الصناعى الى نهايته السياسية ، وأبان أنهم يغمضون الطرف عن المعارضة المتفاقمة للقيصرية ويتجاهلون ما لهذا النظام من آثار سيئة فى حياة الفلاحين والمثقفين وأنهم يغضون كذلك على الرياسة الكهنوتية المتعددة الرءوس قاصرين اهتمامهم على اعتصار كوبيك (مليم) آخر من أصحاب الأعمال .

---

(١) بروكوبوفتش وكمزكوفا الخ .

وصدر بيان دبجته يراعة لنين ووقعه معه ١٧ منفيا سياسيا فى مديرية مديرية منوسنسك ، يحمل على بيان « الاقتصاديين » (١) ، وقد وزع هذا البيان على الجماعات الماركسية المنبثة فى جميع أرجاء البلاد ، وكان له شأن عظيم فى نمو الماركسية والحزب الماركسى فى روسيا .

وحمل لنين بعد ذلك على ستروفه وزمرته فى رسالة له أسماها « انعكاس الماركسية فى الآداب البرجوازية » .

ولقد سيطر «الاقتصاديون» على الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية بضع سنوات أخلوها فيها من كل نشاط ثورى ، بيد أن الموجة الثورية كانت مستمرة فى الارتفاع ، ولهذا أدى تخلف الاشتراكيين الديمقراطيين عن مجاراتها الى ظهور حزب ثورى جديد يضم أولئك الذين كانوا قبل يقومون بالحركات الارهابية ويسمون بالاشتراكيين الثوريين(٢) واعضاء هذا الحزب ثوريون خلص ولكنهم ليسوا من الاشتراكية فى شىء وانما هم ديمقراطيون من صغار البرجوازيين وقفوا انفسهم على الاصلاح الزراعى دون أن يقلعوا عن الارهاب الفردى .

كان لنين يرى أن انحراف الأمور عن الطريق السوى يرجع الى انه هو وصحبه فى المنفى بسيبيريا وان بلخنوف واكسلرد فى المنفى بسويسرا، مما يسر انتقال قيادة القوى الثورية الى ستروفه ولم تكن فيه الكفاية للاضطلاع بها (٣) .

وقد نشر لنين فى ابريل ١٨٩٩ كتابه العظيم «تطور الراسمالية فى روسيا » الذى كان قد بدأه فى السجن وأتمه فى المنفى ، وفيه حمل على الناردنيين وعلى الماركسيين الشرعيين (٤) من البرجوازيين المثقفين الذين انجذبوا الى آراء ماركس اذ رأوا أنها تسوغ قيام الرأسمالية الصناعية (٥) فى التاريخ ، فقد انتفع سادة الآلات الى جانب خدامها

---

(١) وكان لنين قد اراد أن يضمن البيان حكما قاسيا على مذهب الاصلاح الذى يقول به برنشتين ، ولكن أصدقاءه أبوا عليه ذلك .

(٢) Socialist-Revolutionaries

(٣) ولم يلبث ستروفه أن انتقل من الاشتراكية الى مذهب الاحرار (ليبرالزم) ثم انتهى به المطاف الى مناصرة الحكم المطلق .

(٤) legal ، وقد أسموا بهذا الاسم لأنهم كانوا يكتبون مقالاتهم فى صحف رخصت فى اصدارها الحكومة .

(٥) وهى الطور الاول من اطوار النظام الراسمالى وفيه تكون الرأسمالية من أسباب تقدم البلاد ، وقد انتهى هذا الطور فى أوربا الغربية فى نهاية القرن التاسع عشر =

بالأفكار الماركسية فى استنباط النظريات المعززة لهم من الوقائع الماثلة أمامهم ، واستغل الرأسماليون هذه الأفكار في دعم سلطان الرأسمالية اذ كانت لاتزال غير وطيدة الأساس ، وبذلك أصبح الدعاة الى هذه الأفكار أمثال بيتر ستروفة من الطلائع حقا ، ولكن من طلائع البرجوازيين لا العمال ، ومما يؤيد ذلك أنهم كانوا يحجمون عن الدعوة الى الثورة البرولتارية .

وندد لنين فى ذلك الكتاب بالناردنيين وسفه مايزعمون من أمكان انشاء دولة للفلاحين تنجو من شرور الرأسمالية ، وأوضح بالاحصاءات أن الزراعة نفسها قد غدت رأسمالية (١) ودحض فى الوقت نفسه مايزعمه الماركسيون الشرعيون من أن النظام الرأسمالى مقضى عليه قضاء مبرما بالانهيار دون حاجة الى كفاح منظم من قبل العمال والاشتراكيين .

وقد احتدم الجدال بين اللنينيين وخصومهم عندما أضرب عمال مصانع ايفانو ـ فوزنسنسك لنسج القطن والكتان فى ديسمبر من سنة ١٨٩٩ واشتدت القلاقل فى أرجاء البلاد ، وكان الشيوعيون ينشرون مقالاتهم فى صحيفة «هدف العمال» التى كانت تطبع فى الخارج . وقد أقر لنين أكسلرد على أن ثم صخرتين غاطستين يجب على من بيدهم دفة الخطط الثورية أن يتنكبوا عن الاصطدام بها تحاميا للتحطم :

الاولى . الاندفاع فى تشتيت ماتحت أيديهم من قوة ونشاط فى معارك بين العمال وأصحاب الأعمال على مسائل صناعية محضة .

والأخرى . نفاد الصبر فى أثناء التأهب للثورة فى الوقت المناسب ، مما يدعو الى معاضدة الثورات التى تسير فى سبل مخطئة ، كثورة يقوم بها ـ مثلا ـ أتباع باكونين (٢) من الفوضويين .

= وتلاه طور الرأسمالية الاحتكارية وفيه تكون الرأسمالية من عوامل التخلف والتقهقر وبواعث الحروب والنكبات .

(١) فحلت الملكية الفردية الخاصة محل الكومونات الزراعية وأصبح الملاك الجدد يستعملون الآلات الحديثة ويستأجرون الفلاحين لانتاج المحصولات .

(٢) ولد الفوضوى الروسى ميشيل باكونين سنة ١٨١٩ وأقام فى باريس فترة عرف فيها جورج ساند وبرودون وتآزر مع زعماء المهاجرين البولونيين فطرد من فرنسا تلبية لرغبة الحكومة الروسية ولكنه عاد اليها سنة ١٨٤٨ نشبت فيها الثورة المعروفة، وكان يقوم بنشاط كبير فى أوروبا الوسطى عرضه للاضطهاد الشديد . وفى سنة نفى الى سيبيريا فهرب منها الى سويسرا وانتظم فى الدولية العاملة ، وكان على خلاف مع كارل ماركس . وتوفى فى برن سنة ١٨٧٦ .

وقد أعلن بلخنوف وجماعة تحرير العمال فى أوائل سنة ١٩٠٠ الحرب على ماأسموه الجماعة المضادة الثورة . وكانت كثرة اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين من أنصار «الاقتصاديين» فهم يرون أن البرنامج الماركسى خيالى وأن برنامجهم هو عملى . وتنحت جماعة تحرير العمال آخر الامر نهائيا عن اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين وأسست الحزب الاشتراكى الديمقراطى الثورى . ومع ذلك كان هذا الحزب الذى يصفه أعضاؤه بالتطرف ، معتدلا عند لنين . والحق أن الحركة الثورية ظلت مدة نفى لنين تتجه الى اليمين حتى أوشكت أن تخمد .

العودة من المنفى

كان لنين فى أثناء هذه السنوات الأربع التى حرم خلالها الاشتراك بشخصه في الحركة الاشتراكية يتصل بها مراسلة . وكان يلقن المنفيين مبادئه وينشر بينهم آراءه ويواصل دراسته لعقلية العمال والفلاحين .

وانتهت مدة النفى فى فبراير ١٩٠٠ (وكان لنين قد بلغ الثلاثين من عمره) فرخص له فى العودة على ألا يقيم فى بطرسبرج بل فى بسكوف وهى مدينة قديمة جنوبى بطرسبرج على تخوم استونيا . أما كربسكايا فان السلطات لم تنقص مدة نفيها من ٣ سنوات الى سنتين كما كانت تأمل حتى تتاح لها مصاحبة زوجها ، ورحلتها الى مدينة أوفا فى الأورال لتقضى مابقى من مدة نفيها .

وقد أحاط الثوريون لنين عند عودته بالترحيب الذى يحاط به الراجع من منفاه . وكانت زعامته للمتطرفين قد وضحت . واذ كانت السلطات لم تفسح له فى الانتقال الى بطرسبرج قصد اليه المتطرفون فى بسكوف .

وقد ألفاهم تورطوا فى نزاع متصل وصراع لايفتر فهم يكثرون من الحديث فى كل شىء دون أن يعرفوا بأى الواجبات الكثيرة الملقاة على

عوائقهم يبدءون ولا أى الفرص يفترصون ، فاعتوره الهم لذلك ونال منه الحزن .

وأرسل بلخنوف فيرا سسسولتش الى روسسسيا خفية لتعمل على اصلاح ذات بينهم وتوحيدجهودهم ونشر قرارات مؤتمر منسك وتنفيذها وابعاد اليأس والقنوط عنهم . ووقع اختيار المعلم فى جنيف على لنين دون غيره ليكون نائبه وممثله فى المؤتمر المنتظر ، فسافر لنين الى موسكو لهذا الغرض ، ولكن الحكومة كانت أقدر على الحيلولة دون عقد هذا المؤتمر من بلخنوف ولنين على عقده ، فاعتقلت زعماء اتحادات المجاهدين فى بلدان شتى .

ورأى لنين ، بعد السجن والمنفى ، أن من العبث أن يعود الى العمل فى العاصمة حيث يتهامس القوم وجلين فى حجرات موصدة ، فهى لا تصلح ميدانا لنشاطه . وقد كان وهو فى سيبيريا يصبو الى اصدار صحيفة يجعلها نواة لانشاء لجنة مركزية ، اذ يكون للصحيفة مجلس ادارة يهيمن على الحركة الثورية ويكفلها برعايته ويستحثها على الكفاح ويطلع على الاتحادات المحلية مطلع القمر على الأودية فى فحمة الليل . غير أن مجلس ادارة كهذا لايستطيع ، بالغة قوته مابلغت ، أن ينجز عمله الا اذا كان خلوا من المتاعب آمنا من التهديد ، ولاسبيل الى ذلك الا بالمهاجرة من البلاد والعمل خارجها . ولقد دارت مثل هذه الخطة من قبل فى رءوس ثائرين آخرين ولم يكن من العسير عليهم أن يصدروا صحفهم مرتين أو ثلاثا ، الا أن انقطاع صلتهم بما يجرى فى بلادهم من أحداث كان ينشر الضباب أمام أعينهم فيقفون عاجزين . وكان لنين يطمح كذلك أن يكون ثم الى جانب الصحيفة نفر فى داخل البلاد يمدونه بالاخبار فى انتظام ومراسلون فى الأقاليم ووسائل لتوزيع الصحيفة ومنتديات تتيسر فيها قراءتها ، فشرع يبحث عن أصدقاء يركن اليهم .

واجتمع فى پسكوف مؤتمر من الجناح الثورى للاشستراكيين الديمقراطيين فأقر الفكرة وسمى الجريدة فجعل اسمها «اسكرا» (١) أى الشرارة وجعل شعارها « من الشرارة سيندلع الحريق » (٢) وقرر أن يسافر لنين ومرتوف وبترسوف الى الخارج ليتصلوا ببلخنوف وجماعته فى المنفى .

---

(١) Iskra

(٢) وقد اقتبست هذه الجملة من قصيدة لبشكن (١٧٩٩ ـ ١٨٣٧) بعث بها الى الديسمبريين فى المنفى يحييهم بها =

وبادر لنين ، على الرغم من الشرطة ، الى السفر الى بطرسبرج ونشنى نفجرد ليتصل بمن فيها من الاشتراكيين الديمقراطيين ويطمئن الى معاونتهم ، فقبض عليه واعتقل مدة قصيرة ثم أفرج عنه فسافر الى أوفا ليعود زوجته اذ كانت قد ساءت صحتها كما زار أمه فى بلدة بودولسك .

السفر الى الخارج

وسافر فى أواخر يوليو ١٩٠٠ الى الخارج بجواز مكذوب عن طريق براج وميونخ ، وتبعته زوجه حين أخلى سبيلها بعد أشهر ، وقد لاقت عنتا فى اقتفاء أثره لما كان يصطنعه من الحذر الشديد .

وبدأ باقامتهما فى الخارج طور جديد هام فى حياته .

***

تعثرت مفاوضة لنين لسائر كتاب الصحيفة (جورج بلخنوف وفيرا سسولتش وبترسوف وباول اكسلرد ومرتوف) فى خطة اصدارها، وأوشكت المفاوضة أن تنتهى الى الاخفاق فقل عند لنين شعور الاحترام لبلخنوف .

كان أولئك الثوار المضطهدون يتوقون الى اذاعة مايتناجى فى صدورهم ، وكان يسرهم أن يروا أفكارهم مجلوة فى الصحيفة فهم كتاب قبل كل شىء ، بل لعلهم ما كانوا ليرفعوا علم الثورة لو لم يكن هذا الكلف بالكتابة مسيطرا عليهم . وقد كان لكل منهم مزية بيانية خاصة فى ابراز أفكاره على الطرس ، ولكن لنين كان لا يهتم كثيرا لتلك المقدرة على الابداع البيانى ، فان الصحيفة عنده لا تعدو أن تكون سلاحا سياسيا

= والديسمبريون نفر من الاشراف وكبار الملاك ثاروا فى ديسمبر من سنة ١٨٢٥ على الطغيان القيصرى والفساد الاقطاعى . ومنذ ذلك الوقت كان ذوو النفوس النبيلة من أبناء تلك الطبقة هم الذين يقودون الحركات المطالبة بالحرية فى روسيا ، حتى ألغيت القنانة سنة ١٨٦١ فانتقلت قيادة الحركات التقدمية الى أحرار البرجوازيين وظل لواؤها معقودا لهم حتى سنة ١٨٩٥ ثم انتقل الى أبناء الطبقة العاملة .

ومركزا لحركة تضطرب بها بلاده . وقد اختلف الفريقان أفي سويسرا تطبع الصحيفة أم في المانيا ؟ فكانوا هم يريدون مدينة يؤمهـا أكبر عـدد من المهاجرين اذ كانوا لايحتملون فراق البيئة التى شبوا فيها ، وكان هـو يؤثر الاقامة حيث لايطالعه روسي بوجهه حتى يكون بنجوة من الثرثرة والتفاهة واهدار الوقت فيما لاغناء فيه . وانتهى الامـر الى أن تطبع الصحيفة فى ميونخ حيث وجدوا تيسيرا فى الطباعة ، على أن تشرف على اصدارها لجنة خاصة . وعينت زوجة لنين كاتمة سر الصحيفة ، وكان معنى ذلك فى تلك الاحوال انها تعمل أيضا كاتمة سر الحزب ، وبذلك كان لنين صاحب الرقابة الفعلية على الصحيفة والحركة معا ، وهكذا نراه وهو لا يزال بعد في الثلاثين من عمره يتبوأ منصبا خطيرا في الحـــركة الاشتراكية .

كان لنين أول مقامه فى ميونخ يثوى فى فندق صـغير لرجـل من الاشتراكيين الديمقراطيين . وكان يستتر وراء اسم ماير ، وكانت نافذة غرفته تطل على فناء خلفي للفندق تكتنفه جدران قذرة تشمئز منها النفس كان يلعب فيه الصبية وهم يتابعون الصراخ والضجيج ، وكان صاحب الفندق يكثر من الحديث الى لنين عن قسوة الوقت وندرة النقود وثقل وطأة المنافسة وضرورة الاشتراكية ، فلما أتت كربسكايا من روسيا انتقل لنين معها الى منزل صغير فى ناحية شفابنج وزوداه بأثاث بلغ من حقارته أن باعاه حينما غادرا المدينة باثنى عشر ماركا (٦٠ قرشا ذهبا) . ولم يكن لنين يتدخل في الحركة الاشتراكية الألمانية وان كان قد اجتمع مرة أو اثنتين ببعض زعمائها وفى مقدمتهم روزا لكسمبرج التى لقيت مصرعها هى وكارل ليبكنشت ابان الحركة الاسبارتكوسية (١) التى انبعثت بعد الحرب العالمية الأولى .

وكان القوم قد استقر رأيهم على أن يصـــدروا الى جانب الاسكرا صحيفة اخرى يخصص الجانب الأكبر منها للمسائل الاشتراكية النظرية واختاروا لها اسم « زاريا » يعنى السحر (بفتحتين) . ودبج

---

(١) وقد أسميت كذلك نسبة الى سبرتكوس Spartacus المولود سـنة ٧١ ق . م ، وهو ينحدر من أصل نوميدى (ونوميديا قسم من بلاد البربر كانت فيما مضى مقاطعة رومانية وهى بلاد الجزائر الآن) وقد كان مساعدا فى الجيش الرومانى ، ثم ما عتم أن تمرد على العبودية المقنعة التى أحسها فى عمله فركن الى الفرار ، فقبض عليه وبيع بيع الرقيق على أن يكون من المصارعين الذين يتسـايفون فى المسـارح gladiator فقام على رأس فرقة من رفاقه باثارة ثورة انضم اليها ٧٠٫٠٠٠ عبد حاول أن يغـزو بهم روما فلقى ضروبا من المحن ومات فى حومة الوغى ميتة الأبطال .

لنين بيانا أذاعه مجلس كتاب الصحيفتين فى منشور طبع فى سبتمبر سنة ١٩٠٠ جاء فيه ٠

« يجب علينا معشر الاشتراكيين الديمقراطيين أن يندمج بعضنا فى بعض وأن نوجه جهودنا جميعا لانشاء حزب قوى يجعل ديدنه قيادة الكفاح تحت الراية المتحدة للاشتراكية الديمقراطية الثورية ، وهـذا عينه مارسمه مؤتمر سنة ١٨٩٨ الذى فيه تكون حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى وأذاع بيانه . وانا لنعد أنفسنا اعضـاء فى ذلك الحزب ... »

الاسكرا

وصدر العدد الأول من الاسكرا فى حاضرة بافاريا فى ديسمبر من سنة ١٩٠٠ ، وقام بعض أعضاء الاشتراكية الديمقراطية الألمان كالدكتور ليمان وديتس وأدلف برون وكلارا تستكن بتهريب الصـحيفة عابرة التخوم فى حقائب مزدوجة القاع ، وكانت تطبع على ورق بالغ فى الرقة والمتانة حتى يسهل تهريب قدر كبير منها .

وعظم اثر الاسكرا فى روسيا وبخاصة لأن الرقابة الروسـية كانت فى ذلك الوقت قد حظرت على الصحف أن تتناول بالبحث عددا وافرا من المسائل ، فجعل الناس يستمدون من الاسكرا ما كانوا فى حاجة أليه من آراء وتعبيرات ومصطلحات . وأمكن اعادة طبع بعض أعداد منها فى روسيا ، وجعلت بعض المطابع السرية تطبع البيانات باسم الاسكرا . وكانت خيوط الجماعات كلها تنتهى الى زوجة لنين فكانت تتلقى الرسائل وتجيب عن الأسئلة وتذيع التحذيرات وتمد شتى اتحادات المجاهدين بالأخبار والصحف ، وبذلك كان لنين يشرف على عمل تلك الآلة المعقدة .

كانت الحكومة القيصرية ترى فى لنين أشد الناس عداوة لهـا وأشدهم خطرا عليها ، وقد أثبت ضابط من رجال الأخرانا فى تقرير سرى له الكلمة الآتية : « ليس فى عالم الثورة اليوم أعظم من أليانوف »

وأشار باغتياله . وقد ندمت الحكومة القيصرية من بعد لتفريطها فى القضاء عليه مبكرا ولأنها أتاحت له أن يفلت بعد أن وقع فى براثنها غير مرة .

ووفد ستروفه الى ميونخ وأقام بها شهرين ، وكان لنين يضيق به ذرعا ويرى من مقترحاته انه يبيت للاسكرا شرا وأنه يريد ان يجعلها رهن مشيئته . وقد كان لنين يرغم أحيانا على قبول العون ممن لا يثق بهم ، غير أنه كان اذا ساء ظنا بأحد ظل سوء ظنه به يزداد ويتفاقم . وقد كتب فى فبراير ١٩٠١ الى أكسلرد يشكو اليه مضايقة ستروفه اياه قائلا « ان يهوذا لم يرحل بعد » .

واحتدم الخلاف بين جناحى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، فعقد فى أكتوبر ١٩٠١ مؤتمر فى زيورخ للتوفيق بين الجناحين . ولكن لنين وقف موقفا لم يدع الى التوفيق سبيلا . فهو فى تلك الحقبة لم يكن ثوريا بالنسبة للحكومة فحسب بل كان ثوريا بالنسبة للثوريين كذلك ، يقاوم رفاقه بمثل القوة التى كان يقاوم بها السلطات ، حتى زايل بعضهم كل أمل فى نجاحه وأوشكوا أن يحسبوه مجنونا .

على ان أنصاره فى روسيا قد ازداد عددهم ، واليهم يرجع الفضل فى ما وقع فى ربيع ذلك العام فى موسكو من قلاقل اعتقلت بسببها منياشا صغرى شقيقاته ، وقد أمضه ذلك الاعتقال اذ كان كثير الحدب على أسرته .

ماذا يجب أن نعمل ؟

وقد أنتج لنين خلال رياسته لتحرير الاسكرا انتاجا صحفيا عظيما ، وكان لا ينشر فى الصحيفة مقالا الا ما كان مخصصا لخدمة الغرض الجوهرى البعيد .

لقد كان يعلم فى ذلك الوقت أن نمو الحركة العمالية واقتراب الثورة

يقتضيان أن يكون هناك حزب عمالى مركزى موحـــد يتولى قيادة الحركة الثورية ، وكان يرى أن ذلك متعذر لما كانت عليه الجماعات الاشتراكية من اضطراب فى التفكير وفوضى فى التنظيم ولما كان يساور بعض زعمائها وأصـــحاب الصحف الصـــغيرة التى تنطق عنها من خوف ان تنزل مكانتهم اذا نشـأ حزب موحد . وكان « الاقتصاديون » ماضين فى ترديد دعواهم أنه ليس ثمـة ضرورة لحزب موحد وأن مكافحة القيصرية من مهام البرجوازيين قبل غيرهم ، أما العمال فواجبهم الأول أن يكافحوا أصحاب الأعمال وأن يسعوا الى زيادة أجورهم وتحسين الأحوال التى يعملون فيها ومطالبة الحكومة بأن تسن تشريعا يصون مصالحهم وأما الاشتراكيون فيجب ألا يبثوا الوعى الاشتراكى فى رءوس العمال بل يتركوا حركة العمال فى نموها الطبيعى حتى يصل العمال من تلقاء انفسهم الى الوعى الاشتراكى .

وأيقن لنين أن الخطـوة الأولى لانشـاء الحزب الاشـتراكى هى محق « الاقتصاديين » فجرد نفسه لذلك ولرسم سـياسة الحزب ، وكتب مقالا نشره فى الجزء الرابع من الاسكرا الصادر بتاريخ مايو ١٩٠١ عنوانه « من أين نبدأ ؟ » أعاد طبعه مفصلا فى مارس ١٩٢٠ فى كتـاب بعنوان « ماذا يجب أن نعمل ؟ » حمل فيه على الجناح الأيمن من الحزب الاشتراكى ، أى على « الاقتصاديين » الذين أصدروا صحيفة « هدف العمـال » وأظهـــر :

١ ـ ان صرف العمال عن الكفاح السياسى على حين أن أصحاب الأعمال ما فتئوا ماضين فيه هو قضاء على العمـال بالعبودية الدائمة ، أما الكفاح الاقتصادى فهو كفاح نقابى غايته الحصول على شروط أحسن فى بيع قواهم العمالية للرأسماليين . ويريد العمال فوق ذلك الغاء النظام الرأسمالى نفســه ، ذلك الذى يقضى عليهم بأن يبيعوا قواهم العمـالية للرأسماليين ويسخرهم لاســتغلالهم ، ولـكن العمال لا يستطيعون المضى فى كفـاحهم لازالة الرأســمالية واحلال الاشتراكية محلهـا ما دامت القيصرية ـ وهى كلب حراسة الرأسمالية ـ تقطع عليهم سـبيل الحركة العمالية ، ومن ثم كان أول واجب عليهم هو أن يزيلوا القيصرية من الطريق فينجلى الطريق أمام الاشتراكية .

٢ ـ أما نظرية « الاقتصـــاديين » فى وجوب تنحى الاشـــتراكيين عن قيادة الحركة العمالية فقد نبزها لنين بالذنبية لأنها تريد لهم أن يتخلفوا عن الحركة وأن يكون مكانهم من الطبقة العاملة مكان الذنب(١) وأوضح أن

(١) أما بلخنوف الذى كان أخصب أسلوبا فقد كتب فى الاسكرا يقول : « ان الاقتصاديين لا يستطيعون شيئا غير الحملقة الى اعجاز الطبقة العاملة » .

معناها ترك الطبقة العاملة بغير سلاح تحت رحمة القيصرية التى هى مسلحة حتى فرعها وتحت رحمة البرجوازية التى هى منظمة تنظيما حديثا ولها حزب خاص بها يقودها فى مكافحة الطبقة العاملة ، وهذا يعنى خيانة الطبقة العاملة ٠

٣ ــ واستهجن محاولتهم التقليل من قيمة « النظرية » فى عينى الحزب ، ومن قوله فى ذلك :

« بدون نظرية لا (يمكن أن) تكون حركة ثورية ٠٠٠ وان الذى يستطيع أن يقوم بدور الطليعة انما هو حزب يهتدى بأكثر النظريات تقدما » ٠

٤ ــ وأظهر أنهم يغررون بالطبقة العاملة اذ يحاولون أن يلقوا فى روعها أن التفكير الاشتراكى قد يتولد من حركات العمال التى يقومون بها من تلقاء أنفسهم ، على حين أن التفكير الاشتراكى لا ينجم من حركات العمال العارضة بل من العلوم والمعارف العالية التى لا ينهض بتقديمها لهم الا أفراد من مثقفى الطبقة البرجوازية ، قال :

« ان تاريخ الدول جمعاء يثبت حقيقة واقعة ألا وهى أن الطبقة العاملة لا تستطيع بجهودها الخاصة أن تحرز الا وعيا نقابيا أى الاقتناع بضرورة التجمع فى اتحادات لمكافحة أصحاب الأعمال ولمطالبة السلطات بسن تشريعات لنفع العمال الخ ، أما المبادىء الاشتراكية فتتولد من نظريات فلسفية تاريخية اقتصادية استنبطها أناس من أفراد الطبقة ذات الملك نالوا حظا كبيرا فى التعليم وهم المثقفون ٠ ان ماركس وانجلز مبتدعى الاشتراكية العلمية الحالية ينتميان هما أنفسهما الى المثقفين البرجوازيين ٠ ولقد نمت النظرية الاشتراكية الديمقراطية فى روسيا بالطريقة نفسها مستقلة كل الاستقلال عن النمو الذى نمته حركة العمال من تلقاء نفسها ــ بوصفها تطورا طبيعيا محتوما لأفكار المثقفين الثوريين » ٠

فهو يرى أنه ينبغى للأحزاب الاشتراكية الديمقراطية ألا تنتظر تنبه الطبقة العاملة وتهيؤها للعمل ، بل أن تقف منها موقف الطليعة والمنظم ، وذلك يقتضى شيئين :

١ ــ نظرية علمية للثورة ٠

٢ــ جماعة من الثوريين ذات كفاية عظيمة ٠

فأما النظرية فان ماركس وانجلز قد أتحفا بها الطبقة العاملة ، ولولا ذلك لما كان فى وسع أية طبقة عاملة فى العالم أن تصل الى وعى سياسى كامل ٠

بيد أن على الاشتراكية الديمقراطية الروسية عنده تبعة خاصة :

« لقد فرض التاريخ علينا واجبا أكثر ثورية من الواجبات المفروضة مباشرة على الطبقه العامله فى أية دولة أخرى . وأن القيام بهذا الواجب ، أعنى تحطيم قوى معقل من معاقل الرجعية الاوربية ، وقد نقول الأسيوية ، ليجعل من الطبقة العاملة الروسية طليعة الثورة العمالية . واننا لأحرياء بأن نعتقد أننا سنحرز هذا اللقب من ألقاب الشرف ، الذى استحقه حقا أسلافنا ثوريو العقد الثامن ، اذا استطعنا أن نبث فى حركتنا - وهى تربو على حركتهم ألف مرة تركيزا وعمقـــا - مثل ماكان لهم من جرأة ونشاط مطلقين » .

٥ - ويخلص من كل ما تقدم أن « الاقتصاديين » لا يعملون لاذكاء نار ثورة اجتماعيـــة بل هم ينشـــدون اصلاحا اجتماعيـــا فى ظل الحـــكم الرأسمالى .

٦ - وليس هؤلاء « الاقتصاديون » بالشىء الذى أوجدته المصادفات فى روسيا ، ولكنهم آلة البرجوازيين لفرض نفوذهم على العمال ، شأنهم فى ذلك فى روسيا شأن التنقيحيين **revisionists** أتباع برنشتين فى ألمانيا ، وغيرهم ممن ارتدوا عن الماركسية متذرعين باسم الحرية فى نقد ماركس ، وأنكروا الثورة الاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا .

ويعد كتابه هـــذا على جانب كبـــير من عظم الشأن لاشـــتماله على الصورة الأخيرة للخطط التى أتاحت له أن ينتصر والتى ظل شيوعيو البلدان الرأسمالية يهتدون بهديها حتى اليوم ، وقد طلب لنين فيه قطع العلاقة قطعا تاما بكل التقاليد القديمة المشتقة من أنصار باكونين ومن أحرار البرجوازيين ذوى العواطف الجياشة ، **التى تؤمن باذكاء نار الثورة عن طريق الاهابة بما فى الشعب من ايمان بما وراء الطبيعة مما ينزل بالأفكار الماركسية « الى مستوى فهم الطبقة المتأخرة من الجمهـــــود »**

فليس من المتوقع فى مجتمع شب على التربية الرأسمالية وتحت الضغط الرأسمالى أن تفهم كثرته الأفكار الماركسية فهما صحيحا « فاللجوء الى الكثرة انما هو لجوء الى محكمة رأى جمهرة المحلفين فيها على الضد من الثورة . وهل كانت جمهرة الشعب فى فرنسا أو انجلترا أو أمريكا فى جانب الثورة ؟ فلم يظن أن ستكون كذلك فى روسيا ؟ »

***

كان لنين يحارب النظام القائم محاربة الند للند ويقف منه موقف قائد الأعداء ، وكان ميدان قتاله يشمل أكواخ الفقراء وقصور الأغنياء فى العواصم والأقاليم ، بيد أنه لم يكن يستطيع اصـدار الأوامر الى أتباعه بالصرامة التى يستطيعها قائد الجيش ، ولم يكن جنوده بخير من أولئك المسيحيين المتحمسين الذين كان يشير اليهم الهجـاء الرومانى لوسيان فى منتصف القرن الثانى ساخرا اذ يقول انهم يضيعون أوقاتهم فى التنقل من خان رومانى الى آخر وهـم يتوهمون أنهم ينجزون جسـام الأعمـال بافضائهم الى أصدقائهم بقصص خرافية كتلك التى تحكى للأطفال ويأكل الحسد قلوبهم فى الطرقات حيث يؤكدون وقد جللتهم القذارة وركبهم القمل أنهم مندوبون لانقاذ العالم . وقد كان لوسيان يرى أن أولئك الاسرائيليين المتنصرين الهاتفين من آسيا الصغرى قد ولدوا بمعد خالية ورءوس خاوية ، وأن الناس ماضون فى طريقهم دون أن يلقـوا بالا الى أولئك الثائرين الذين تلهج ألسنتهم بحديث الفداء .

رأى لنين أن يجمع من يسميهم بالثوريين المحترفين ويدربهم على شتى أنواع العمل ، فقال فى مقاله « من أين نبدأ ؟ » :

« يجب تدريب الرجال الذين يخصصون للثورة لا أمسياتهم الخالية من المشاغل فحسب بل حياتهم كلها » .

وقال :

« لقد ارتقى الفكر السياسى الى مستوى .. يجعل من الواضح أنه من المستحيل على أية طبقة أن تمضى فى أى نوع من أنواع الكفاح الفعال فى هذا المجتمع الحديث ، ما لم يكن لديها عشرة من الزعماء ذوى المواهب (وليست المواهب مما تفطر عليها المئات) مدربون على النهوض بواجباتهم، مزودون بخبرة السنين الطوال » .

وقال :

« سيكون فى وسعكم دائما أن تظفروا لهذه الحقيقة العظيمة باستحسان مئة من الحمقى . وسأستمسك بهذا المبدأ مهما يكن من تأليبكم الجماهير على موقفى والمضاد للديمقراطية ! . هذا وأنا ـ كما كررت مؤكدا ـ انما أعنى بالرجال ذوى الكفاية فيما يختص بالشئون التنظيمية ، الثوريين المحترفين دون غيرهم ، من الطلبة كانوا أو من العمال » .

ثم قال محبذا تكوين كوادر Cadres من الثوريين المحترفين ينبثون فى أوساط العمال فيحيون آمالهم ويتولون قيادتهم عندما تحين الساعة الملائمة .

« الغلطة الأولى هى الفكرة القائلة ان وعى الطبقةالسياسى يمكن أن ينشأ وينمو فى العمال من داخل صفوفهم ، أى أن يتولد من الكفاح الاقتصادى ... ان وعى الطبقة السياسى لا يمكن أن يبث فى شعور العمال الا من الخارج ، أى من خارج الكفاح الاقتصادى ، من خارج دائرة العلاقات التى بين العمال وأصحاب الأعمال » .

وعاب لنين طرق الكفاح التى كانوا يجرون عليها فى أيامه فقال :

«لقد جرت العادة أن تمحق الشرطة المحاولة الأولى للعمل محقا تاما سريعا ، ويرجع ذلك الى أن تلك المحاولات لم تكن وليدة خطة منظمة مدروسة بعناية ومعدة فى الخفاء لكفاح طويل لا يعرف الفتور اليه سبيلا، بل هى بكل يسر النمو الطبيعى لنشاط المنتديات فى ظل أساليبها التقليدية ... على أنه ما ان ابتدأت الحملات الجادة التى بدأت مع اضراب صيف ١٨٩٦ حتى أخذت عيوب جماعاتنا الكفاحية تبدو فى جلاء يزداد باطراد ... لقد اندفعنا الى الموقعة كالفلاحين الذين يتركون المحاريث دون أن يكون فى أيديهم شىء غير الهراوات » .

ويؤخذ من الكتاب كله أن لنين يدعو الى حشد كوادر من «الثوريين المحترفين» أى عدد من الرجال والنساء يقضون وقتهم كله فى اذكاء نار الثورة وتحسين فن اثارتها ، أنه يطلب الى هؤلاء الثوريين أن يوطنوا نفوسهم على احتمال كل مشقة وألم وأن يذعنوا اذعانا تاما للحاكم المطلق الذى يقع عليه الانتخاب وتكون هذه الكوادر فى مرتبة جماعة أركان الحرب فهى التى تبين للعمال وغيرهم متى يضربون ومتى يعملون ومتى يقاتلون ومتى يقتلون .

لو أن فكرة كهذه طرحت فى أوربا الغربية لما ظفرت بالقبول . نعم ان شيئا من هذا القبيل دار فى خلد لاسال (١) اذ حلم بقيادة جيش من عمال الصناعة ، ولكن نصف قرن كان قد انصرم منذ ذلك الحين ، تطور فيه تفكير العمال فأصبحوا لا يذعنون لزعمائهم مثل هذا الاذعان .

لقد كان التنظيم الثورى مخالفا بعض المخالفة لما أورده كارل

---

(١) ولد فردناند لاسال Lassalle فى برسلاو سنة ١٨٢٥ لتاجر يهودى ثرى ، وكانت له صلة باحدى الكونتسات وحبس لأسباب من هذا القبيل ، ثم حكم عليه سنة ١٨٤٨ بالسجن ستة أشهر لاشتراكه فى المظاهرات الديمقراطية فى دسلدرف ، وأنشأ حزبا للعمال فحكم بسجنه مرة أخرى سنة ١٨٦٢ . وكان يدعو الى الاشتراكية الحكومية، ومات فى جنيف سنة ١٨٦٤ قتيلا فى مبارزة .

ماركس في الصفحات الأخيرة من كتابه « رأس المال » مغايرا لما ألفته الجماعات الصغيرة العاملة ، فعلى الخطباء الثوريين منذ اليوم أن يقلعوا عن الخطابات الفياضة والاشارات المسرحية وأن يقفوا مخرسين فى الصفوف الأخيرة من العاملين للحركة ، عليهم أن يعملوا بدل أن يتكلموا . وقد كان الكثيرون ممن يتصدرون الحركة لا يخشون شيئا خشيتهم أن يتركوا النظريات الى الأعمال ·

وقد صعق بلخنوف ومرتوف وأكسلرد وأضرابهم من الثوريين اذ وقفوا على ما فى كتاب « ماذا يجب أن نعمل ؟ » · لقد وجدوا أنفسهم بين يدى رجل جبار يطلب لنفسه سلطانا دونه سلطان القياصرة ·

وقد رد عليهم لنين قائلا ان حب الحرية من أهواء البرچوازيين · وكتب مرة « ان الوقت لن ينتظر ، وان أعداءنا كذلك فى ازدياد مطرد » .

ميونخ تضيق بالبلاشفة

وفى أوائل سنة ١٩٠٢ أصبح من المتعذر الاستمرار فى اصدار الصحيفة فى ميونخ بسبب ما خامر الطابع من الخوف ، كما أن كتاب الصحيفة ضاقوا ذرعا بمضايقة الشرطة الالمانية لهم فاستقر رأيهم على أن ينتقلوا من ميونخ الى بلد آخر ، وكان هذا الانتقال ضربة شديدة على العمل ، فقد كان العمل كله يدار من ميونخ ، سواء فى ذلك الاتصال بمن يعملون فى روسيا والاتصال بمن يهاجرون منها الى الخارج ، وكان العمل قد نظم حديثا وتغيير مقر العمل يقتضى اعادة تنظيمه ·

ومع ذلك سر جورج بلخنوف وفيرا سسولتش بهذا التغيير ، اذ كان هو — على اعجابه بالفلسفة الالمانية الكلاسيكية — يؤثر الدول التى تبز آلمانيا فى الاخذ بالنظم الغربية ، وكانت هى ما تزال تحن الى ماضيها الارهابى ولا تميل قيد شعرة الى الطرق الماركسية التى أجمع زملاؤها الرأى على انتهاجها، وكانت تصف الاشتراكيين الديمقراطيين الالمان بقولها « ان شأنهم هو هو دائما ، فسيقضون على مذهب المنقحين ويعودون الى

ماركس ويقومون بما يحقق لهم الظفر بالكثرة الغالبة ثم يستمرون بعد ذلك لله في العيش في كنف الامبراطور » . اما اكسلرد فكان على النقيض منهما يميل الى الالمان ، بيد أن الزعماء الثلاثة كانوا ـ على ما بينهم من تشعب الاراء وتباين المشارب والأهواء ـ تنتظمهم صداقة ، وثيقة العرى. وكان لهم صوت بعيد في ارجاء أوربا ونفوذ قوي في معسكر الاشتراكية الدولية ، وكان لنين شوكة في جنوبهم ، فان ذلك الشاب القادم حديثا من روسيا ، الذي له من العمر ٣٣ عاما كان اذ يتحدث اليهم معارضا أو موافقا يتحدث بلهجة حاسمة كأنما هو صاحب الامر فيهم ، فكان أكسلرد يعارضه لغلوه في التطرف وكانت فيرا تعارضه لكثرة ما يلجأ اليه من تحليل أسباب الثورة وعوامل نجاحها ـ فهي تعبد الهة الثورة وترى في هذه التحليلات مروقا وتجديفا ـ ولانه بلغ من القحة أن كان لا يحمل مطلقا كلامها محمل الجد • أما بلخنوف فكان يعارضه لهذه الاسباب ولغيرها •

واختلف الكتاب الستة في المكان الذي هو أجدر أن ينتقلوا اليه فرأى بلخنوف وأكسلرد أن يؤموا سويسرا ولكن الباقين آثروا لندن •

في لندن

وحطوا رحالهم في العاصمة البريطانية في أبريل ١٩٠٢ وأقاموا بها زهاء عام قبل أن يعودوا بادارتهم الصحفية الى جنيف (١) وكانت صلاتهم في لندن أوثق مما كانت في ميونخ ، وكان ذلك يتيح لهم فرصة أوسع لتطارح الآراء فيما بينهم •

وقد كانت ادارة الصحيفة مسرحا لمشادات غير قليلة بين بلخنوف من جهة ومرتوف وبترسوف من جهة أخرى . لقد كان صيت بلخنوف من

(١) غير أن بلخنوف واكسلرد احتفظا بمسكنيهما في سويسرا وكانا يختلفان الى لندن بين حين وحين للبحث والمناقشة •

حيث هو مفكر ماركسي ومنشيء للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي دائما ، الا أنه كان شكسا يعسر معه التفاهم ، حتى نفد اوشك بعنجهيته وحبه للسلطان أن يلقى بالعمل كله مرة بعد أخرى فى هاوية البوار والدمار لولا أن الكتاب الذين يصغرونه فى السن كانوا يتقبلون منه ذلك فى مسأناة وحلم ، فكانت الاسكرا تصدر ـ مع غض النظر عن منازعاتهم الداخلية ـ ممثلة فى نظر العالم الخارجى جبهة كفاح موحدة .

نظام حياته

وكان لنين قد تعلم الانجليزية فى سيبيريا وخيل اليه أنه يستطيع أن يتكلمها فى لندن ، ولكنه اكتشف عند المحاولة الأولى أنه ليس ثمة من يفهم انجليزيته من الانجليز الا من كان منهم يحذق الروسية فشرع يتلقى دروسا فى اللغة على انجليزى كان هو قد أيدى اليه يدا فى روسيا ، فكان لنين يلقن منه الانجليزية ويلقنه الروسية وكذلك ثابر على حضور الاجتماعات التى كانت تعقد فى الهواء الطليق فى هيدبارك ليروض أذنيه على تفهم اللهجة الانجليزية وليتصيد كذلك بعض الجمل الثورية ، وكان يؤم الكنائس الاشتراكية التى كانت اذ ذاك ، وفيها كان الاشتراكيون البريطانيون يعقدون اجتماعاتهم متجشمين القيام بالمناسك والشعائر الكنسية من تلاوة وترتيل وصلاة، وكانت تلك ظاهرة جديدة للنين. وكان فيما عدا ذلك لا يتصل بالحركة الاشتراكية البريطانية الا على حرف كما كان شأنه فى ميونخ ، أما سائر كتاب الاسكرا فقد تحاموا كل اتصال بالبيئة التى هم فيها .

وكانت معيشة لنين فى لندن لا تختلف كثيرا عن ميعشته فى السجن أو فى سيبيريا أو فى ميونخ ، وقد أوى الى مسكن قريب من المكتبة British Museum التى كان يختلف اليها كارل ماركس من قبل ، والتى انما اختار هو الاقامة فى لندن لينتفع بما فيها من أسفار . وكان يعيش فى لندن باسم « رشتر » مخافة أن تقع عليه عيون الشرطة

السرية الروسية فتتعقبه وتكشف صلاته بأعوانه واتباعه فى روسيا فيوقعهم ذلك فى براثن نقولا الثانى ولم تكن حكومته تتحرج من اصطناع أعنف أساليب الارهاب ازاء خصومها ، فكان تهاون عضو فى جماعة يودى بحياة الكثيرين من رفاقه ٠

وقد ركز لنين كل تفكيره فيما كان يقصد اليه حتى لقد كان يخيل الى رائيه أنه يهيم فى حياته ولا يلاحظ من الظواهر الا ما يتصل بعمله وفيما عدا ذلك فهو لا يعى مما يحيط به شيئا ٠ وكانت قرينته تعنى بتدبير أمكنة الاقامه وشئون البيت ، أما هو فلم يكن يحتاج الا الى مكان يذرعه جيئة وذهابا والى كرسى يجلس فيه وقمطر يكتب عليه بمعزل من الناس ٠

تقشفه

وكان يعيش ، كدأبه ، من الوظيفة التى يجريها الحزب عليه بوصفه كاتبا فى صحفه أو عضوا فى لجنته المركزية ، وكانت تناهز فى لندن ٦ جنيهات فى الشهر ، ومع ذلك لم يقع مرة فى افلاس ٠ لقد كان ابان طفولته فى سمارا فى رفق من العيش ، ولم تسنح له الفرص وهو طالب فى قازان وسمبرسك أن تقع عينه على مواد الترف ، وصرفته مشاغله التى وقف عليها نفسه عن الاتجاه الى ذلك فى ساعاته العابرة ، فلما انتقل الى بطرسبرج عاش سجين بيئته وكان عليه أن يهبط بمعيشته الى حد الكفاف ، فلم يكن له من الملبس الا مايدرأ عنه الحر والقر ، ولا من المطعم الا ما يسد جوعته ويقيم أوده ، وفقد حاسة التأنق فى الحياة . وكان لا يقارف الخمر ، وطوعت له نفسه ردحا من عمره أن يمسك عن أكل اللحم ولكنه كان يستحمق من يستن سنة الامتناع من أكل اللحم ويتخذها مبدءا له ، فقد كان هو يأخذ نفسه بالصرامة فى شئون حياته المعاشية ، وقد حبته الطبيعة بالقدرة على أن يعيش فى أى مكان بأقل النفقات ، ولكن هذه الخلة فيه لم تكن وليدة الروية وانعام الفكر ولم يحاول أن يجعل التقشف برنامجه أو أن يفرضه على غيره بل لقد كان ينكر كل ضروب

التقشف والتزهد ، وانما كان يعيش كذلك استجابة لفطرته • وظل بعد أن ولى الحكم يحيا تلك الحياة الساذجة التي كان قد اعتادها من قبل ، مؤثرا الرفق في العيش والقصد فى النفقة فكان أقصى ما يسمح به لنفسه من المتاع أن يقضى شطرا من الوقت فى منزله الريفى على مقربة من موسكو وأن ينطلق فى بعض الآونة الى الصيد والقنص •وقد مكنه تقشفه الفطرى منذ الصغر أن يركز جل همه فى غرضه الوحيد الذى كان يدرك موضعه ببصيرته ويدرك مدى الشقة اليه ، ولعله كان ضروريا لزعيم الدهماء والأقنان الذى يلابسهم الشطر الأعظم من وقته أن يعيش معيشتهم ويحيا حياتهم •

وظفر لنين فى صيف ١٩٠٢ بأول عطلة نالها بعد طور التلمذة فركب البحر هو وزوجته الى بلدة لوجويفى فى بريتانيا حيث كانت تنتظرهما والدته فأقاما معها شهرا •

وبعد عودته بقليل ، فى أغسطس ١٩٠٢ ، طرق بابه فى عتمة السحر جندى جديد هو ليون ترتسكى وقد جاء فارا من سيبيريا ، وكان اذ ذاك لايتجاوز الثالثة والعشرين من عمره بيد أن مواهبه اللماحة كسبته تقدير لنين واخوانه فبرزت شخصيته فى عالم الاشتراكية الديمقراطية•

التمهيد للمؤتمر

وقر الرأى على عقد مؤتمر فى لندن وتألفت فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٠٢ فى روسيا لجنة للاعداد له ، عهدت الى لنين وبلخنوف فى اعداد منهجه ، وانفسحت مسافة الخلف بين المعلم والتلميذ ، فبينما كان لنين يرى أن يكون البرنامج صريح اللفظ حاسم المعنى كان بلخنوف يميل الى اصطناع اسلوب رجال السياسة والى التبشير بالتغيرات الاقتصادية القادمة فى تعبير طابعه الحذر ، اذا أنه كان متشككا ، كشيمة أهل العلم ، وكان يحس خطر الافصاح فى مثل هذه الأمور • وعلى عكسه كان لنين هيمان الى الادلاء فى قطع وتوكيد بما يتوقع حدوثه ، وكان يكره

المـــداورة والتحفظ وقولهم « الى درجة كبيرة أو صـــغيرة » وما الى هـذه التعبيرات . لقد كان يؤمن بالثورة ويرأها ماثلة أمـامه . كان يستطيع أن يتكهن بها تكهن الموقن وان كان لا يستطيع أن يثبت مايقول. وقد عجب بلخنوف من أن يتفوت عليه أحد أتبـــاعه في أخذ مبـــادئه بمنتهى الجد ، وساد بينهما جو من الريبة والنفور ، وقـــوى الخلاف في الرأي بما شابه من نفور شخصي ، وكثيراً مايحدث في العلاقات الانسانية أن يكون للمسائل العرضية الخارجة عن الموضوع أعظم الأثر في ســير الامور . لقد أدرك كتاب الاسكرا أن لنين أكثرهم حظوة عند الجمـاهير وأحسوا أنه ينشد السيطرة على الحزب وعلى آلة الثورة التي وصفهـا في مقاله « من أين نبـــدأ ؟ » ويبتغي بســـط ســـلطانه على ماتنشره الصحيفة ، ويريد الهيمنة من هذا السبيل على مختلف الجماعات التي في أرض الوطن ، فكانوا ينفسون ذلك عليه . وهكذا نجد لنين قـــد اجتاز اساءات السلطات الى اساءات الثوريين المعارضين الى اساءات الثوريين الذين يعملون معه . وقد صرح ترتسكي بأن لون التنظيم الذي يريده لنين يرفعه الى مرتبة الارستقراطية ، فرد عليه لنين قائلا « وما وجـــه الخطأ في ذلك اذا لم نجد عنه مندوحة ؟ »

كان لنين يريد حزبا يقوم بتنفيذ ما فصله في كتـــابه ويتخذ من كلماته شعارا له ، فقد كان يؤمن بقوته ، كان يؤمن بأنه مؤيد بروح من الله . وعندما أسس بعض الاشتراكيين جماعة أســـموها « اتحـــاد الاشتراكيين الديمقراطيين في الخارج » وأرادوا أن يكون لهـــا بعض الاستقلال عن اللجنة المركزية للحزب ، كتب لنين في أوائل فبراير ١٩٠٣ الى مرتوف :

« أعتقد أن الاتحاديين يتخيلون أنه سيكون هناك شعبتان مستقلتان، شعبة في روسيا وأخرى في خارجها. وليس في وسعنا بأية حال أن تقبل فكرة كهذه... نحن مصرون على أن اللجنة التنظيمية التي في روســيا هي التي يعهد اليها في كل شيء وعلى أنه ليس لأحد في الحزب أن يصنع شيئا الا بأمرها ... فاما الاعتراف بها والاذعان لها واما الحرب »

وفي أعقاب فبراير ١٩٠٣ سافر لنين الى باريس ليلقي محاضرات في المسألة الزراعية وليسبر الامور ، وعاد الى لندن في أواخر مارس ، ثم نزح في أبريل ١٩٠٣ الى جنيف اذ استقر رأيه ورأي رفاقه على أن يتخذوها مقرا لقيادتهم . وكان قد أصيب في لندن من بتهمة الكـفاح والارهاق المستمرين وأسلوب المعيشة المغاير لما يالف (١) بالتهاب في أطراف أعصاب

(١) وكان كذلك لا يستسيغ المطاعم الانجليزية .

الظهر والصدر فلازمه الأرق ، فصبرت زوجته نفسها على تمريضه (١) اذ كانت العناية الطبية في لندن غالية الأجر ، وكانت تسترشد في معالجته بكتاب طبى ، وتستعين أحيانا بصديق من الروسيين كان في سابق عهده طالب طب ، وكانت تدهن الاجزاء المصابة من بدن زوجها بالأيودين ، وهو ما لجأت اليه فى أثناء رحلته الى جنيف ، بيد أنه ما كاد يبلغها حتى تهافت وانهار وظل طريح الفراش أسبوعين وأقامت أسرة لنين فى سيشرون ، وهو حى من احياء العمال فى جنيف ، فى مسكن كمسكنها فى لندن وميونخ ، فالمطبخ يتخذ عند وفود ضيف قاعة استقبال ، والصناديق التى نقلت فيها الامتعة تشكل جزءا هاما من أثاث البيت ٠

المؤتمر الثانى

وأزف يوم المؤتمر الثانى وبدأ المندوبون يتوافدون على بركسل من روسيا ومن سائر الأصقاع الاوربية ، وبلغت عدتهم ٥٧ مندوبا ، وكانوا على قلة عددهم يبدون بالقياس على المندوبين التسعة الذين عقدوا المؤتمر فى منسك سنة ١٨٩٨ كثيرين كثرة أقنعت لنين بأن العمل الى نجاح ، بيد أنه لم يكن لسوى ٤٣ منهم الحق فى التصويت. وهؤلاء يمثلون ٢٦ جماعة، اذ لم يمثل بعض الجماعات غير مندوب واحد ٠ وكان من أولئك المندوبين ٣٣ من أنصار الاسكرا منهم ٢٤ من شيعة لنين و ٩ من شيعة مرتوف ٠ أما خصوم الاسكرا السافرون فكان منهم ٣ اقتصاديون و ٥ من يهود العصبة Bundists وقد أصاب بعض أنصار الاسكرا شىء من التذبذب والترجح فكان على لنين أن يبذل نشاطا بالغا حتى لا تتصدع الكتلة التى تؤيده فيظفر خصوم الاسكرا بالغلبة ٠

وبدأ المؤتمر عمله فى ١٧ يوليه من سنة ١٩٠٣ فى مخزن كبير للدقيق زين بالأعلام ، وقطع شوطا فى أداء أعماله ، بيد أن السلطات

---

(١) وكانت تسمى ذلك الالتهاب بالنار المقدسة ٠

البلجيكية بدأت تداخل المندوبين فى شئونهم (١) وأقصت اثنين منهم خارج البلاد ، فأجمع أعضاء المؤتمر رأيهم أن ينقلوه الى لندن ، وهناك تابعوا أعمالهم دون مداخلة من الخارج ولكن بكثير من الاحتدام والتشاكس فى الداخل .

الخلاف فى لندن

وكانت الاسكرا قد وفقت فى تجديد الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى روسيا وجعله منظمة من الماركسيين أنصار الثورة الى حد أن كانت الكثرة الساحقة بين مندوبى المؤتمر القادمين من روسيا ممن يؤيدون آراء الاسكرا ، بيد أن الخلاف كان قد دب بين جماعة الاسكرا أنفسهم .

وكان موضوع الخلاف الأساسى الذى يطوى تحته موضوعات الخلاف الأخرى والذى يؤثر فى انتخاب من يشغلون المراكز الهامة فى الحزب هو الموضوع الذى كان اذ ذاك مدار الجدل ومثار الخلاف فى سائر الأحزاب الاشتراكية الأوربية ، أعنى ما ألف الناس ان يسموه بالصراع بين أنصار الثورة وأنصار التنقيح .

وقد أعلن الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى بزعامة أوجست ببل (٢) اقراره للفكرة الثورية بيد أنه صاغ قراره فى صيغة حذر فيها

---

(١) وهذا يذكرنا بما حدث سنة ١٩١٠ اذ أوشك الحزب الوطنى المصرى أن يعقد مؤتمرا له فى باريس واذا بالحكومة الفرنسية تفاجىء المؤتمرين بمنع انعقاد المؤتمر فى بلادها ارضاء للحكومة البريطانية ، فانتقلوا الى بركسل وعقدوا مؤتمرهم هناك .

(٢) من زعماء الحزب الاشتراكى الالمانى ولد فى كولونيا سنة ١٨٤٠ وانتخب فى سنة ١٨٦٧ نائبا فى الريشتاج ، ورفض فى سنة ١٨٧٠ اقرار اعتمادات الحرب السبعينية وأبدى فى العام التالى استهجانه لاستلحاق ألمانيا للالزاس واللورين وداب ينشر الافكار الاشتراكية والجمهورية فحاكمته المحكمة العليا فى ليبزج بتهمة الخيانة وقضت بحبسه سنتين ، وأعيد انتخابه سنة ١٨٧٤ وحمل على سياسة بسمارك العسكرية وتوفى سنة ١٩١٣ .

أن يحدث تصدع في الحزب (١) • وظهر مثل ذلك الخلاف فى فرنسا ولكن على صورة أخرى فان ملران الذى أخذ بالرأى التنقيحى اشترك في وزارة فرنسية حرة (٢) • واشـــترك وزراء اشتراكيون فى ايطاليا وبلجيكا و استراليا وبريطانيا فى وزارات غير اشتراكية •

وقد فكر لنين مبكرا فى هذه المشكلة وتبين الصـــعوبات التى نجمت فى الدول الأخرى من محاولة الهرب من اتخاذ قرار حاســـم فى الموضوع وعلم ان الحزب الذى يقرر سلوك الطريق الثورية يجب أن يكون له شكل تنظيمى ونماذج من الأعضاء ومن الخـــدمات التى يؤديها الاعضاء تختلف عن تلك التى للأحزاب الاشتراكية التطورية ، فيجب أن يكون العضو فيه ــ رجلا كان أو امرأة ــ متجافيا عن الملاذ باذلا ما يستطيع من جهد لخدمة غايته الثورية ، يجب أن يكون شعاره في حياته ان « لاقيمة لغير الغرض الاشـــتراكى » كان أبرز من يمثـل الآراء التنقيحية فى صفوف الاشتراكيين الديمقراطيين الروس فى ذلك العهد بيتر ستروفه وتوجان بارانفســكى ولم يكن لهما أنصـــار يؤبة لهم (٣) •

وكان لنين يقظا يقف لهذه النزعات بالمرصـــاد وان ألبست ثوب الاعتدال ، وقد عمل على صوغ البرنامج فى عبارات لاتسمح بابداء مثل هذه الآراء فى الحزب ، فقد كانت الثورة عنده تعنى الثورة ، والكفاح الطبقى يعنى الكفاح الطبقى ، والاشتراكية تعنى الاشتراكية،وكان عقله يســتنكر تنعيم الحـــافات الخشنة وتعبيد الســـبل أمام المترددين المستضعفين . لقد كان يعتقد أن طريق روسيا الى الاشتراكية وعـــر فيجب الا يمضى فيه من تخذله قواه فيتهافت وينبت به الطريق.وهذا ما أبداه بجلاء فى مقاله « من أين نبدأ ؟ الذى نشره فى الاسكرا ثم زاده جلاء فى كتابه «ماذا يجب أن نعمل ؟» .

لقد كان على المؤتمر أن ينشىء حزبا حقيقيا وان يضع له مبادئه وقانونه الداخلى ، وقد ثار الخلاف بين الثوريين والنفعيين فى مواضـــع كثيرة ، ولكن النفعيين اختاروا أن يركزوا المعركة الفاصـــلة حـــول «دكتاتورية البرولتـــاريا» وكان أكبر مااحتجوا به أن الكثير من برامج

---

(١) وقد دل تاريخ الحزب بعد ذلك على أن الخطط التنقيحية التطورية هى التى ظفرت حقا بالنصر •

(٢) وقد طرد هو وشيعته من الحزب الاشتراكى سنة ١٩٠٤ •

(٣) وقد فصمت صلتهما بالحزب الاشتراكى بعد سنة ١٩٠٥ فالتحقا بحزب حر يدعى اختصارا « كادت Cadets » أى الحزب الدستورى •

الاحزاب الاشـــتراكية الديمقراطية الاجنبية لم تعرض لدكتـاتورية البرولتاريا ففى وسع الحزب الروسى هو أيضا أن يغفل ذكرها . وبمـا انهم لم يكونوا ثوريين حقا فقد وقفوا من أحد شطرى الطبقة العاملة ، وهم الفلاحون ، موقف العداء وعارضوا فى ذكر مطالبهم . وكذلك عارض يهود العصبة والاشـتراكيون البولونيون فى أن يكون للأقليات القومية الحق فى تقرير مصيرها ، وانكروا دعوة لنين الطبقة العاملة ان تحارب الاستعباد القومى ، وبذلك كانوا قد أنكروا الدولية البرولتارية . غـير أن لنين مالبث أن قضى على كل هذه الاعتراضات .

وأقر المؤتمر برنامج الاسكرا ، وهو ينقسم قسمين :

أ ــ برنامج الغاية القصوى maximum programme

وهو يتعلق بالغرض الاساسى للحزب الا وهو الثورة الاشتراكية ومحق سلطان الراسماليين وتأسيس دكتاتورية البروليتاريا .

ب ــ برنامج الغايات الدنيا minimum programme

وهو يتصل بالمسائل التى يتحتم انجـازها قبل ذلك ، واهمهـا القضاء على الحـكم الفردى الذى يتولاه القيصر وتأسيس جمهورية ديمقراطية وقصر يوم العمل على ٨ ساعات وازالة كل مابقى فى الريف من آثار القنانة واعادة أراضى الفلاحين التى اغتصبها كبار الملاك الى أصحابها الفلاحين وذلك باستصفاء الضياع والمزارع الكبيرة (١) .

وانتقل المؤتمر بعد تقرير مبادىء الحزب الى النظر فى قانونه الداخلى اذ كان من الضرورى وضع حد للاعمال المنبعثة عن هوى وللحـركات المحلية مما يؤدى الى تسرب الخلل الى نظامه . وكان ماشجر من نزاع على القانون الداخلى أشد حدة منه على البرنامج ، وكان أكثر مايكون حدة حول المادة الأولى منه ، وهى تتصل بما يجب توافره فى الاعضاء من صفات .

كان لنين يبتغى أن يجعل من الحزب جمـاعة مركزية منظمة ، فلايباح لكل من شاء ــ أن يزج بنفســه فى عضـويته فيؤثر بذلك فى شئونه ، بل تقصر العضوية على العاملين فى شعبه ، المعتزلين له ، المندمجين

---

(١) وقد احتفظ هذا البرنامج الثورى بقوته حتى عقد المؤتمر الثامن للحزب بعـد انتصار الثورة البرولتارية .

فيه روحا وجسدا ، الخاضعين لتوجيهاته ، فاقترح ألا تمنح عضويته الا « لمن يرتضي برنامج الحزب ويعاضده بالوسائل المادية وبالتعاون فى احدى منظماته » مخالفا رأى مرتوف وبترسوف وأكسلرد وترتسكى ممن كانوا يؤثرون أن يكون الحزب أرحب صدرا وأفسح جنابا فيفتح أبوابه لكل من يواليه .

كان لنين لايرتضى الحل الوسط حين يتخذ الامر صورة قرارات مكتوبة ، وكان يبحث القرارات المراد اصدارها فى دقة كأنما هو يتفحصها بالميكروسكوب .

وقد أيد پلخنوف فى المؤتمر آراء لنين التى هى آراء الاسكرا التقليدية ووصف خصوم اللائحة «الجافية» التى وضعها لنين بأنهم « مثقفون أشربت نفوسهم الفردية البرجوازية » وقال ان نجاح الثورة هو القانون الاعلى ، فاذا اضطرنا انجاح الثورة الى أن نتجاوز موقتا عن مبدأ أو أكثر من مبادىء الديمقراطية كان من الاثم أن نتردد فى ذلك .

وأقر المؤتمر الصيغة التى وضعها مرتوف ، وبذلك أخفق لنين فى اقتراحه الاول ، ولكنه أفلح فى اقتراحه الثانى القائل بأنه يجب أن تكون الى جانب اللجنة المركزية للحزب فى روسيا قيادة أخرى فى الخارج تقوم باصدار الاسكرا .

وحدث قبل انتخاب قادة الحزب .. أعضاء لجنته (أى المركز التنظيمى العامل فى روسيا) وأعضاء اللجنة التى تتولى الكتابة فى الاسكرا ـ أن انفصل عنه يهود العصبة الخمسة تسخطا على أن لم يعترف لهم بأنهم هم الممثلون لجميع العمال اليهود فى روسيا ، وتبعهم فى الانفصال اثنان من «الاقتصاديين» فغير انفصال النفعيين السبعة توازن القوى ورجح كفة أنصار لنين (١) . وانتخب لنين رئيسا للجنة كتاب الصحيفة وعضوا فى اللجنة المركزية التى انتخب مرتوف رئيسا لها . وأقر المؤتمر مقترحه أن تقوم على كتابة الاسكرا وتحريرها لجنة ثلاثية منه ومن پلخنوف ومرتوف ، نابذا ماأراده مرتوف من تجديد انتخاب اللجنة السالفة وكانت تنتظم كذلك فيرا سسولتش وأكسلرد

---

(١) ومن ذلك الوقت سمى أتباع لنين الذين نالوا كثرة الاصوات فى انتخاب المؤتمر بالبلاشفة وهى كلمة مشتقة من bolshinstvo أى الكثرة وسمى خصومه الذين لم يظفروا الا بقلة من الاصوات بالمناشفة وهى كلمة مشتقة من menshinstvo أى القلة .

وبترسوف ، غير أن مرتوف ظاهر الثلاثة الذين أقصوا عن اللجنة وكف عن الاتصال بها وعن الكتابة فى الاسكرا . وهكذا سجل المؤتمر انتصار لنين وهزيمة مرتوف .

وختم المؤتمر أعماله بعد أن كون الحزب الاشتراكى الديمقراطى ووضع له برنامجه ولائحته ، وبعد أن سجل انتصار الماركسية على الاقتصادية والنفعية السافرة وبعد أن أظهر أن الدور الذى كان يضطلع به أولئك النفعيون القدامى قد اصبح يضطلع به الآن نفعيون جدد هم المناشفة ، بيد أنه لم يكن له من القوة ولا من الحزم ما يتيح له أن يسدد الى المناشفة ضربة قاضية .

تمرد المناشفة

وأبى المناشفة ، وهم الأقلون عددا ، أن يذعنوا لقرار المؤتمر وألبوا عصبة من الاشتراكيين الثوريين على لنين واضع اللائحة «الجافية» ووصفوه بأنه ذو ميول دكتاتورية وبيروقراطية (ديوانية) واتهموه بأنه يريد أن يجحف بالقلة ، وأهابوا بالعمال المنتمين الى الحزب أن يناهضوا جنوح البلاشفة الى المركزية ، فأصدرت لجنة الحزب المركزية باشراف لنين (وان كان مرتوف هو رئيسها) بيانا نددت فيه بسياسة المناشفة ووسمتهم بالخيانة .

***

وقد أعجب بلخنوف بما انثال من فم لنين فى المؤتمر من منطق سليم وألفاظ متناسقة وراعه منه ما أبدى من جرأة بالغة وما اصطنع من أسلوب المهاجمة ، فأعرب عن صدق تقديره له قائلا لصحابته : « من مثل هذه الطينة بجيل أمثال روبسبيير » .

وهو — مع ذلك — لم يدرك النتائج التى تترتب على مقترحات لنين ، ولذا بذل جهده فى وقاية الحزب من تصدع وحدته ، فجعل يلتمس

للمتمردين عذرا ، ومن قوله فى ذلك «انه ليخيل اليك وأنت تصغى الى لنين انه على حق فاذا أصخت الى مرتوف لم تره يعدو الصواب ، وهكذا تشعر انك تنجذب أول الأمر الى جهة ثم تجدك قد رددت الى الجهة المضادة » .

وتلقى لنين فى نوفمبر ، بعد عودته الى چنيف ، ضربة موجعة ، فان بلخنوف ،الذى خطب فى أول مظاهرة للعمال فى روسيا حين كان هو لايزال غلاما حدثا والذى قاد الحملة على « الاقتصاديين » والذى كان هو يعول على معاضدته ، كان حينذاك قد طعن فى السن فنال منه الوهن ولذلك لم يبد اهتماما بما بين لنين ومرتوف من خلاف ورأى أن ليس من الحكمة والحصافة تعريض الحركة للانهيار من جراء ثورة فى ذهنيهما، بيد أنه لم يستطع أن يحتفظ بموقفه رسولا للسلام وداعية الى التوفيق فانحاز الى جانب المناشفة ، ومن ذلك نرى أن الذى يصر على أن يقف من النفعيين موقف المسالمة والموادعة ينتهى بأن يسقط هو نفسه فى النفعية الى الحضض .

وقد ائتلف المناشفة والاقتصاديون ويهود العصبة وتعاضدوا فى شن الحرب على اللنينية فى صفحات الاسكرا ، فظهر الجزء التالى منها وفيه مقال لمرتوف عنوانه « مؤتمرنا » فبادر لنين بالكتابة الى اللجنة المركزية فى روسيا يطلب اليها أن تحارب شيعة مرتوف ، غير أنها لم تأخذ برأيه .

وعقدت اللجنة المركزية فى أواخر يناير ١٩٠٤ اجتماعا فى چنيف زاد لنين يقينا بأن بلخنوف أصبح يمالىء أنصار مرتوف ، فقد اقترح بلخنوف أن تضم اللجنة المركزية جماعتين متساويتين من المناشفة والبلاشفة فطلب لنين عقد مؤتمر رسمى للحزب تصدر فيه القرارات بغلبة الاصوات ، وتهدد بالاستقالة ان لم يستجب له ، وأبت اللجنة عليه مطلبه فحمل عليها حملة شعواء وأقذع فى سبها ولكنه لم يستقل حتى لاتضعف فى القوم شوكته ويصبح عنهم بمعزل ، فهو يعلم أن الثورة لا ينجزها الا حزب منظم ، أما انعزال ثورى فهو غاية الحمق والخطل .

وأرسل لنين الى اللجنة المركزية والى أعضاء حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الذين أيدوا البلاشفة فى المؤتمر الثانى رسالة استنكار قال فيها ان المؤتمر هو مصدر السلطات وان اللجنة المركزية انما تستمد سلطانها منه وانها قد انتخبها المؤتمر لانفاذ السياسة البلشفية ولكنها خانت المهمة التى وكل اليها النهوض بها اذ تعاونت

مع المناشفة وارتضت الحلول الوسطى . غير أن اللجنة المركزية كانت قد بيتت النية على ألا تخوله سلطة واسعة خيفة أن يمضى فى سياسته الثورية غير عابىء برأى الحزب ، ولهذا كررت فى ردها عليه اباءها دعوة مؤتمر رسمى للحزب واقترحت أن تجمع بين المناشفة والبلاشفة فى اجتماعات غير رسمية للتوفيق بينهما ، وطلبت اليه أن يعود الى الكتابة فى الاسكرا ، فكان جواب لنين عن ذلك أن استقال نهائيا من اللجنة المركزية بعد أن اعتزل الكتابة فى الاسكرا ، وانصرف بذلك عن النشاط السياسى جملة حتى يتبين له الطريق السوى . وبذلك أضحت الاسكرا منذ الجزء الثانى والخمسين لسان المناشفة الناطق بآرائهم النفعية (١) . وأطلق الحزب على الاجزاء السابقة منها « الاسكرا القديمة » وعلى ماصدر منها فى طورها المنشفى « الاسكرا الجديدة » .

وقبض المناشفة على أزمة الحزب وطرد البلاشفة من الجماعة التى كان لهم الكثرة بين أعضائها ، وألفى لنين نفسه بعد جهاد شاق متصل منبوذا خارج لجنة الحزب المركزية ، ليس لديه دعامة يسند اليها أداته الرافعة .

وشد رحاله هو وزوجته الى جبال سويسرا فطوفا فى جنباتها شهرا حتى سكن جأشه واستجم لبذل مجهود جديد . وقضى شهرا آخر مع بعض معاونيه ومريديه فى قرية من القرى ، حيث اتفق معهم على اصدار صحيفة اسمها « الى الأمام » لتدافع عن وجهة نظرهم ولتدعو الى عقد مؤتمر آخر .

واستغلظ أمر المناشفة وكونوا من انفسهم كتلة ، على رأسها مرتوف وترتسكى وأكسلرد ، تعمل جاهدة لاحباط أعمال الحزب والنيل من الغرض الذى يعمل له ، فكان من الضرورى دفعهم الى الوراء دفعة قوية ، وذلك مانهض به لنين اذ كتب فى الشهرين اللذين غابهما فى جنيف كتابه « خطوة الى الامام وخطوتان الى الوراء » فضمنه آراءه فيما دار فى المؤتمر وأعرب فيه عن انكاره للحلول الوسطى وأبدى ان الاستزادة من الأعضاء بالتهاون فى النظام خسارة لا ربح .

---

(١) فهى ترى أن يكون لكل من يعطف على الحزب فيشترك فى اضراب أو يسير مظاهرة أن يعد نفسه عضوا فى الحزب دون أن يتقيد بما يصدر عن لجنة الحزب المركزية من قرارات ، قائلة ان ما يطالب به البلاشفة من وجوب اذعان الاعضاء لقراراتها انما هو ادخال للقنانة فى الحزب ، زاعمة أن الحزب ليس فى حاجة الى المركزية بل هو بحاجة الى الاستقلالية الذاتية autonomism

بسط فى هـذا الكتاب مقترحاته التنظيمية ، تلك المقترحات التى سار عليها الحزب فيما بعد ، فأوضح :

١ ـ أن الحزب الماركسى هو جماعة من الطبقـة العاملة تمتاز بين جماعات العمال بأنها هى الطليعة وبأنهـا اكتسبت الوعى الطبقى وبأنها ماركسية مسلحة بمعرفة حياة المجتمع وقوانين تطوره وقوانين الـكفاح الطبقى فهى قادرة على زعامة الطبقة العاملة وقيادتها فى كفاحها ، ومن ثم كان من واجب الحزب الا يدع الارتباك يشيع فى جوانبه بقبوله عضوية أولئك الذين يشتركون فى الاضرابات بل أن يرفع هؤلاء الى مسـتواه وذلك بأن يتولى هو قيادة الطبقة العاملة جمعاء .

٢ ـ والحزب الماركسى هو ـ فوق ماتقدم ـ جماعةمنظمة من الطبقة العاملة،فيجب أن يخضع أعضاؤه لأنظمته وقراراته اذ أنه لن يستطيع توجيه الطبقـة العاملة نحو غرضها وقيادتهـا فى كفاحها الا اذا أدمجته ـ بعضه فى بعض ـ وحدة الارادة والعمل والنظام .

أما ما يحتج به المناشفة من أن النظام الصـارم ينفر الـكثير من المثقفين ويبعدهم عن الحزب فهو حجة عليهم لا لهم ، لأن العمال لايخشون النظام ، أما المثقفون الذين يخشون الانتظام فى شـعب الحزب المحليـة فالحزب فى غنى عنهم وان ابتعاد القلة عنه ليعصمه من تدفق العناصر المترددة المتقلقلة اليه .

٣ ـ على أن الحزب ليسجماعة منظمة فحسب، بل هو أرقى جماعات العمال وأكملها نظاما ، وهو يضم أمثل أبناء الطبقة العاملة ، وهو مسلح بنظرية فى غاية من الرقى وبمعرفة قوانين الـكفاح الطبقى وبتجـارب الحركة الثورية ، فعليه اذن أن يقود سائر الجماعات ، وان لديه من الفرص ما يتيح ذلك له .

أما ما يسعى اليه المناشفة من تصغير مهمة الحزب فى القيادة فمن شأنه أن يضعف كل جماعات العمال التى يقودها ، ويضعف ـ تبعـا لذلك ـالطبقة العاملة فى مجموعها « فليس للطبقة العـاملة وهى تكافح فى سبيل السلطان من عدة أقوى أثرا من النظام » .

٤ ـ والحزب هو التجسيد للصـلة بين طلائع الطبقة العـاملة وبين الألوف المؤلفة من أبناء تلك الطبقـة ولا بد له لكى يحيـا وينمو من أن

يتصل بالجماهير من غير أعضائه اتصالا مطرد التوثق، اذ أن الحزب الذى « يغلق عليه محارته » فيعزل نفسه عن الجماهير فتنبت صلته بالطبقة التى ينتمى اليها ، يفقد ثقة الجماهير به وتأييدهـا له فينتهى أمره الى بوار ، فأما ان أراد الحياة فلا محيص له من توثيق صـلته بالملايين واكتساب ثقتهم ٠

٥ ـ ومن الضرورى للحزب كى يقود الجماهير قيادة منظمة أن يكون هو منظما تنظيما مركزيا وأن تكون له قيادة رئيسة وهى مؤتمر الحزب ، وان تقوم لجنة الحزب المركزية مقام المؤتمرات فى الفترات التى بين انعقاد تلك المؤتمرات ، ويجب أن تخضع شعبه الصغرى للكبرى وأن تطيع القلة الكثرة ، وبغير ذلك لا يكون الحزب حزبا حقا ولا يستطيع أن يؤدى واجبه فى قيادة الطبقة العاملة ٠

٦ ـ ولابد للحزب ، اذا شاء أن يحتفظ بوحدة الصف ، من أن يفرض نظاما پرولتاريا (عماليا) على جميع أعضائه من زعماء وغير زعماء ، فلا تكون هناك « قلة مختارة » لا تنقاد لهذا النظام ٠

* * *

ويتلخص ما تقدم فى أن لنين كان يرى أن المناشفة يخطئون أشنع الخطأ ببخسهم ما لنظام الحزب من قيمة من حيث هو سلاح للطبقة العاملة فى نضالها على طريق التحرر ، وكان يرى أنه لابد لبلوغ النصر من وحدة النظام المادية الى جانب الوحدة الفكرية بين الطبقة العاملة ٠

وقد وضع لنين فى هذا الكتاب ، للمرة الأولى فى تاريخ الماركسية، نظرية تولى الحزب قيادة الطبقة العاملة ليكون جنتها العظمى التى لاتنتصر بدونها فى الكفاح من أجل دكتاتورية البرولتاريا ٠

وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٩٠٤ وشاع بين العمـال المشايعين للحزب الاشتراكى الذى كان الأساس للحزب البلشفى وكان له أثر بعيد فى دعم الحزب وانحياز كثرة أولئك العمال الى صف لنين ، فاضطرم لذلك حقد المناشفة اضطراما دفع بهم الى انتاج مسلك شائن ، وقد طالما حفز العناد الناس الى اتخـاذ ما يتخذون من عقائد ، ورب نزاع لا شأن فيـه للمبادىء ينقلب الى نزاع فى صميم المبادىء ، فقـد كان رد الفعـل الذى أحدثه الكتاب أن أخذ المناشفة يلهجون بالحديث فى التعـاون بينهم وبين الأحرار ، معززين رأيهم بأن البلاد مازالت ضئيلة الصناعة قليلة العمال وأن الفرصة غير مواتية للقيام بثورة عمالية فمن الخير أن يتعـاونوا هم وأحرار البرچوازيين فى طلب اصـلاحات كاقامة النظام البرلمانى واطلاق

حرية الخطابة والصحافة ، فاذا ما أجيبوا الى هذه المطالب كان من الميسور الانتفاع بهـا فى الدعوة الى الاشتراكية ، تلك الدعوة التى هى فى ظل الحكم الفردى أمر عسير للغاية ٠

وكان رد لنين على هـذه الأقوال أن تعاونهم هم والبرجوازيين سيشيع فيهم الفساد ، فاذا ما حانت الساعة التى تمكن فيها الثورة ألفوا أنفسهم قد فتروا وزايلهم التحمس لها ٠

وقد أيد تودد المناشفة الى الأحرار ما أوضحه لنين من أن الخلاف بينه وبين المناشفة أعمق من أن يكون خلافا شخصيا ٠

صلابة لنين

لم يطمح لنين الى منصب أو سلطان ، بيد أنه كان ــ كغيره من المستمسكين بعقائدهم ــ لا يفرق بين نفسه والغرض الذى يهدف اليه ، فهو وحده فى حساب نفسه ، الذى يفهم الغرض فهما صحيحا ، وهو لا يتوقع أن ينتصر المبدأ الا بقيادته واشرافه ٠ لقد كان صلبا لا يلين ، كان يصر على أن يضع حدا فاصلا بين حركة العمال وحركة اليساريين من البرجوازيين، وعلى أن تكون السياسة الاشتراكية الديمقراطية مستقلة كل الاستقلال عن حركة الأحرار ٠ لقد نسبوا نجاح الثورة الروسية فى سنة ١٩١٧ الى صلابته قبل ذلك بـ ١٥ سنة كما عللوا اخفاق الثورة الشيوعية ، فى ألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى ، بأن الحزب الشيوعى فى ألمانيا لم يكن قد تطهر من النهازين وكان فى الوقت متسع لذلك ٠

والى صلابة لنين فى المؤتمر وبعده استند المناشفة ومن اليهم فى اتهامه بالشره الى السلطان والتشوف الى الدكتاتورية ، وانها لخرافة أدحضتها مجموعة تترى من الكتب والمطبوعات ، ولعل المناشفة كانوا بهذا الاتهام أجدر اذ أنهم كانوا هم المهاجمين دائما فى جميع المشادات التى أعقبت المؤتمر على حين كان مسلك لنين بعيدا كل البعد عن أن يوصف بالدكتاتورى ، حتى لقد أخذ عليه بعض أعوانه أنه لم يبادر على الفور الى

حسم علاقته بالجناح الواهن في ثوريته والى انشاء حزب جديد كما فعل بعد ذلك سنة ١٦١٢ ، ولو انه قام بهذا العمل اذ ذاك لبقى مسلكه غير مفهوم من جمهرة الاشتراكيين فى روسـيا ، أولئك الذين كانوا يومئذ يعدون المسائل المختلف عليها مسائل فنية ضئيلة الخطر ولم يتبينوا الا بعد زمن طويل ، فى سنة ١٩١٢ ، أن تلك المسائل كانت وجوها لنماذج من النفعيـة لا توائم الماركسية الثورية • ومع ذلك فان لنـين ، وان لم يحسم اذ ذاك كل علاقة له بالمناشفة ، لم يعزب عن باله أن يكون ممن بقوا على ثوريتهم من رفاقه جماعة مستقلة فى الواقع وأن لم تكن مستقلة فى العلن ، فقد أنشأ فى أعقاب سنة ١٩٠٤ لجنة مركزية جديدة أسماها « مكتب لجان الاغلبية » كما استطاع قبيل ذلك ـ بعد أن وجد الاسكرا تحت هيمنة «الاتحاد السياسى المتعفن وغير الطبيعي بين بلخنوف ومرتوف وترتســكى » أن يطالع القوم فى يناير سـنة ١٩٠٥ بصـحيفة « الى الأمام » وكان جل اعتماده فى اصدارها على لوناتشارسكى الذى أصبح بعد الثورة مفوضا فى التربية (أى وزيرا لها) وبجدانوف الذى كان قد وثق صداقته به فى لندن •

وأصبح حزب العمـال الاشتراكى الديمقراطى الروسى منـذ ذلك العهد يجمع بين جناحين متميزين لـكل منهما لجنتـه المركزية وصحيفته الناطقة بلسانه ، وأخذ الخط الفـاصل بينهما يزداد على الزمن وضوحا وان كان فريق من الأعضاء قد جعل ينتقل فى بعض المناسـبات من أحد الجناحين الى الجناح الآخر، وما فتىء الثوريون الروس يتنازعون فيما بينهم كأنماهم قد نسوا أن وراءهم حكومة معـادية تتربص بهم الدوائر • وقد حدثت هذه الأحداث جميعا فى أخريات سنة ١٩٠٣ وفى سنة ١٩٠٤ فى وقت كانت فيـه روسيا تقترب من حالة ثورية ، وكانت نتيجـة أعمـال المناشفة المخلة بالنظام مقترنة بضعف بلخنوف واحجامه عن قهر أولئك الخوارج ثم انضمامه الى صفوفهم أن ارتبك الكثيرون من أعضاء الحزب فتنحوا عن الجهاد وأن شـل حزب الطبقة العـاملة فى الوقت الذى كانت حاجة البلاد اليه أمس ما تكون •

ولعل هذا المؤتمر الثانى وما انتهى اليه من نتائج قد حدا بلنين الى اساءة الظن بـ « الديمقراطية الشـكلية » كمـا كان يســميها ، فأصــبح ذلك من سمات عقليته الســياسية ، ولم يتوان فى الفترة التى أعقبت ثورة سـنة ١٩١٧ أن كنس آلة الديمقراطية المتعـارفة : الانتخاب والتصويت وقرارات الـكثرة وجماعات المنـدوبين ، وأخذها بالشدة أخذا صدم أولئك الذين تعودوا أن ينظروا الى آلة الديمقراطية على أنها الديمقراطية نفسها •

نمو حركة العمال

كانت حركة العمال فى روسيا ماضية فى نموها بغض النظر عن الخلاف المحتدم فى جنيف ثم فى لندن بين الزعماء المهاجرين .

كانت أوربا عندما ادبر القرنَ التاسع عشر قد استحكمت فيها ازمة اقتصادية لم تلبث أن عمت روسيا ايضا وانشبت فيها أظفارها ؛ فاغلقت بين سنتى ١٩٠٠ و ١٩٠٣ ــ ٣٠٠٠ر٣ مصنع وقذفت بنحو ١٠٠٠٠٠ر عامل الى عرض الطريق ؛ وسرعان ما اهتبل الراسماليون جوعة الجائعين فخفضوا اجور العمال خفضا فاحشا واستردوا الامتيازات التى كان العمال قد استخلصوها منهم بالاضراب المتكرر .

بيد ان هذه الحالة لم تفت فى أعضاد العمال بل انها قوت من ميولهم الثورية ، فأصبحوا لا يقتصرون على الاضراب لنيل مطالب اقتصادية بل يضربون كذلك للوصول الى أهداف سياسية ، جاعلين شعارهم « ليسقط الحكم القيصرى الفردى » .

وان ننس لا ننس أضراب عمال الأسلحة فى مصانع أبو خوف ببطرسبرج سنة ١٩٠١ واضراب غيرهم فى باطوم ورستوف وحوض الدون سنة ١٩٠٢ وفى باكو وتفليس وباطوم سنة ١٩٠٣ .

وقد أحدث كفاح العمال فى الفلاحين أثرا عميقا ، فأثاروا القلاقل سنة ١٩٠٢ فى أكراينا وحوض الفلجا وحرقوا القصور وقتلوا العمد وكبار الملاك ، فقمعت الحكومة تلك الحركات وبطشت بالقائمين بها .

واضرب الطلبة وتظاهروا فى الطرقات ، فأمرت الحكومة بتجنيد زعمائهم فأفضى ذلك الى اضراب طلبة الجامعات فى شتاء سنة ١٩٠١ ــ ١٩٠٢ اضرابا عاما انتظم ٣٠٠٠٠ر طالب .

وقد أثار مسلك الحكومة سخط الاحرار من طبقة البرچوازيين وكبار الملاك ، فأعلنوا أنهم يستنكرون هذا العنف بأبنائهم الطلبة ، آملين أن يلفتوا القيصر بذلك الى وجوب تحرى السداد والحكمة ، حاسبين انهم بهذا المظهر يتألفون الشعب ويظفرون بثقته بهم ، وبذلك يعطفونه كله أو فريقا منه عن الثورة ، وكانت حركة الأحرار هذه مبدأ تأليف الحزب الدستورى الديمقراطى .

أما الحكومة فانها لم تزل ماضــية فى ســبيلها ملحة فى القتل بالرصاص والجلد بالسياط والزج فى السجون والنفى الى الأقاصى ، وعمدت « الأخرانا » الى تكوين جماعات عمالية زائفة تعمل تحت هيمنة الشرط لتلقى فى روع العمــال أن الحكومة القيصرية مستعدة لمعاونتهم على نيل حقوقهم الاقتصادية ، ومن قول تسوباتوف فى التبشير بهذه «الاشتراكية الشرطية» : «فلم الانغماس فى مضطرب السياسة والقيصر نفسه فى جانب العمال » • وأسست كذلك فى سنة ١٩٠٤ جماعة أخرى من هــذا القبيل بوساطة قس يدعى جابون ، بيــد أن جميع ما اصطنعته الحكومة من وسائل القمع وأساليب التزييف لم يغن عنها فى كثير ولم يقيض لها أن تبسط سيطرتها على حركة العمال ، فنمت هذه الحركة وطمت واكتسحت من طريقها الجماعات التى تهيمن عليها الشرطة .

• فرصة الحرب الخاسرة

وشاهدت سنة ١٩٠٤ تطورا فى تاريخ روسيا العام من شأنه أن يسرع بقيام الثورة أكثر مما يسرع به نشاط الثوريين جميعا ، الا وهو نشوب الحرب بين روسيا واليابان . لقد حدثنا التاريخ عن حكومات عصفت بها ريح الثورة لأنه كان لها من مبادئها ما يحجبها عن أن تأخذ خصومها بالقسوة والعنف ، ولكنه قلما حدثنا عن حكومات قاسية سقطت صريعة عجزها وقلة كفايتها مع أنها لم تكن ترحم خصما أو تتورع عن منكر ، فالحاكم المطلق يستطيع أن يحكم وأن يفرض سلطانه ما كان السلم قائما ، فاذا كانت الحرب وكان مآلها الاخفاق فتلك فرصة الثورة .

أخذت روسيا فى القرن التاسع عشر تبسط رقعتها فالتهمت التركستان وزحزحت تخومها الجنوبية الى الأفغان والهند كما التهمت « أمور » ومدت تخومها الشرقية الى فلادفستك على المحيط الهادى ، وكانت حجتها فى ذلك حجة بريطانيا وغيرها من الدول الاستعمارية ، فهى دولة متمدنة تبسط سلطانها على أصقاع خالية من مقومات المدنية. وقد استمرت فى توسيع رقعتها وبسط سلطانها دون أن ترتطم فى حرب منظمة أو تصطدم بدول عظيمة حتى سنة ١٨٧٠ على أن أوربا تصدت لها عندما بدا لها أن تعتدى على اسكندناقيا والنمسا والمجر وغيرها من البلاد الأوربية ، وأظهرها مؤتمر برلين على أن بريطانيا لن تسمح لها بأن تحقق حلمها بالاستيلاء على القسطنطينية ، كما أظهرت لها الأيام والحوادث أنه لن يباح لها أن تقتحم الأفغان .

واشتجر النزاع بين الدول الاستعمارية فى أواخر القرن التاسع عشر فى السيادة على المحيط الهادى وتقسيم الصين . وغزت اليابان الصين فى سنة ١٨٩٥ واستولت على شبه جزيرة لياو ــ تنج وضمتها اليها بمقتضى معاهدة شميونوسيكى ، ولكن روسيا ، تؤيدها فى ذلك فرنسا والمانيا ، اكرهت اليابان باسم المحافظة على وحدة الصين على أن تتخلى عن مطامعها فى القارة الآسيوية ، ونالت اليابان فى مقابل ذلك ٤٠٠ر٠٠٠ فرنك اقترضتها روسيا من فرنسا وأقرضت الصين اياها فدفعتها الى اليابان فأنفقتها اليابان فى تعزيز مرافقها الحربية تأهبا لمحاربة روسيا .

وأرغمت الحكومة القيصرية الصين على النزول لها عن شبه جزيرة لياو ــ تنج وحصن بورت أرثر وخولت نفسها الحق فى مد السكك الحديدية فى شمال منشوريا وفى حراستها بجيوشها ، وبذلك احتلت شمال منشوريا . وثار ثائر الشعب الصينى على الاستعمار الأجنبى فأرسلت عليه الحكومة القيصرية فى سنة ١٩٠٠ جحافلها بالاشتراك مع الجيوش اليابانية والألمانية والبريطانية والفرنسية فأخمدت ثورته .

كان القيصر يطمح ببصره الى كوريا ، وأخذ البرچوازيون الروس يعدون العدة لايجاد « روسيا الصفراء » وكانت اليابان كذلك

تشرئب بعنقها نحو كوريا ومنشوريا ، بل انها كانت تحلم بأن تضم اليها كذلك جزيرة سخالين والشرق الاقصى الروسى ، وكانت بريطانيا تشجع اليابان فى خفية .

وقد كان الخير لروسيا أن تنثنى عن سياسة الفتح وتنصرف فى تنظيم شئونها . بيد أنها لم تتخذ الحكمة رائدا ، هذا الى جانب أنها لم تكن تملك من الحرية ما يسنى لها ان تفعل ما تريد ، اذ انها كانت دولة متخلفة فى مضمار الصناعة وليس لها عن معونة المانيا غناء . وكان من سياسة المانيا بعد حرب سنة ١٨٧٠ أن توثق علاقاتها بسائرالدول العظمى لتبقى فرنسا فى عزلة ، ليس لها من نصير ، بيد أن بسمارك لما أعيا عليه التوفيق بين أطماع النمسا وروسيا آثر النمسا وأعرض عن رغبة روسيا اليه فى ان يقرضها ما يعوزها من المال لترقية جيشها ، وكانت رءوس الأموال الألمانية المثمرة فى روسيا تستغل فى المرافق المدنية وحدها ، وكانت فرنسا ، على عكس المانيا ، لا تعنى بشىء فى روسيا غير جيشها اذ كانت تأمل أن يؤازرها على المانيا يوما من الأيام .

وما فتئت روسيا تقترض لتنفق فى سبيل الجيش (١) حتى أوشكت ديونها فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أن تستغرق ثروتها وصار من المتعذر توفية فوائض تلك الديون الا بالهبوط بمستوى المعيشة وبرفع مقادير الضرائب . وكانت قد زيدت على عهد الاسكندر الثالث من سنة ١٨٨١ الى ١٨٩٤ بنسبة ٢٩٪ .

وقد زاجه نقولا الثانى هذه المشكلة عندما ولى الحكم (٢) ففتق له عقله أن يمعن فى استغلال سيبيريا ، وكانت السكة الحديدية قد مدت فى سيبيريا غير انه كان من الضرورى لها أن تنتهى الى ميناء لا تجمد مياهه ، ولم يكن هناك أصلح من بورت أرثر ، فبادر الروس بالاستيلاء عليها عندما استولى الألمان سنة ١٨٩٧ على كياو ــ تشاو .

وقد استغلظت قوة اليابان حتى ان سفراءها جعلوا يخاطبون الروس بلهجة التهديد والوعيد . وكان بعض حكماء الروس (مثل وزير الحربية كروبتكن) يعلمون أن الفرصة لم تكن مواتية للنصر على اليابان

(١) وقد افضى الوزير الروسى كونت فته بأن ٣٧٪ من السكك الحديدية انشئ لاسباب عسكرية .

(٢) وكان يعتقد أن سياسة التساهل وبذل المنح تغرى بالتمرد وأن الشعب لايقدر غير الحزم والصرامة ولا ينجح فيه سواهما . وقد خابت آمال الاحرار فيه عندما أعلن فى ٥ يناير ١٨٩٥ أن الالتماسات المقدمة اليه ان هى الا « أحلام ليس لها معنى » .

فى الشرق الاقصى ، وكانوا ينصحون بالقصد فى السياسة وبارجاع بورت. ارثر الى الصين لقاء امتيازات لروسيا فى ڤلادڤستك . وقد أخذ القيصر فى أول الأمر ينزع الى هذا الرأى ، بيد أن الذين كانوا يثمرون أموالهم فى سكة سيبيريا الحديدية من الروس والبريطانيين والفرنسيين والبلجيكيين زينوا له أن يعمد الى القوة .

وكان وزير الداخلية يحبذ الحرب آملا أن تأتى بنصر يلهى الناس عن متاعبهم، تلك المتاعب التى أثارت القلاقل فى صفوف العمال والفلاحين فى السنوات الأولى من القرن العشرين ، ولكنه أخطأ فى حسابه ، فان الحرب لم تؤد الى اخماد الثورة بل أدت الى ازدياد تأججها .

وظهر القيصر مظهر القوى المتحدى ووصف اليابانيين بالقردة فانقطع حبل المفاوضات فى فبراير ١٩٠٤ .

الحرب بين روسيا واليابان

وكان اليابانيون يعلمون من عيونهم الواسعى الدربة أن روسيا غير متأهبة لخوض غمار الحرب ، فما ونوا أن انقضوا بجيشهم كله فجأة ودون اعلان للحرب على الكتائب الروسية المرابطة فى تلك الأصقاع والحقوا بها هزيمة نكراء ، وانقضوا فجأة كذلك على الأسطول الروسى القابع فى الميناء وأنزلوا به خسارة جسيمة .

وقد استطاع قطار سيبيريا فى خلال بضعة أشهر أن ينقل الى الميدان جحفلا عرمرما من الفلاحين سيقوا الى الحرب لأن هنالك قوما صفر الوجوه يسمون باليابانيين لا يعلمون من أمر المخلص شيئا وقد انتشروا ليسلبوا كل مؤمن بقرته التى يحلبها وامرأته التى يضربها ، بيد أن ذلك الجحفل العرمرم لم يكن مجهزا تجهيزا كاملا وكانت قيادته قليلة المبالاة ووسائل النقل لديه سيئة ولم يكن الشعب من ورائه يشد أزره ، وكانت جميع العناصر ذات الوعى السياسى فى روسيا ، ماعدا حاشية القيصر ، ساخطة عليه لأنه جر البلاد الى حرب مخفقة .

ولو أن هذه المغامرة توجت بالنجاح لصفق الراسماليون الأحرار تمجيدا له ولعملوا على استغلال كوريا التى من أجلها اندلعت الحرب ، ولكن النذر ظلت تتلاحق بأنباء الهزائم المتوالية واستطارت أنباء الفساد فى سير الحرب وأنباء الثروات التى اقتنصها من وراء الحرب الراسماليون والحكام والقواد ، فقد كان الجيش فى عوز شديد الى الذخائر ولكنه كان يتلقى بدلا منها مركبات موسوقة بأيقونات القديسين . وكانت القطر القافلة الى أوربا تحمل بدل الجرحى الذين هم فى أمس الحاجة الى العلاج ما سلبه القواد من أمتعة وغنائم يفعمون بها منازلهم .

وفى أوائل سنة ١٩٠٥ منى الروس بالهزيمة الماحقة فى مكدن ، فبلغت خسارتهم من القتلى والجرحى والأسرى ١٢٠٫٠٠٠ كما منى الأسطول الروسى المرسل من البحر البلطى بهزيمة مبينة فى موقعة تسوشيما ، وكان ينتظم ٢٠ من سفائن الحرب فغرقت أو أعطبت منها ١٣ سفينة وأسرت ٤ سفن .

ولم تجد الحكومة القيصرية بعد حلول هذه الهزائم بها وتفاقم عوامل النقمة بين الشعب عليها منتدحا عن الصلح ، فأبرمته فى سبتمبر من ذلك العام ، وبمقتضاه ظفرت اليابان بكوريا وطردت الروس من بورت أوثر ومن نصف جزيرة سخالين .

خواء الخزانة القيصرية

وقد صرحت الحكومة فى بيان لها بأن الحرب مع اليابان كلفت الدولة ٢٫٥٠٠ مليون روبل (أى ما يربى على ٢٥٠ مليون جنيه ذهبى) وهذا فوق من فقدت من الجند وعدتهم ٢٠٠٫٠٠٠ رجل، فأما الرجال فانهم يولدون ليموتوا ، وأما النقود التى ليس من شأنها أن تتناسل كما يتناسل الناس ويخلف بعضهم بعضا فانها ما فتئت تنقص حتى أوشكت أن تنفد ، ولعل القيصر لم يبك من مات من شعبه كما بكى خزانته

الخاوية ، فقد كان يستطيع أن يحتمل الثورة عليه أكثر مما يستطيع أن يحتمل الهبوط بمستوى عيشه .

وقد كان من دأبه أن يخرج لاصطياد الغربان، معنيا بأن يسجل فى مذكراته عدد ما يسقط منها صرعى رمايته ، فلما أنهى اليه نبأ الهزيمة الكبرى كتب جلالته :

« خرجت متنزها فمشيت طويلا ولم أصطد الا غرابا واحدا » .

أما لنين ، وقد كان هو أيضا ولوعا بالصيد ولكنه انصرف عنه طويلا ، فقد كتب ذلك اليوم فى مذكراته :

« ليس الشعب الروسى هو الذى باء بالهزيمة الشائنة بل القيصر، وان هزيمته لفوز للشعب الروسى . ان سقوط پورت أرثر لارهاص بسقوط القيصرية » .

موقف الأحزاب من الحرب

كان المناشفة ، وفيهم ترتسكى ، فى أثناء تلك الحرب متحمسين للوطن ، وطن القيصر وكبار الملاك وأصحاب رءوس الأموال، أما البلاشفة، وعلى رأسهم لنين ، فقد كانوا يرون من الخير أن تهزم الحكومة القيصرية فى تلك الحرب ، حرب السلب والنهب ، ويعتقدون أن فى اضعافها بالهزيمة قوة للثورة .

وقد أسرع الديمقراطيون الى الخارج يملأون الجو صياحا بأن حكام بلادهم غير خلقاء بأن يمنحوا قروضا ، وأرسل الثوريون الى رفاقهم فى الدولية العمالية يطلبون اليهم أن يحولوا دون اقراض حكوماتهم لروسيا ، ورفع اليهود عقائرهم بالشكوى مما اقترف القيصر من المذابح فيهم ، حتى تقسو قلوب آل روتشلد ومندلسزون ومن اليهم من صيارفة اليهود فلا يفرجوا بأموالهم كربة القيصر .

شيوع التذمر

حسب القيصر أنه مخمد الثورة بالحرب فاذا هو يزيدها ضراما ، فقد كان العمال والفلاحون الروس يعانون منذ القدم أوضاعا مروعة ، وكانت الشعوب التى تنتظمها الامبراطورية الروسية ترزح تحت انيار كبار الملاك والرأسماليين من أبنائها ومن أبناء روسيا الأم ، وقد ضاعفت الأزمة المحتدمة في السنوات ١٩٠٠ الى ١٩٠٣ من بؤس الطبقات الكادحة، ثم كانت الحرب فزادتهم بؤسا وأوسعتهم رهقا ، ثم جاءت الهزيمة فأنفدت صبرهم وأوغرت صدرهم • وكان الشعور المنبعث من الحرمان يجد ما يعبر عنه • وهكذا انكشفت للقيصر كنه منزلته فى نفوس الشعب •

ونظمت لجنة البلاشفة فى باكو اصرابا كبيرا ظفر به عمال حقول النفط فى باكو ، أول مرة فى تاريخ الحركة العمالية فى روسيا ، بعقد اتفاق جماعى بين العمال وأصحاب الأعمال ، وأضرب عمال مصنع بوتيلوف (١) في أوائل يناير ١٩٠٥ لفصل ٤ منهم، وسرى تيار الاضراب الى مصانع أخرى •

يوم الأحد الدموى

كانت تلك الاضرابات قصفة الرعد المنذرة بالثورة العاصفة ، وقد هبت تلك العاصفة فى بطرسبرج يوم ٩ يناير ١٩٠٥ •

فقد زين للسلطة أن تقمع الحركة فى طورها الأول فاتصلت بالأب جابون الذى نصب نفسه زعيما على جماعة من العمال تعرف باسم

(١) اكبر مصانع بطرسبرج ، يصنع الاسلحة ويسمى الآن باسم كيروف .

« جماعة عمال المصانع الروس » وأوعزت اليه أن يمهد لها السبيل لأخذ العمال بالشدة ، فرسم خطة ملؤها الخيانة والغدر تقضى بأن يجتمع العمال جميعا فى يوم الاحد ٩ يناير حاملين بيارق الكنيسة وأيقونات القديسين وصور القيصر ليسيروا الى قصر الشتاء فى موكب سلمى فيثيروا بعرض حالهم الشفقة فى قلب أبيهم فينظر بعين الرحمة الى ما هم فيه من بأساء .

وقد اندس نفر من البلاشفة فى مجتمعات العمال التى كان يجمعها الأب جابون وأوضحوا لهم — دون أن يكشفوا عن لونهم البلشفى — أن هذه الخطة تعرضهم لاطلاق النار عليهم وأنها ، مهما يكن من أمر ، لن تجدى على العمال نفعا ولن تغنى عنهم شيئا ، فليست الحرية مما ينال استجداء ، وانما هى تنتزع انتزاعا ، ولكن هذا التحذير ذهب مع الريح اذ كان الكثير من العمال يعتقدون أن القيصر سيمد اليهم يد المعونة .

وكتب الرجاء الذى أعد لرفعه الى القيصر بأسلوب العهد الاقطاعى ، أما مشتملاته فقد تسنى للبلاشفة أن يضمنوها المطالبة باصدار العفو العام واعلان حرية الفرد وصون حرماته وتحميل الوزراء تباعة أعمالهم وجعل الناس بمنزلة سواء ازاء القانون والفصل بين الدين والدولة ووقف عجلة الحروب وقصر يوم العمل على ٨ ساعات واعادة الأراضى الى الفلاحين ودعوة الجمعية الدستورية الى تعديل النظام السياسى . ومما جاء فى ذلك الرجاء :

« نحن الرجال العاملين فى سانت بطرسبرج وزوجاتنا وأطفالنا وآباءنا المسنين الذين لا عائل لهم ، جئنا اليكم يا مولانا نلتمس الحقيقة والحماية . نحن فقراء مدقعون ننوء بعمل لا يطاق ونسام الضيم والهوان ونعامل كأننا من غير البشر ... ولقد عانينا صابرين ، بيد أننا لا نزال نجر الى حضيض الفقر ونحرم حقوقنا ونتخبط فى دياجير الجهل ، وانا لنختنق بجور الحكم المطلق وطغيانه ... وقد عيل صبرنا وحلت الساعة المهولة التى نؤثر فيها أن نموت على أن نواصل مكابدة هذه الآلام التى لا تطاق » .

كان القيصر يعد هذه المطالب عدوانا على حقوقه ، وكان عجبا أن يتقدم هؤلاء الشحاذون فى أسمالهم الزرية ليطلبوا الى الحاكم المطلق أن ينزل عن سلطانه . والواقع أنه لم يكن ثم أحد فى روسيا يجرؤ على المطالبة بأكثر مما طلب هؤلاء ، بل ان حياة الكثيرين قد أزهقت خنقا بحبل لأنهم نادوا بأقل من هذه المطالب .

وسار الموكب في صبيحة الأحد وظل عدده يزداد بمن ينضم اليه من عمال الأحياء الصناعية الذين كانوا يتدفقون من كل شارع وزقاق مستصحبين أزواجهم وأطفالهم حتى جاوز عدد المتظاهرين ١٤٠ر٠٠٠ ، فلما بلغوا فنـاء القصر صـاح أحد ضباط الحرس « الى الوراء » فلمـا تلبثوا هنيهة أمر القيصر باطلاق النار عليهم فجدل منهم ما يربى على ألف من القتـلى ونحو ضعفى هـذا العدد من الجرحى ، وانقض فرسـان القوزاق على الجماهير الناكصين على أعقابهم يلهبون ظهورهم بالسياط ٠

كان هـذا اليوم الـذى عرف باسـم « يوم الأحد الدموى » مفرق الطريق بين القيصر وشعبه ، فلم يعد أبا الشـعب بل لقد نزع الشعب عنـه ما كان يلتحف به ثوب القدسية ، وجرف سـيل الدماء المهراقة سلطانه الروحي الذى دام على الأجيال المتتالية عائشا على تقاليد « الأب الصـغير » وزايل القوم ايمـانهم بأن خلاص روسـيا سيكون بالطريقـة التقليدية على يد أحد عاهليها ٠ لقد ذهبت هذه المقتلة ببقية ما كان عند الطبقة العاملة الروسية من الايمـان بالقيصر واحلت محله الايمـان بالثورة ٠

استفزت هـذه المذبحة من شهدها حتى الأب جابون اذ غلب عليـه شعور الجماهير الشاحبة وهو يخطبها فأبدى استنكاره لما حدث فى ساعة زايلته فيها عقلية العميل الحكومي ونسى أنه دسيس الشرطة وأن الكتاب المقدس الذى يحمله ليس الا هدية من وزارة الداخلية ٠

تمرد العمال والفلاحين

أحال هذا الدرس الراعب طبقة العمال طبقة ثورية وعلمها أنهـا لن تنال حقوقها الا غلابا واغتصابا ٠ وأحدث مصرع الشهداء انقلابا فى أذهـان المشـيعين ، وتكلم الموت فوق أجداثهم فأهاب بالمسـتضعفين المقهورين على أمرهم أن ينتضوا السيوف ، وانبعث من دياجير المقابر نور يضىء للجموع سبيلها ، فعلا صياح الجماهير « نريد سلاحا ، هلموا

الى السلاح » وبدأ العمال فى الليـل يقيمون السـدود والحواجز فى الطرقات

وتتالت اضرابات العمال (١) اسـتنكارا لما أتاه القيصر من نذالة وتعدد اشتباكهم بالجند فبلغ القتلى والجرحى من المضربين فى وارسـو بضع مئين فى شهر مايو ، واستمر العمال فى مدينة لدز البولونيـة الصـناعية ٣ أيام (من ٢٢ الى ٢٤ يونيو) يقـاتلون الجيش من وراء السـدود التى أقاموها فى الطرقات (٢) ، وأضرب عمـال ايفانو ــ ڤوزنسنسك فى أواخر مايو (٣) فاصطلم الجند منهم جما غفيرا ، ولكنهم ثبتوا لهم واحتملوا هم وأهاليهم قسـوة المجاعة فلم يستسلموا الا بعد شهرين ونصف شهر .

وأثارت اضرابات العمال السياسية ثائر الريف فتمرد الفلاحون فى ربيع ذلك العام وحرقوا قصور كبار الملاك ومصانع السـكر ومعامل التقطير . ونظم الاشتراكيون الديمقراطيون اضراب الفلاحين فاشـترك فيه نحو $\frac{1}{7}$ النواحى فى روسيا الأوربية .

وأصدر الاشتراكيون الديمقراطيون فى بطرسبرج ، وهم ينتمون الى الجناح البلشفى ، بيانا ملتهبا جاء فيه :

« أيها المواطنون . لقد لمستم بالأمس وحشية الحكومة ذات الحـكم المطلق ! لقد شهدتم الدماء التى أريقت فى الشوارع ! فمن هم أولئـك الذين صوبوا فوهات البنادق الى صدور العمال ؟ انهم القيصر ومن اليه من كل دوق عظيم وكذلك الوزراء والقواد وأوشاب البلاط . أولئـك هم القتلة السفاحون فالقتـل لهم ! الى السلاح أيهـا الرفاق . احتلوا مصانع الأسلحة ومخازن الأعتدة واحطموا مسالح الشرطة واقضوا على من بها من الضباط . اننا فى الخـارج لنعصف بحكومة القيصر ونولى مكانها حكومتنا . فلتحى الثورة ، فلتحى الجمعية الدسـتورية لممثـلى الشعب ! »

---

(١) وكان عدد المضربين فى يناير ١٩٠٥ : ٤٤٠٫٠٠٠ أى أكثر ممن اشتركوا فى الاضرابات طوال السنوات العشر السابقة .

(٢) ولعل ذلك كان أول صدام مسلح بين الشعب والجيش فى روسيا .

(٣) وعينوا فى خلال الاضراب مجلسـا من المنـدوبين كان ولا ريب من أول سوفيتيات العمال فى روسيا .

وقع أنباء المذبحة
فى نفوس البلاشفة

ومن الميسور لنا أن نتمثل كيف أثر هذا الحادث الدموى فى عقل لنين الواقعى وكيف اعتمل فى نفسه وفى منازعه الثورية عندما ترامت اليه تفاصيله فى منفـاه بسويسرا • لقد وصفت كرپسكايا كيف تلقى لنين ذلك النبأ فى چنيف ، فقالت :

« كنت أنا وڤلادمير ايليتش فى طريقنا الى دار الكتب فالتقينـا بآل لونا تشارسكى ، وانى لأذكر أنا ألكسندرڤنا زوجة لوناتشارسكى اذ بلغ منها الاهتياج أن عيت بالكلام فلم تزد على أن تهز الفرو الذى تدس فيه يديها • • وقصدنا الى حيث يمم جميع البلاشفة الذين بلغتهم أخبار بطرسبرج منجذبين من تلقاء أنفسهم الى مطعم ليبشنسكى للمهاجرين ، فقد كانت تملأ قلوبنا جميعا الرغبـــة فى أن نكون معا • اجتمع القوم ولبثوا لا يتناقلون الحديث الا لماما ، وكانوا مهتاجين متوترى الأعصاب وأنشدوا النشيد الجنازى الثورى ، بوجوه تعلوها جهامة • لقد استولت على كل منهم فكرة أن الثورة قد بدأت حقا وأن أغلال الايمان بالقيصر قد كسرت وأنه قد أزف الوقت الذى فيه – على حد تعبير لنين – « يسقط الطاغية وينهض الشعب حرا عظيما ! » • لقد أعلنت الحرب فى روسيا • وقد عد لنين هذه المذبحة بدأة الثورة الروسية الأولى » •

***

كان يوم الأحد الدموى سقطة حكومية أخذت بعدها قلاقل العمال تزداد باطراد طوال عام ١٩٠٥ ، وكان من آفن الرأى أن أمرت الحكومة عند استفحال التذمر بانشاء لجنة يرأسها شلدڤسكى « لبحث شكاوى العمال فى بطرسبرج ومشارفها ولايجاد الوسائل لازالة أسبابها » وأن عينت ممثليها وطلبت الى العمال أن ينتخبوا مندوبيهم (١) لقد حسبت

---

(١) ولعل جماعات العمال التى اجتمعت فى بطرسبرج لانتخاب مندوبين عنها فى تلك اللجنة هى أصل السوفيتات ، فليس البلاشفة أو المناشفة هم مبتدعى السوفيتات ، غير أن لنين أدرك من فوره ما لها من شأن عظيم فعمل على تنميتها • وكلمة « سوفييت » معناها «مجلس» ، وهى – مثل كلمة « بلشفيك » – لم تكن فى ذلك الوقت تحمل المعنى =

أن ذلك مكفكف من غلوائهم مهدئ لثورتهم ولم تحسب حساب لنين .
أما هو فقد أدرك أن الفرصة مواتية ، فأوعز الى البلاشفة أن يصرفوا همهم الى الظفر بانتخاب العمال من بين صفوفهم ، فلما تم لهم ذلك أبوا على اللجنة أن تطرح تفاصيل الحوادث للمناقشة ، وقدموا منهاجهم الماركسى الكامل، فقررت الحكومة حل اللجنة وقبضت على مندوبى العمال ثم قبضت فى فبراير على كثرة أعضاء اللجنة المركزية للحزب الاشتراكى الديمقراطى .

مسألة الأراضى الزراعية

كان لنين فى منفاة يتتبع الحوادث المتطورة فى عجلة ودءوب بما أوتى من قدرة غير مألوفة على تفهم التاريخ المعاصر ، وقد ضمن كتاباته فى ذلك العهد تحليلات تفصيلية لكل انثناءة فى سير الحوادث . على أن ذلك لم يلهه عن سائر المسائل التى تفرض عليه زعامته أن يعنى بها وفى مقدمتها مسألة الملكية الزراعية ومسألة النصر .

كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى بادىء الرأى يعد نفسه حزب عمال لا تعنيه مسألة الأراضى الزراعية عناية مباشرة ، وكان لنين فى أول أمره يسير هذه السيرة وان كان قد امتاز من كثرة رفاقه بأنه كان على وضوح من نقطتين :

الأولى : أن الفلاحين كانوا حلفاء طبيعيين للعمال فيما يتصل بالقضاء على طبقة كبار الملاك وعلى المعبر السياسى عنها وهو القيصر .

والثانية : أن الابقاء على تلك الطبقة من ملاك الأراضى بمسخرى الأقنان حقيق أن يستديم الأحوال والملابسات الاجتماعية التى تيسر بقاء الحكم الفردى .

= الثورى الذى تحمله الآن ، ولكنها اكتسبت ما لها من شأن فى ثورة سنة ١٩٠٥ واصبحت المجمع المركزى لقوى الطبقة العاملة .

وكان الحل الذى عن له اذ ذاك لمسألة الأراضى معتدلا غاية الاعتدال ألا وهو منح الفلاحين ما كانوا يفلحونه فى عهد القنانة من الأراضى التى استأثر بها كبار الملاك عند الغاء القنانة سنة ١٨٦١ ، ثم استبان فى سنة ١٩٠٥ أن هذا الاجراء غير كاف وأنه لا ينزل من نفوس الفلاحين منزلة الرضا ، فوضع منهاجا آخر مؤداه استصفاء أراضى كبار الملاك وأعضاء الأسرة القيصرية ومن اليهم والأراضى المملوكة للكنائس ، بيد أنه لم يكن يعد هذا الاستصفاء اجراء اشتراكيا (١) بل كان يرى فيه فسحا للمجال أمام نمو الرأسمالية بازالة احتكار حيازة الأراضى ، وكان يرى فى ازالة الطبقة ذات المصلحة فى بقاء القيصرية حاجة للثورة الديمقراطية . وقد دعا الفلاحين الى تكوين لجان لتنفيذ الاصلاح المنشود دون انتظار القيام بالاجراءات التشريعية ، وأيد فى صيف سنة ١٩٠٥ وخريفها ما عمد اليه الفلاحون من الاستيلاء عنوة على ضياع كبار الملاك ولكنه كان يلح عليهم ان يمسكوا عن تخريب الممتلكات وتقتيل الحيوانات التى ستئول اليهم ملكيتها .

مسألة النصر

وفيما يختص بمسألة النصر كان لنين مقتنعا بأن تلك الثورة التى نتشبت بعد فى سنة ١٩٠٥ ستكون ديمقراطية برجوازية لا اشتراكية بغض النظر عن ماهية زعمائها وعن أن القائمين بها لن يكونوا غير عمال الصناعات وهم الطبقة الوحيدة التى هى « مشبعة حقا بالثورة » فأما البرجوازيون الأحرار فقد قال فيهم انهم سيحمدون نشوب الثورة أول الأمر فى شىء من الجبن والفزع ، غير أنهم سينيطون كل أملهم باخفاق

---

(١) كما كان شأن الحزب الاشتراكى الثورى اذ كان ينادى بالاستيلاء على الاراضى الزراعية وتقسيمها قطعا متساوية يتوزعها الفلاحون زاعما ان المساواة فى الملكيه تعادل النظام الاشتراكى .

الثورة فى طور محدد مبكر ، ذلك أن صغار البرجوازيين في المدن ، الذين يمثلهم متقفو الدهماء وانصاف المثقفين ، هم ثوريون مخلصون فيما يتصل بقلب نظام الحكم الملكى ولكنهم عاجزون عن اتباع النظام الثورى وعن التفكير السياسى الواضح ، فأما الفلاحون فانهم — وان كانوا اكثر ثورية — ينقصهم الوعى السياسى ، كما أنهم لم يربطوا بعد فى أذهانهم بين توزيع الأراضى والمسألة السياسية ، مسألة تحطيم القيصرية • واذا كان اضطهاد كبار الملاك لهم قد أبقاهم طبقة متجانسة فى ظاهر الأمر فانهم سينقسمون ، عندما تبلغ الثورة الديمقراطية غرضها ، طبقات وجماعات أحوالهم الاجتماعية متباينة ، ويترتب على ذلك أن تقع على عاتق الطبقة العاملة وأركان حربها أعنى الحزب الاشتراكى مسئولية ابلاغ الثورة نهاية ناجحة • أجل ، يستطيع هذا الحزب أن يحالف أحزابا أخرى كالحزب الاشتراكى الثورى على شريطة ألا يتخلى عن استقلاله الفكرى التام وعن نقاء برنامجه أتم نقاء • يجب أن يكون شعاره « سيروا فرادى واضربوا جميعا » •

لقد كان غرض الثورة الأول هو النصر التام الشامل على قوات القيصرية وكبار الملاك وتأسيس جمهورية ديمقراطية ، وذلك مالا سبيل اليه الا بتآزر الطبقات الديمقراطية وتنسيق العمل بينها بقيادة الطبقة العاملة وقيامها جميعا بثورة جادة مسلحة ، وكانت تلك احدى النقط التى جرت خطا واضحا عريضا يفصل بين لنين والمناشفة ، فقد كان هؤلاء يهلعون من النصر ومن أن يجدوا أنفسهم ملزمين بالاشتراك فى حكومة الثورة ، فزعموا أنه يجب أن تندلع نار الثورة « من أسفل » •

وقد أوضح لنين أن النصر على القيصرية تعقبه فترة طويلة تشتد فيها مكافحة بقايا النظام القديم والبطش بالذين يحاولون انعاشه ، وذلك يقتضى تنصيب حكومة ثورية موقتة تعمل « من أعلى » لا « من أسفل » ، ولن تكون هذه الحكومة الا دكتاتورية لأنها منصبة للحرب لا للحكم ، وعلى من يأخذ نفسه بأن يقتحم معقلا ألا ينى فى الحرب بعد اقتحامه ، اذ أن الأمر لا يعدو احتمالين اثنين هما الاستيلاء على المعقل والقرار فيه أو الاستغناء عنه باذىء بدء اكتفاء بالقبوع فى مكان صغير بجانبه •

***

كانت الاحداث تتحرك في روسيا وأنباء التمرد وتفصيلات الفتنة تترامى الى سمع هذا الخبير النظرى في منفاه بجنيف ، فلم ير فيهـا الثورة التى كان ينتظرها ويعمل لها ولكنه أمل أن تسير بالناس شوطا من الطريق وأن تنمى فيهم الوعى الطبقى وذلك مالا غنى عنه للنهوض بجهد أكبر ، وقال : « لقد صار لدينا الآن تجارب عملية نغذى بهـا نظريتنا ونبلوها بها » • وقد أبانت له تلك الأحداث أن من الخطل دفع جماهير غير مسلحة وغير مدربة الى مقاتلة جنود مسلحين لا يزالون يحتفظون بولائهم للعصبة الحاكمة ، وأقنعته بضرورة القيام بثورة يكون الجمهور فيها مسلحا ، اذ أن فى ذلك تنبيها للجمهور وتدريبا للزعماء وتألفا للجنود وتوهينا لما يشعرون به نحو الحكام من ولاء ، ومن ثم عكف على قراءة الكتب فى الفنون العسكرية والخطط الحربيـة • وكان يجتلب العتاد الحربى من بريطانيا ، بيد أن ذلك العتاد لم يكن يصـل الى حيث يراد له أن يصل وذلك لسوء خطط النقل ، غير أن كراسين استطاع بحسن تدبيره أن يمد الثوار بمقادير وافرة من العتاد والسلاح •

المؤتمر الثالث

وألفى لنين نفسه في مأزق : لقد كان يشعر أنه هو وحده القادر على قيادة الجماهير فى تلك اللحظة الخطيرة ، وكان من المستحيل أن يقعد عن العمل ، ولكن العمل كان متعذرا ، اذ أنه كان فى ذلك الوقت خارجـا على اللجنة المركزية وهو نفسه القائل بوجوب الانقياد التام للجنة الحزب المركزية . لقد وجد له صفيه لتفينوف الحل اللازم على نحو يذكر بتفكير روسو ، فقد أفتى بأن اللجنة المركزية فقدت حق الانقياد لها بارتدادها عن السياسة الماركسية .

لقد زلزلت الأحـداث الثورية البـلاد وقلقلت المجتمع ودهدهت الطبقات من مراتبها وقسرتها على أن تعيد تنظيم نفسها بما يلائم الأوضاع الجديدة • وكان على الحزب الاشتراكى الديمقراطى كذلك أن يرسم خطته

فى ضوء نمو الروح الثورية فى البلاد والتجارب العملية التى مرت عليه ، بيد أن الحزب كان فى ذلك الوقت منقسما قسمين ، فكان من المتعذر عليه أن يجمع على خطة موحـــدة • ولهذا لم يكن ثم ندحة عن دعـــوة المؤتمر الثالث الى الاجتماع ليضع الخطط ويقيد بها القلة ، ولما اعترض المناشفة على توجيه الدعوة الى المؤتمر انفرد البلاشفة بتوجيهها فاجتمـع ٢٢ من زعمأتهم بسويسرا فى أغسطس وأصدروا بيانا عنوانـه « الى الحزب » دعوا فيه الى عقد المؤتمر على الرغم من اللجنة المركزية ، فأبى المناشفة تلبية الدعوة ومضوا يقيمون العراقيل فى ســـبيل المؤتمر • وعقد المؤتمر آخر الأمر فى أبريل ١٩٠٥ بلنـــدن وحضره ٢٤ مندوبا يمثلون ٢٠ شعبة بلشفية ، وكانوا يجتمعون خفية جماعات صغيرة وكانت كثرتهم العظمى من المثقفين ، فألح لنين فى أن يمثل العمال بعدد لائق بهم غير أن المؤتمرين قابلوا مقترحه بالرفض الصاخب اذ رأوا فى اشتراك العمال فى اللجان ما يعرض أسرارها للافتضـــاح ، وقد احتجوا بأن اتصالهم الوثيق بالعمال يغنى عن حضور العمال بأنفسهم •

ووضع المؤتمر دستورا جـــديدا للحزب جمع به السلطة فى يدى اللجنة المركزية ، وانتخب لنين رئيسا له ولصـــحيفة الحزب الجـديدة « پروليتاريا » وأعلن أن الاسكرا فقدت اعتبارها لسانا للحزب •

وقرر وجوب انخراط الحزب فى الأعمال الثورية حين يرى زعماؤه أن قد حان حينها ، •

وقرر كذلك تأييد الفلاحين فى جهادهم لاستصفاء الملكيات الكبيرة•

وعقد المناشفة فى الوقت نفسه مؤتمرا منشفيا محضـــــا فى چنيف ، بحث تلك المسائل التى بحثها البلاشفة فى مؤتمرهم فى لندن • وكانت قراراته مباينة كل المباينة للقرارات التى انتهى اليها مؤتمر الحزب •

فقد أجمع البلاشفة رأيهم على أن الطبقة العاملة يعنيها كل العناية أن تفلح الثورة القادمة كل الفلاح •

وأن تكون ثورة ديمقراطية برچوازية لا تعدو أغراضهـا نطـــاق النظام الرأسمالى ، لأن انتصار الثورة يتيح للطبقة العاملة : أن تنظـم نفسها ، وأن تنمو سياسيا وأن تكتسب خبرة وبصرا بزعامة الجمـــاهير الكادحة ، وأن تخطو من الثورة البرجوازية الى الثورة الاشتراكية •

وعالن المؤتمر أن الاحرار من البرجوازيين لا يرغبون فى أن تكلل الثورة بالنصر الكامل لأنهم يتخذون من النظام القيصرى سوطا يسوقون به العمال والفلاحين ، وأن كل ما يهفو اليه هؤلاء البرجوازيون الاحرار هو الحد من سلطان القيصر باقامة نظام دستورى فى ظل الحكم الملكى ، ومن ثم قرر المؤتمر أنه لن تنجح الثورة الا :

١ ــ أن تزعم عليها الطبقة العاملة وأن تكون للحزب مشاركة فى تنظيمها ٠

٢ ــ وأن يحالف العمال فيها الفلاحين وينحوا البرجوازيين الأحرار عن تصدرها ٠

٣ ــ وأن تتشكل عند نجاح الثورة حكومة ثورية موقتة قادرة أن تجتث أصل الرجعية المضادة للثورة وفروعها ، على أن يشارك الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى تلك الحكومة كيما يصل بالثورة الى هدفها المنشود ٠

وكان ما ارتآه المناشفة ، بخلاف ذلك ، هو :

١ ــ أن الثورة ــ بما أنها ثورة سياسية عامة ــ تهم الطبقات كافة لا الطبقة العاملة بخاصة ، و ــ بما أنها ثورة برچوازية ــ لن يستطيع زعامتها الا أحرار البرچوازيين ٠

٢ ــ وأنه لا ينبغى للطبقة العاملة أن توثق صلاتها بالفلاحين بل عليها أن توثقها بأحرار البرجوازيين ٠

٣ ــ وأنه يجب الكف عن ارهاب البرچوازيين الأحرار بالثورة فان ذلك يمهد لهم العذر للتجافى عنها ، وفى ذلك اضعاف لها ٠

٤ ــ وأنه اذا نجحت الثورة وأدى نجاحها الى تكوين حكومة ثورية موقتة فيجب ألا يسهم فيها الحزب الاشتراكى الديمقراطى بأية حال لأن الحكومة لن تكون اشتراكية ، ولأن اسهام الحزب الاشتراكى فيها ينفث الرعب فى نفوس البرجوازيين الاحرار فتكون عقبى ذلك هدم الثورة ٠

خطتان للاشتراكية الديمقراطية

وقد أوضح لنين زيف هذه الآراء في كتابه « خطتان للاشتراكيـــة الديمقراطية في الثورة الديمقراطية » (١) وتناول فيه بالنقد كذلك خطط النفعية الدولية ، وجدد المبادىء الأساسية للخطط الماركسية في ظهور الانتقال من الثورة البرجوازية الى الثورة الاشتراكية ، وأوضح :

١ ـ أن الطبقة العاملة قادرة أن تقود الثـورة الديمقراطيـة البرجوازية ، وأن ذلك واجبها .

وأن هذه الثورة ـ مهما يكن من أمرها ـ ثورة شعبية يضطرب فيها الشعب كله وفي جملته الطبقة العاملة والفلاحـون ، فمن الخيانة ما يحاوله المناشفة من تهوين شأنها عند جموع الطبقة العاملة ومن تصغير مهمتهم فيها .

ثم قال :

« وعلينا ألا ننسى أنه ليس ثم في الوقت الراهن ، ولا يمكن أن تكون هناك في المستقبل ، من وسيلة لتقريب الاشتراكية الينا غير الحرية السياسية الكاملة ، غير الجمهورية الديمقراطية » .

وقد رأى أنه ليس هناك الا احتمالان لنتيجة الثورة :

أحدهما أن تنتهي بنصر حاسم على القيصرية فتخلع القيصر وتؤسس الجمهورية الديمقراطية .

والآخر أن تنتهي ـ عندما تكون القوى غير كافية ـ بمســـاومة بين القيصرية والبرجوازية على حســاب الشـــعب ، بنوع من الدســاتير منجم (٢) أو بدستور هازل هزيل ـ

وانه ليهم الطبقة العاملة أن تنتهي الثورة بنصر حاسم . وذلك لا يكون الا اذا أفلحت هذه الطبقة في أن تزعم على الثورة وتسدد خطاها ، وهو أمر ميسور وواجب :

---

(١) ظهر هذا الكتاب في يوليو ١٩٠٥ أي بعد انقضاء شهرين على المؤتمر الثالث .

(٢) نجم الدين : أداه نجوما ، يعني بالتفاريق .

(أ) لأنها أكثر الطبقات تقدما وثباتا على ثوريتها •

(ب) لأن لها حزبها الخاص •

(جـ) لأنه يعنيها هي أكثر من سواها أن تنجح الثورة نجاحا حاسما ، « فان الثورة البرجوازية هي ، من بعض الوجوه ، أوفر نفعا للطبقة العاملة منها للطبقة البرجوازية » .

ولئن كان من الخير للبرجوازية أن تعتمد في مناوأتها الطبقة العاملة على بعض مخلفات الماضي كالنظام الملكي والجيش الدائم ، وألا تحدث ما ترغب فيه من التغييرات الديمقراطية البرجوازية من طريق الثورة أو على نحو سريع حاسم وألا تدعو الى هذه التغييرات في أسلوب يثير الوعي والنشاط في العمال حتى لا يصوبوا اليها الأسلحة التي وضعتها في أيديهم ، ان من الخير للطبقة العاملة — على عكس ذلك — ان تحدث التغييرات المنشودة في سبيل الديمقراطية البرجوازية من طريق الثورة لا الاصلاح ، فطريق الاصلاح طريق التراخي والتواني • ومن أجل هذا يجب أن تتصدر الطبقة العاملة صفوف المكافحين في سبيل الجمهورية، ومن أجل هذا أيضا يجب أن تأبى النصيحة السخيفة التي توجه اليها بألا تفعل ما من شأنه افزاع البرجوازيين •

هذا ، ولا بد لتحقيق زعامة الطبقة العاملة للثورة من شرطين :

الأول : أن تجد الطبقة العاملة حليفا يرضاها زعيمة له ويكون مصرا على احراز النصر الكامل على القيصرية ، لأنه لا زعيم بلا مزعوم عليه ، وهذا الحليف هو الفلاحون .

الثاني : اقصاء الطبقة التي تنافس الطبقة العاملة الى خارج مضمار الزعامة حتى لا يكون ثم زعيمان ، وتلك هي طبقة البرجوازيين الأحرار •

كانت هذه الخطة جديدة على الماركسية • وكان البرجوازيون في غرب أوربا قبل ذلك هـم الذين يحتلون المقـام الأول في انشاب الثورات البرجوازية •

نعم ، لقد تحدث بلخنوف حقا بشيء من هذه الآراء ولكنه كان يسير على نقيضها فيزكي التفاهم مع البرجوازيين ويتنكب عن محالفة الفلاحين•

٢ — أن الوسيلة المثلى التي تستبدل بها الجمهورية الديمقراطية بالقيصرية هو قيام الشعب بثورة مسلحة ، وأن الأحوال والملابسات

قد أصبحت مهيأة لتلك الثورة ولم يبق الا امداد الشعب بالسلاح والعتاد وقد أوصى بما يأتي :

(أ) اضرابات سياسية عامة يقام بها في بدء الثورة وفي أثنائها ، فذلك يفسح المجال لتجنيد العمال للثورة .

(ب) تحقيق يوم العمل ذي الثماني ساعات . بجعله أمرا مفصولا ، بالاشاحة عن القوانين وعلى الرغم من السلطات .

(ج) تنظيم لجان من الفلاحين الثوريين لاحداث التغيير المنشود (كاستصفاء الضياع الكبيرة) بطريقة ثورية .

(د) تسليح العمال.

واقترح أن تخلف الحكومة القيصرية عند نجاح الثورة حكومة ثورية موقتة ليست من النوع المألوف ، تفرضها الطبقات الظافرة فتمحق أعداء الثورة وتحقق برنامج الغايات الدنيا للحزب الاشتراكي ، فبهذه الحكومة الثورية الموقتة ينحسم الأمر ويتحقق النصر .

وأوجب اسهام الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الحكومة الموقتة ليتصل الكفاح لاحباط المحاولات المناوئة للثورة في غير وناء والذود عن المصالح التي تهم الطبقة العاملة دون غيرها . غير أنه اشترط لهذا الاسهام أن يحتفظ الحزب باستقلاله عن سائر الأحزاب ، وأن تكون له رقابة شديدة على ممثليه في الحكومة الموقتة .

وأبان ضرورة قيام الحزب ، أتيح له الاسهام في الحكومة أو لم يتح ، بحمل القوات العمالية المسلحة التي يقودها (الحزب) على ضغط الحكومة ضغطا مستمرا لارغامها على الذياد عن أغراض الثورة وتوسيع نطاقها .

أما ما يحتج به المناشفة من أن الحكومة الموقتة هي على أية حال حكومة برجوازية وأن الاشتراكيين الديمقراطيين يقترفون باشتراكهم فيها الخطأ الذي اقترفه الاشتراكيون الفرنسيون من قبل فقد دحضه لنين موضحا أن المسألة في فرنسا كانت مسألة اسهام الاشتراكيين في حكومة برجوازية رجعية في وقت لم تكن تخيم على البلاد فيه حالة ثورية أما في روسيا فالمسألة مسألة اسهام الاشتراكيين في حكومة برجوازية في وقت بلغت فيه الثورة ذروتها مما يحتم على الاشتراكيين الديمقراطيين أن

يشاركوا فيها حتى يسددوا ضرباتهم الى حركات التخذيل المضادة للثورية من أعلى كذلك لا من أسفل فحسب ، من داخل الحكومة وخارجها .

على أنه لم يدر بخلد لنين مطلقاً وهو يدافع عن الثورة البرجوازية وعن اقامة صرح جمهورية ديمقراطية أن يقف عند الطور الديمقراطى وأن يقصر الحركة الثورية على تحقيق الواجبات الديمقراطية ـ البرجوازية ، بل لقد كان يرى فى تحقيقها اشارة الى الطبقة العاملة وغيرها من الجماهير المستغلة بأن تهب للصراع فى سبيل الثورة العاملية ويرى أن دكتاتورية العمال والفلاحين ضرورية ، لا لانهاء الثورة عند انتصارها على القيصرية، بل لاطالة مداها قدر الامكان حتى تقضى على آخر المخلفات المعادية للثورة وحتى تجعل شعلة الثورة تمتد الى أوربا وحتى تهيىء للطبقة العاملة فى الوقت نفسه أن تتثقف وأن تنتظم فى جيش وأن تشرع فى الانتقـــال الى طور الثورة الاشتراكية .

كان ماركس قد كتب الى انجلز فى سنة ١٨٦٥ يقول « ان كل شىء فى ألمانيا يتوقف على دعم ثورة الطبقة العاملة بطبعة ثانية من حـروب الفلاحين » غير أنه لم يطرق هذا الموضوع ثانية لا هو ولا انجلز . أما واضعو النظريات من رجال الدولية الثانية فقد عملوا جاهدين على اسدال ستر النســيان على هذا الموضوع الهــام فلم يزل عازبا عن الألباب حتى جاء لنين فكشف عنه ونماه وجعل منه نظرية مفصــــلة تشـــترط لانتصار ثورة العمال عقد التحالف بين البرولتاريا والعنــاصر نصف البرولتارية فى المدن والأرياف ، وأدحض بذلك ما كانت تذهب اليه الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى غرب أوربا من أن العناصر نصف البرولتارية فى المدن والأرياف هى بطبيعتها غير ثورية ولن تشارك فى الكفاح لتلقى عن عاتق المجتمع نير الرأسمالية التى تسـتغل الملايين من أبنائها ، ومن أن الفلاحين سيخلدون بعد انتصار الثورة البرجوازية الى النوم قرنا أو نصف قرن ، فتقف الطبقة العاملة وحدها فى مواجهة البرجوازيين دون أن تستطيع حيالهم شيئا ، ويظل هؤلاء ينعمون بمــــا يجمعون من ثروات حتى ينضج المجتمع ، وان نضجه لرهين بأن تكون الكثرة فيه من الطبقة العاملة .

وهكذا نجد أن هذا الكتاب قد أضاف الى ثروة الماركسية نظريـة جديدة عن الثورة (١) وأنه وضع الأساس لخطة الحزب البلشفى الثـورية

(١) وقد أكمل هذه النظرية بعد ذلك بعشر سنوات فى سنة ١٩٥١ .

التى أتاحت للطبقة* العاملة الروسية أن تظهر على الطبقة البرجوازية سنة ١٩١٧ .

* * *

وقد ضاعت بعد ذلك بضعة أشهر فى محاولات خائبة للتوفيق بين البلاشفة والمناشفة . على أن الأحداث كانت فى أثناء ذلك تسير حثيثا .

الفتنة تستعر

استطارت الثورة فى خريف سنة ١٩٠٥ فى أرجاء المملكة جميعا ، فأضرب عمال المطابع فى موسكو وقفاهم عمال السكك الحديدية ومازال الاضراب يمتد فى شتى أرجاء البلاد ويتفشى مختلف طوائف العمال والمثقفين حتى ناهز المضربون المليون ، فشلت الأعمال الحكومية .

وأفلح البلاشفة فيما ناطوه بالاضراب من آمال ، فقد أصدر القيصر المرعوب فى ١٧ أكتوبر مرسوما يعد فيه الشعب بمنحه الحريات المدنية (حرية الضمير والكلام والاجتماع الخ) وبتعميم حق الانتخاب له جميعا دون استثناء ، وانما كانت مأربة القيصر تخدير الشعب وكسب الوقت حتى يعد للأمر عدته فيأخذ الثورة أخذ عزيز مقتدر . وقد رأى لنين فى صدور هذا المرسوم دليلا على أن القوى بين العمال والفلاحين وبين القيصر قد صارت الى تكافؤ ، فلا هؤلاء بقادرين على خلعه وابطال نظام حكمه ولا هو بقادر على التعويل فى الحكم على الأساليب القديمة وحدها ، ولذا أرغم على أن يعد بالدوما وبالحرية ولكن البلاشفة قرروا مقاطعة ذلك المجلس النيابى ونبهوا الشعب الى أن مرسوم ١٧ أكتوبر ليس الا مصيدة والى أن مسلك الحكومة بعده كان مسلك استفزاز . وساءل القوم : ماذا حقق القيصر من وعوده ؟ انه لم يعف الا عن النزر القليل من السجناء السياسيين وجعل دأبه التأريث بين الشعب فأنشأ عصائب من ملاك الأراضى والتجار والقساوسة الرجعيين والعناصر النزاعة الى الجريمة عرفها الشعب باسم «المئات السوداء» كانت تقوم وهى فى حمى الشرطة باغتيال العمال التقدميين والمثقفين الثوريين

والطلبة الناشطين كما كانت تقوم أيضا باشعال النار فى الأمكنة التى كان هؤلاء ينتدون فيها (١) .

وحدث بعد ذلك أن أبدى ملاحو السفينة الحربية پوتمكين تذمرهم من رداءة اللحم الذى يقدم لهم وهبوا فى وجوه ضباطهم يعلنون نقمتهم، فكان جواب الضباط أن أمروا باطلاق النار على زعمائهم ، ولكن الجنود الذين عهد اليهم فى ذلك أبوا أن يمضوا الأمر فى اخوانهم وألقوا بالضباط الى اليم ، ومخرت السفينة يرفرف عليها العلم الاحمر الى أودسا . وكانت وقتئذ يسودها الاضراب . وتمرد الملاحون فى سفينة أخرى من أسطول البحر الأسود ولكنهم لم يكونوا مدركين لضرورة قلب النظام القيصرى ، واللجوء الى الثورة المسلحة ، فاحتفظوا بالمسلك السلمى وأطلقوا من كان فى أسرهم من الضباط وسمحوا لأنفسهم أن يغرر بهم الرؤساء ، ولم يكن بالسفينة كفايتها من الفحم والمؤن فاضطر الملاحون أن يقلعوا بهـــا الى رومانيا وهنالك استسلموا لسلطاتها وحوكم الملاحون المتمردون وحكم على بعضهم بالقتل وعلى آخرين منهم بالأشغال الشاقة المؤبدة .

لقد كان هذا التمرد أمرا ذا بال ، اذ كان أول جنوح من بعـــض قوات القيصر الى جانب الثورة مما بعث فكرة التقريب بين الجيش والبحرية من ناحية وبين العمال من ناحية أخرى . ولقد كان ما أبداه الجنود والبحارة فى حـوادث الفتنـــة من امارات الغدر وفقـدان الولاء للقيصر مزعجا الازعاج كله لسلطة ليس لها جذور متأصلة فى اية طبقة وليس لها فى غير القوة ما تعتمد عليه .

وكان لهذه الحوادث المتتابعة أثرها فى البرجوازيين الأحرار . لقد كانوا يخشون الثورة ولكنهم عمدوا الى ارهاب القيصر بها كى يشركهم معه فى الحكم ، وطلبوا اليه « تهدئة » الشعب حتى ينشق الثوار بعضهم على بعض فيجنب البلاد بذلك احتدام الثورة . وقال الأحرار من كبار ملاك الأراضى : لأن نبذل رقعة من أراضينا أهون من أن نبذل رءوسنا ، وهكذا « كانت الطبقة العاملة تقاتل » كما يقول لنين « والطبقة البرجوازية تبتز السلطان » .

ومضى القيصر فى سياسة القمع والارهاب ، ولما ألفى أن سياسته لا تلقى غير الخيبة والاخفاق ، عمد مع استمساكه بها الى اصطناع الحيلة والمداورة كذلك .

---

(١) وقد ذاعت فى ذلك اغنية شعبية جاء فيها :

قد اصـــدر القيصر المرعـوب مرســوما

بعد فيه بالحرية للموتى وبالاعتقال للاحياء

كونت ڤته

فأعاد (القيصر) الى دست الحكم ذلك الداهية الروسى كونت ڤته وكان له فى نفوس الأحرار حظ من التقدير •

كان ڤتــه رجلا من طراز الوزير الفرنسى كايو والوزير الألمــانى راتناو ومن اليهما ممن يحسنون البيـــان فى أضرار الحرب واظهار أن الاتحادات والمواثقات الصناعية تستطيع فى يسر وفى غير جلبة وبلا نفقات باهظة أن تشق طريقها الى الاستغلال والانتهاب ، وذلك باصـــــطناع ما ابتدعته المدنية الحديثة من أساليب ، وكثيرا ما حذر القيصر من الحرب حتى فقد بكثرة الحديث فى ذلك ما كان له فى نفس العاهل المستبد من حظوة ومكانة •

لقد كان يعمل على تعبيد الطريق أمام الرأسمالية الناشئة ويفتح أبواب بلاده على مصاريعها لاستقبال رءوس الأموال الأجنبيـــة ، وكان يحاول أن يسوس البلاد على نمط أوربى غربى ، على نمط رأسمالى ،وكان لا يؤمن بسياسة المشانق ويرى أن توطيـــد مالية البـــلاد لا يكون الا بالاصلاح الاجتماعى فى ظل الحياة الدستورية •

وكان عليه ــ كما كان على الكردينال ريشليو (١) من قبل ــ أن يلائم بين مصلحة مئات الألوف من الكيلو مترات المربعة التى تضمها بلاده وبين الأمتار القليلة التى تحيط بالعـرش ، بيــد أنه لم يـكن يمهر فى الأمور الروحانية مهارته فى الأمور المالية ، فكان ينغص على القيصر لذة تكاسله ويرنق عليه صفوه بالحديث المتصل فى تعبيد الطرق ونشر التعليم واقامة المصانع دون أن يتحدث الا لماما فى شأن العناية الربانية ودون أن يتحدث البتة عن القديسين ومعجزاتهم • وحدث فى سنة ١٩٠٣ أن رسم الأب سرافيم قديسا بعد أن قبض بنصف قرن ، غير أن معجزاته

---

(١) أمضى هذا السياسى الفرنسى (١٥٨٥ ــ ١٦٤٢ م) شطرا من شبابه فى خدمة الكنيسة واسترعى اليه انظار الملكة الام مارى دى مدتشى • وارتقى الى كرسى الوزارة فى عهد لويس الثالث عشر فبذل جهدا ملحوظا فى توطيد سلطان الملك ومنـــاوأة الاشراف الاقطاعيين كما اشتهر بتعقب البروتستانت والفتك بهم •

لم تنقطع بعد مماته ،فهو الذى يسر للقيصرة ببركته أن تحمل بولى العهد بعد ان طال بها العقم • وكانت أخرى معجزاته أن عزل كونت فته ، فقد آكثر وزير الداخلية بليف من البكاء بين يدى مخلفات القديس الراحل فتأثر القيصر بما آنس من صدق ايمانه فقربه اليه ، وكان تقريب بليف يعنى ابعاد رفته •

وها هو ذا القيصر يدعو فته ثانية لتسكين ثورة الشعب ولانقاذ مولاه من الأزمة المالية الممسكة بمخنقه بعد أن أنقذه قبل ذلك بتقرير الصلح مع اليابان •

ربط المركبة الروسية بالحصان الفرنسي

فى ديسمبر ١٩٠٥ وقد أطلقت آخر رصاصة من جانب الثوار قدم بطرسبرج مندوب من مصرف الكريدى ليونيه يدعى نتسلن وقصد من فوره الى قصر الغراندوق الكندروفتش حيث أكتب من أمامه :

« تأخذ الحكومة على نفسها لمناسبة اقتراضها القرض البالغ ٢٥٠ر٢ مليون فرنك أى زهاء ٠٠٠ر٧٥٠ر٨٤٥ روبل ذهبا أن تعيد الأمن والنظام فى البلاد وأن تنشىء مجلسا نيابيا وألا تعقد قروضا أجنبية أخرى فى مدى ثلاث سنوات •• »

وكان مؤتمر الجزيرة فى ذلك الوقت معقودا لمعالجة ما اشتجر بين ألمانيا وفرنسا من نزاع على مراكش ، فأيد المندوبون الروس وجهة النظر الفرنسية ، وكان من أثر ذلك أن اشتركت روسيا بعد سنوات فى الحرب العالمية الأولى فى صف القيصر • فان القيصر لم يتردد مقابل ما أخذه من الذهب أن يرهن رعاياه وعدتهم ١٤٠ مليونا • وقد استعان بهذا الذهب فى قهر الثورة ، وبذلك خسر لنين الثورة الروسية الأولى ولكنه عوض منها بقيام الحرب العالمية الأولى التى أتاحت له الظفر فى الثورة الثانية •

سياسة ڤته

رأى ڤته أن ينزل للشعب عن بعض امتيازات تجذب اليه التجار ورجال الأعمال ومثقفي الطبقة الوسطى وترضى الأحرار فينشقون على الاشتراكيين ويحالفونه عليهم ، فاستصدر مرسوما بانشاء مجلس الدوما وعملت الحكومة على الهاء الشعب عن رذائل النظام القائم باثارته على اليهود .

وكان ثم كثيرون ، خارج الطبقات الحاكمة أيضا يرون أنهم يخسرون بالنظام الشورى اذا نجح أكثر مما يخسرون فى ظل النظام القيصرى (١) .

وكانت الاضرابات قد أسخطت أبناء الطبقة الوسطى اذ حرمتهم وسائل الراحة . لقد كانوا يرحبون بالدستور ولا يكرهون الثورة على المظالم ، أما أن ينقطع عنهم الغاز وتقف وسائل الانتقال ويضطرب البريد وتغلق المصارف ــ فلا .

ونجح كونت ڤته فى التفرقة بين الأحرار والإشتراكيين أما الأحزاب الثورية فقد أرغمها الموقف على أن تشد ما بينها من خلاف .

وتأسس فى بطرسبرج سوڤيت كان من أبرز أعضائه اليهودى برنشتين الشهير باسم ترتسكى ، وقد تبوأ فيه مكانة رفيعة لما أوتيه من نشاط ومواهب ولأنه لم يكن قد تورط قبل فى الخلافات السابقة بين الأحزاب والزمر المتنازعة ، وذلك ما يجعل المرء يظفر بتأييد الجميع عند الرغبة فى الائتلاف .

وقد كان لنين يرقب مساعى الائتلاف هذه من منفاه ويستريب بجدواها ، وكان يقول ان السوفيت « ليس مجلسا نيابيا للعمال .. بل هو عصبة للكفاح لتحقيق أغراض مرسومة » .

---

(١) وقد كون هؤلاء الذين يمكن ان يسموا فاشيين « اتحاد الشعب الروسى » بزعامة الدكتور دبروفن Dobrovin

عودة لنين

عاد بعض الزعماء الثوريين الى روسيا فى فجر « أيام الحرية » (١) بيد أن الموقف كان مقلقلا فلم يجازفوا بالظهور بين الجماهير ، وذلك ما فسح المجال لنفر ممن لا يدل ماضيهم على كفاية ولا ينم حاضرهم على بصر بالسياسة فتقدموا وقبضوا على مقاليد الزعامة .

وكان لنين من أوائل الذين عادوا الى روسيا من المهاجرين الثوريين ، فقد شعر أن الأحوال تدعوه الى العودة اليها ، واعتقد أنه يستطيع أن يعمل فيها آمنا ، فقد شلت يد القيصر نقولا المدرعة بازاء مسلك العمال التهديدى ولم يبق لديه بعد هزيمته فى حرب اليابان من العزة والمنعة ما يواجه بهما شعبه مواجهة الفاتح العظيم الذى زاد رقعة الامبراطورية بسطة وامتدادا ، وكانت تلك حالة جديدة على لنين الذى ما فتىء منذ مصرع أخيه سنة ١٨٨٧ يشعر بجبروت القيصر يتعقبه ويلاحقه حيثما ذهب : طالبا فى قازان وسجينا فى قلعة شلسلبرج ببطرسبرج ومنفيا فى شعاب ثلوج سيبيريا ومشردا فى ميونخ ولندن وجنيف ، فعاد الى بطرسبرج فى أوائل نوفمبر ١٩٠٥ وكانت تلك أول زيارة منه لها منذ برحها الى ميونخ سنة ١٩٠٠ .

لقد عاد الآن الى العاصمة بعد أن عقد له لواء الزعامة فى الجناح البلشفى للحزب الاشتراكى الديمقراطى فكانت العودة الى العاصمة فى تلك الأحوال مقوية لمكانة حاكمها المقبل . نعم ، لقد دخلها خفية من الباب الخلفى يحمل جوازا مزورا ، ولكنه آنس فى الأفق مطلع شعاع يبشر بانبثاق فجر يوم جديد ، وقد ظهر فى المجتمعات العامة غير مرة مستخفيا وراء أسماء مستعارة (٢) ثم استقر رأيه على أنه يستطيع أن يعيش جهرة وأن يسجل اسمه لاثبات وجوده قانونا ، فلما حاولت الشرطة الامساك به انفصل عن زوجته وعادا الى وضعيهما غير القانونى يعملان مستخفيين .

---

(١) وهو الاسم الذى عرفت به الاسابيع الستة لمرسوم ١٧ أكتوبر الذى استقر فيه رأى الحكومة على اجابة العمال المضربين الى بعض مطالبهم .

(٢) ولذلك كان عاجزا عن أن يحدث من الاثر الحاسم مثل ما أحدث بعد ذلك فى سنة ١٩١٧ .

كان الذين يستطيعون القراءة من الروس ، عندما وصل لنين الى العاصمة ، يتمتعون بقراءة شتيت من الصحف الهدامة للحكم القيصرى، اذ أنه لم يحدث قبل قط كما لم يحدث بعد (الا بضعة أشهر من سنة ١٩١٧) أن أتيحت الكتابة بهذه الحرية وبهذا الانتشار ، فقد ضوعف عدد ما يطبع من صحف المهاجرين ، وكان ما يطبع منها قبل ذلك لا يكاد يبلغ عشرة آلاف نسخة ٠

وانضم لنين الى كتاب صحيفة « الحياة الجديدة » اليومية التى كان يصدرها مكسيم جوركى وقرينته ، وكانت تفسح صدرها للبلاشفة والمناشفة معا ، بيد أن كتابات لنين فيها كانت صريحة فى ثوريتها فحمل ذلك العناصر المنشفية على أن تختفى من الصحيفة ، وبهذا أصبحت الصحيفة لسان البلاشفة الرسمى ٠ وفى هذه الصحيفة استطاع لنين للمرة الأولى فى حياته أن يكتب بحرية تامة ليقرأ له الجم الغفير من القراء٠ وكان فى الوقت نفسه يكتب فى صحيفة « الكفاح » التى تصدر فى موسكو ٠ وكانت كتاباته فى تلك الفترة منصبة على دعوة معاونيه الى استغلال الأحوال القائمة وعلى أن يستبدلوا بالأعمال الشبيهة بالائتمار السرى أعمالا صريحة ، كما أنه عنى كثيرا بمسألة تنظيم العلاقة بين الفلاحين والعمال ، وكان أبناء المدن عامة والمثقفون منهم خاصة يعرضون عن المسائل المتصلة بأهل الريف ٠

تفاقم الثورة

وأخذت الثورة تتفاقم وتحولت الألوف المؤلفة من أرباب الأسر الذين كانوا الى ذلك اليوم يستنكفون أن يقبلوا اية يد تبذل لهم رضيخة من المال الى ثائرين لا يتحرجون عن تحطيم أى شىء ، فقد فقدت المقدسات ما كان لها فى قلوب الشعب من رهبة واحترام واكتسب العنف ظلا من القدسية ٠

وعم الاضراب وتعددت المظاهرات ، ولم تكن هناك نقابات عمالية ولا جماعات تعاونية ، وكانت الأحزاب الاشتراكية منقسما بعضها على بعض وكان أعضاؤها لا يتجاوزون بضعة آلاف ، فمن الذى يتولى قيادة الملايين ؟

لقد نجم الجواب فجأة دون أن يذيعه بيان أو منشور ، ولم تمض ٢٤ ساعة حتى علم الناس جميعا • انه : سوفييت العمال •

لم تكن السوفييتات وليدة رغبة البلاشفة أو المناشفة بل هى أحرى أن تكون من ابتداع القيصر (١) •

وقد أحسن العمال طرق هذا السلاح وقد حمى بنار الكفاح ، تلك النار التي تأججت في أكتوبر ١٩٠٥ •

وقد انتخب عمال بطرسبرج سوفيتهم فى ١٣ أكتوبر ١٩٠٥ وعقد السوفييت أولى جلساته في ذلك اليوم نفسه • وكان سوفيت بطرسبرج يزعم على سائر سوفييتات البلاد دون تنظيم سابق فكان هو فى الحقيقة حكومة الطبقة العاملة • وقد بلغ من عظم سلطانه أن قال بعض رجال القصر متنادرين انهم لا يدرون : أتقبض الحكومة على السوفييت أم يقبض السوفييت على الحكومة • على أن سوفيت بطرسبرج لم ينهج منهج العنف ولم يعمل لتسليح العمال ، فقد كان زعماؤه خروستاليف وترتسكى وبارفوس من المناشفة فهم لا يريدون الثورة ، ولم يكن المضربون يسقطون صرعى رصاص الأعداء بل صرعى الجوع ، اذ استفحلت المجاعة وبدأت تنال منهم فأقعى القيصر تأهبا للوثوب عليهم •

ولم يبق القيصر الى النهاية يرقب فى أسى تطور الحال بل انه أبرز يده المدرعة وأعلن الحكم العرفى على المتمردين فى كرونشتات • فدعا سوفييت بطرسبرج فى ٢ نوفمبر الى اضراب عام آخر ، ونجح الاضراب فى بطرسبرج وحدها وأخفق فى سائر أرجاء المملكة ، فرأى كونت فته وزير الداخلية فى ذلك ما يشجعه على أن يكر كرة مضادة ، فألقى القبض فى ٢٦ نوفمبر على نوسار رئيس سوفييت بطرسبرج ، ولما رأى أن ذلك لم يعقب اضطرابا فى صفوف الشعب ألقى القبض بعد ٦ أيام

---

(١) كما سلف فى الكلام على سياسة التهدئة التى أعقبت مذبحة يوم الاحد الدموى •

على سائر أعضاء السوفيت . وقد وصف هـــذا الحادث فى مذكراتـه بقوله :

« لقد انتخب السوفيت فى مكان نوسار رياسة من ٣ أشخاص .. وقد كنت أعتزم القبض على نوسار قبل هذا الوقت ، لولا أن فالنسكى .. نصح لى الا أفعل ، منتظرا حتى يحل الوقت الذى يرحب فيه العمال أنفسهم بالقبض عليه ، أى حتى يفقد نوسار والسوفيت فقدانا تاما ما لهم من مكانة .. وكانت تلك نصيحة حصيفة جدا .. وقد أصدرت الأمر بعد القبض على نوسار بالقبض على السوفيت كله ، وذلك ما أنفذه درنوفو فى ٣ ديسمبر .. وقد كان السوفيت فى خوف من أن يجتمع ، ولم يكد يفعل حتى قبض على أعضائه كافة وكانت عدتهم ١٩٠ رجلا .

وقد نجا لنين من الاعتقال لأنه عند القبض على زعماء الثورة كان فى فنلاندا يحضر مؤتمرا للبلاشـــفة فى تمرزفرس يتذاكرون فيه مليـافى الشئون القائمة ، وفى ذلك المؤتمر تلاقى لنين وستالين أول مرة ،وكانت فنلاندا قد حصلت فى سنة ١٩٠٥ على استقلالها الذاتى فلم يعد للشرطة الروسية سبيل الى أن تطأ أراضيا . وكان عمال بطرسبرج قد نهكهم الجهاد الطويل فأعلنوا ولاءهم للقيصر فى ظاهر الأمر ، فتوطد سلطانه فى العاصمة. ولما ذاع نبأ القبض على سوفيت بطرســـبرج دعا بعضهم الى الاضراب فلم يستجب للدعوة الا ٨٠٫٠٠٠ عامل هبـــط عددهم قبل انتهاء الأسبوع الى ٣٫٠٠٠ فقد كان الاضراب يعنى المخمصة . لقد طالما أمر القيصر العمال أن يلزموا أعمالهم فكانوا يضربون عن العمل ، وكم من مرة أهاب بهم الزعماء الثوريون أن يضربوا فلم يستجيبوا ، فليس رجل الشارع برجل القيصر ولا برجل الثورة .

وجاءت نوبة الأرياف ، فما تناهى نبأ القبض على سوفيت بطرسبرج الى مسامع سوفيت موسكو حتى دعا العمال فى ٥ ديسمبر الى الاضراب وفى نيته أن يصير بالاضراب الى ثورة مسلحة ، فاستجابوا جميعا للدعوة ، فقد كانت موسكو أشد من بطرسبرج تذمرا وأعنف جيشانا بالثورة ، وكانت كذلك أصلب عودا اذ أن كثرة المندوبين فى ســـوفيتها كانوا من البلاشفة وكانوا لا يفتأون يرددون للنداء « استيقظى ياروســـيا » . ، وقد تآخى حرس المصانع والمضربون وأبدى من فى المدينة من الجند روحا ودية نحو العمال .

وألقى لنين عصا التسيار فى مدينة الكرملن فكان يقول للبلاشفة ، اما

الكفاح حتى النصر النهائي .. وذلك معناه الثورة واما التخلي عن الكفاح جملة » .

لقد كان يرى النصر أمرا محتملا ، وها هي ذى فرصة تتيح له أن يتوج جهود حياته ، فان أفلتها ودع معها تلك الجهود وانحط عن مستوى صانعي التاريخ الى مستوى كتاب القصص .

ودوى صوت السوفيت خلال صمت المصانع مناديا « فليتحول الاضراب ثورة مسلحة » وبدأت المناوشات بين العمال والجند ، وحـــدث في بعض الجهات أن أطلق الجند الرصاص على المنازل التي كانت تعقد فيها الاجتماعات فجاوبهم من في داخلها بقذف القنابل .

وأخذ العمال منـــذ اليوم الثالث للاضراب ينتهجون خططا نظامية ، فجعلت جماعات نشيطة منهم تطوف بمتاجر البنادق وتستولى على مافيها من سلاح ، واحتل آخرون محطة سكة الحديد وأقاموا عليها حراســا مسلحين جعلوا ينقضون على الجنود العائدين الى العاصمة من منشوريا فيجردونهم من أسلحتهم ويستولون عليـــا ، وكان يسر أولئك الجنود أن يلقوا عن كواهلهم أوزار الحرب ليعودوا خفافا الى منازلهم .

ولما أشرقت شمس اليوم الرابع كانت الشرطة قد اختفت من الميادين بيد أنه كانت تطوف بالشوارع زمر من القوزاق وزرافات من الجنود ، ووقعت مصادمات هنا وهناك ، وأرسل الثـــوار الى الفرسان امرأتين من العمال يوشح كلا منهما علم أحمر فكان للعلمين الحيين وما يرمزان اليه أثر بالغ في نفوس الجند فأقلعوا عن اطلاق النار .

واذ كان الجنرال دوباسوف حاكم منطقة موسكو غير واثق بمن تحت امرته من الجند فقد أرسل الى العاصمة يطلب نجدة من الحرس القيصري ، ولم يكن لدى عمال سكك الحديد من القوة مايمنعون بها هذه النجدة من السفر .

ونصب دوباسوف ٤ مدافع أكثر الميادين ازدحاما وهو يتشـــدق بقوله ان حديد فوهاتها البارد سيبرد حمى المدينة . وأطلق المدفعيون النار فجأة على العابرين دون تمييز فما عتم ســـكان المدينة أن انحازوا جميعا الى جانب الثورة .

واستطاع العمال المجاهدون ، وهم دون الألفين ، أن يثبتوا ٥ أيام في

لقتال ٢٠٫٠٠٠ من الجنود المدربين ، وكان الشـــعب يعضد المجاهدين ، فاذا أقبل القوزاق نذر بهم سـكان الطبقات العليا من المنــازل فأنذروا يقدومهم المجاهدين ، واذا انجلت المعارك عن جرحي حملهــم الأهلون الى أماكن آمنة ٠

وأصدرت اللجنة البلشـــفية التي انتدبت لتنظيم الثورة منشورا عنوانه « نصيحة للعمال الثائرين » جاء فيه :

« والمبدأ الأول هو ألا تعملوا في جماعات كبيرة بل في عصائب ينتظم كل منها ثلاثة أو أربعة ليس غير ٠٠٠ ستخور قوى الفصـــائل اذا امتلأت موسكو بهذه العصائب الكثيرة الروغان ٠٠٠ اياكم والتحرز بأماكن حصينة فان الجنود سيحطمونها بالمدافع ٠٠٠ أطلقوا النيران على القوازق من أعقار المنازل ٠٠ لا تأخذنكم شفقة بالقوزاق » ٠

وقد اندفعت جميع المدن الصناعية الهـــامة ، دون خطة مرسومة أو توجيه من قيادة مركزية ، الى هدم سجونها ورفع علم الثـــورة الأحمر في مكان علم رومانوف ، فكان بعض المحافظين يظهرون في الشرفات ويؤدون له التحية رهبا وخوفا ، وكان آخرون منهم يبدون ولاءهم للقيصر باطلاق المدافع الرشـــاشة ٠ ووقفت القطر وشل البرق (التلغراف) حتى كانت الحكومة لا تجد مناصا من ارسال ماترسله من البرقيـــات الى اركتسك من طريق لندن وبكين ٠

وكان لتلك الأحداث أثر عميق في القرى فتفتحت للتهييج الثوري كما تتفتح الأزهار لشعاع الشمس ، وامتد لهيب المشـــعل الذي حمله لنين الى الريف فاندلعت الفتن في الجماعات القروية وثار الفلاحون وحرقوا قصور كبار الملاك « لكي لا يعود الملاك » (١) ٠

وتوزعوا الأملاك فيما بينهم ، فاذا أبدى المالك مقاومة كان في ذلك القضاء عليه واذا تضرع وابتهل الى من كانوا له قبل عبيدا وخولا أفرجوا له عن بقرة وشيء من العلف « ارضاء لضمائرنا » كما يقولون ٠

ولكن تنائي القرى بعضها عن بعض بمسافات شاسعة مكن شراذم قليلة من الجند أن يخضعوها قرية اثر قرية ، وهكذا أخفقت الثورة في

---

(١) قال لنين في عرض كلمة له :

« وللمجد العاثر لم ينجز العمل على أكمل وجه ! ومما يؤسف عليه أن الفلاحين لم يدمروا الا جزءا من خمسة عشر مما كان ينبغي لهم أن يدمروه ليمحوا من وجه الارض سبة الملكية الاقطاعية للاراضي في روسيا » ٠

ريف كما أخفقت فى موسكو • وعاد الملاك الى أراضيهم من المدن التى كانوا قد فروا اليها ، ورقأت الحكومة عبراتهم بما بذلت لهم من عوض سخى كأن على الفلاحين مغرمه •

أسباب الاخفاق

١ ـ لم يكن اضرام الثورة بالأمر المتفق عليه فى الجماعات الثـــورية وسوفيتات العمال اذ كانت الكثرة فى هذه الجماعات من المناشفة ومن ينزع الى المنشفية من غير المنتمين الى أحزاب • ولم يكن الفلاحون منظمين ولا كانوا موقنين أن لمسألة توزيع الأراضى ارتباطا وثيقا بمسألة الملكية والجمهورية •

٢ ـ وكان لانصراف الفلاحين عن محالفة العمال أثر فى الجيش الذى لم يكن الا أبناء الفلاحين فى لبوس الجندية •

٣ ـ وكانت القيـادة الاستراتيجية للثـــورة ثنـــائية من البلاشفة والاشتراكيين الثوريين ، وقد لابست الثورة الى جانب فقد الانسجام بين الأحزاب الثورية أحوال كثيرة غير موفقة : كان نفوذ الأحزاب فى التنظيم ضعيفا وكان ما أعدته من الأسلحة غير كاف مع أنها قضت فى اعداده الشهور الطوال •

٤ ـ ولم تكن الجماهير بعد قد نضجت سياسيا اذ أنها انتقلت فجأة من القنانة الى الحرية ، وكانت « الأوهام الدستورية » لاتزال جذابة فتانة تخلب حتى ألباب الكثيرين ممن كانوا على وعى طبقى من العمال •

٥ ـ وقد تأخـر اضرام نار الثـــورة حتى تأهبت الحكومة لاخمادها ، فاعتقلت سوفيت بطرسبرج وسحقت تمرد الملاحين فى البحر الأسود قبل أن تتهيأ الجماعات الثورية فى موسكو للعمل ، فلما أنشأت تلك الجماعات تقوم بأعمال بطولة رائعة قل مثيلها فى تاريخ الثورات كانت حماسة عمال بطرسبرج قد خبت • وقد عجز عمال السكك الحديدية حتى عن أن يحولوا بالاضراب دون نقل فصائل الجنود الى موسكو ، أما العمال الذين يسكنون

القرى فان نشاطهم الثورى لم يبلغ ذروته الا سنة ١٩٠٦ بعد أن لحق الوهن طلائع الطبقة العاملة ٠

٦ ـ وقد استعصت الثورة على القمع عشرة أيام ، وكان نجاحها مظنة أن يصل الى مدى أبعد ـ مع قلة ملاءمة الأحوال السياسية ـ لو أن أعمالها اجريت بكفاية ومقدرة ٠ ولو أنها ظفرت فى موسكو بالنجاح ولو الى حين لأحدث ذلك تغييرا كبيرا فى الحالة العامة ٠

٧ ـ وقد وقف الثوار موقف الدفاع ٠ وكان من أهم ما استفاده لنين من هذه الثورة ، بعد أن توفر على درس تفصيلاتها بتعمق (١) ، انه يجب على قيادة الثورة أن تشن الهجوم وأن تستولى على المراكز الهامة فى المدينة لا أن تدافع عن الضواحى فـ « ان فى الدفاع موت الثورة » ٠

٨ ـ وقد تلقت الحكومة القيصرية العون من استعماريات أوربا الغربية ، اذ خاف الرأسماليون على أموالهم المثمرة فى روسيا وأشفقوا أن يمتد تيار الثورة الى عمال بلادهم ، فأمدت فرنسا روسيا بالقروض ، وحشدت ألمانيا على حدودها كتائب من الجند لمؤازرة القيصر اذا شعر بالحاجة اليها ٠

٩ ـ ومما شد عضد القيصر مبادرته الى مصالحة اليابان فى سبتمبر من سنة ١٩٠٥ ٠

التنكيل بالثائرين

أخفقت الثورة وأعقبتها فى أشهر شتاء ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ مرحلة قمع دموى ، فقد أراد القيصر ووزيره ستولبين (٢) أن يستغلا ما منيت به

(١) وقد انتفع بذلك فى أكتوبر ١٩١٧ ٠

(٢) انتخب ستولبين فى سنة ١٨٩٠ مارشالا للاشراف ثم عين فى سنة ١٩٠٢، عقب الاضطرابات الزراعية ، محافظا لجرودنو ، وفى سنة ١٩٠٣ محافظا لساراتوف فأظهر مقدرة عظيمة فى قمع الاضطرابات ، وقلد فى سنة ١٩٠٤ وزارة للداخلية فأرسل بألوف الثائرين الى سيبريا . ومات سريع الرصاص كما سيلى .

الثورة من اخفاق – فى انزال ضربة قاضية بالحركة الثورية ، فلم يتردد فى ارتكاب أبشع ألوان التنكيل بالذين قاموا بهــــا ، وشمر الجلادون عن سواعدهم الغلاظ الملطخة بالدماء وذبحوا منهـــــم ما يربى على ألف دون محاكمة ، وبذلك بلغ عدد شهداء الثورة ١٤٫٠٠٠ وعدد من ألقى بهم فى السجون ٧٠٫٠٠٠ فقد « أعملت الحكومة القتل في الناس يمنة ويسرة » كما قال كونت فته « وفى الحق أن قصاص الموت قد استحال الى ضرب من جريمة القتل تقترفه السلطات الحكومية ، فقد كان الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، يقتلون على السواء قصاصا من القتل السياسى أو من نهب خمسة روبلات من حانة قدكا » ٠

عبر الثورة

قمعت الثورة واختفى الكفاح من وجه الارض وعاد العمال الى ما كانوا عليه قبل يوم الاحد الدموى من يناير ١٩٠٥ ، بيد أنهم اكتســـبوا خبرة عظيمة ولقن الشعب الروسى دروسا جمة ، ولم يغفر للقيصر ما قام به من عمل بغيض فى تأريث الثورة وفى سحقها ٠

وتعلم لنين أن نشوب الحرب أمثل فرصة لاشعال الثورة وليست الحروب بالقليلة الحدوث فمن طبيعة النظام الرأسمالى أن تتلاحق فيـــه الحروب ، وفيها يلجأ كل فريق من الرأسماليين رغبة فى الانتصـــار الى حشو رءوس العمال بالافكار وملء أيديهم بالاسلحة وهذه الافكار والاسلحة لابد أن تنقلب أخيرا فى وجه الطغاة ٠ على أن الامر يقتضى الانتظار واعداد العدة ، وانه لمن اليسير احباط الدعاية الوطنية الحماسية حين يوجد الرجل الذى يفضح ما يبيت وراءها من مكايد وائتمارات ٠

لقد كان ثقوب بصره فى تقدير هذا هو الذى أتاح له النصر بعد ١٢ عاما ، ولقد كان خير من يفهم النفسية الروسية ٠

دب اليأس الى نفوس الثائرين عندما باءوا بالخيبة والخـذلان فى ديسمبر ، وقعدوا يحصون خسائرهم ويوازنون بين ما مناهم به زعمـاء الثورة وما انتهوا اليه حقا ؛ فاذا الذى أصبح يهيمن على موســكو هــو حاكمها العسكرى دوباسوف لا اللجنة المركزية للبلاشــفة • وقد خف المناشفة ينوحون ويعولون ومضوا يجأرون بالشكوى ويوزعون تبعـات الهزيمة على مختلف الزعماء ويندون بلنين والبلاشفة ويرمونهم بأنهـم مقامرون مغامرون • وقال بلخنوف « لقد كان اللجوء الى السلاح خطأ » أما لنين فكان ينظر الى الأمر نظرة أخرى ، فالخطأ الذى حدث لم يكن ـ عنده ـ فى اثارة الثورة بل كان فى اساءة قيادتها وانتهاج خطط فاسدة فيها ، وقد أنحى باللائمة على واضعى تلك الخطط ، ومن قوله فى ذلك :

« لقد أخفق المنظمون فى أن يخطوا خطوات تساير فى سرعتهـا واتساعها نمو التحمس فى الحركة ••• فقد وصلت الأوامر الى شـــتى الأنحاء باقامة السدود ونصب العوائق بعد فوات الوقت أبعد الفوات ••• لقد كنا نحن زعماء الطبقة العاملة الاشتراكيين الديمقراطيين فى ديسمبر الماضى أشبه الناس بقائد جيش يصف كتائبه فى وضع سيىء يحبس كتلة الجيش عن الاشتراك فى القتال ••• فهل كان علينا الا نقاتل ؟ الأمر على النقيض من ذلك : لقد كان علينا أن نقاتل بعزم أمضى وعريكة أصـــلب ونشاط أحد » •

لقد كان ينقم من الاصدقاء الذين ينتقدون حرب السدود والعوائق ، ويحاجهم بموقف كارل ماركس عقب هزيمة الثورة فى ألمانيا سنة ١٨٤٨، وكتب فى ذلك يقول :

« لم يكن ماركس وهو يذكر الثورة يلهو بكلام لا طائل تحته ، ولم يكن وهو يخوض فى حديثها يذكر آراء مجردة منبتة عن الوقائع السياسية ••• لقد كان ماركس يحل المشكلة المعقدة دون نظر الى ما يعترى بعض طوائف المجتمع من انحطاط وبلادة وفتور ••• وهل هو بعد أن أثبت أنه لا مفر من أن يلحق الوهن والكلال ممونى الثورة ، هل هو بعد ذلك بدل من آرائه ؟ يجب فى حالتنا الشاقة الراهنة أن نذكر موقف ماركس ••• هنالك سلسلة من الحقائق القاسية تفصح عن ضرورة نشـــوب ثورة أخرى ••• ومن لم تكن الثورة رأيا له فنحن له خصوم لا نلين »

وصرح لنين بأن تلك الهزيمة توشك أن تكون نصرا بما زادت من حنكة الطبقة العاملة الثورية وأركان حربها وهى جماعة البلاشفة ٠

لنين لاييأس

لم ير لنين فى تلك الهزيمة غلبا نهائيا بل انه ظل الى ما بعد ١٨ شهرا يعد الحالة قابلة لان تصبح ثورية من جديد ويعتقد أن الامر لا يحتاج الا الى فترة وجيزة لا تلبث أن تنتعش بعدها معنويات العمال فتحل فيهم روح الكفاح مرة أخرى ٠ وكان يبذل قصارى جهده لاذكاء روح الثـورة فى العمال (١)

ومن السهل على المؤرخ فى الوقت الراهن أن يرى أن لنين كان مسرفا فى تفاؤله ، وأن يتبين أن هزيمة موسكو كانت منعطفا فاصلا ٠ ولم يكن هذا الخطأ فى تقدير لنين وليد فقدانه الاتصاف بالنظر الواقعى بل لأنه كان يرى بين يديه أمورا كثيرة تبشر بالنصر المقبل

---

(١) حكم على مئات من عمال المصانع ـ فى غيبتهم ـ بالموت ٠ ولم يكن لديهم ذلك القدر الضئيل من المال الذى لا غنى عنه لتيسير استخفائهم ، فلم يجدوا أمامهم الا أن يكونوا عصائب تغير على صناديق الادخار الحكومية ثم انثنت تسطو على غيرها ٠

وتباينت نظرة الاشتراكيين الى هذه المسألة فرأى المعتدلون أن من واجب الحزب أن يتبرأ من تلك العصائب ويبت ما بينه وبينها من صلات ، ونادى المتطرفون بأن من الخير أن يهيمن الحزب عليها فينظمها ويتخذ منها أداة فى حربه على القيصرية ، فمن الخطل أن يقيد المحارب نفسه بالوقوف عند واحد من أساليب القتال اذ أن كل شىء فى الحرب مباح وينبغى للمجاهدين أن يتحرروا من موروث الاغلال التى تهون من قدرتهم على قتال المستغلين ٠

لقد كان لنين منذ صباه يحس آلام ١٤٠ مليونا وكان يستوعب فى نفسه مأساة روسيا كلها ٠ كان عقله أشبه شىء ببحيرة فى واد تنحدر اليها من الجبال التى تكتنفها من كل وجه روافد صغيرة من الدموع ، وقد استقر رأيه بازاء ما يرى من آلام الشعب على أن القسوة أول الواجبات ٠

فرار لنين الى فنلاندا ..

واضطر لنين ، وهو القطب الذى يدور حوله ولاء ١٤٠ مليون نفس، الى أن يهرب عودا على بدء ، فشد رحاله الى كوكلا فى فنلاندا ، وهناك أصبح منزله مقر قيادة البلاشفة وكعبة اللاجئين والهاربين ، يأوون اليه فى أية ساعة فيجدون طعاما عتيدا . وقد طفق يشجع زملاءه وان كان هو نفسه فى حاجة الى من يشجعه ، فقد أيقن الآن أن اندفاع العمال بلغ نهايته وأنه لا مناص من تجرم زمن طويل قبل أن يعودوا الى حالة من النشاط كالتى كانوا فيها .

وكان مقامه فى فنلاندا على مقربة من بطرسـبرج مما سنى له الاتصال الدائم بمعاونيه . أما كربسكايا فقد ظلت تعمل فى بطرسبرج وتسافر الى زوجها كل يوم ثم انتهت الى الاقامة الدائمة معه .

وقد آب مرة الى روسيا فى أوائل سنة ١٩٠٦ ليشترك فى البحوث التمهيدية للمؤتمر الرابع للحزب الاشتراكى المزمع عقده فى ستكهلم ، وعلمت الشرطة بمقدمه وأوشكت أن تظفر به لو لم يبادر الى الفرار

وبدأت صحته من بعد تسوء فانصرفت به زوجته الى الريف وأقاما فى بلدة سترسودن ، وكان النعاس يستولى عليه طول اليـوم حتى كان أطفال المنزل ينبزونه بـ « الكهل النئوم »

المؤتمر الرابع للحزب »

عقد المؤتمر الرابع فى أبريل ١٩٠٦ أى قبيل اجتماع الدوما الذى أجرى انتخابه فى مارس من ذلك العام ، كما سيأتى ، وكان للمناشفة فى ذلك المؤتمر ٦٢ مندوبا على حين لم يظفر البلاشفة الا بـ ٤٩ مندوبا فيه، ولهذا لم يفوزوا باقرار ما اقترحوه من تأميم الاراضى ، فقد عارض المناشفة ذلك بحجة أن قرارا كهذا قمين بأن يحفز صغار الملاك ومن اليهم الى تأييد الحكومة ، ورأوا أن يحلوا المسألة حلا وسطا وهو حل لم يكن من شأنه أن يستنفر الفلاحين الى الثورة .

وانتخب المؤتمر لجنة مركزية تضم ٩ أشخاص منهم ٣ من البلاشفة و ٦ من المناشفة (١)

وقرر اصدار صحيفة باسم « الموجة » بدلا من الصحيفة السابقة كما قرر الكف عن مقاطعة انتخاب الدوما والعمل للظفر بمقاعد النيابة فيه

وقد عمل الكثيرون فى هذا المؤتمر الذى اشتهر باسم مؤتمر الوحدة على التوفيق بين جناحى الحزب ، راغبين في الا يكون هناك بلاشفة ومناشفة بل اشتراكيون ديمقراطيون فحسب ، وعزوا اخفاق الثورة الى ما شجر بين الفريقين من خلاف ، غافلين عما ظهر به المناشفة من عجز عن الكفاح الثورى • وقد أفلحت هذه المساعى فى ايجاد اتحاد شكلى بين الفريقين ، وكان مما يسر ذلك :

١ ــ أن المناشفة قد أخذوا هم أيضا ينزعون الى المبادىء الثــورية وذلك لما عمدت اليه الرجعية الحكومية من وحشية فى قمع الثورة •

٢ ــ ما كان لترتسكى بين المناشفة من نفوذ بعيد •

٣ ــ ضغط العمال للمناشفة

ولهذه الاسباب مجتمعة قرر المؤتمر أن واجــــب الحزب انتزاع السلطة من يد الحكومة القيصرية •

على أن ذلك الاتحاد الشكلى لم يحل بين البلاشفة والاحتفاظ بمنظماتهم الخاصة ، وقد أزمع لنين ألا يذعن لقرارات الكثرة وأن ينتهج ما تمليـــه عليه الحوادث لا ما تقرره المؤتمرات •

***

وعاد لنين بعد ارفضاض المؤتمر الى بطرسبرج وخطب جمهورهــا جهارا للمرة الاولى فى ٩ مايو متابعا دعاوته البلشفية فبلغ تحمس الجمهور مبلغا عظيما دل على أنه متأهب للعمل فى يوم من الأيام وان لم يكن ذلك اليوم وشيكا كما كان لنين يحسب من قبل •

ولجأ الاشتراكيون الديمقراطيون بعد قمع نشاطهم العلنى الى العمل فى الخفاء والى اصدار صحيفتهم الاخيرة المسماة « برولتارى » بطريقــة غير قانونية •

(١) وقد كشفت هذه اللجنة عن عجزها عن قيادة الكفاح الشعبى عندما احتدم ذلك الكفاح في صيف سنة ١٩٠٦ وخريفها وثار الفلاحون وتمرد الملاحون في كرونشتات وسفيبرج ، فكان قصارى جهد اللجنة ان تذيع على الجمهور نداءات نفعية لم يأبه لها أحد .

انتخاب الدوما الاولى

كان القيصر قد اضطر في ديسمبر ١٩٠٥ الى أن يعد الشعب بأول « مجلس نيابى » فى روسيا بدلا من « مجلس الشـورى » الذى كان قد عهد الى بوليجن في التمهيد له فمات المجلس ولما يولد لمقاطعة البلاشـفة اياه • على أن هذه المنحة لم تنزل منزلة الرضا من نفوس المتـذمرين اذ عدوها خدعة لهم ، بل لعلها قد حملتهم على مضاعفة نشاطهم لعلمهـم أنهم مانالوها الا قوة واقتدارا وليقينهم أنهم كلما عمدوا الى العنف كثر ما يظفرون به من منح •

وقد أرجئت انتخابات الدوما الاولى الى مارس من سـنة ١٩٠٦ ، وأعرضت عنها الاحزاب الثورية لضيق مدى سلطان ذلك المجلس ولما فى قانون الانتخاب من اجحاف ببعض الطبقات ومحاباة لطبقات أخر • ولكن الجماهير تقدمت للتصويت اذ أن هزيمة الثورة جعلت صغار البرجوازيين فى المدن والفلاحين فى الريف ينيطون بالدوما آمالهم ، واهمين أنهـم يستطيعون بها نيل ما يطمحون اليه من أراض ، وبذلك أصبحت الدوما كعبة آمال الجماهير ومحور نشاط الاحزاب ، بل لقد كان الوعد بتأسيسها كافيا وحده لحمل الدستوريين على الكف عن مظاهرة اضراب العمال مع أن العمال هم أولو الفضل في الظفر بهذه المنحة •

وقد استعمل لنين كل ما فى معجمه من الفاظ السباب فى التنديد بأولئك الذين كانوا يريدون دخول الدوما ، اذ رأى أن هذه السياسـة تربك الفلاحين الذين دأبوا فى حرق أملاك كبار الملاك • وأراد المناشـفة أن يستغلوا الحركة الانتخابية فيغمروا البلاد بطوفان من المنشـورات الثورية ، فقال لهم لنين ان ذلك يعنى نهاية الثورة لابداءتها •

واذ كانت الاحزاب الثورية لم تتقدم الى الانتخاب فقد فاز بكثرة المقاعد النيابية حزب « الكادت (١) » الحر أكثر الاحزاب التى تقـدمت للانتخاب تطرفا ، وهكذا ارتدى رجال ذلك الحزب رداء البطولة فى تلك الايام •

---

(١) كلمة « كادت » هى مختصر كلمتى « الدستورى الديمقراطى » وقد تالف هذا الحزب سنة ١٩٠٥ وكان ينادى بالحكم الملكى المقيد •

كان لنين طوال حياته لا يزدرى انسانا قدر ازدرائه « أولئك الارذال الذين احتلوا ميدان القتال عقب هزيمة الابطال » ولعل ما علق به على انتصار الكادت فى الانتخابات الابتدائية لسنة ١٩٠٦ هو أكثر كتاباته اقذاعا وهجرا · وقد أخذ يكشف للناس فى دأب واصرار ما ينطوى عليه أولئك الاحرار من نفاق ورياء وتجانف عن الديمقراطية وتعلق بالمظاهر البرلمانية على سبيل التقليد وطيب نفس لتقبل الحلول الوسطى واستعداد لمواءمة القيصرية ·

وقد تقدم لتمثيل الفلاحين فى الدوما رجال لا ينتمون الى أحزاب ، وكانوا فى بعض الاحيان يبذون أعضاء الكادت تحمسا وتطرفا ، ولكنهم كانوا على الجملة ديمقراطيين معتدلين غير ناضجين فى السياسة وعلى غير وضوح من ضرورة مكافحة القيصرية ، وكان يزعم عليهم رجال تخلقهم المصادفات ·

كانت الحكومة تتوقع من خدم المزارع الودعاء أن يصوتوا للقيصر لا للفوضويين والاشتراكيين وسكان المدن · وقد أكثر الفلاحون من المذاكرة فى هذا الامر وانتهوا الى أن المسيحى الصادق لا يكون أبدا مالكا كبيرا ، وهكذا أرسلوا عنهم ممثلين لا يفتأون يصيحون « أراضى ·· أراضى ·· نحن فى حاجة الى أراض »

وعندما ألقى الكثيرون فى المدن أعلام الجهاد وبسطوا أكفهم للاستجداء بعد أن كانت مقبوضة للوعيد والتهديد رفع نواب الشعب عقائرهم بأقوال كانت تكفى فى أى وقت للاستمتاع بضيافة سيبيريا ، وما انفكوا يجهرون بالأمانى التى ظل القوم يحلمون بها مائة عام ·

وقد دأب لنين فيما كتب فى أثناء الدورة الاولى للدوما يبذل جهده فى استثارة همم أولئك النواب وفى اشرابهم المبادىء الثورية وتعميق الهوة التى تفصل بينهم وبين الكادت (١) ·

اجتمع مجلس الدوما فى ٢٧ أبريل من سنة ١٩٠٦ وكان به ٥٢٤

---

(١) وقد علم بعد ذلك فى سنة ١٩١٧ أن ثمة فارقا بين اعتدال الذين يعوزهم الوعى والنضج السياسيان واعتدال المثقفين من غير البلاشفة ، فان المعتدلين من أنصار الفلاحين المتحمسين للوطن أجنح الى الثورة من غلاة الاشتراكيين الثوريين · وقد اثبتت حوادث سنة ١٩١٧ والحرب الاهلية أن لنين كان على صواب ·

عضوا ، منهم ١٧٧ من الكادت و ١٠٠ من الاشتراكيين الثوريين وغيرهم من الجماعات المتطرفة وبذلك كانت أحزاب اليمين قلة في المجلس فلم يعمر المجلس طويلا ٠

فقد بدا للقيصر بعد اجتماع الدوما أن يقيل كونتفته وكان القيصر قد اضطر عند هزيمته في حرب اليابان وبعد تفاقم الصعوبات المالية في وجهه وازدياد عداء الشعب له أن يستوزره (١). لما أنس فيه من القدرة على تخليصه من هذه المآزق ، وهو يعد بالقياس الى غيره حرا ، وقد كان يصطنع سياسة استقرار الأمور ، تلك السياسة التي لم يكن يريدها نقولا ولم يكن ليستطيع لها فهما ، ومن ثم كانت عبسة واحدة من لابس المطرف القرمزى كافية لان تطيح عن دست (٢) التحكم ذلك الوزير الذى انقذ التاج مرتين ٠ لقد كان الحاكم بأمره لا يطيقه ٠

لمع من ساراتوف المتشحطة بالدماء اسم بيتر ستولبين الذى بذ أقرانه حكام المحافظات في قمع الثورة الزراعية ولم يتوان عن اعمال السيف في رقاب الشعب ، فأرسل القيصر الدموى في طلبه وسلمه مقاليد الوزارة فافتتح عهد حكم رجعي غشوم وبادر الى حل الدوما في ٨ يوليو لاثارتها مسألة الأراضي اذ أن حكومة كبار المنتصرين على الثورة أجمعت الا تتساهل في هذا الشأن (٣) ٠ ولم يعقب الحل شيء من القلاقل ٠

أما النواب الاحرار والاشتراكيون المطرودون فقد عرفوا ما لهم من هوان الشأن وخفة الوزن منهم الاستياء لما أصابهم من نبذ مهين ، فسافروا الى فيبورج التى تقع وراء تخوم فنلاندا مباشرة (أى في خارج نطاق السيطرة الروسية) وأصدروا بيانا أهابوا فيه بالشعب أن يمتنع من أداء الضرائب ومن الانتظام في سلك الجندية ، وأعلنوا فيه ان حكومة « روسيا الحرة » لن تعترف في المستقبل بالقروض التى قد تعقدها الحكومة « غير الشرعية »

وفي الوقت الراهن ٠ ومع أن هذه الدعوة لم تلق من الشعب آذانا

---

(١) حتى لقد صرح أمام السفير الفرنسى عندما مات فته في غضون الحرب العالمية الاولى بسروره لموت الرجل الذى كان جلالته يكن له المقت والكراهية ٠

(٢) الدست : اللباس (و) صدر المجلس ، ودست الوزارة : منصبها ٠

(٣) وقد قال كونت سالتيكوف باسم الارستقراطية ٠٠ « لن ننزل عن قيد من أراضينا ولا عن حبة من البر ولا عن ورقة من أكلاء مراعينا ولا عن عود من الحطب من غاباتنا » ٠

صاغية فقد لاقت الحكومة شيئا من المصاعب اذ تحركت القلاقل فى كرونشتات وسفيبرج •

ومع أن لنين لم يكن يعنى كثيرا بالدوما فقد اهتبل الفرصة وأخذ يذكى نيران الثورة ، ولكن الحكومة تمكنت من اخمادها ، لاجئة فى ذلك كدأبها الى أعنف ضروب القساوة والبطش •

الدوما الثانية

شرعت الحكومة القيصرية فى أعقاب سنة ١٩٠٦ تعد لانتخاب الدوما الثانية وفى حسبانها ، بعد ما أرسلت من الحملات التأديبية فى أرجاء البلاد وبعد ما بان لها من اضمحلال الثورة فى كل مكان ، أنها ستكون مسمحة لا تبدى من المشاكسة ما أبدت فى الدورة الاولى •

وقد استقر رأى البلاشفة على ألا يقاطعوا الانتخاب هذه المرة فقد قاطعوه قبل ذلك مرتين نجحوا فى الاولى منهما وأخفقوا فى الاخرى • نجحوا فى المرة الاولى اذ قاطعوا دوما بوليجن ، وقد وصف لنين تلك المقاطعة بأنها « الخطة الوحيدة الصائبة كما أثبتت ذلك الحوادث أتم اثبات » ، ولم تكن تلك المقاطعة سلبية مقتصرة على تجنب الانتخاب بل كانت ثورية تنطوى على شن حملات شعواء على القيصرية وعلى تحذير الجمهور مما يحاوله القيصر من التنكيب ، عن جادة الثورة الى طريق الدستور •

ويرجع نجاحهم فى تلك المقاطعة الى أنهم قاموا بها فى أثناء مد الثورة ، فلما عاودوا مقاطعة انتخاب الدوما الاولى فى المحاولة الثانية لاجراء ذلك الانتخاب على عهد كونت فته كانت الحركة الثورية قد أخذت فى الجزر فلم تجد المقاطعة فى عرقلة عقد المجلس وان كانت قد أوهنت من من نفوذه الادبى فى نفوس الجماهير وزلزلت ثقتهم به •

وقد كتب لنين فى كتابه « شيوعية الجناح الايسر » يقول :

« لقد أمدت البلاشفة مقاطعتهم للبرلمان فى سنة ١٩٠٥ بتجارب سياسية جليلة القيمة ... أما مقاطعتهم للدوما سنة ١٩٠٦ فقد كانت — على أية حال — عثرة يمكن أن يقال منها »

وهكذا أجمع البلاشفة أمرهم أن يخوضوا غمار الانتخاب ، لا ليقفوا عند حد الاعمال الشرعية بل ليعاضدوا الثورة من فوق منبر المجلس ،وهم فى ذلك يختلفون عن المناشفة الذين كانوا يعدون الدوما مجلسا نيابيا شرعيا ويرون أنه قادر على خلع القيصر والقضاء على القيصرية .

وقد رأى المناشفة أن يتعاونوا فى الحملة الانتخابية هم والكادت ومن اليهم من الجماعات المناوئة للحكومة ، التى اجتمعت فى فيبورج ، أما لنين والبلاشفة فقد عارضوا فى أن يتعاونوا هم والكادت وصرحوا بذلك فى المؤتمر الذى عقده الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى هلسنجفورس فى نوفمبر وفى المؤتمر الذى عقدته الاحزاب المعارضة للحكومة فى تمرفورس، بل ان لنين لم يكن يؤيد تكوين ائتلاف حقيقى بين البلاشفة والمناشفة .

وكان الانتخاب الثانى للدوما فى يناير ١٩٠٧ وكانت نتيجته انحرافا يسيرا نحو اليمين ، فقد كان لاحزاب اليسار فى الدورة الاولى ١٠٠ مقعد على حين لم يسفر الانتخاب الثانى الا عن ٣٥ مقعدا ظفر بها الاشتراكيون الثوريون و ٣٤ مقعدا للاشتراكيين الديمقراطيين جلها للمناشفة .

وقد كان مسلك المناشفة فى هذه الدورة ثوريا سليما .

المؤتمر الخامس للحزب

على أن الوقت لم ينفسح أمام لنين ليهيمن على الحركات والمداورات البرلمانية ، فقد سافر فى مايو ١٩٠٧ الى لندن للاشتراك فى المؤتمر الخامس لحزب العمال الثورى الاشتراكى الديمقراطى ، وقد حضره هذه المرة ٣٣٦ مندوبا كان من بينهم ١٠٥ من البلاشفة و ٩٧ من المناشفة ، أما الباقون فكانوا ممن لم يرغبوا فى الانحياز الى أحد الفريقين ومن يمثلون

بعض القوميات مثل اللتوانيين والبولونيين واليهود ، وهؤلاء هـم الذين حفظوا التوازن بين البلاشفة والمناشفة عندما احتدم الصراع بينهما ، فقد شاعت المشاحنات بين لنين ومرتوف وأتباعهما الى حد استوجب انذارهم ولفتهم الى وجوب رعاية أدب المؤتمر وحقه من النظام (١) •

وقد حاول ترتسكى أن يجمع حوله نفرا بزعامته لينهج سيا سـة نصف منشفية ولكنه أخفق فى محاولته •

وظفر البلاشفة بتأييد البولونيين واللتوانيين ، ومن ثم أقر المؤتمر سياستهم فى مهاجمة الاحزاب والزمر الرجعية وفى فضح ديمقراطيـة الاحزاب الديمقراطية البرجوازية اذا اقتضت ذلك مكافحة القيصرية •

وندد المؤتمر بما كان يسعى اليه المناشفة من عقـد « مؤتمر للعمال » يجمع بين الاشتراكيين الديمقراطيين والاشـتراكيين الثوريين والفوضويين وهو ما رأى لنين فيه معنى الحل لحزب العمال الاشـتراكى الديمقراطى واذابة طليعة العمال فى جماهير صغار البرجوازيين ، كمـا انكر المؤتمر رأى المناشفة فى أن تقف نقابات العمال موقف الحيـاد ازاء الحزب فلا يستعين بها فى تحقيق أغراضه (٢)

وعرف لنين أن يتقهقر حين رأى أن خير ضروب النشاط هو الكف عن النشاط • وعاد الى روسيا وتجرد لترجمة رسـائل ماركس الى كوجلمن وزرجه •

---

(١) روى الثائر البولونى كر اجفسكى انه حدث فى أيام المؤتمر أنهم تذاكروا على المائدة فى : هل من الميسور أن يتعاون البلاشفة والمناشفة ، على ما بينهما من تباين فى الرأى ، ليعيدوا بذلك للحزب وحدته ، فقال لنين :

« ولماذا نلزم أنفسنا باصطناع الاساليب التى تصطنعها أوربا الغربية ؟ انى لا أقر الا نوعا واحدا من احلال السلام بيننا وبين الخصوم السياسيين ألا وهو أن نمحقهم »

(٢) وقد علق ستالين على نتائج المؤتمر بقوله :

« من الواضح أن خطط البلاشفة هى خطط الطبقة العاملة فى الصناعة الكبيرة ، خطط الاقاليم التى يكون فيها تنافر الطبقات شديد الوضوح والكفاح الطبقى شـديد الاحتدام • البلشفية هى خطة أبناء الطبقة العاملة الخلص ، ومما لا يقل عن ذلك وضوحا من الجهة الاخرى » أن خطط المناشفة هى خطط أرباب الصـناعات اليـدوية وأنصاف البرولتاريا من الفلاحين ، هى خطط الاقاليم التى يكون فيها تنافر الطبقات غير واضح جدا ويكون الكفاح الطبقى مقنعا . المنشفية هى خطة أنصـاف البرجـوازيين بين البرولتاريا •

حل الدوما الثانية

وجد ستولبين أن الدوما الثانية لا تختلف عن الأولى مذاقا بل لعلها كانت أشد منها حرافة ولذعا ، فصاح بالنواب من مقعد الحكومة قائلا « يهيب اليسار بالوزراء أن ارفعوا أيديكم ! ولكننا لن ندع للخوف على أنفسنا سبيلا »، ثم عزا الى نواب الحزب الاشتراكي الديمقراطي أنهم يبثون في الجيش خلايا ثورية ، واستند الى ذلك فأمر في أوائل يونية ١٩٠٧ بحل الدوما الثانية وألقى القبض على من تسنى له القبض عليهم من أعضائها الاشتراكيين الديمقراطيين ومن اليهم ونفاهم الى سيبيريا • وقد نجا لنين من هذا المصير لانه كان آنئذ في فنلاندا •

وأعقب الوزير حل الدوما بقانون جديد للانتخاب (١) غير به نسبة مندوبي الطبقات الاجتماعية في المجلس على النحو الآتي :

الطبقات الاجتماعية	في قانون الانتخاب السابق	في القانون بعد تعديله
مندوبو الفلاحين	٤٢٪	٢٢٪
مندوبو العمال	٤ ٪	٢ ٪
الطبقة الوسطى في المدن	٢٢٪	٢٦٪
كبار الملاك الزراعيين	٣٢٪	٥٠٪

وأرسل في الوقت نفسه نشرة دورية الى جميع المحافظين جاء فيها أنه « عليكم أن تتصرفوا في توزيع الدوائر الانتخابية على النحو الذى ترون أنه يحقق الكثرة في كل مكان للعناصر الموالية للحكومة »

وقد تلقت البلاد هذه الضربة بهدوء كهدوء المقابر فان الثورة كانت قد ماتت •

---

(١) وبذلك نقض العهد الذى قطعته حكومته على نفسها في بيان ١٧ أكتوبر ١٩٠٥ ألا تصدر قانونا بغير موافقة الدوما •

البطش بالثوريين

ومرت بين الدوما الثانية والثالثة أحلك ليالى النظام الدكتاتورى • وقد أعلن الدكتاتور سياسته فى قوله :

« سنعيد النظام فى المملكة أولا ، ثم نمنح الاصلاحات الدستورية من بعد » وقبض على ٢٥٫٠٠٠ فلاح ضربوا ضربا مبرحا وعاقب أكثر من ١٫٠٠٠ صحفى وحجب أكثر من ١٫٠٠٠ صحيفة ، وحكمت المحاكم العرفية على ٢٫١١٧ رجلا بالموت فأصبحت المخانق تعرف باسم ربطة الرقبة الستولبينية ، فرد الشعب على ذلك بقذف القنابل واطلاق الرصاص ، وألقى بعضهم على منزل الوزير السفاح قنبلة كادت تودى بابنته الحبيبة اليه • لقد مر الوقت الذى كان فيه الطلبة هم وحدهم الذين يغتالون الحكام ، وأصبح الارهاب من الاعمال التى تقوم بها الجماهير • وقد مضت أشهر أربى عدد من قتلهم الارهابيون فيها على ٣٠٠ موظف عسكرى وشرطى ومدنى •

ومن خير ما وصفت به تلك الحالة ما قالته احدى الصحف من ان الذى يرغب فى مغادرة بطرسبرج يشترى المسدس أولا ثم بطاقة السفر •

الدوما الثالثة

ودعت الحكومة الى انتخاب الدوما الثالثة ، وقد بات من المعروف أن الشيوعيين لن يظفروا فيها بعدد يؤبه له من المقاعد ، فقام بعضهم يدعو الى مقاطعة الانتخاب وفى مقدمتهم بجدانوف وشاب يهودى يدعى روزنفلد اتخذ لنفسه اسم كمنف ، الا أن لنين أصر على أن يتقدم البلاشفة للانتخاب وآلى على نفسه أن يحملهم على تغيير خطتهم ، وقد كان من أبرز مميزاته أنه يستطيع أن يغير خطته كلما دعت الضرورة الى تغييرها ولا يحجم عن ذلك وان بدا موقفه مناقضا لموقف سابق له ، حتى ان نجم عن ذلك أن يجد أكثر أتباعه طواعية له يخرجون على رأيه ويخالفون عن أمره

قال المتطرفون ولم اذن قاطعنا الانتخاب مرتين اذا كنا نشترك فيه الآن وقد صار قانون الانتخاب أبعد رجعية وأشد تضييقا ؟ الا انه ليجب اعلان الاضراب واشعال الثورة • فكتب لنين يرد عليهم :

« عندما يحتدم العراك ويتسع فيمتد الى جميع الارجاء يكون واجبا محتوما علينا أن نصيح صيحة الحرب ، ولكن صيحة الحرب وحدها لاتنشب حربا اذا لم يكن ثمة من محارب ••• من أمارات انطماس البصر ان يتصور المرء ان البلشفية هي المقاطعة كما أن من انطماس البصر كذلك ان يتصور انها هى العمل » •

ومن قوله فى هذا المعنى :

« لن تحدث الثورة خطبـــة فى الدوما ••• على انه يجب أن تربح الاشتراكية الديمقراطية شيئا ••• وقد نجم عن هزيمتنا ••• أن ظلت الرجعية تدفع بنا الى حالة ذات مظهر دستورى يطرد فى السوء وستظل تدفع بنا الى أبعد من ذلك مدى »

وأسهم الاشتراكيون الديمقراطيون في الانتخاب فظفـروا بـ ١٨ مقعدا من ٤٤٢ (١) •

---

(١) وفازت المئات السوداء بـ ١٧١ مقعدا وقد لقبوا بأهل اليمين لجلوسهم فى الجانب الأيمن من قاعة المجلس ، ونال الاكتوبريون ومن اليهم ١١٣ مقعدا وهم الذين يمثلون مصالح الرأسماليين الصناعيين وبعض كبار الزراع ممن يديرون مزارعهم على الاسلوب الحديث وكانوا موالين للقيصر أشد الولاء ولم يكن بينهم وبين المئات السوداء من فرق جوهرى الا أن أولئك كانوا ينكرون بيان القيصر الذى أصدره فى ١٧ أكتوبر يعد فيه الشعب ببعض الحريات على حين كان الاكتوبريون يظهرون مظهر المقرين له ، ونال الدستوريون الديمقراطيون ومن لف لفهم ١٠١ مقعد ، وهم الذين تكشفوا فى ثورة سنة ١٩٠٥ عن قوة مناوئة للثورة حتى اذا ما هزمت الثورة نزعوا قناعهم الديمقراطى نزعا ، ونالت زمرة الترودوفيين ١٧ مقعدا وكانوا يمثلون صغار الملاك الزراعيين وكانوا على شاكلتهم يترجحون بين الدستوريين والبلاشفة .

فى مؤتمر الدولية الثانية

ورحل لنين في اغسطس ١٩٠٧ الى شتتجرت لحضور مؤتمر الدولية الثانية (١) ، وهناك لقى الكثير من الزعماء وانتخب عضوا فى المكتب الاشتراكى الدولى وكان هذا المؤتمر أول تجربة للنين فى الائتمار مع عمال البلدان الأخرى المنظمين (٢) .

---

(١) نشأت فكرة التعاون الدولى بين عمال البلدان المختلفة قبل أن تنشأ فى كثير من البلدان حركات عمالية . وكانت المحاولة الاولى لتحقيق هذه الفكرة فى سبتمبر ١٨٦٤ اذ اجتمع « اتحاد جماعات الرجال العاملين الدولى » فى لندن من زعماء العمال المقيمين بها ، وهذا الاتحاد هو الذى أقر التقرير الذى قدمه اليه كارل ماركس بعنوان «دعوة الى الطبقات العاملة » واتخذه مبدءا له ، مؤثرا اياه على المقترحات التى قدمها أتباع أوين وأتباع مزينى .

وقد عقدت هذه الجماعة مؤتمرات ناجحة

فى لندن سنة ١٨٦٥

لوزان سنة ١٨٦٧

بركسل سنة ١٨٦٨

برن سنة ١٨٦٩

لاهاى سنة ١٨٧٢

باريس سنة ١٨٨٩

باريس ١٨٨٩ أيضا وكان المؤتمر فى هذه المرة منبثقا من ألمانيا وكان اشتراكيا ماركسيا خالصا وظلت المؤتمرات الاشتراكية منذ ذلك الزمن تعقد فى فترات منتظمة كل منها ٣ سنوات .

وكانت هناك جماعة أخرى أصغر من الاولى تدعى المكتب الاشتراكى الدولى كانت تجتمع مرات أكثر وكانت لها قيادة استقرت أول الامر فى بركسل ثم عرجت على لندن فاقامت بها وقتا ثم ألقت عصا التسيار فى زيورخ .

وقد عرفت هاتان الجماعتان باسم الدولية الاولى والدولية الثانية .

(٢) وقد حضر بعد ذلك مؤتمرات أخرى للدولية الثانية ، وكان فى بادىء الامر لايرتاح اليها كثيرا ، فلما اقترفت عند نشوب الحرب العالمية الاولى خطأها الجسيم بتأييدها الدول المحاربة المختلفة ساء بها ظن لنين الى حد بعيد ، فلما ألقيت اليه مقاليد السلطة فى روسيا كان من أوائل أعماله تأسيس دولية أخرى هى الدولية الثالثة .

وعاد الى كوكلا بفنلاندا حيث أقام مع زوجته ومعهما نفر من الاصدقاء ليكونوا من الشرطة الروسية بحيث يأمنون ، ولكن ستولبين لم يكن بالذى يتحرج عن انتهاك حرمة الاراضى الفنلاندية . وأخذ لنين يوالى طبع مجموعة من المقالات بعنوان ١٢ عاما يفسر فيها التاريخ الروسى المعاصر تفسيرا ماركسيا . واكتشفت الشرطة هذه الكتابات واستولت عليها فنصح له أصدقاؤه أن يهرب فانه ان وقع فى أيدى الشرطة هذه المرة كان مصيره الموت لامحالة .

وأبحر لنين الى السويد فى قارب صغير وانتظر فى ستكهلم حتى وافته زوجته ، فأقلتهما باخرة الى ألمانيا مع جمع من الاشتراكيين ينتمون الى أحزاب وفرق شتى . وتلبث لنين فى برلين يوما أو اثنين وثق فيهما معرفته بروزا لكسمبرج (١) ثم استأنف السفر الى جنيف فبلغها هو وزوجته فى ٢٠ يناير من سنة ١٩٠٨ .

وقد برهن الاشتراكيون الديمقراطيون على حصافة وحزم اذ غادروا بلادهم ، فان الاشتراكيين الثوريين وهم الذين آثروا البقاء فى روسيا وكانوا أزيد فى العدد قليلا من الاشتراكيين الديمقراطيين ، قد جعل منهم ستولبين موضعا لاضطهاده ، وفى أوائل سنة ١٩٠٨ أنزل بهم ضربة قاصمة قعدت بهم عن العمل سنوات .

لقد بطش ستولبين بالفرق الاشتراكية المعتدلة والمنحرفة عن الماركسية ، وكان لذلك أثره فى صبغ الحركة الاشتراكية بالماركسية المتطرفة .

---

(١) وتعرف باسم روزا الحمراء . ولدت سنة ١٨٧٠ فى بولونيا الروسية وكان لها نشاط كبير بين الاشتراكيين البولونيين ، ثم هاجرت الى ألمانيا واكتسبت الجنسية الالمانية بتزوجها أحد العمال الالمان ، وعاونت فى كتابة بعض الصحف الالمانية ، وقد أسهمت فى الثورة الروسية الاولى سنة ١٩٠٥ فلما عادت الى ألمانيا اشتركت هى وكارل ليبكنشت فى تأليف عصبة سبارتكس وعاونت بعد الحرب والثورة فى تحبير صحيفة الراية الحمراء Rote Fahne .

وقد سجنت فى سنة ١٩١٤ بتهمة اثارة الهياج ، وقبض عليها فى ١٥ يناير ١٦١٩ واغتيلت فى أثناء نقلها من سجن الى آخر وزعمت الحكومة أن ذلك كان فى أثناء محاولتها الهرب .

وبطش ستولبين بالآلاف القليلة من المثقفين الذين كانوا هم العمود الفقرى للحركة فقتل فريقا منهم وزج فى السجن بفريق آخرين ، وتخلى من بقى منهم عن مهمة الجهاد الثورى بعد أن تبددت آمالهم وخبت شمس الاحلام التى كانت تدفئهم وتبعث فيهم العزم والنشاط . وانخفض عدد أعضاء النقابات التى تكونت فى سنى الثورة من ٨٠٠٫٠٠٠ الى ٧٫٠٠٠ ، وانزوى الطلبة عن المحافل الثورية بعد أن كانوا يحسون السعادة اذا أتيح لهم أن يشهدوا شيئا منها ، وأمسك الذين كانوا يبذلون للحركة من اموالهم عن البذل وبلغت المجاعة بالمجاهدين حدا بعيدا (١) .

أما لنين ، ذلك المنفى الذى كان يتعاون على ازعاجه الشرط والمتربة وأعضاء الحزب والثرثرة والشائعات المستطيرة حوله ومزاجه الخاص الملتهب ، والذى لم يكن يملك الا نظريته التى يعمل أصدقاؤه جاهدين على احباط أثرها بالدعوة الى ابتغاء حل وسط والى اشتراء السلام مهما بلغ ثمنه ، فقد مضى يتابع الكتابة فى صحيفة «برولتاريا» يعاونه فى ذلك بجدانوف ودبروفنسكى .

ولما رأى ستولبين أن ايمان الشعب بالقيصر مافتىء يتناقص ويتفانى حتى أوشك أن يبيد ، أراد أن يتخذ من طبقة البرجوازيين الريفيين أى الكولاك دعامة تعضده فعمل على تقوية تلك الطبقة وانماء عددها ، وأصدر فى نوفمبر ١٩٠٦ قانونا زراعيا جديدا يبيح للفلاحين أن ينفصلوا عن الكومونات الزراعية ويستقلوا بأنصبتهم فيها ، وبذلك

---

(١) ووجد البلاشفة مس الحاجة الى المال ليعاونوا به الثائرين المحترفين المشردين فى المنافى ولينفقوا منه فى اصدار صحيفتهم وفى أوجه نشاطهم الاخرى ، ولكن الحصول على المال كان من اعقد ما يواجهونه . فعمد الزعيم القوقازى جوجسفيلى Djuswili المعروف باسم ستالين الى مساعد له أرمنى اسمه بطرسيان Ter-Petrosian وتقدم اليه بان يحل تلك العقدة بالاستيلاء على شحنة من الاوراق المالية كان معروفا أنها ستجتاز طرقات مدينة تفليس . وقام تربطرسيان بالامر فى ١٠ يونيو من سنة ١٩٠٧ فنسف الطريق الرئيسى فى المدينة وهو المسمى باسم شاعر روسيا الكبير بشكن وانقض هو ورجاله على الحرس وذهبوا بما قيمته ربع مليون روبل أى نحو ٢٥ الفا من الجنيهات الذهبية .

صار لكل منهم أن يبيع نصيبه منها ، ومن ثم أتيحت الفرصة لذوى اليسار من الملاك الزراعيين أن يشتروا تلك الانصبة بثمن بخس من الاموال التى اقرضتهم الحكومة اياها لهذا الغرض .

كان سادة الارض قد ابتزوا الفلاحين ــ عند تحريرهم ــ مالهم من أراض زراعية ، وهاهم أولاء الكولاك قد ابتزوا الكومونات أراضيها واصبحوا سادة صغارا للارض يدافعون عن الحكم القيصرى الفردى فى ولاء واخلاص (١) . وهكذا أضاع مايربى على مليون فلاح مزارعهم وحل بهم الخراب الشامل ، وازداد تباين الطبقات بين الزراع .

وبدأ الفلاحون يفقهون أنهم لن يملكوا أرضا مابقيت الحكومة القيصرية ومابقى مجلس الدوما الذى يضم سادة الارض والدستوريين الديمقراطيين . واحتدم الشجار بين أعضاء الكومونات والكولاك وعادت حركة الفلاحين سنة ١٩١٠ الى الانتعاش بعد ماعراها من اضمحلال .

وتطورت الصناعة أيضا بعد سنة ١٩٠٥ فأصبحت فى أيدى اتحادات قوية من الرأسماليين جعلت تبيع منتجاتها بأثمان غالية فى داخل البلاد وبأثمان رخيصة فى خارجها . وتحولت الرأسمالية فى روسيا الى رأسمالية احتكارية ، رأسمالية استعمارية .

ونقص أصحاب المصانع أجور العمال فى سنة ١٩٠٨ وزادوا ساعات العمل اليومى الى ١٠ ساعات بل لقد زادها بعضهم الى ١٢ ساعة ، واشتدت معاملتهم للعمال صرامة وقسوة ولاسيما فى سنوات الكساد التى فشا فيها التبطل . وكانوا يضعون أسماء زعماء الاضرابات فى القوائم السوداء فمن أدرج اسمه منهم فيها سدت فى وجهه أبواب المصانع جميعا .

وكانت الشرطة هى الاخرى توالى حملاتها على العمال ، كما كانت المئات السوداء تبث عملاءها ليندسوا بينهم ويستفزوهم الى مافيه بوارهم (٢) .

من الاقوال العاطفية أن الاضطهاد يكسب الروح صلابة ويبرز مافى النفس من مروءة ونبل ، وذلك ما يحدث حقا عندما يقع الاضطهاد على الناس مرة فى شبيبتهم الباكرة ، أما الاضطهاد الدائب الموصول فتنوء باحتماله الاعصاب وتقصر دون مغالبته النفوس ، فيسلب

---

(١) وقد جشمت هذه الطبقة فيما بعد حكومة الثورة متاعب كبيرة .
(٢) ويعرف هذا النوع من الجواسيس المخربين باسم gaents provocateurs

المضطهدين والمضطهدين على السواء انسانيتهم ، ومن ثم توى فى عهد ستولبين سلطان الرجعية ، فانقلب بيتر ستروفه الى صفوف المحافظين وارتد بلجاكوف الى المسيحية ثم صار آخر أيامه قسا أورثوذكسيا ، وشرع الكثير من المثقفين الذين ناصروا الثورة سنة ١٩٠٥ يهجرونها ، فينضم بعضهم الى أعداء الثورة جهرة وينسلك آخرون منهم فى سلك الجماعات التى تعمل فى نطاق القانون ، عاملين على ثنى الحركة العمالية عن طريق الثورة ، ويعمل آخرون غيرهم فى « الأخرانا » ويندسون فى منظمات الطبقة العاملة ليتجسسوا أخبارها ويسوقوها فى طريق الهلكة .

انحرافات فى صفوف الحزب

وتناول أعداء الثورة فى فترة الرجعية الستولبينية الجبهة الفكرية كذلك بالهجوم ، فأكثروا من «انتقاد» الماركسية وأمعنوا فى السخر من الثورة ودأبوا باسم عبادة الذات يحبذون الاقبال على مباهج الحياة والانغماس فى الملذات والمتع الجنسية ، وانتشرت كذلك آراء فلسفية تنزع الى الدين وقد موهت بطلاء من النظريات العلمية الزائفة .

وظل البلاشفة فى جملتهم مؤمنين بمبادئهم موالين لزعامة لنين ، ومع ذلك جرف الانحلال طائفة من رجالهم لم يكونوا خالصين فى ماركسيتهم ، ممن نشأوا فى بيئة ثقافية تجعلهم يجنحون الى الفردية وينفرون من الانقياد للنظام ، فنجمت بينهم ميول وانحرافات ذات خطر جسيم (١) .

ومن ذلك أن الفيلسوف بجدانوف والاديب الشاب لوناتشارسكى ومن اليهما ممن ظهروا مظهر التطرف وأسموا أنفسهم بالجناح الايسر

(١) ولذلك كانت لهم اصبع فى الحركات الانشقاقية المتتالية ، وهى التى بدأت بتمرد المناشفة سنة ١٩٠٣ واستمرت الى أن شملت فتنة الترتسكيين سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٧ .

للحزب أعلنوا فى سنة ١٩٠٨ انكارهم للكفاح بالاساليب البرلمانية وأهابوا بالحزب الاشتراكى الديمقراطى أن يسترد نوابه من الدوما ويعود الى سياسة المقاطعة ولذلك أسموا recall أى أنصـــار الاسترداد .

وقد أخذوا على لنين استساغته للاساليب البرلمانية وأنكروا عليه موقفه غير العدائى من الديمقراطيين المنتمين الى الطبقة البرجوازية الصغيرة وتعاونه هو وسائر الاحزاب الجمهورية فى الانتخاب ، وزعموا أنه قـد « مال الى اليمين » وأبوا العمل فى نقابات العمال وغيرها من الجماعات التى يظلها القانون وطالبوا بالاقتصار على الاعمال الخارجة على القانون دون أن يتخذوا لها مظهرا شرعيا تحتمى وراءه ودون أن يبقوا على الصلة بين طليعة العمال والملايين من قواها الاحتياطية .

وواجه لنين فى الوقت نفسه انحرافا آخـر فى صفوف الحزب . فقد استبد الفـزع بالكثير من المناشـفة ، فى مقـدمتهم دان وأكسلرد وبترسوف ، مما خبروا من عنت الحكومة ، وقام فى نفوسهم أنه لن تقوم للحركة الثورية بعدئذ قائمة ، وخيل اليهم أن السلامة فى حل الحزب غير الشرعى والاقتصار على القيام بأعمال قليلة الخطر ، ولذلك أطلق عليهم اسم أنصار الحل (أو أنصار التصفية) .

أما البلاشفة فكانوا يؤمنون بأن جزر الثورة سيعقبه مد اذ أن البواعث التى أتت بالمد فى سنة ١٩٠٥ كانت لاتزال قائمة ، فان الفلاحين لم يستعيدوا الاراضى التى سلبهم أياها سادة الارض ، والعمال لم يفلحوا فى نقص ساعات العمل اليومى الى ثمان ، والحكم القيصرى لم يزل ولم تخف وطأته ، بل لقد حرم القيصر الشعب ماحباه به فى سنة ١٩٠٥ من حريات ، يضاف الى ذلك أن ذكـريات سـنة ١٩٠٥ كانت تنبعث فى ذكرة العمال كلما تعسفهم أصحاب الاعمال فيهتاج حنينهم الى تلك السنة . ولم يغير البلاشفة شيئا من الاغراض التى استهدفوها يومئذ ولكنهم غيروا خططهم من جراء مالحق الطبقة العاملة من الوهن والاعياء . فاستبدلوا بالخطط الهجومية كالاضراب والثورة المسلحة خططا دفاعية قائمة على التعاون بين النشاط السرى والاعمال المشروعة فى منظمات العمال كالنقابات العمالية والجماعات التعاونية والمؤسسات الثقافية والمنتديات وجماعات رعاية المرضى من العمال ، فكانوا يتخذون من تلك المنظمات ستارا تعمل من ورائه أجهزة الحزب السرية ، وكانوا يستخدمون تلك المنظمات كذلك فى استدامة الصلة بينهم وبين الجمهور ، كما أنهم كانوا يستغلون منبر الدوما ليفضحوا من فوقه سياسة الحكومة القيصرية وليؤلفوا بين الفلاحين والعمال .

مؤتمر باريس

وعقد الحزب الاشتراكى مؤتمرا له بباريس فى ديسمبر ١٩٠٨ ، وحمل المؤتمر على انصار الحل وحرض شعب الحزب ومنظماته على مكافحتهم . أما هم فقد مضوا فى خطتهم وأبدوا استعدادا لموادعة ستولبين وللتخلى عن برنامج الحزب أملا فى أن ترخص الحكومة القيصرية لهم بانشاء حزب عمال يعمل فى كنف القانون .

النقد القائم على التجربة والاختبار

حمل لنين على أنصار الحل فى قسوة وصرامة ونبزهم بأنهم عملاء للبرجوازيين الاحرار ، كما هاجم أنصار الاسترداد ودحض مزاعمهم اليسارية ذات المظهر الخلاب وكشف عن زيفها وأثبت أنها لاتوائم الاحوال القائمة فى ذلك الوقت . ولكن الذى أثر فيه تأثيرا عظيما هو الجانب الفلسفى من الحركة ، فقد فتح أولئك المثقفون المنحرفون صدورهم للفلسفة التى ظهرت اذ ذاك وعرفت بذلك الاسم الرنان Empirio-Criticism أى النقد القائم على التجربة والاختبار (أو النقد التجريبى) . وكان من المتناقضات التى تبعث على الدهش أن أولئك الذين كانوا يغلون فى التطرف من ناحية كانوا من ناحية أخرى يعملون معاولهم فى المادية الجدلية (١) dialectical materialism وهى الصخرة الوطيدة التى شيدت عليها الاشتراكية

(١) وكان بلخنوف قد اخذ يبدىء فيها ويعيد حتى رسخها فى اذهان الاشتراكيين الديمقراطيين الروس . وقد وقف الآن الى جانب لنين يرد عنها هجمات بجدانوف ومن معه .

وقد اسميت بالمادية لانها تفسر ظواهر الطبيعة تفسيرا ماديا بعيدا عما وراء الطبيعية ، واسميت بالجدلية لانها تعمد الى بلوغ الحقيقة بالكشف عما فى حجج الخصوم من تناقض .

العلميـة ، وكذلك كانوا يعملون على تقـويض المـادية التـاريخية historical materialism وهى المبادىء الاساسية فى علم التاريخ ، مطالبين بتنقيح الماركسية (١) .

المادية الجدلية والمادية التاريخية

تفسر الطريقة الجدلية الماركسية ظـواهر الطبيعة تفسـيرا ماديا وتدرس الحياة الاجتماعية على هذا الاساس .

فليست الطبيعة ـ فى اعتبارها ـ مجموعة أشياء وظواهر منعزل بعضها عن بعض بل هى وحدة متماسكة وكل لايتجزأ ، فاذا أردنا أن تكتنه ظاهرة من الظواهر فما ينبغى لنا أن ندرسها منعزلة عما يحيط بها ، اذ أن قيمة كل ظاهرة هى فيما يكتنفها من أحوال وملابسات .

وليست الطبيعة راكدة خامدة بل هى فى حركة متصـلة وتغير مستمر فمن واجبنا اذن حين نرقب الاشياء أن ننظر الى حركتها وتغيرها وأن نراعى فى حكمنا عليها مجيئها الى الوجود وزوالها منه ، فليس المهم ان يكون شيىء ما ضخما قويا فى لحظة ما وانما المهم أن يكون هذا الشىء آخذا سبيله الى النمو وان لم يكن يبدو منيع الجانب فى تلك اللحظة .

وليس التطور عملية نمو بسيطة بل هو نمو لايلبث أن يتحول من التغيرات السطحية فى الكم الى تغيرات جوهرية فى الكيف ، وهذا التحول لايحدث تدريجا فى أناة وبطء بل سريعا فجائيا على صورة طفرة من حالة الى أخرى . وتحدث الطفرات نتيجة تجمع التغيرات ، ومثل ذلك مثل الماء فهو اذا سخن أو برد لم يكن لذلك أول الامر صلة بسيولته أى بكونه ليس غازا ولا صلبا ، حتى اذا ما مضينا فى تسخينه أو تبريده استحال بخارا أو جليدا .

---

(١) وقد تفاهم الحزب فى سنة ١٩٠٩ من بين صفوفه .

والمتناقضات الداخلية موجودة في جميع الأشياء والظواهر الطبيعية ، فثم شيء يقترب من الموت وآخر ينمو ويرتقي ، وهذا الكفاح بين ما يزدهف الى الموت وماقد ولد هو الحافز الى التطور ، والتطور – كما يقول لنين – هو « كفاح بين المتناقضات » .

وبدراسة الحياة الاجتماعية في ضوء ماتقدم يتضح لنا مايأتي :

١ – بما أنه ليس ثم ظواهر منعزلة عن غيرها غير مرتبطة به ينبغي ألا ننظر الى أى نظام اجتماعي أو الى أية حركة اجتماعية في التاريخ من حيث مطابقة كل منهما «للعدالة الابدية» بل من حيث موقفه من الملابسات التي اكتنفته ومع مراعاة الزمان والمكان . فنظام الرق هو اليوم أمر سخيف غير طبيعي على حين انه كان عند انحلال النظام البدائي ظاهرة طبيعية مفهومة لانه كان خطوة متقدمة عن ذلك النظام . وقد كانت مطالبة الروس في سنة ١٩٠٥ بالجمهورية البرجوازية الديمقراطية عملا تقدميا وثوريا ، ولو طالب به بعضهم الآن لعد ذلك عملا رجعيا .

٢ – وبما أن العالم في حركة دائمة وفي رقي مستمر ، وبما أن موت القديم ونشوء الجديد ونموه سنة الرقي فليس من الممكن أن يكون ثم « نظام اجتماعي ثابت » أو « مبدأ أبدى » للملكية الخاصة أو « أفكار أبدية » تخضع الفلاح لمالك الارض والعامل للرأسمالي ، ولهذا كان من الميسور أن نحل النظام الاشتراكي محل الرأسمالي كما حل الرأسمالي محل الاقطاعي .

فينبغي ألا نقيم كبير وزن للطبقات التي وقفت عن التطور والنمو وان تكن هى السيدة صاحبة الغلبة في الوقت الحاضر ، وينبغي أن نضع نصب أعيننا الطبقات الآخذة في النمو الضاربة في طريق الرقي وان قل في الوقت الراهن حظها من القوة والمنعة . وهذا ما أخذ به الماركسيون في روسيا عندما نشب الكفاح بينهم وبين النارودنيين في أذيال القرن الماضي ، اذ أقاموا كفاحهم على أساس الطبقة العاملة الآخذة في النمو والازدهار مع أنها كانت اذ ذاك أقل من الفلاحين شأنا .

٣ – وكما أن الاشياء لاتنتقل من حالة الى حالة الا بعد أن تجتاز في تطورها التغيرات العرضية البطيئة الى تغير جوهري سريع ، كذلك: لاينتقل المجتمع من النظام الرأسمالي الى الاشتراكية الا بتغيير جوهري سريع أى ثوري ومن ثم وجب أن يكون المرء ثوريا لا اصلاحيا وعليه أن

يزيح الستار عما يصطرع فيالنظام الرأسمالى من متناقضات والايحاول وقف هذا الصراع .

* * *

وتقول المادية الفاسفية ان العالم مادى وانه فى غير حاجة الى « عقل كونى » أو الى «فكرة مطلقة» وانه يتحرك وفق قوانين طبيعية ليس من العسير أن نلم بها .

وهذا يؤدى ، فيما يتصل بالحياة الاجتماعية ، الى انه :

١ - يتطور المجتمع تبعا لقوانين خاصة فيجب على حزب الطبقة العاملة أن يكشف عن هذه القوانين وأن يسترشد بها فى نشاطه دون أن يعتمد على حسن نية « الافذاذ من الناس» .

٢ - وبما أن حياة المجتمع المادية هى الاصل وحياته الروحية فرع لها وصورة منها فيجب الا نفحص عن أصول الآراء والنظريات الاجتماعية والسياسية داخل محيط الآراء والنظريات بل فى أحوال المجتمع المادية اذ أن هذه الآراء والنظريات ليست الا انعكاسا لها ؛ ويجب الا يبنى الحزب نشاطه على المبادىء العقلية بل على مقتضيات تطور الحياة المادية .

وقد أنكر المثاليون فى روسيا (كالنارودنيين والفوضويين والاشتراكيين الثوريين) ما لملابسات حياة المجتمع المادية من شأن فى تطوره واختطوا خططا مثالية لاتتصل بمقتضيات ذلك التطور المادى بل هى تضادها أحيانا ، ومن ثم باءوا بالهزيمة والخسران .

وتنجم الآراء والنظريات الاجتماعية والسياسية الجديدة لتيسر للمجتمع القيام بالواجبات التى يقتضيها تطور حياته المادية ، ومن ثم وجب على حزب الطبقة العاملة أن يعتمد على فكرة اجتماعية تعكس احتياجات ذلك التطور . وقد كان من بين الاسباب التى أسقطت « الاقتصاديين » والمناشفة أنهما لم يعرفا ما للنظرية التقدمية الراقية من عظيم الخطر .

* * *

وتقرر المادية التاريخية ان العامل الأساسى فى تقرير شكل المجتمع وصفات النظام الاجتماعى هو أسلوب انتاج المواد المختلفة من طعام ولباس ومأوى ووقود وآلات وغير ذلك .

ويتصل بالانتاج وأسلوب الانتاج :

(أ) قوى الانتاج ، وهى التى تعبر عن العلاقة بين الانسان والاشياء التى ينتفع بها فى الانتاج .

(ب) علاقات الانتاج ، وهى مايكون بين امرىء وآخر من صلات خاصة بالانتاج .

وثم ثلاثة أمور ينبغى ألا نغفل ملاحظتها وهى :

١ ـ يحدث تغير أساليب الانتاج فى مراحل التطور المختلفة تغيرا فى الآراء والانظمة الاجتماعية ، ومن هنا كان تاريخ التطور الاجتماعى هو تاريخ تطور أساليب الانتاج ، فيجب على حزب الطبقة العاملة ان يعمل لتعرف قوانين تطور الانتاج وقوانين التطور الاقتصادى وأن يراعيها فى وضع برنامجه وفى توجيه نشاطه .

٢ ـ والقوى المنتجة هى أهم عنصر ثورى فى تطور الانتاج ، فاذا كانت مجانسة للعلاقات الاقتصادية كما هو الشأن فى النظام الاشتراكى لم يكن هناك ظل للازمات الاقتصادية . والامر على خلاف ذلك فى النظام الرأسمالى اذ يؤدى فقدان التجانس بين الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وبين الخصائص الاشتراكية التى للقوى المنتجة الى ثورة اجتماعية تستبدل بالعلاقات الانتاجية القائمة علاقات جديدة مجانسة لخصائص القوى المنتجة .

ولتطور الآلات اكبر الاثر فى تطور العلاقات الانتاجية .

(أ) فقد انتقل الانسان البدائى من استخدام الاحجار الى استخدام القوس والنشاب فانتقل تبعا لذلك من النظام البدائى الى نظام العبودية .

(ب) فلما وفق لاختراع الفاس ذات النصل الحديدى والمحراث ذى السكة وما الى ذلك من ادوات بسيطة صار يعيش على زراعة الارض، فحل النظام الاقطاعى محل نظام العبودية (١) .

(ج) فلما انتهى الى اختراع الآلات المعقدة التى لايحسن ادارتها الا عمال أصابوا قسطا من المهارة بالمرانة والتدريب وأقام المصانع الكبيرة

---

(١) وقد كان ذلك فى الامبراطورية الرومانية فى النصف الثانى من القرن الميلادى الثالث .

التى تستخدم الالوف من العمال ، اختفت القوانين التى كانت تحول بين الفلاحين والهجرة الى المدن للعمل فيها والغيت المكوس التى كانت حجر عثرة فى سبيل المبادلات التجارية بين قطائع المملكة الواحدة فحل النظام الرأسمالى محل النظام الاقطاعى .

وقد ظل الكفاح طوال هذه المراحل محتدما لاتهدأ له ثائرة .

(د) وارتقت قوى الانتاج ارتقاء كبيرا (باستخدام الآلات الخ) فأخذ النظام الرأسمالى يتعثر فى اشراك متناقضات لافكاك منها ، فهو يكثر من انتاج السلع ويقلل من أثمانها فيقضى بذلك على المنتجين من صغار أصحاب الاعمال ويحولهم الى عمال ويوهن مقدرتهم الشرائية فيتعذر رواج السلع المنتجة ثم هو يوسع نطاق الانتاج ويجمع الالوف المؤلفة من العمال فى المصانع الضخمة فيعير بذلك عملية الانتاج خصائص اشتراكية تتنافر هى والملكية الخاصة لوسائل الانتاج وتتطلب جعلها اشتراكية .

ويبدو هذا التناقض بين خصائص القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية فى صورة أزمات دورية تنجم عن الانتاج الزائد عن الطلب فيلجأ الرأسماليون الى حرق جانب كبير مما أنتجوه من سلع والى هدم جانب كبير من القوى المنتجة والى وقف جانب كبير من الانتاج فى وقت تعانى فيه الملايين قسوة التبطل وكلب المخمصة ، لامن قلة المنتجات بل من كثرتها. ومعنى هذا أن العلاقات الانتاجية قد أصبحت مضادة لحالة القوى المنتجة فى المجتمع . ومفاد هذا أن الرأسمالية حبلى بالثورة التى ستحل الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج محل الملكية الرأسمالية لها .

٣ — على أن القوى المنتجة الجديدة والعلاقات الانتاجية الملائمة لها لا تظهر بعد اختفاء النظام القديم بل فى أثنائه وعلى غير وعى من أصحابه ودون اختيارهم ، فعندما أدخل الرأسماليون الروس الصناعة الكبيرة في بلادهم لم يكونوا يدركون أن ذلك سيكون طبقة عمالية ثورية تقضى على سلطانهم بل كان كل مبتغاهم أن يعتصروا الاقتصاد القومى ليظفروا بأقصى ما يستطيعون الظفر به من المال . بيد انه متى نضجت القوى المنتجة الجديدة أصبحت هى نفسها عقبة كأداة فى وجه غيرها لا تتسنى زحزحتها الا بالثورة ، قال ماركس « ان العنف هو القابلة لكل جماعة قديمة حبلى بأخرى جديدة » .

هذه هى المادية الماركسية مطبقة على الحياة الاجتماعية وعلى تاريخ المجتمع. وقد انقذها لنين من هجمات التنقيحيين ومن اليهم من المرتدين، وذلك ما يبين لنا عظم شأن كتابه فى « المادية والنقد القائم على التجربة والاختبار (١) » .

لقد فطن لنين ببصيرته النفاذة الى أن هذه الفلسفة التى تباين المادية حرية أن تزيغ صواب الاشتراكيين وتحرفهم عن الحقائق الواقعة لتسبح بهم فى آفاق الأوهام المثالية المبهمة فنصب نفسه لمكافحتها حاملا على بعض من كانوا قبلا يناصرونه ويشدون أزره .

وقد أنشأ مكسيم جركى فى جزيرة كابرى بايطاليا(٢) مدرسة. كان العمال الذين تندبهم لجان البلاشفة فى روسيا يفدون اليها فتلقنهم تلك الفلسفة . فلما عاد لنين من فنلاندا الى چنيف فى يناير ١٩٠٨ دعاه جركى الى زيارته (٣) ولكن لنين لم تتيسر له تلبية الدعوة لأنه لم يكن يملك مؤنة السفر ولأنه كان مشغولا بتدبير اصدار صحيفة جديدة ولانصرافه الى ما يدور فى الحزب من ذلك المراء الفلسفى .

وكتب اليه جركى مرة أخرى يدعوه اليه ليوفق بينه وبين الفريق الآخر ، فرد عليه لنين قائلا :

« ليس فى حضورى من جدوى بل فيه الضرر كله ، وليس فى وسعى ولا فى نيتى أن أعامل قوما وضعوا نصب أعينهم الدعوة الى التوحيد بين الاشتراكية العلمية وما يخالفها . من السخف أن يخوض المرء فى مجادلات ومنازعات ومما لا طائل تحته أن ينهك أعصابه ، فالفلسفة يجب أن تظل بمنأى عن شئون الحزب .

آراؤه الدينية

كان لنين حتى ذلك الوقت يعد فى الحزب ثوريا عمليا لا يعنى بالفلسفة ، وقد عرض بجدانوف ولوناتشارسكى فى دعايتهما بقصور

(١) materialism and empirio - criticism

(٢) وكان جركى اذ ذاك يقيم بهذه الجزيرة . وقد نقلت المدرسة بعد ذلك الى مدينة بولونيا بايطاليا .

(٣) وكانت قد توثقت بينهما عرى الصداقة فى لندن .

معارفة فى الفلسفة ، وانه لزعم مجانف للحق ، فقـد كان لنين بطبيعته ذا عقل فلسفى وكان يقرأ الفلسفة قراءة منتظمة وان كان لم يستبحر فيها ٠

وقد كان بفطرته ماديا يرى الدنيا كما هى ماثلة بين يديه ولا يسلم بأن هناك عالما آخر لا تقوم على اثبات وجوده حجة قاطعة ٠

لقد وحد الضغط الحكومى والاضـــطهاد بين الثائرين على الدولة والملحدين فى الدين ، ومن المألوف أن يندد الثائرون بكهنة الدين ويصدقوا الحملة عليهم لسكوتهم عن الشرور الماثلة أمامهم ٠

وكان لنين ، بوصفه اشتراكيا ومؤرخا ، يعرف ما بين المثـــالية الفلسفية والايمان الدينى من ارتباط وثيق ، ويعلم أن الايمان الدينى يعد ـ بوجه عام ـ قوة محافظة ٠

وقد أدرك أن « تنقيح » المادية ينطوى على خطر داهم ٠ فأزاح النقاب عن أخطاء الفلسفة المثالية فى كتابه « المادية والنقد القائم على التجربة والاختبار ٠ ملاحظات انتقادية على فلسفة رجعية » وفضح فيه بلا هوادة تلك المسائل التى أثارتها الفلسفة المثالية وصفى به التشويش والخلط المنطقيين اللذين بنيت عليهمـا نظرية « ماخ» وما اليهـا ، وأبدى زيف ما يتشدق به فلاسفة الحوانيت وأدعياء الفلسفة من نظريات رخيصة ، ودعم الأساس النظرى للماديتين الجدلية والتاريخية ٠

وقد بذل لنين جهدا كبيرا وعانى مشقة جسيمة حتى عثر على ناشر للكتاب قبل أن ينشر منه ۲٫۰۰۰ نسخة على ألا يعطى لنين كوبيكا (مليما) واحدا قبل أن يتحقق أن الكتاب قد أدر عليه الربح حقا ، وعلى أن يدخل على لهجة الكتاب تعديلا فى بعض مواضعه ويغير بعض الجمل فيه ٠

وقد كان هذا الكتاب أقل كتب لنين ظفرا بتقدير غير اللنينيين ، وهو مع ذلك من أهم الحلقات فى سلسلة مؤلفاته ٠

* * *

كان لنين يكتب فى هذه المسألة الفلسفية والألم يمضه لاضطراره الى الانصراف عن أعمال الحزب الأخرى ٠

وقد أقام الشبطر الأكبر من صيف ۱۹۰۸ فى جنيف ، وهناك كانت تجتمع اللجنة المركزية للحزب بعد أن أعيد توحيده ظاهرا ٠ وقد اقترح

المناشفة أن يجردوا اللجنة من سلطانها ويحيلوها مكتبا للاعلام ، فاعترض البلاشفة ولم يفز الاقتراح بالأصوات التى تكفل له النجاح • ورأى لنين أنه لن يستطاع انجاز شيء ان لم يشطر الحزب شطرين ولكنه خشى أن يؤدى ذلك الى افساد الحزب كله أو الى أن يعاد توحيده بزعامة ترتسكى، ذلك الذى ظل بمنأى عن النزاع •

وغادر لنين جنيف فى أغسطس ١٩٠٨ الى لندن حيث أقام أياما يقرأ فى المكتبة المعروفة باسم « المتحف البريطانى » وأمضى أكتوبر ونوفمبر فى بركسل حيث حضر اجتماع مكتب الدولية الثانية ، ويمم كابرى فى ديسمبر ليلقى بعض المحاضرات فى المدرسة التى كانت للحزب هناك •

احتدام الشقاق

وردت الأنباء من روسيا منذرة بغلبة الرجعية واستغلاظ أمرها ، ورأى بعض الاشتراكيين فى ذلك ما يدعو الى محاولة التوفيق من جديد بين جناحى الحزب ، فاتفق لنين وپلخنوف وبجدانوف على عقد مؤتمر لذلك فى باريس • وكان لنين لا يذهب فى مخاصمة أصدقائه الى حد حاسم يقطع سبيل الصلح بينه وبينهم ، وهى خلة غير روسية فالروسيون مفطورون على الغلو والتطرف •

وقد عقد المؤتمر فى أواسط يناير واستمر الى الأيام الأول من فبراير ١٩١٠ ومثلت فيه ٦ جماعات : اثنتان منها بلشفيتان هما جماعة بجدانوف وجماعة لنين واثنتان منها منشفيتان هما جماعة بلخنوف وجماعة مرتوف واثنتان لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء هما جماعة ترتسكى وجماعة البنديت وهى العصبة التى تمثل اليهود خاصة •

وقد أثبتت التجارب الثورية مرارا أن ابرام مثل هذا الاتفاق أيسر من مراعاته ، وقد كان ترتسكى أدهى دهاء وأشد كبرياء من أن يقبل أن يكون فى مكانة غيره من الثوريين ، وكان مرتوف قد استيأس من نجاح

الثورة ، اذ كانت الوقائع القائمة اذ ذاك معاكسة لسياسة الثورة فقد انخفض عدد العمال الذين أضربوا لأسباب سياسية من ١٫٤٢٠٫٠٠٠ فى سنة ١٩٠٥ الى ٣٫٧٠٠ فى سنة ١٩١٠ وعدد الذين أضربوا لأسباب اقتصادية من ١٫٤٣٠٫٠٠٠ فى سنة ١٩٠٥ الى ٤٢٫٨٠٠ فى سنة ١٩١٠ فرأى مرتوف أن يتذرع بالاتفاق المبرم بين الجماعات القانونية كلها لجذب الحزب كله نحو اليمين فى محيط الأعمال القانونية ، وكانت زمرته أقوى الزمر ولهذا آثر عودا على بدء أن يأتلف هو وبلخنوف أقرب الزعماء الاشتراكيين اليه فى العقيدة وأن يكون معه كتلة تستطيع الثبات فى وجه زمرة مرتوف فى اليمين وزمرة بجدانوف فى اليسار ، فكتب اليه فى مارس ١٩١٠ فى ذلك وباحثه بعد ذلك فى الأمر فى أواخر أغسطس فى كوبنهاجن وكانا قد ذهبا اليها لحضور مؤتمر الدولية الثانية ٠

لقد كان لنين هو كذلك على يقين بأن اضطرام الثورة مستحيل فى تلك الأحوال ، بيد أنه كان على يقين كذلك بأنها لابد مضطرمة اذا نشبت الحرب وكان على يقين أن أوربا تسير حثيثا نحو الحرب ٠ وقد حالفت روسيا فرنسا وبريطانيا على ألمانيا والنمسا والمجر ، وأخذ نواب الكادت يؤيدون سياسة الحكومة فى الشئون الخارجية فى حرارة غير مألوفة فسر بذلك لنين ، لا لأنه يقيم وزنا لما بين الديمقراطيتين الغربيتين ودولتى الوسط من فوارق بل لأنه اعتقد أن الحرب موحدة عند نشوبها بين مختلف الاشتراكيين الديمقراطيين فى معارضتهم لسائر الأحزاب وأن حزب الكادت سينهار بانهيار روسيا القيصرية فى الحرب كما تغرق فيران السفينة بغرقها ، وبذلك تعز مكانة الاشتراكيين الديمقراطيين ٠ لقد كان يرتقب فى صبر واطمئنان منشب الحرب التى تتناثر فيها أشلاء الملايين وتتفاقم الأهوال والويلات ٠ كان يخدم غرضا خطيرا ونفسه تعتلج بمزاج من الرفق والقسوة ٠

وقد أثبتت الأيام اصابة حدسه فيما يتصل بالحوادث المقبلة وبرهنت على وفور حكمته اذ لم يركن الى اليأس الذى انغمس فيه الآخرون الى أذقانهم ٠

وألقت الشرطة القبض على السبعة الذين تتألف منهم اللجنة المركزية فى روسيا وألقى بهم ستولبين فى السجن ، وبذلك ضاع آخر مظهر للاتحاد الرسمى ٠ وقطع لنين علاقته بمكتب اللجنة المركزية وكانت كثرتها من أنصار مرتوف ، وطالب هو وبلخنوف بعقد مؤتمر للحزب فأبى مرتوف ذلك عليهما ، فحدث الانشقاق فى الحزب مرة أخرى ٠

وأصدر مرتوف رسالة عنوانها « المخربون » حمل فيها على اليسار الجديد وبعث بها الى زعماء الاشتراكية الاجانب من أمثال كارل كوتسكى وكلارا تستكن آملا أن يصدروا الفتوى بأنه هو على هدى وأن البلاشفة فى ضلالة يعمهون ، ولو تم له ما أراد لكان الخطب غير هين ، فان كوتسكى هو الصديق الحميم لانجلز وهو معترف له بوجه عام أنه حجة فى النظريات الاشتراكية وأنه ذو كفاية لتفسير آراء ماركس وانجلز ، ثم هو الى ذلك صديق پلخنوف وقد كان بلخنوف يتأثر بآراء الماركسيين الأجانب وينقاد لهم أكثر مما ينقاد للنين ، فلو أفتى كوتسكى بأن مرتوف على حق لجاز أن ينحاز پلخنوف الى مرتوف متناسيا ما بينه وبين لنين من تحالف · ولذا رأى لنين ضرورة تبيان الأسباب التى أفضت الى الانشقاق من وجهة نظره، ووقع اختياره على كمنف ليقوم بذلك فشرح كمنف الأمر فى رسالة عنوانها « حزبان » كتب مقدمتها لنين ·

مصرع ستوليپين

امتدت أقتم فترة للضغط والقمع بعد الثورة من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩١١ وظل ستوليپين ممعنا فى كلبيته سادرا فى شروره حتى أرداه قتيلا يهودى يدعى مردا بجروف برصاصة أخمدت أنفاسه (١) وهو

(١) وقد تكهن الكاتب الكبير الكونت ليون تولستوى بمقتله فى رسالة بعث بها اليه فى صيف سنة ١٩٠٧ (نشرت ترجمتها مجلة الطليعة التى تصدر فى بيروت) وقد بدأها بقوله : ..

« أكتب اليك بشأن رجل يستأهل كل الشفقة ، يستحقها أكثر من جميع من أعرفهم اليوم فى روسيا · هذا الرجل أنت تعرفه ، والامر الغريب أنك تحبه أيضا ولكنك لا تقدر فدح مصابه ولا تشفق عليه كما يستحق مركزه · هذا الرجل هو أنت ··· لست أستطيع أن أفهم هذه العماية التى تتمكن بها من متابعة أعمالك القظيعة ، هذه الاعمال التى تهدد سعادتك المادية (لأنه فى كل دقيقة يمكن قتلك ويراد قتلك) والتى تلطخك بالعار لأنك منذ الآن قد استحققت هذا الصيت المرعب الذى سيذكرون به اسمك فى التاريخ مثلا للخشونة والوحشية والرياء ، غير أن الذى تخسره بأعمالك ، وهو بعد أعظم الأشياء خطرا ، هو نفسك ··· » ·

متربع فى المقصورة الامبراطورية فى مسرح كييف على مشهد من القيصر والقيصرة (١) ·

وقد كانت لمصرع السفاح رنة فرح تجـاوبت بهـا أرجاء البلاد الروسية ومحافل الثوريين المنفيين خارجها ، وداخل الأمل النفوس فبدت الأحوال لحظة كأنما قد أخذت تتبدل ، ولكن الوقائع أثبتت أن مقتل هذا الفرد لم يغير كثيرا من سياسة الحكومة ، فقد ولى القيصر مكانه من هـو شر منه ، اذ كان ستولبين يقرن سياسته فى البطش والاضطهاد بشىء من الاصلاح والتعمير ، أما خلفه جورميكن الذى اصطفاه القيصر من بين رجالات حاشيته والذى لم يكن له مثل مواهب سلفه فقد مضى فى سبيل سلفه القتيل وهو مسلح بسبب جديد للتمادى فيه ، وزاد عهده شؤما استفحال نفوذ الراهب الداعر رسبوتين (٢) وكانت المناصب الرئيسـية فى ذلك العهد يشغلها الدوقات الكبار ، وكانت الفوضى تنزل على قصور المجدودين كسفا (٣) من الذهب قوامها مثل البرد الذى تسقطه السـماء على أكواخ الفلاحين ·

---

(١) وقد استطارت شائعة بأن الشرطة كانت على علم بالجريمة ولكنها فسحت لهـا المجال لتتخلص من رئيس سمج غير محبوب · وقد كان ستولبين ـ كما كان لنين ـ يبعث بعض أعوانه الى منتديات خصومه ، فغدر به أحد رجال الاخرانا بدل أن يغدر بالثورة ومهد لاغتياله وهو معين لحراسته ·

وهذا يذكرنا بقول محمد التيمى يرثى يزيد بن مزيد :

ألم تعلم أخى أن المنايا غدرن به وهن له جنود

(٢) وقد ذكر اسم رسبوتين فى الدوما أول مرة عندما قال مليوكوف :

« ان الكنيسة فى يدى الرياسة الدينية والرياسة الدينية أسيرة الدولة والـدولة أسيرة رجل متشرد » ·

(٣) كسف الشىء : قطعه · الكسفة بالكسر : القطعة من الشىء ومنه الآية : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا » ·

مشاكسات المناشفة

كانت سنة ١٩١٢ سنة يقظة للطبقة العاملة في روسيا ، فقد ألقت عنها فيها ما كان قد اعتراها بعد هزيمة ثورة سنة ١٩٠٥ من انحلال وان كانت من الوجهة العملية قد أضحت منعزلة عن سائر الفئات الاجتماعية ٠ وفى تلك السنة أضحى لنين زعيم الطبقة العاملة غير منازع وان ظل يقوم بأعماله طى الخفاء ٠ وقد اجتاز الحزب الاشتراكى الديمقراطى قبل تلك السنة فترة الرجعية الستولبينية وقاسى خلالهـا ما قاسى من التعقب والاضطهاد من خارجه ومن الخيانة والتذبذب فى داخله ، وظل خلالهـا محتفظا بمنظمته وبعلم جهاده وببرنامجه وبتقاليده الثورية ٠ لقد أضناه الجهاد حقا ولكنه لم يمحقه ٠

وقد ضاق لنين ذرعا بمسلك المناشفة فى تلك المدة عندما زين لهم أن يستبدلوا بحزب الطبقة العاملة الثورى حزبا اصلاحيا ، ووجد أن بقاء البلاشفة معهم فى حزب واحد انما يشركهم فى تبعة أعمالهم ويعتاقهم عن حشد قوى الطبقة العاملة واعدادها لثورة مقبلة ، فلا مناص من فصلهم من الحزب ، وبذلك يصبح للحزب برنامج واحد وخطة واحدة ومنظمة واحدة وتغدو وحدته حقيقية لا ظاهرية ، وذلك يجعله حزبا من نوع جديد يختلف اختلافا بينا عن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في غرب أوربا ، تلك الأحزاب التى تضم أخلاطا من أصدقاء الثورة وأعدائها ، ممن يعاضدون مبادئها ومن يعارضونها ، والتى جرت بعد موت انجلز على موادعة النفعيين وغضت النظر عن توجيههم أعنف الضربات الى الماركسية ، والتى تجردت من ثوريتها وغدت تابعة لشعبها البرلمانية ٠ واذن فالى مؤتمر سادس ليطهر الحزب من العناصر النفعية التى تعثو فيه فسادا ٠

مؤتمر براج

وعقد الحزب الاشتراكى الديمقراطى مؤتمرا فى براج فى يناير من سنة ١٩١٢ مثله فيه أكثر من ٢٠ شعبة ، وكانت تلك آخر مرة تظوهر فيها بأن ثمة حزبا اشتراكيا ديمقراطيا موحدا ٠

وقرر المؤتمر طرد المناشفة من الحزب (١) ، ولو أنهم بقوا فيه لما استطاع أن ينجز فى سنة ١٩١٧ ما أنجز وما خرج من الحرب الأهلية ظافرا وما تسنى له أن يقيم النظام الاشتراكى٠ على أن البلاشفة لم يزالوا بعد أن استقلوا بالحزب يسمون أنفسهم حزب العما الاشتراكى الديمقراطى الروسى ويكتبون بجوار ذلك كلمة (البلاشفة) بين قوسين٠

وفى موسوعنا أن نعد تاريخ مكافحة البلاشفة لكل من الاقتصاديين والمنشفيين والترتسكيين وأنصار الاسترداد وأنصار الحل حلقات من سلسلة تاريخ هذا الحزب الذى رسم لنين له صورا متتابعة فى كتبه « ماذا يجب أن نعمل ؟ » و « خطوة الى الأمام » و « خطوتان الى الوراء » و « خطتان للاشتراكية الديمقراطية » و « المادية والنقد القائم على التجربة والاختبار » ٠

وانتخب المؤتمر لجنة مركزية بلشفية من أعضائها لنين وستالين ، كما انتخب لجنة يرأسها ستالين لتوجيه الثورة توجيها عمليا ٠

وألح المؤتمر فى انجاز برنامج الغايات الدنيا للحزب وهو يشمل الثورة الديمقراطية وقصر يوم العمل على ٨ ساعات واستصفاء الضياع والمزارع الكبرى ، ودعا الى تنفيذ هذا البرنامج فى أثناء انتخاب الدوما الرابعة ٠

وقد ساعدت هذه الحركة فى تقوية حركة العمال الثورية فى السنوات ١٩١٢ و ١٩١٣ و ١٩١٤ ٠

* * *

وعاد لنين الى باريس مكدودا خاثر النفس ، ضائق الصدر بالمقام فيها ، فكثرة من بها من الروس المغتربين هم من المناشفة فكانت عينه

---

(١) غير أنه قد حز قلب لنين أن بلخنوف انحاز انحيازا تاما الى ناحية مرتوف ٠

لاتقع الا على أعداء لا يرخي برؤيتهم بالا ولا يطيب نفسـا بل يحس فى جوارهم بأنه على شفا خطر ، فلم يجد بدا من مغادرة باريس ٠

أما ترتسكى ، الذى كان يظاهر أنصار الحل حين كان البلاشفة يقاتلون فى جبهتين والذى كان فى فيينا يؤلب بعض الكتاب البارزين على البلاشفة حتى أسماه لنين « يهوذا (١) ترتسكى » فقد حشد فى مارس ١٩١٢ بباريس خصوم لنين كافة وفى طليعتهم بلخنوف ومرتوف وبجدانوف ولوناتشارسكى وكمنف وتسنوفييف ويهود العصبة وكتاب صحيفة الاشتراكى الديمقراطى ٠، فاجتمعوا فى هيئة مؤتمر وأصدروا قرارا بأنهم لا يعترفون بقرارات مؤتمر پراج ٠

مذبحة لينا

لم يطل فوز الرجعية الستولپينية فليس من شأن الحكومات التى لا تمنح الشعب غير السياط والمخانق أن تعمر طويلا ٠ لقد ألف أبناء الشعب أساليب البطش حتى أصبح البطش لا يثير فيهم الخوف ولا يبعث الانزعاج ، وقد تبدد ما عراهم على أثر هزيمة الثورة من اعياء وخرع وحلت فيهم من جديد روح المناهضة ، وكانت خيبة أملهم فى انهيار الحكم القيصرى بعد مقتل ستولپين حافزا لهم الى استئناف الكفاح ٠ وقد سجل مؤتمر پراج فى يناير ١٩١٢ انتهاء جزر الثورة وبدء المد ، ولكن المد الحقيقى لم يبدأ الا فى أبريل من ذلك العام ٠

ذلك أن المعدنين فى مناجم شركة لينـا لاستنباط الذهب بجهة بودايبو بشرق سيبيريا ، وعددهم ٦٫٠٠٠ ، أضربوا عن العمل لضآلة ما يتناولون من أجر وفساد ما يقدم لهم من طعام وسوء ما تعاملهم به تلك

---

(١) اشارة الى يهوذا الاسخريوطى (ومعناها اليهودى الخائن) الذى ذكرت الاناجيل إنه كان أحد تلاميذ يسوع المسيح ثم انقلب عليه ودل عليه اعداءه ومكنهم من القبض عليه وصلبه ٠

الشركة البريطانيـة التى كانت تجنى كل عـام ۷٫۰۰۰٫۰۰۰ روبل ٠ وسارعت الحـكومة القيصرية الى ارسال كتائبها لمعونة الشركة وبادرت الكتائب فى ٤ أبريل الى اطلاق النار على العمال العزل المسـالمين فأردت منهم نحو ۲۰۰ وجرحت ما يربى على القتلى عددا ٠ وقد علق كونت فتـه فى مذكراته على ذلك الحادث فقال « ٠٠٠ ومن الواضح أن الادارة العامة للشرطة كانت تتلقى الرشى من هذه الشركة المفرطة فى الثراء » ٠

وقد طالب بعض النواب فى الدوما ببيان لمسلك الحكومة فى ذلك الحادث فأجابهم وزير الداخلية مكروف وهو ينظر الى المستقبل مستشرفا نظرة من يقبض بيـده على أزمة الأمور : « لقـد كان الأمر كذلك دائمـا وسيظل كذلك أبدا » ٠

وقد أثارت هذه المذبحة ثائرة العمـال الروس فشملت الاضرابات أرجاء البلاد من أقصاها الىأقصاها وهاج الشعب وماج وكثرت المظاهرات وتوالت الاجتماعات و ـ على حد تعبير ستالين فى صحيفة زفسدا (۱) ـ « كسر اطلاق النار جليد الصمت فاستأنف نهر الحركة الشعبية جريانه»٠

أظهرت حادثة لينا أن قوى الثورة لا تزال تنبض بالحيـاة ، ولئن كان يوم الأحد الدموى فى سنة ١٩٠٥ هو دقة السـاعة المنبهـة لايقاظ الطبقات الروسية كافة ان مذبحة لينا كانت ضربة الطبل الأولى للحركة العمالية الخالصة والحركة الاشتراكية الخالصة فى روسيا ، أو هى كانت ، على نحو ما ، ميلاد الشيوعية الروسية ، ولهذا يحتفل الاتحاد السوفيتي حكومة وشعبا لذكرى هذين اليومين ٠

وقد أضرب فى أول مايو ١٩١٢ ـ ٤٠٠٫٠٠٠ عامل اتخذوا شعارهم الجمهورية الديمقراطية ويوم العمل ذا الساعات الثمانى واستصفاءالضياع وكان لهذا الشعار أثر ملموس فى تألف قلوب الفلاحين والجنود ٠

وقد رحب لنين بهذه القلاقل ، التى ارتجت لها دور الصناعة ، على أنها فتح لجبهة جديدة فى النشاط الثورى اذ أنه مع دعوته البلاشفة الى خوض غمار انتخـابات الدوما لم يكن يعلق على الأعمـال البرلمانية كبير شأن ٠

أما أنصار الحل فقد ساءهم ما عرا البلاد من «حمى الاضراب» ورأوا أن يقصر العمال جهودهم على توجيه عرائض يرفعونها الى الدوما مطالبين

---

(۱) Zveszda أى النجم وهى صحيفة بلشفية اسبوعية كانت تصدر اذ ذاك فى بطرسبرج فيقرؤها العمال المثقفون ، وكان لها اثر عميق فى حادثة لينا .

بالحريات المدنية وحق الاضراب الخ الخ ، بيد أنهم لم يستطيعوا الحصول في عرائضهم على امضاء أكثر من ١٫٣٠٠ عامل ٠

* * *

ولم يمض ١٨ يوما على تلك الواقعة التى كان أحد الفريقين فيها يطلق النار والآخر يموت حتى كان لنين قد حول صحيفة النجم الى صحيفة يومية أسماها پرافدا(١) كان يهيمن عليها وهو فى منفاه بباريس ويوافيها كل يوم بمقال ٠ ولما حجبت الشرطة هذه الصحيفة ظهرت باسم « فى سبيل الحقيقة » وحجبتها الشرطة من جديد فظهرت باسم «طريق الحقيقة» ثم « الحقيقة العمالية » الى غير ذلك من الأسماء وقد ظلت صحفه تحجب وكتابها يزج بهم الى خلوات السجون حتى احتجبت كليا عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى ٠

على تخوم روسيا

لم يطب لنين نفسا بالاقامة بعيدا عن مسرح الأحداث فرحل الى بلدة پورونين فى جبال تترا على نحو ١٢٠ ميلا الى الجنوب من كراكاو (٢) القريبة من تخوم روسيا ولبث يقيم بها كما يقيم مطالب بالعرش من صيف ١٩١٢ حتى أغسطس ١٩١٤ حين بدت فى الأفق أول نذر الحرب ٠

لقد رأى أنه باقامته فى النمسا آمن على نفسه منه فى ألمانيا لأن النمسويين والبولونيين تنتظمهم عقيدة دينية واحدة فاذا ما قرعت الحرب طبولها فر البولونيون من بولونيا الشرقية التابعة لروسيا الى اخوانهم فى النمسا وانضووا تحت رايتهم ٠ وسمح ضباط الشرطة النمسوية

---

(١) Pravda اى الحقيقة ، وقد ظهر الجزء الاول منها فى ٢٢ أبريل من سنة ١٩١٢ وكان يقرؤها العمال بعامة مع المثقفين بخاصة ٠

(٢) كانت بولونيا اذ ذاك مقسمة بين ألمانيا والنمسا وروسيا ٠

للنين أن يقيم هناك وسرهم ما علموا من تشجيعه للثوار فى بلاده دون أن يفطنوا الى ان الثورة التى كان يدبر لهـا تختلف اختلافا بينـا عن ثورة البولونيين الوطنيين • وهكذا لبد لنين على مقربة من التخوم التى كان أعوانه يجتازونها اليـه بين ذهوب واوبه مندسـين فيمن يعبرونهـا من البولونيين الكثر ، فكان فى پورونين كمـا كان فى كوكلا يتصل اتصالا وثيقا برجال لهم اسهام فى مجريات الأحداث بدل أن يكون محاطا بأمثاله من الروس المنفيين ، فلم يكن يعيش فى جو المهاجرين بل كان كأنه فى روسيا ، يشخص اليه نواب البلاشفة فى الدوما فيعد لهم ما يلقونه على منبر المجلس من خطب وبيانات وترسل اليه الجماعات المهنيـة مبعوثيها ويفد اليـه منـدوبو الشعب المحلية فيقصون عليـه قصصهم بأساليبهم البدائية ، وبذلك تسير سفينته صوب الشرق وان لم يكن هو ، الربان ، على ظهرها ، واستغنى بنشر مقالاته فى صـحيفة برافدا ، وكانت تطبع فى بطرسبرج وتصل اليه بعد ٣ أيام ، عن الكتابة فى صحف تنشر فى باريس وجنيف •

وهكذا تسنى له باقامته على بوابة القيصر أن يوجه ذوى النشـاط الثورى فى الصحافة والبرلمان والادارة العامة وأن يعمل بوساطتهم على اقناع العمال بضرورة قلب النظام القيصرى عنوة ، وكان العمل فى كوخه متصلا على قدم وساق • وقد كتب فى مارس من سنة ١٩١٣ يقول :

« ان ساعتنا لتوشك أن تدق مرة أخرى » •

ورأى ترتسكى ألا يدع للنين ، ان نشـبت الحرب ، مزية عليه بقربه من مسرح الحوادث، فسافر هو والمناشفة الى فينا ، ومع أن المناشفة كانوا قلة كما يدل على ذلك اسمهم كان يزيد من شـأنهم أن على رأسهم رجالات من أمثال مرتوف وبلخنوف وترتسكى ، على حين لم يكن لنين يظفر بتأييد أحد من البارزين غير جوركى الذى لم يكن هو شديد الثقة به اذ أن جوركى كان من هواة الثورة لا من محترفيها الذين يمنحونها وقتهم كله •

وعقد المناشـفة فى أغسطس مؤتمرا فى فيينا مثـل المؤتمر الذى عقدوه فى باريس فى مارس الماضى ، فأصدر لنين رسـالة ندد فيها بهم وبكل من يقبل حلا وسطا •

استفحال التذمر

تفشت الاضرابات وما فتىء التذمر يتسع ويستشرى فى صفوف العمال فرأت الحكومة أن تسير سيرة بسمارك فتفرض عليهم نظام التأمين الاجبارى فاذا ما رأوا أن الدولة تمنحهم الاعانات الماليه عند المرض والعطلة لم ينقادوا للمهيجين ولم يحاولوا أن يستبدلوا بها حكومة قد لا تكون فى مثل سخائها معهم • على أن الحكومة لم تفكر فى هذا التدبير الا بعد فوات وقته ، وكان العمال الروس لا يثقون بها فلم يكونوا على يقين أنهم سيأخذون لقاء ما يقتطع من أجورهم شيئا ، ولذلك كان هذا المشروع مما قوى التذمر بدل أن يوهن منه •

وقد بلغ عدد المضربين فى سنة ١٩١٣ نحو ١¼ مليون وبلغ عددهم فى النصف الأول من سنة ١٩١٤ نحو ١½ مليون • وقد طمت بربرية أصحاب المصانع ووحشية الشرط فصبغت الاضرابات بصبغة سياسية • ودأب أصحاب الأعمال فى الانتقام من العمال انتقاما جماعيا ففصلوا فى سنة ١٩١٣ وحدها فى صناعة النسج وحدها أيضا بمحافظة موسكو وحدها كذلك ٥٠٫٠٠٠ عامل وقذفوا فى بطرسبرج وحدها فى يوم من شهر مارس ١٩١٤ بـ ٧٠٫٠٠٠ عامل •

وقد خلفت تلك الحوادث أثرا عميقا فى أوساط الفلاحين فعادوا يدمرون قصور الملاك الكبار وبيوت الكولاك •

وقد أربت تلك الحوادث فى الأرياف خلال السنوات ١٩١٠ـ١٩١٤ على ١٣٫٠٠٠ حادثة • وسرت روح الثورة في القوات المسلحة أيضا فشقت عصا الطاعة كتائب الجيش فى التركستان وتمرد الملاحون فى أسطول البحر البلطى وفى سفاستبول ، وأصبحت الحالة تماثل ما كانت عليه قبل اندلاع ثورة سنة ١٩٠٥ •

الدوما الرابعة

كان الانتخاب للدوما الرابعة وشيك الوقوع وكان قانون الانتخاب مجحفا بالعمال ، ومع ذلك دعا لنين رجال حزبه الى خوض غمار الانتخاب حتى يتسنى لمن يفوزون منهم بعضـــويه المجلس أن يجهروا فوق منبره بأغراضهم ويعرقلوا سياسة الحكومة ماوسعهم الجهد. وقد أسفر الانتخاب فى خريف ذلك العـــام عن نجاح ٦ من البلاشـــفة و ٨ من المناشفة ، فأما البلاشفة فقـــد انتخبتهم جموع العمال وكانوا هم الممثـــلين لهم بخلاف المناشفة ، أولئك الذين جاءوا من القوقاز وغيرها من الأصقاع النائية .

وكون نواب البلاشفة شعبة مستقلة تعمل بارشاد لنين واشرافه ، ومـــع ذلك لم يقـــدموا للثورة مســـاعدة ذات بال اذ أن زعيمهـــم رومان ملنفسكى (١) ـــ وكان خطيبا مفوها انتخب فى محافظة موسكو ـــ لم يكن الا عينا من عيون الشرطة فمضى يحبط جهاد البلاشفة ويطلع الشرطة طلعهم • على أن هذه الخيانة لم تفت فى أعضاء البلاشفة ، فقد كان ايمانهم أوطد وآمالهم أقوى وتشكيلاتهم أدق فى نظامهـــا من أن يهدمهـــا يهوذا واحد •

أما بلخنوف الذى ما فتىء يبعد عن لنين ممعنا فى سيره الى اليمين فقد شرع الآن يحبـــــذ أن يتعاون لا هو ومرتوف فحسب بل كذلك هو والاشـــتراكيون الثوريون وهم لا يمتون الى الاشتراكية بســـبب • أما ترتسكى فكان فى ذلك الوقت خصما لدودا للنين، وكذلك لونا تشارسكى• وكان مع لنين حينئذ زوجته كربسكايا (٢) وأبفلبوم (٣) الشهير بزنفييف وستالين وكمنف وپتروفسكى وترويا نفسكى ورزميروفتش •

---

(١) وكان لنين أول الامر يحبه ويثق به وينكر ما انطلقت به عنه الشائعات سنة ١٩١٣ ، ولكن الريب تكاثرت حواليه وأخذت خيانته تسفر ، فلما نشبت الحرب انكشف ما كان خافيا من أمره فلم يجد مناصا من الاستقالة والهرب • وعندما فحص الثوار ما كانت تضمه وزارة الداخلية من وثائق اطلعوا على أدلة خيانته فكان جزاؤه القتل •

(٢) وكانت فى ذلك الوقت تشكو الغدة الدرقية •

(٣) وقد نشأ هذا اللفظ باضافة كلمة Apfel الالمانية ومعناها تفاح الى كلمة Baum ومعناها شجرة • ويدل الاسم المركب على هذا النحو على أن صاحبه من اليهود •

وحسبنا فى الموازنة بين نفوذ الفريقين اذ ذاك أن ما كان يطبع من صحيفة برافدا لسان البلاشفة بلغ ٤٠٫٠٠٠ نسخة على حين أن ماكان يطبع من صحيفة لوش (١) لسان المناشفة بلغ ١٥٠٠٠ نسخة ليس غير ، لقد كان تقوى نفوذ البلاشفة نتيجة محتومة لتعاظم الحركة الثوريه •

اكتمال الانفصال بين الفريقين

أبدت الحكومة القيصرية عند الاحتفال لمرور ٣ قرون على حكم أسرة رومانوف شيئا من السماحة فأبانت أنها ستخلى بين النواب الاشتراكيين وبين ممارستهم عملهم فى الدوما اذا هم أعطوا موثقـا أن يكونوا موالين للنظام ، فنصحت لهم لجنة البلاشفة المركزية أن يعطوا هذا الموثق على ألا يوفوا به ، فما المواثق والعهود الا من بضاعة البرجوازيين، وليس هنالك ما يعدل فى خطره حرب الطبقات •

واجتمع نواب البلاشفة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩١٣ فى قرية دوراتس فى غاليسيا هم ونفر من مهاجرى البلاشفة البارزين وطائفة من العمال واتخذوا قرارا بفصم كل علاقة بينهم وبين نواب المناشـفة فى الدوما • ولجأ المناشفة ــ كدأبهم ــ الى رجال الدوليـة الثانية فأبى البلاشـفة ــ كدأبهم أيضا (١) ــ وساطتهم •

وكان الفصل الأخير فى قصة الانفصال بين البلاشفة والمناشفة فى بروكسل ، اذ كان مكتب الدولية الاشتراكية فيها لا يعرف بلاشفة ومناشفة بل يعرف « الحزب الاشتراكى الديمقراطى » وحسب فأى الفريقين حقيق بأن يبعث بمندوبيه الى هناك ؟

---

(١) Luch أى الشعاع •

(١) ومن ذلك أن لنين أعرض فى سنة ١٩٠٤ عن طلب للتوسط من الزعيم الالمانى الكبير أوجست ببل •

لقد أوفد لنين مندوبيه الى مكتب الدولية يطلبون الى لجنتها المركزية أن تعترف بالبلاشفة أنهم هم وحدهم الجماعة الاشتراكية الديمقراطية فأنكرت اللجنة المركزية هذا الطلب ٠

مشكلة الآقليات

كان لنين فى أوائل سنة ١٩١٤ قد بهظته المتاعب كما يرى فى الصورة الضوئية التى التقطت له اذ ذاك فى غاليسيا ٠ وقد كان يعتقد وفاقا للمذهب الماركسى ألا مندوحة عن حرب أوربية عامة ولكنه لم يكن يقدر أنها ستكون فى تلك السنة ٠

وقد أخذ على نفسه اذ ذاك أن يرسم السياسة البلشفية بازاء القوميات المختلفة التى تنتظمها الامبراطورية الروسية ، فقد كان الكثير من زعماء البلاشفة ينتمون الى تلك القوميات المضطهدة الى جانب اليهود المنبثين فى أرجاء البلاد ، وكان بعض الذين يتطلعون منهم الى الغرب ويرقبون النزاع المحتدم فى جو الامبراطورية العثمانية أو بين أيرلاندا وانجلترا يقولون ان المشكلات السياسية أعظم من المسائل الاقتصادية خطرا وأعمق أثرا فينبغى الانصراف الى حلها ولتنتظر المشكلات الاقتصادية من بعد ٠

كان لنين يكافح هذه الآراء بلا هوادة ، وكان يرى أن الفوارق الحقيقية بين الناس انما هى فوارق الطبقات ، أما الفوارق الدينية والعنصرية والقومية فثانوية لا يصح للمرء أن يدعها تنأى به عن واجبه الأساسى ، فمن الخير أن تعالج الخلافات الدينية وماإليها بروح المسامحة والمصالحة لأن كل حل وسط لها هو لا شك موقوت ، ومن الخير أن يترك لكل ولاية روسية أن تختار اللغة التى تؤثرها وأن يترك لكل فرد فى هذه الولاية أن يتكلم اللغة التى تروقه ٠ حقا إن تعدد اللغات يسبب فى أول الأمر شيئا من المتاعب والمضايقات ولكن ذلك موقوت على أية حال ، فان هؤلاء الناس يتوهمون أن الثقافة التقليدية تكسبهم قيمة خاصة

فيصرون فى عناد على التكلم بلغة تخالف لغة جيرانهم، أما الرجل الجديد، الرجل البلشفى المتحرر من مثل هذه التقاليد فسيسره أن يتكلم أكثر اللغات موافقة له ٠

كان لنين يرى أن هذه السياسة السخية ستجتذب اليه الاقليات كافة ، حتى اذا ما حان الوقت لتأسيس جمهورياتهم المستقلة استقلالا ذاتيا كانت تلك الجمهوريات مستقلة حقا ولكنها كانت مع ذلك اشتراكية٠ وهذا ما حدث فعلا ٠

الحرب العالمية الأولى

- كانت روسيا فى أوائل سنة ١٩١٤ تبدو كأنها ستعود الى مثل حالتها سنة ١٩٠٥ ، وكان فيها سباق بين الحرب الاجتماعية والحرب الدولية ، بل ان الحرب الاجتماعية كانت أنشط وأعم ، وكان لنين يكتب فى صحيفة برافدا حاثا على الاضراب (١) منذرا بوشك الحرب داعيا الى العمل لاضعاف الحكومة حتى اذا ما جاءت الحرب ألفتها منقوصة الكفاية بادية العجز ، ولكنه لم يركب رأسه ولم يفقد هداه ، ولهذا كان ينصح بالامساك عن السعى لقلبها حتى تأتى الحرب بالفرصة الملائمة ٠

وأطلق صربى مسدسه فى سراييفو على الأرشيدوق النمسوى فردنند فأشعلت قذائفه أوربا بأسرها ، وسنحت الفرصة التى كان يترقبها لنين ، وقد خالها القيصر المسكين متيحة له أن يمحق المنظمات البلشفية محقاً وأن يقضى على حركة العمال القضاء المبرم ، فأمر فى ١٤ يوليو ١٩١٤ بالتجنيد العام وبدأت جحافله ترابط على التخوم ٠ ودعا الاشتراكيون فى الدول المختلفة الى عقد اجتماعات ينددون فيها بالحرب ولكن الحرب لم تمهلهم حتى يعقدوا اجتماعاتهم بل سرعان ما أصبحت

(١) وقد أضرب عمال النسيج فى باكو وبطرسبرج اضرابا واسعا دام حتى اعلان الحرب ٠

حقيقة كالحة، فقد أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا فى يوم الأحد ١٩ يوليو سنة ١٩١٤ ·

واحتشدت فى ذلك اليوم جموع غفيرة أمام قصر الشتاء فلم يعاجلهم القيصر باطلاق النار عليهم كما فعل يوم الأحد الدموى من يناير ١٩٠٥ بل استحياهم ليحصدهم الموت الزؤام فى ميدان الوغى فيظفر هو باكليل الغار وبمجد المنتصر · وأشرف صاحب الجلالة عليهم من شرفة قصره فجثا تحت قدميه عشرات الألوف رافعين عقائرهم بالاناشيد الوطنية الحماسية ·

ولقد رحب لنين بالحرب على أنها تمهيد لانهيار النظام الرأسمالى · وهذه الاحتمالات التى لم يحلم بها أحد غيره كانت فى يقينه هو آتية لاريب فيها ، ولذا أبى أن ينساق فى التحمس لوطنه والعمل لنصرته ، وكان لا ينظر الى الحرب الا على أنها نار أشعلها الرأسماليون من مختلف البلدان ، ليصلى لهيبها العمال من مختلف البلدان ، فالرأسماليون يعيشون فى الحرب كما يعيشون فى السلم على استغلال الطبقة العاملة ، ومن ثم حق على كل امرىء أن يعمل على الحاق الهزيمة فى الحرب الاستعمارية بحكومة بلاده وذلك يشمل الامتناع من اقرار نفقات الحرب وتكوين جماعات ثورية خارجة على القانون داخل القوات المسلحة وبث الاخاء بين الجنود فى جبهات القتال وتنظيم أعمال ثورية يقوم بها العمال والفلاحون لعرقلة سير الحرب ثم تحويل هذه الأعمال الى تمرد على الحكومة الاستعمارية ·

لقد كان يرى أن هزيمة الحكومة القيصرية فى الحرب أهون الشرين لأنها تيسر للشعب أن ينتصر على القيصرية وتتيح للطبقة العاملة أن تنجح فى كفاحها فى سبيل التحرر من عبودية الرأسمالية ومن الحرب الاستعمارية ·

الدولية الثانية قبل الحرب وبعدها

كان لنين قبل الحرب متفرغا للتأهيب للثورة ، ولكنه مع ذلك جرد شطرا من عنايته للحركة الاشتراكية الدولية ، وكان يأمل أن تلعب بلاده في القرن المتمم العشرين الدور الذى لعبته فرنسا فيما بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٨٧١ (١) ٠

وقد كان لنين قبل الحرب ذا شأن عظيم فى الشئون الاشتراكية الدولية ، اذ كان فى سنة ١٩٠٧ بين ممثلى روسيا فى مكتب الاشتراكية الدولية ، واشترك فى مؤتمر شتتجرت سنة ١٩٠٧ وفى مؤتمر كوبنهاجن سنة ١٩١٠ وفى مؤتمر بازل سنة ١٩١٢ ٠

وفى مؤتمر شتتجرت كان هو وروزا لكسمبرج (٢) اللذين دبجا الصيغة المتطرفة لما أذاعه الحزب الروسى من قرار أثبت فيه أن من واجب الأحزاب الاشتراكية جميعا أن تبذل عند نشوب الحرب جهدها لتحويل الحرب بين الشعوب الى حرب بين الطبقات ٠ وقد اعترض الوفد الألمانى على صيغة القرار محتجا بأن فى استخدام مثل تلك الألفاظ الصارمة ما يعرضهم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى ، وقدم بدلا منها صيغة مبهمة أقرها المؤتمر ٠

أما مؤتمر كوبنهاجن فقد قرر وجوب امتناع الأحزاب الاشتراكية من اقرار نفقات الحرب ٠

وأما مؤتمر بازل فقد جهر أيام حرب البلقان بأن العمال يرون من الاجرام أن يدفع الناس الى الاقتتال فى سبيل زيادة أرباح الرأسماليين ، وبدل بالصيغة المبهمة التى أقرها مؤتمر شتتجرت صيغة واضحة تقول :

« ان تحويل الحرب الى حرب أهلية هو الشعار الوحيد الذى يجدى على الطبقة العاملة » ٠

---

(١) وهى المدة التى تشمل الثورة الفرنسية الكبرى وثورة فبراير ١٨٤٨ وثورة الكومون ٠

(٢) وكانت عضوا فى الحزب البولونى فكسبها ذلك عضوية غير مباشرة فى الحزب الروسى ٠

وقد أبدى لنين فى ذلك المؤتمر أن الدولية الثانية يجب أن تعد فى حكم الميت موتا أبديا لا نشور بعده ، وأنه يجب العمل فى الحال لايجاد دولية ثورية مخلصة ، وقطع كل صلة بمن خانوا الثـــورة من أمثال بلخنوف وشيدمن وجسده وهندمن ·

* * *

لم يكن لنين يطمئن الى ماينبعث من أوتار الدولية الثانية من نغمات ، ولقد كان يعرف أن مجامع تلك الدولية مكتظة بمن لا رأى لهم ولا حزم عندهم وفى ذلك يقول :

« ليست الدولية الا اتحادا لاسداء المساعدات الدولية International الى الحماس القومي · وقد كان يتوقع ، مع ذلك ، من اشتراكيى أوربا عامة، أولئك الذين مافتئوا منذ سنوات يكررون أن التغـــرير بالشعب باسم الوطنية شنشنة الرأسماليين وأن الديمقراطية البرلمانية غش وتضليل وأنه يجب شن الحرب الطبقية فى كل وقت ، وكان يتوقع من اشتراكيى ألمانيـــا خاصة ، أولئـك الذين ينتظمهم أرقى الأحزاب الاشـــتراكية وأكثرها تقدما ، كان يتوقع من أولئك وهؤلاء أن ينبروا للاعتراض على اشراك بلادهم فى الحـــرب · أجـــل ، انه لم يتوقع لهم أن يظفروا بالحيـــلولة دون اشـــتراك بلدانهم فى الحـــرب أو بأن يعـــرقلوا سيرها عرقلة تذكر ولكنه كان يتوقع منهم ألا يريقوا ماء وجوههم ، فاذا الأنباء توافيــه بأن الاشتراكيين الألمـان قد صوتوا جميعـا — الا كارل ليبكنشت — مقرين الحكومة على أن تبذل فى سبيل الحرب ماتقتضيه من انفاق ، وما عتم أن ترامى اليه أن الاشتراكيين الفرنسيين والبلجيكيين والمناشفة الروس وأعضاء حزب العمال البريطانى ، ما عدا حزب العمـال المستقل ، قد أيدوا جميعا حكوماتهم الرأسمالية فى ايراء زناد الحرب وتأجيج لظاها ·

أيد كوتسكى حكومة بلاده لأن بلاده — فيما يزعم — فريسة مؤامرة لتطويقها

وأيد بلخنوف حكومة القيصر متعللا بأنها حالفت الديمقراطيات على الأوتوقراطيات ·

وشرع فندرفلده يدعو الى السلام معرضا عن الحرب الطبقية التى قضى العمر يدعو لها ·

ان الدولية الثانية التي كانت قد أجمعت الرأى منذ زمن على أن تبذل قصارى جهدها لوقف الحرب قد انهدت هي نفسها كما انهدت أسوار اريحا عندما نفخ الغزاة الاسرائيليون في الصور .

ثم ان العمال الروس الذين كان لنين يطمئن اليهم قد تراصوا جميعا خلف قيصرهم ، خلف القيصر الذى أرداهم قتلى برصاص الحرس فى فناء قصر الشتاء سنة ١٩٠٥ والذى تقع عليه تبعة اطلاق النار عليهم فى مناجم لينا سنة ١٩١٢ .

على أنه ان كان للعمال من جهلهم عذر فما عذر زعماء الاشتراكية وأعضاء الدولية الثانية وقد كانوا على علم أو كان عليهم أن يكونوا على علم بجلية الأمر ؟

لقد لقن العمال أن على كل امرىء أن يحارب فى سبيل وطنه ، وكانوا يجهلون أن حكامهم انما كانوا يحاربون لأغراض اقتصادية لا تمت بسبب الى أماني الشعب ، فهم كانوا يسيرون فى طريق الضلالة وقد جنهم الظلام، أما الزعماء الاشتراكيون فكانوا يسيرون فيها فى وضح النهار .

لقد شاهد لنين زعماء الاشتراكية يخونون أقدس واجباتهم ، وأبصر الدولية الثانية تفترق فرقا وتنقسم شيعا وتتشقق أحزابا اشتراكية قومية يحارب كل منها الآخر ويحرش بين عمال بلده وعمال البلدان الأخرى ، ورأى أن المرء ان أراد فى مثل ذلك الجو من هستيريا الحرب أن يكون اشتراكيا حقا ألفى نفسه « قلة قد تنحط الى الواحد الفرد » ولكنه اتخذ قراره وحزم رأيه دون تردد : لقد ماتت الدولية الثانية ، وانه لمن واجب الاشتراكيين القلائل الذين لبثوا مستمسكين بعرى الاشتراكية أن يبدءوا العمل من فورهم على اقامة دولية ثالثة خير من الدولية الثانية

فى معسكر الثورة

وقد تاحت مع الحرب فرصة عظيمة للعمل فتناسى لنين خصومته للذين يرغبون فى العمل من خصومه ، وشرع هو وترتسكى يعملان معا

للمرة الأولى بعد عهدهما في لندن سنة ١٩٠٣ · وقد كان ترتسكى يؤمن بالثورة ، وهو في ذلك يختلف عن لنين من دعاة الثورة امثال پلخنوف ، فلقد عاش پلخنوف في المنفي ٣٠ عاما بوصفه نوريا فالف هـذا الضرب من الحياة ، فهو ثائر محترف يخشى ان يفقد منبره اذا هبت الثورة حقا ، وقد يفقد كل شيء اذا هبت على نمط غير الذى كان يتصوره ويدعو اليه ، فلما واجهته تبعة اشباب الثورة لم ير مناصا من التقهقر وآخذ يكد ذهنه في التماس عذر يستبرىء به من ازجائه الاضطلاع بواجبه ·

اعتقال لنين

واستراب بعض النمسويين الذين ألهبهم ضرام التحمس ، فى تلك الأيام من شهر أغسطس ١٩١٤ ، بذلك الأجنبى الذى كان يسير الى جوار سكة الحديد فقبض الشرطة عليه فى قرية نوفى ترج القريبة من كراكاو وزجوا به فى السجن بوصفه جاسوسا روسيا ، ولما فتشوا غرفته ألفوا بها طائفة من الاحصاءات فى شئون زراعية شتى ، فألقى فى روعهم أنها رموز لمخابرات سرية ، ولو ثبتت عليه تهمة الجاسوسية ، ولم يكن ذلك أمرا عسيرا فى أمثال تلك الملابسات ، لأسلم الى السلطات العسكرية لتمضى فيه قضاءها عليه بالموت ·

وقد تبوأ فى محبسه النمسوى مكانة عظيمة فى قلوب زملائه السجناء فبايعوه بالزعامة مبايعة أكثر ديمقراطية من مبايعة الروس له بها بعد ٣ سنوات ، فكان يخرج من مبنى السجن فى صحبة أحد الحراس ليشترى لهم تبغا ويستعير لهم كتبا ، وكان لا يكف عن بث الدعاوة بينهم ·

واهتم الاشتراكيون النمسويون للأمر واستطاع أحد زعمائهم : فكتور آدلر أن يقنع السلطات بأن لنين ليس بريئا من الجاسوسية فحسب بل هو أعدى عداوة للقيصر من كل رجل من أبناء النمسا عينها ، فخلت

سبيله بعد أسبوعين وأباحت له ان ينزح الى سويسرا حيث وجد مجال الدعاوة أوسع منه فى السجن النمسوى ٠

فى سويسرا

ويمم برن فأقام بها ردحا من الزمن ٠

وقد أقامت الحرب فى وجهه مصاعب جديدة اذ كانت المكاتبات والمطبوعات لا تصل اليه من بلاده ولا منه اليها الا عن طريق انجلترا وسكنديناوه ، مما يعرضها لأعين رقباء شتى ٠ وقد كان فيما مضى من أيامه لا يلهيه اشتغاله بالاعداد للثورة المنشودة ــ عن سائر الشئون العالمية ، فلما انقطعت فى سويسرا صلته بالعاملين فى بلاده خلص بنفسه للشئون الدولية ٠

وقد نشر آراءه فى الحرب فى صحيفة الاشتراكى الديمقراطى وفى رسالة عنوانها « بحث فى الحرب » وقد دبج تلك الآراء فى أسلوب عنيف يذكرنا بأسلوب لوثر ٠

كان لنين صادق النظر صائب الحكم فى كل ما يتصل بروسيا ، ولكنه كان يبعد عن المحجة اذ يجعل تلك الأحكام عامة ، صادقة على أوربا الغربية ٠ لقد عرف أن الوطنية الروسية أضعف من أن تحمل الروس على تحمل ويلات الحرب وتجرع غصصها ، واذن فميدان العمل مفتوح للماركسيين فى روسيا ، أما فى أوربا الغربية فقد كان التحمس الوطنى أشد صلابة وأعمق أصالة وكان لحب الوطن من القوة ما لم يتبينه مندوبو الاحزاب الغربية أنفسهم وهم يتشدقون فى المؤتمرات بمقاومتهم للأغراض القومية المضادة للغرض الاشتراكى ، فلم يسبر غور هذا الحب للوطن الا عند المحن والشدائد ، اذ تبين أن الاشتراكيين الألمان والفرنسيين هم ألمان وفرنسيون قبل أن يكونوا اشتراكيين ، فلما أصبحت الثورة على الرأسمالية ثورة على القومية تحطمت سفينة الاشتراكية على صخرة القومية ٠

الاشتراكيون في روسيا

كانت أفكار عمال بطرسبرج عندما اندلعت الحرب في اختمار ثوري جياش ، فانتظم الاضراب مئات الألوف وأقيمت السدود والحواجز في الضواحي • وحسب بعضهم أن ذلك سيحبط الأغراض التي من أجلها قدم بوانكاريه الى بطرسبرج ، ولكن الحكومة ألقت بالبلاد في أتون الحرب دون أن تلقي الى تلك القلاقل بالا ، واستبان أن الطبقة العاملة لاتستطيع شيئا بازاء الحكومة ذات البأس الشديد •

وقد ظاهر كبار البرجوازيين فيروسيا سياسة الحرب بغية اقتناص الأرباح الفاحشة من تموينهم اياها بمنتجاتهم ورغبة في انتهاز ملابساتها لمحق الحركة الثورية محقا لا رحمة فيه ولا هوادة • أما صغار البرجوازيين فقد عمد حزباهم : الحزب الاشتراكي الثوري وحزب المناشفة ، الى استخدام شعار الاشتراكية في اضلال الشعب عن أهداف الحرب الاستعمارية ، وناديا بـ « السلام الطبقي » بين العمال وأصحاب الأعمال جواني أرض الوطن وبالحرب على الأعداء برانيها • أما البرجوازيون الأحرار فقد أبدى حزبهم الدستوري الديمقراطي أول الأمر معارضة شكلية وما لبث أن اندفع يؤازر الحرب •

لقد كانت الحرب محكا للأحزاب والشيع الاشتراكية يميز بين خالصها وزائفها وكشف عن بهرج أحزاب الدولية الثانية التي احتفظت بين صفوفها بالنفعيين وجرت على اسداء المنح للبرجوازيين • وقد لجأ بعض الاشتراكيين عند النظر في نفقات الحرب الى الامتناع من ابداء آرائهم في ذلك ، وقد عرفوا بالمركزيين ، واليهم ينتمي ترتسكي ومرتوف في روسيا وكوتسكي في ألمانيا • ويصح القول بأن موقف الأحزاب الاشتراكية في روسيا كان مماثلا بوجه عام لموقف الأحزاب الاشتراكية في أوربا الغربية ، غير أنه لم يكن في استطاعة أي ديمقراطي روسي أن يعد الحرب التي أعلنتها حكومة القيصر حربا وطنية ، ولذلك قل أنصار اليمين المتطرف بين الاشتراكيين ، وقد نبز سائر الاشتراكيين غلاة الميامنين هؤلاء بالاشتراكيين المتحمسين للوطن social-patriots وفي الحق أن تحمس هؤلاء القوم لم يكن للوطن الروسي بل كان لفرنسا•

أما جمهرة الاشتراكيين الروس فقد وقفوا من الحرب موقف حزب العمال المستقل فيانجلترا وقلة الاشتراكيين الديمقراطيين في ألمانيا ،

أعنى موقفا سلبيا ليس فيه تحمس للوطن ولا استغلال للحرب فى اضرام نار الثورة الاشتراكية ٠

أما الجناح الأيسر الذى ظل مواليـا للاشتراكية ولقرارات مؤتمرى شتتجرت وبازل ، فقد عمد منذ نشوب الحرب الى كشف الســتار عن أغراضـها الاستعمارية ورفع علم الـكفاح فى وجهها مناديا بالحرب على الحرب ٠

لقد كان هذا الفريق مدوى الصوت فى روسيا على حين كان لا يكاد يســمع له حس فى انجلترا وعلى حين لم يكن يناصره فى ألمانيـا الا كارل ليبكنشت وحده ، ذلك هو فريق البلاشفة الذى أصبح بزعامة لنين قوة دولية ذات بال ٠

النواب البلاشفة فى الدوما

لم يزل لنين منذ حل بسويسرا يرسل الى روسيا بوسائله المعهودة رسائل يحلل فيها أسباب الحرب موضحا أنها لم تشب فى سبيل الحرية أو العدالة أو أية فكرة سامية بل لأغراض خاصة تسعى اليها الاستعمارية الرأسمالية ٠

وقد بين فى تلك الرسائل السياسية التى ينبغى أن ينتهجهـــا الاشتراكيون على صعوبتها ، وهى الاهابة بالشعب أن يعملوا على انزال الهزيمة بجيوش وطنهم وأن يحولوا الحرب الدولية الى حرب أهلية ٠ وأقر البلاشفة هذه السياسة ومضوا ينفذونها فى جد ونشاط ، غير ملقين بالا الى ما يلقون فى سبيل ذلك من مشقة وعنت٠ وعندما يصدم المرء التحمس الوطنى ويتحداه يناله من الأذى ما يناله ٠

لقد كان يسرى عن أولئك الدهماء الفقراء ، أنهم مقبلون على الموت جنبا الى جنب مع السادة الأغنيـاء ، وحسبهم ديمقراطية ومساواة أنهم لن يحرموا الانخراط فى حومة الوغى كمـا كان يحرم العبيـد فى بلاد الاغريق ٠ وبهذه الروح وقف عمدة مدينة أورنبرج الروسية بين هتاف

سامعيه من أبناء الطبقة العاملة وجعل يشقشق بقوله « اذا منع العمال من الذياد عن بلادهم ... فانهم سيكتسحون كل عقبة تحول دون ذلك ... وسيؤدون واجبهم » .

ومن ذا الذى يجرؤ على تعكير صفو الملايين السائرين قدما لملاقاة الموت ؟

أولئك هم البلاشفة .

اتخذ نواب البلاشفة الخمسة(١) فى الدوما من رسائل لنين نبراسا يسيرون فى المجلس على ضوئه وأمعنوا فى استغلال الامتيازات البرلمانية فى الدعاوة لآرائه ، فانفردوا من بين الشعب البرلمانية في العالم يصيحون بالدعوة الى السلام ، بيد أن الأمر لم يطل بهم كثيرا اذ كان القيصر سريع العقاب .

وفى ٣٠ سبتمبر من سنة ١٩١٤ عقد أولئك النواب ونفر من عمال الحزب مؤتمرا فى فنلاندا برياسة كمنف الذى كان اذ ذاك يمثل لنين فى روسيا فطاولتهم الحكومة فى مكيافلية حكيمة وأمهلتهم حتى تتجمع الزنابير جميعا فى الوكر فتقضى عليهم بضربة واحدة ، وقد واتتها الفرصة بعد شهر اذ اجتمع مؤتمر البلاشفة الثانى فى فنلاندا فى ٤ نوفمبر ١٩١٤ فى دار على طريق فيبرج على بعد ١٢ كيلو متر من بطرسبرج فدهمتهم الشرطة وقبضت عليهم وعلى كمنف معهم وألفت فى حوزتهم رسائل من لنين يبين فيها أن واجب العمال الحاق الهزيمة بالجيش الروسى ، كما عثرت معهم على مذكرة تتضمن أنباء اجتماعات لهم بعمال الذخائر وبالجنود تكشف أن ثمة تدابير منظمة كانت تتخذ لقلب نظام الحكم ، ومن ثم لم يجد عليهم ما أدلى به محاميهم كرنسكى (وهو الذى أصبح دكتاتورا بعد سنوات قلائل) من أنه لم يدر ببال أحد من المتهمين بتة أن يضرم ثورة فى زمن الحرب وأنهم لم يرغبوا قط فى أن يهزم جيشنا ، فخسر النواب الخمسة مقاعدهم فى الدوما وجردوا من حقوقهم المدنية وقضى بنفيهم الى سيبيريا الشرقية مدى الحياة .

كانت الضربة موجعة للنين ، لا لأنه اعتقد أن ذلك سيطيل أمد الحكم القيصرى ويؤجل فرصة انهياره الى حين ، بل لأنه خشى ألا يكون الاشتراكيون الديمقراطيون متأهبين للعمل عندما يحدث ذلك الانهيار .

---

(١) اما سادسهم ملنفسكى فقد تخلى عن عضويته بعد افتضاح خيانته .

وقد وجه الى تلامذته الخمسة فى صحيفته السويسرية شيئا من اللوم قائلا « لقد دلت المحاكمة على أن طلائع الاشتراكية الثورية فى روسيا ما تزال غير متأهبة تأهبا تاما للاضطهاد القانونى » ثم استطرد فقال متحمسا « ٠٠٠ وفى الوقت الذى بدا فيه جميع النواب « الاشتراكيين » فى أوربا كأنهم لعب للشوفينيين ثبت أن فى روسيا حزبا للعمال له نواب ٠٠٠ لم يمتازوا بالتعاون مع البرجوازيين وصالونات المثقفين أو مع المحامين أو البرلمانيين « والأوربيين ذوى الفطانة والذكاء بل بتحقيق أكثر مهام الدعاة والمنظمين الخارجين على القانون اتضاعا وغموضا وصعوبة واستهدافا للخطر واستقبالا بالجحود٠٠٠وسيكون للطريق التى سلكوها أثر واضح فى تاريخ العالم ٠٠٠ » ٠

لقد كان تأثير المحاكمة جسيما ، فقد حققت للبلاشفة أكثر مما يستطيع أن يحققه عشرات من الكتاب وآلاف النسخ من الرسائل المطبوعة ، ذلك أنه لم يكن للبلاشفة يومئذ الا صحيفة كانت تطبع بعيدا فى ساراتوف وكان الرقيب يشدد الرقابة عليها ، فكانت محاكمة النواب والحكم عليهم أشبه شىء ببيان تنشره الحكومة على نفقة الدولة مذيعة فيه آراء البلاشفة كاشفة عن أوجه نشاطهم الجياش ٠ لقد منحت الحكومة غلاة المياسرين شهادة بمالهم من شدة بأس وعظيم خطر ٠

ولم يكن هذا الحكم أسوأ وقعا على أحد منه على أحرار البرجوازيين ، فقد فتح أبصارهم على حقيقة كانت عازبة عنهم ، هى أنهم لا قبل لهم بمتابعة الحرب ـ فضلا عن كسبها ـ دون أن يكسبوا ثقة العمال الذين يصنعون البنادق وثقة الجنود الذين يطلقونها ٠

وقد ضربت الحكومة الروسية الطبقة العاملة فى الصميم وأطاحت برأسها اذ نفت زعماءها الى سيبيريا أو شردتهم فى الخارج ، ومع ذلك استمسكت تلك الطبقة بعرى الاخلاص لتقاليد صحيفة برافدا ولزعامة لنين ، كما بدا فى سنة ١٩١٥ عندما دعيت الى ارسال مندوبين عنها الى لجان الصناعة فى زمن الحرب كما سيجىء ، وكما بدا فى أواخر سنة ١٩١٦ عندما أصبحت الحالة ذات طابع ثورى اذ جعل العمال فى أيديهم زمام الأمور دون أن يكون ثم اتصال بينهم وبين زعماء البلاشفة ٠

لم يبق أمام لنين بعد أن تقطعت الأسباب بينه وبين روسيا الا أن يتوفر على معالجة المسائل الدولية • وكان يرى أن الاشتراكية قد تردت الى حد لا يدع أملا فى نهوضها الا بانكار جميع أشكالها القائمة انكارا تاما ، فاخذ يعمـل لايجاد آلة يحـول بها الحرب الدولية الى حرب أهلية على حد تعبيره فى كتابه « الحرب والاشتراكية الديمقراطية الروسية » • لقد أصبحت الدعوة الى الدولية ضرورة لاغنى عنها لمكافحة الظلم فى وطنه ، فلا سبيل عنده لتحرير روسيا الا أن يسدد الاشتراكيون فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ما بأيديهم من أسلحة الى صدور الاستعماريين فى بلادهم •

لقد أصبح الآن مهاجرا شريدا حقا ، ولم يكن الأمر كذلك حين كان يعنى بالأمور الروسية حتى فى أثناء مقامه خارج بلاده • وكان يقرأ فى الصحف كل صباح أنباء ما أصاب بلاده من الهزائم المتوالية فكان ذلك يفعم صدره ابتهاجا ويملى عليه برنامجا قويا •

وقد أثلج صدره كذلك ما ترامى اليه من فضائح رسبوتين فهى لا تقتصر — كما هى الحال فى فضيحة جابون — على المجاهرة برضا الكنيسة عن جرائم الحكومة وتاييدها لها فى ذلك ، مما يشهد بأن الحكومة تتخذ من الدين وسيلة تخدر بها الشعب ، بل ان هذه الفضائح بما يشوبها من سوء سمعة رسبوتين ومن مؤازرة القيصرة لألمانيا ، تقيم الدليل كذلك على أن الحكام يغررون بالشعب حين يهيبون به أن يبذل ما يستطيع فى سبيل الوطن وأن يستمسك جهده بالآداب دون أن يقيدوا هم أنفسهم بتلك الأغلال التى يقيدونه بها • وأظهر ما فى القصة أنها ممعنة فى السخافة وأنها تجرد الأسرة المالكة والسلطة الحاكمة كلها مما لها من احترام ، وما الملك إلا رمز ينبغى له أن يربأ بنفسه عما يزرى فى نظر الشعب بهيبته ويسقط من مروءته لأن الشعب لا يرتضى أن يجود بدمائه من أجل شىء جدير بالاحتقار • فان دعوت أبناءه الى بذل النفس والنفيس فى سبيل الدولة ذاتها ردوا سائلين : وما جدوى الرمز اذن وهو شىء ضرره أكبر من نفعه ؟ حقا ان من الشر أن تسمح الكنيسة بأن تجعل من نفسها شرطيا لحماية الحكومة ، وان النقمة لتعظم بها حين تكون الحكومة فاسدة شريرة •

وقد اصطفى لنين بضعة عشر شابا من الاشتراكيين السويسريين والوافدين الى سويسرا ، وليس يتسنى للمرء أن ينتخب الذين يعملون معه ، وفاق رغبته ، وانما هو يرحب بأكثر القوم اقبالا عليه ورغبة فى العمل معه ٠

لقد عثر عليهم كما يعثر المرء بعد اجتياز الصحراء على أول كائن بشرى ٠ وقد وفق فى مارس ١٩١٥ الى العثور على نفر من الروسيين يستمعون الى أحاديثه فى الاشتراكية ويعاونونه فى تأليب القوى تأهبا للانهيار المقبل ٠

تحليل العصر الرأسمالى

كان لنين ، الى جانب اشتغاله بدعاوته الجديدة ، مكبا على دراسة الحالة القائمة اذ ذاك ٠

وقد خصص كثرة كتاباته فى أثناء الحرب لتحليل العهد الحاضر ، عهد الاستعمار أو الرأسمالية المالية finance capitalism التى تنزع الى الاحتكار ، وهو يختلف عن العهد السابق له ، عهد الرأسمالية الصناعية التى كانت تقوم على المنافسة الحرة ٠ ومن أظهر أوجه التباين بين العهدين الفوارق بين الحروب فى كل منهما ، فقد كانت الحروب فى العهد الأول تعمل أحيانا على تقدم البشر اذ تساعد على توحيد الشعوب المشتتة فى اقطاعيات صغيرة وتعين البرجوازيين على الاقطاعيين وقوى الاقطاعية القديمة ، ولذلك أيد ماركس وانجلز فريقا من المتحاربين فى عصرهما على الفريق الآخر ، أما الحرب الحالية (يعنى الحرب العالمية الأولى) فهى حرب بين فريقين من قطاع الطرق المشتجرين على أنصبتهم من سطح الأرض ٠ وقد طالما نشبت الحرب بين الدول الرأسمالية ابتغاء ابتزاز البلدان الأجنبية وشق الطرق الى أسواق جديدة ، والاستيلاء على مزيد من المستعمرات ، فالحرب رفيق ملازم للرأسمالية ، وهى عند الرأسماليين ظاهرة طبيعية مشروعة كاستغلالهم للطبقة العاملة ٠

وقد أصبحت الحروب ظاهرة لازمة في أدبار القرن التاسع عشر وطوالع القرن المتمم للعشرين ، اذ بلغ النظام الرأسمالي آخر أطواره ألا وهو الاستعمارية imperialism فقد صارت الاتحادات الرأسمالية أي شركات الاحتكار المتحدة والمصارف المالية تظفر بسلطان عظيم في الدول الرأسمالية ، وان رأس المال المالي ليجأر دائما في طلب أسواق جديدة ومستعمرات جديدة وبلاد جديدة يثمر فيها ومنابع جديدة للمواد الخام ٠

وقد كان سطح البسيطة في أعقاب القرن التاسع عشر مقسما كله بين الدول الرأسمالية ، ولكن التطور الصناعي لم يسر في مختلف الدول بسرعة متماثلة فتقدمت الصناعة في دول كانت متأخرة فيها وتأخرت في دول كانت فيها متقدمة ، فتغيرت النسبة بين القوى الصناعية والحربية للفريقين ، فسعت الدول المستقوية الى اعادة تقسيم المستعمرات بما يلائم حاجتها ، وذلك ما جعل الحرب محتومة وعالمية ٠ وهذه الحرب تنسف قوى الاستعمارية وتسهل اختراق جبهتها في أضعف مواضعها ٠

وقد خلص لنين من ذلك في رسالته « الاستعمارية آخرة مراحل الرأسمالية » الى أن في استطاعة الطبقة العاملة أن تقيم النظام الاشتراكي في دولة واحدة أو بضع دول على حين تظل سائر الدول زمنا آخر تتمرغ في أوحال البرجوازية ٠ وبهذه النظرية الجديدة خالف لنين عما كان يتوهمه الماركسيون اذ ذاك من أن النصر مستحيل في دولة منفردة ومن ثم وجب اضرام ثورات متعددة في دول شتى في وقت معا ٠

هذا ، وليس ثمة ما يمنع أن تكون حرب ما عادلة فكل حرب يشنها شعب غير استعماري على الاستعمار عادلة ، وكل حرب يشبها شعب مستعمر أو نصف مستعمر (كالصين وتركيا اذ ذاك) على ظالميه من الدول العظمى عادلة ٠ وذلك ما يحدث على صورة ثورات كثورة أيرلاندا في وجه انجلترا أو ثورة فنلاندا في وجه روسيا ٠

ولهذا وجب التعاون بين طبقة العمال في الدول الرأسمالية المتقدمة والشعوب المستعمرة والمضطهدة ٠ وقد أبان لنين في رسالته « نتائج المجادلة في حق تقرير المصير » التي كتبها سنة ١٩١٦ ، أن مصلحة الطبقة العاملة خلال المراحل الأولى للثورة العالمية هي بوجه عام مطابقة لمصلحة الشعوب المضطهدة ٠ وقد نعى في تلك الرسالة على كارل رادك أنه وصف الثورة الأيرلاندية بالعصيان ، وقال ان الذي يتوقع أن يرى

ثورة اجماعية محضة لن يمتد به العمـــر حتى يراها ، انه يكون ثوريا باللفظ لاغير عاجزا عن فهم الثورة حق الفهم ٠

مؤتمر لندن

وتلقى لنين دعوة الى المؤتمر الذى عقده بلنـــدن اشتراكيو بلدان الحلفاء فى فبراير ١٩١٥ فأرسل لتفينيوف ممثلا للبلاشفة وزوده بقرار قدمه الى المؤتمر جاء فيه :

« ان منـــدوبى المنظمـــات الاشتراكية الديمقراطية الروســـية (والانجليزية وو ٠٠٠ الخ الخ) الموقعين على هذا يعملون مقتنعين أن الحرب الراهنة حرب استعمارية لا من جهة ألمانيا والنمســـا والمجر فحسب بل كذلك من جهة انجلترا وفرنسا اللتين تعملان متحالفتين مـــع القيصرية ، فهى حرب فى فترة بلغت الرأسمالية فيها المرحلة الأخيرة من تطورها ، فى فترة لم يبق فيها بالحكومات داخل حدودها القومية الا ذماء ٠ هى حرب غايتها اقتناص المستعمرات وانتهاب البلاد المنافسة واضـــعاف الحركة العمالية بالتحريش بين الطبقة العاملة فى دولة ونظيرتها الطبقة العـاملة فى دولة أخرى » ٠

وطلب ، تبعا لذلك ، أن يلتزم الاشتراكيون جميعا الخطـــة التى ارتبطوا بها فى مؤتمر بازل فى ٢٥ نوفمبر ١٩١٢ من اثارة حرب طبقية شعواء فى كل دولة على الذين يجنون الأرباح فيها من امداد الحرب بالأعتدة والمؤن ويهتبلون فرصة الحرب فيكممـــون أفواه العمـــال ويزيدون من سيطرتهم عليهم ، وأن يتعـــاون الاشـــتراكيون فى بلاد الحلفـــاء هم والاشتراكيون الديمقراطيون الألمان الذين أبوا اقرار نفقات الحرب وأن يكونوا معهم لجنة تدعو الى وقف القتال ، لا على الوجه الذى يدعو اليـــه دعاة السلام والمسيحيون والديمقراطيون من صغار البرجوازيين ، بل على وجه يرتبط فيه ذلك بثورة الطبقة العاملة فى كل دولة على حكومتهـــا

البرجوازية ، وأن يظاهروا كل سعى للاتحاد والمؤاخاة بين الجيوش المتحاربة على الرغم من السلطات العسكرية ، وأن يكلف الوزراء الاشتراكيون فاندرفلده وسمبات وجسده بأن يعتزلوا مناصبهم فى الوزارتين البرجوازيتين فى بلجيكا وفرنسا وأن يوسم بالخيانة كل من يشترك فى مثل تلك الوزارات أو يقر نفقات الحرب ٠

ولم تظفر تلك المقترحات بالقبول ، ولهذا عقد البلاشفة فى مارس ١٩١٥ مؤتمرا خاصا بهم فى برن قرر أن الدفاع عن الوطن (فى مثل تلك الحالة) خيانة للثورة ، ودعا الى تكوين دولية ثالثة لتعد العدة وتشرف على الحرب الطبقية التى خانها دعاة السلام والمغالاة فى الوطنية من رجال الدولية الثانية ٠

المناداة بالسلام

واستبان للذين كانوا يحبذون الحرب فى سنة ١٩١٤ طامعين أن تحرز بلادهم نصرا قليل الكلفة أن قد أخطأهم التقدير ، فقد تحولت الحرب الى حرب خنادق ، وان الحروب الطويلة المدى لتتمخض عن مشكلات بعسر حلها ، ولشد ما انقلب على مثيريها الغرض الذى أثاروها من أجله ٠ ومن ثم انكفأ بعضهم يدعو الى احلال السلام قبل أن يغدو الدمار عميما ٠ أما لنين فكان على العكس من ذلك يتوق أن يلحق التدمير كل شىء ويرى الالتزام بهذه الرغبة فرضا على كل اشتراكى ، كما يرى أن أحزم أعداء الماركسية رأيا وأشدهم عليها خطرا هم دعاة السلام من البرجوازيين ٠ فان من الحماقة أن يحطم الذين يرغبون فى استدامة النظام الرأسمالى كعكتهم فى مشاجرة على النصيب الذى يبغى كل منهم أن يستأثر به ، ولو أنهم كانوا حصفاء ذوى بصر بتصاريف السياسة لجنحوا الى السلم بالغة أنصبتهم من الضآلة مابلغت ٠

ولما تبين لنين أن الاشتراكيين الذين كان التحمس الوطنى قد جرفهم تياره عادوا يدعون الى السلام ألقى فى وهمه أن الرأسماليين ثاب اليهم

رشدهم فأطلقوا أبواقهم من الاشتراكيين ينادون بالقاء السلاح خشية ان يديره العمال الى نحور السادة بدلا من أن يسددوه الى نحور الأعداء ، وحركوا تلك الدمى لاثارة حركة السلام التماسا لعذر ينهون به الحرب ·

وقد كان ـ وفاقا لهذا المنطق ـ يشعر نحو أولئك الماركسيين الذين يدعون الى السلام بفرط الاشمئزاز ، ومن قوله فى ذلك :

« ان أمس ما يحتاج اليه الرأسماليون ودبلوماتيـــوهم فى الوقت الراهن هم الاشتراكيون الذين يقومون على خدمة البرجوازيين فيبلبلون أفكار الشعوب ويحيرونها ويضللونها بما ينشرون من كلام حول الســلام الديمقراطى » (١) ·

لقد كان يمقت الحرب ولكنه كان أشد مقتا للسلم ، فالســـلم بين الدول الرأسمالية معناه البرء والاستجمام وبقاء الاستعمارية التى جعلت الحرب أمرا لا سبيل الى تجنبه أما السلم الحق فلا تأتى به الا ثورة برولتارية ومن ثم لم يكن المراد أن يحل سلم رأسمالى محل حرب رأسمالية بل أن تشب الحرب الأهلية بين الطبقات بدل الحرب الاستعمارية بين الأمم · ولم يكن شىء أخطر عنده وأجلب للكوارث من ترميم أوربا واعادتها الى منــل ما كانت عليه قبل سيراييفو ، ولهذا كان يريد أن تستمر الحرب حتى تنفجر فى البلدان المحاربة ثورة تحيل الحرب الدولية حربا أهلية ·

---

(١) ولعله كان غاليا فى تقدير ذكاء المجتمع الرأسمالى ، ومرد ذلك الى أنه ـ بوصفه ماركسيا ـ كان يعتقد أن الحكومة ليست الا « اللجنة التنفيذية لتدبير شئون الطبقــة الحاكمة مجموعة » وأن المجتمع منقسم قسمين : قسم يرأسه رجل مثل لورد جراى وقسم يرأسه هو · والواقع أن العلماء والزعماء يفسرون الامور بايضاحات بسيطة على حين هى تتحرك وفاقا لعوامل معقدة متشابكة ؛ فماركس يفسر كل شىء بالعوامل الاقتصادية وفرويد يفسر كل شىء بالغريزة الجنسية وكلاوزفتش بالحروب ، ومن ثم اغفل لنين فى حسابه حب الغربيين لأوطانهم فلقى من جراء ذلك متاعب جمة .

مؤتمر تسمرفلد

كان لنين يبز غيره من الساسة في اكتناه الأحوال في روسيا ، ولذا أدرك قبلهم أن القيصرية على شفا الانهيار ، وقد دأب ينذر القوم بأن الثورة لا بد مندلعة في روسيا فملهبة أوربا بأسرها (١) ويدعوهم الى الرجوع عن المناداة بالسلام • وكتب في هذا المعنى ، بمعاونة تسينوفييف رسالته « الاشتراكية والحرب » •

وفي أوائل سبتمبر ١٩١٥ لبى فريق من أشياع السلام وممن يعطفون على الجناح الأيسر من الاشتراكية دعوة الحزب الاشتراكي الايطالي وآثروا أن ينأوا قليلا عن العاصمة حتى لا يسترعوا اليهم انتباه أهلها فيمموا قرية تسمرفلد بين الجبال ، وهناك في فندق صغير جلس ٣٠ رجلا وامرأة هم بقية آمال كانت تتخايل في أفئدة الناس قبل ذلك بعام • وكان من بين المؤتمرين غير قليل من الروس اذ حضر مندوبو الاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الديمقراطيين ويهود العصبة الذين كانوا يظاهرون ألمانيا على أساس أن اليهود لن يظفروا بالعدالة ما لم تندحر القيصرية الروسية • ولم يكن لنين راضيا عن هذه الأخلاط ، ومع ذلك ، أثلج صدره أن تاحت له آخر الأمر فرصة يبسط فيها رأيه ويجتذب اليه نفرا ولو قليلا من الاشتراكيين الروس •

لم يفعل المؤتمرون أكثر من وضع أسمائهم تحت بيان جاء فيه « ان الأستار التي تحجب وراءها معنى هذه الطامة العالمية قد أخذت تتساقط مزقة مزقة » • ولم يكن لنين راضيا كل الرضا عن هذا البيان الذي مهره بامضائه ولكنه لم يكن يملك استيفاء ما يعيب البيان من نقص ، فقد رغبت كثرة المؤتمرين عن فصم صلتها بالأحزاب التي ظاهرت الدفاع الوطني ولم ترد أن تبرح سفينة الدولية الثانية بل هي أرادت على النقيض من ذلك أن تنشر شراعها المطوي لتستأنف السير •

---

(١) وقد صح حسابه تماما فيما يتصل بروسيا ، وأخطأ فيما يتصل باوروبا الغربية اذ قامت الثورات الشيوعية فيها بعد ذلك بزمن ما ، بيد أنها لم تنل حظا كبيرا من النجاح •

وقد كان هذا المؤتمر ، مع ذلك ، الخطـــوة الأولى فى تطور الحركة الدولية لمقاومة الحرب ـ على حد تعبير لنين ـ وكان الخطوة الأولى لتنظيم دولية جديدة ، ومبدأ لأحداث متتالية لم يكن لها فى أول الأمر شيء من القوة والبأس ولكنها أخذت تكتسب القوة شيئا فشيئا على الأيام · كان الناس منذ عام قد حرموا سماع شيء من هذا القبيل ، فكان ذلك المؤتمر دقة طبل وسط ذلك السكون ·

وقد تيسر للنين أن يجد بين المؤتمرين من يقره على آرائه ، فكون معهم جماعة · وانتخب الجناح الأيسر بعد المؤتمر مكتبا لترويج آرائه مكونا من لنين وتسنفييف ورادك ·

مؤتمر كينتال

وعندما اجتمع فى أبريل ١٩١٦ مؤتمر آخر (١) فى قرية كينتال بجوار برن كانت جماهير الطبقة العاملة قد جنحت بتأثير الحرب ناحيـــة اليسار ، وكان الجنود قد نهكتهم الحرب وأصبحوا يتوقون الى الراحة ، الى الاستلقاء فى سلام بين أذرع حليلاتهم وخليلاتهم ، وكان لنين يرى فى ذلك خطرا ويسخط سخط نقولا الثانى على أولئك الذين يرون فى قول الكتاب المقدس « لا تقتل » دواء لتلك الآلام التى تغمر العالم ، فالدعوة الى السلام تنافى الدعوة الى الثورة وتذهب بالوعى الطبقى · ولهذا رأى لنين أن يستغل توق هؤلاء القوم الى السلام فيقودهم به الى الثورة · واستطاع فى الأشهر الثمانية بين تسمرفلد وكينتال أن يخطو خطوات فى سـبيل النجـاح ووجد فى مؤتمر كينتال عصبة تسنده ، فكان من بين المؤتمرين وعددهم ٤٣ اثنا عشر ممن يسميهم هو باليساريين ·

وأصدر المؤتمر بيانا وسطا تراضته الجماعات المتعارضة الآراء ، كان ـ كقرار مؤتمر تسمرفلد ـ خلوا من المبادىء الأساسية التى نادى بها

---

(١) ويسميه بعضهم مؤتمر تسمرفلد الثانى ·

البلاشفة وبخاصة تحويل الحرب الاستعمارية الى حرب أهلية وسعى كل امرىء لجلب الهزيمة على بلاده وتكوين الدولية الثالثة ، ومع ذلك يعد هذا المؤتمر خطوة واسعة الى الأمام ، فهو الذى بلور العناصر التى تكونت منها الدولية الثالثة ، وكان لقراراته صدى بعيد فى روسيا ٠

انفض المؤتمر فى ٣٠ أبريل ١٩١٦ ٠ وفى أول مايو ألقى كارل ليبكنشت (١) فى برلين خطبته المشهورة وأسس عصبة سبارتكوس فألقى القبض عليه فى اليوم نفسه (٢) ٠

وكان على الدوليـــــة أن تنتظر حتى تنشب فى روســـــيا الثورة الديمقراطية التى نشبت فى مارس ١٩١٧ ٠

فى زيورخ

وانتقل لنين عقب انفضاض المؤتمر الى زيورخ حاضرة القسم الألمانى من سويسرا ، حيث أوى الى غرفة ضيقة فى منزل بالغ القـدم فى أحد الأزقة Spielgasse وكانت الغـرفة مؤثثـة بنضد وكرسـيين وفراشـين وآلة للخياطة ، وكانت تطل على صحن استؤجر ليكون مصنعا للأمعـــاء

(١) ولد فى ليبرج سنة ١٨٧١ وهو ابن الزعيم الاشتراكى الديمقراطى المعروف فلهلم ليبكنشت . واصبح كارل من أ.:. أعضاء الجناح الايسر فى ذلك الحزب ، وقد دين بتهمة الخيانة العظمى وحكم عليه بالحبس ١٨ شهرا ، وانتخب فى سنة ١٨٧٨ عضوا بمجلس النواب البروسي ، ثم انتخب سنة ١٩١٢ عضوا في الرايشستاج وأبى أن يقر نفقات الحرب .

(٢) وحكم بحبسه سنتين لأنه هتف بسقوط الحرب فى أثناء مرور كتائب الجيش امامه ، وكان هذا الحكم اشارة للقيام باضراب عمال المعادن فى برلين ٠ ولما أتم مـــدة الحبس قام على رأس الاسبارتكوسيين مطالباً بالجمهورية الاشتراكية وثار الاسبارتكوسيون فى سنة ١٩١٩ وأوشكوا ان يفلحوا فى ثورتهم لولا أن وقفت لهم حـــكومة الاشتراكيين الديمقراطيين وتغلبت عليهم بمساعدة العناصر الرجعية ، ثم قتلت كارل ليبكنشت غيلةفى أثناء نقله من السجن الحربى الى سجن مؤابيت متعللة بالحجة المكرورة أنه قتل فى أثناء الهرب ٠

المحشوة (المنبار) فكان يضطر الى اغلاق النافذة عامة النهار حتى لا تفغمه الرائحة الكريهة المنبعثة من ذلك المصنع ، وانما حملته على البقاء فى تلك الغرفة كلمة سمعها من ربة الدار هى « يجب على الجنود أن يديروا أسلحتهم فى وجوه حكوماتهم » ٠

وكان فى كل صباح يلقى بعض مواطنيه ثم يقصد الى دار الكتب قبيل التاسعة ، ولم يكن ملبسه فى رثاثة ملابس غيره من الروسيين المهاجرين ولذا سمح له موظفو الدار فى ربيع سنة ١٩١٦ بالاختلاف اليها حتى أتم كتابه « الاستعمارية آخرة مراحل الرأسمالية » ٠

الاستعمارية أعلى مراحل الرأسمالية

وقد بين فى هذا الكتاب أن الرأسمالية اجتازت المرحلة التى كانت فيها نعين على تقدم الجنس البشرى الى مرحلة غدت فيها تعرقل تقدمه ٠ وهذه الاستعمارية التى شهدها القرن المتمم للعشرين هى المرحلة الأخيرة من الرأسمالية ، وهى رأسمالية هرمة واهنة لم يبق بها الا ذماء ، بيد أن ما اعتراها من وهن لا يكفى وحده لأن يصير بها الى نفاد بل لابد للاجهاز عليها من ثورة الطبقة العاملة ٠

وليست الاستعمارية وليدة ارادة الذين حملوا أعلامها وعبدوا سبلها بل هى ــ قبل كل شىء ــ نتيجة تطور الأحوال الاقتصادية فى القرن التاسع عشر ، فقد أصبحت وسائل الانتاج والتوزيع ملك يمين طائفة من أصحاب رءوس الأموال يعيشون على بيع منتجاتهم من سائر أعضاء المجتمع غير أن هؤلاء انما يحصلون على القوة الشرائية من الأجور البخسة التى يتناولونها من سادتهم الرأسماليين ، وانها لأقل من أن تكفى لشراء السلع التى تطرح فى الأسواق ، وتلك هى مشكلة الرأسمالية التى لا تحل ٠

لقد كانت بريطانيا فيما مضى هى الدولة الصناعية الوحيدة ، فأخذت تمنح البلدان الخارجية قروضا لتمدها بقوة شرائية تشترى بها

ما لا تستنفده هي من منتجاتها • وحذت الدول الأخرى التى انتشرت فيها الصناعة فى أدبار القرن التاسع عشر حذو بريطانيا • وبدأت مع القرن المتمم للعشرين المنافسة المالية الدولية •

واستطاع الصيارفة أن يبسطوا سلطانهم على الصناعة فتكونت الاتحادات الصناعية ، وانتهت المنافسات القديمة الطراز بين الشركات فى كل بلد لتحل محلها المنافسة العالمية بين الصيارفة • وهكذا استعرت الحرب بين الدولتين المقرضتين للمال بريطانيا وألمانيا ، بالقلم واللسان ثم بالسيف والمدفع •

ومنقصة النظام الرأسمالى هى أنه اذا سمح باستمرار المنافسة فيه أفضت هذه المنافسة الى القضاء عليه واذا نفيت المنافسة منه نفيا باتا لم يبق ما يسوغ به الرأسماليون وجودهم ، وجبههم الناس سائلين : اذا كانت المنافسة غير ضرورية فماذا يبقى لتفنيد الشيوعية ؟

يمتاز هذا الكتاب من سائر مؤلفات كاتبه باعتدال أسلوبه وخلوه من المصطلحات الماركسية والحملات الشيوعية ، فقد اصطنع فيه أسلوبا يجيزه الرقيب الروسى دون أن يفطن الى خطر ما ينطوى عليه من أفكار لخلو الكتاب من تلك المواضعات التى اصطلح عليها الشيوعيون • وقد ثبتت الآن صحة ما اشتمل عليه الكتاب من تحليل لنمو الاستعمارية المالية ، ووضح أن أنظمة عقد القروض كانت من أهم بواعث الحرب العالمية الأولى • وقل من كان يفهم ذلك وقتئذ كما فهمه لنين •

وقد أراد لنين بهذا الكتاب أن يدلل على أن الحرب انما هى نتيجة محتومة للنظام الرأسمالى ، فيظهر بذلك أن ما يقوم به دعاة السلام من مساع هو عبث لاجدوى وراءه وأن السياسة الوحيدة التى تجدى انما هى قبول الحرب لأن فيها موت الرأسمالية ، ثم تحويلها الى حرب أهلية ثم بناء السلم على الأساس الوطيد الذى يصلح لذلك وهو الأساس الشيوعى •

تحليل نشوب الحرب

كان لنين يلهج بهذه الفكرة ويتحدث بها حيثما وجد الى الحديث مجالا ، وكان يرددها على مسامع العمال السويسريين وهم ، وان لم يتصفوا بالوطنية الشوفينية ، كانوا وا أسفاه غير مشبعين بالبغض الطبقى وكانوا يجنحون الى اعتقاد أن كل شيء لا يلبث أن تصلح حاله اذا كف الناس عن القتال .

وكان يسفه آراء الاشتراكيين الذين يلقون تبعة الحرب على عواتق القادة المتعطشين للدماء ، فالحرب انما تجيء وفاق قانون محتوم لا مفلت من قبضته « وللرأسماليين .. كل الأسباب المعقولة لشب الحرب ، وانهم لقمين بهم فى الواقع أن يشبوها ما أرادوا بقاء النظام الرأسمالى » .

فالدول العظمى تعيش على كد المستعمرات ، والعالم المتمدن ينعم بما يستنزف من دماء آسيا وافريقيا ويتحف بما تسخر فيه مئات الملايين من البشر فى البلاد المغلوبة على أمرها ، ويتخذ حكام الغرب من بعض الأموال المنهوبة من المستعمرات رشوة يجتذبون بها اليهم فريقا من العمال وينشئون بها بين العمال فئة أرستقراطية يقرعون معها كئوس الراح هاتفين « فلتسقط الثورة » ، ومن ثم « كان الذين ينعمون بالامتيازات من أبناء الطبقة العاملة فى الدول العظمى يعيشون الى حد ما على حساب مئات الملايين من أبناء الشعوب غير المتمدنة . وهذا ما حمل الكثيرين منهم على تأييد الحرب ويسر للحكام أن يلقوا من أحزاب العمال البرجوازية فى بلادهم مؤازرة لسياستهم » .

الفوضى في ادارة الحرب

طالت الحرب واخترم الموت زهرة شباب الشعب الروسى فى حوماتها أو من الجراح الناجمة أو فريسة الأوبئة الفاشية فى جوانبها وغصت الطرقات بالمبتورين والمشوهين وعمت المسغبة واشتدت الضائقة ففترت سورة الحماسة الكاذبة وشرع الناس يفكرون ويتساءلون لم كانت الحرب وعلى من تقع تبعتها ؟

لقد كان البرجوازيون وسادة الأرض يجنون من استعار الحرب المال الجم ، أما العمال والفلاحون فلم يكن حظهم منها غير الفاقة والحرمان • وقد حرمت الحرب البلاد عمل ١٤ مليونا من العمال والفلاحين فاضطربت الحياة الاقتصادية وأوشكت المصانع أن تقف عن العمل ، وقل انتاج الحبوب حتى لكأن الحرب كانت تبتلع موارد الدولة •

وكانت البيروقراطية القيصرية التى لا تعرف السرعة الأوربية فى تصريف الأمور تعالج شئون الحرب بما عرف عن الآسيويين من قلة المبالاة وفقدان الدقة واختلال النظام ، ففتر نشاط الصناعة وخفتت جلبة دواليبها ووقفت حركة التجارة ونقص استنباط المعادن، وكان أولو الأمر لا يفهمون من أساليب الصناعة الحديثة والحرب الحديثة شيئا فكانوا يشنون على جحافل العدو المجهزة خير تجهيز حرب فلاحين تتصدى فيها الخيل للدبابات وتشرع فيها الهراوات فى وجه البندقيات ، وكان الروس يطلقون قذيفة واحدة مقابل كل ٢٠ قذيفة يطلقها الألمان ، وكانت جبهة القتال فى حاجة الى ٠٠٠ر٥٠٠ر١ بندقية فى الشهر على حين أن المصانع لم تكن تخرج الا ٠٠٠ر٥٠ بندقية ، وكانت قطرات سكة الحديد تسير ببطء ثيران الجر ، محملة فوق طاقتها أو فارغة لا تحمل شيئا •

أما الجنود فلم يكونوا قد تلقوا أى تدريب عسكرى ، وكان ثلثهم غير مسلح على الاطلاق ، وقد وصفهم الجنرال بلايف قائلا « ان جنود هذه الكتائب التاعسة التى فى المقدمة ينتظرون صابرين تحت وابل قنابل شربنل الى أن يسقط زملاؤهم الذين الى جوارهم فيستطيعوا هم أخذ بندقياتهم » •

ومنى الجيش بالهزائم يتلو بعضها بعضا ، وتبين فى خلال ذلك أن

سوخوملينوف وزير حربية القيصر كان يتصل بجواسيس الألمان وينفذ ما يحملونه اليه من ارشـــادات فيوقع الفوضى فى امداد الجيش بالميرة والذخيرة ، وكان ثم وزراء وقواد آخرون يفشون الى العدو أسرار الدولة والجيش ، وكانت القيصرة نفسها تشارك فى ذلك ، اذ أنها تجمعها ببعض أمراء الألمان وشائج قربى ، وقد أثار ذلك حقد العمال والفلاحين والجنود والمثقفين على الحكومة القيصرية وحفز الجماهير الى الثورة على الحرب وعلى النظام القيصرى ، بل لقد أخذ التـــذمر يتطرق الى قلوب البرجوازيين أنفسهم ٠

تذمر البرجوازيين

ضاق أصحاب المصانع وموردى الميرة الى الجيش ومن شاكلهم من الرأسماليين بهذه الحالة ذرعا وأخذ أقطاب الحرب يضـــجون ويرفعون أصواتهم بالتذمر منذرين بأن الوطن ينزلق الى الحضيض ، واجتمعت فى بطرسبرج أحزاب الطبقة ذات الملك من الأكتوبريين والتقدميين والكادت وأجمعت الرأى على وجوب انشاء لجان للحرب تتولى تعبئة قوى البـــلاد للصناعات الحربية اذ أنه ـ على قول الأمير لفوف ـ « يجب أن تصبح روسيا كلها منظمة عسكرية عظيمة ومصنعا حربيا مترامى الأطراف » ، ومن ثم جمعت فى العاصمة لجنة للحرب على المســـتوى الأعلى ، تهيمن على لجان الأقاليم ٠

كانت تلك اللجان وسط ذلك الخمول كأنها جزائر تضطرب بالنشاط السياسى ، وفيها كان المرء يستطيع أن يدلى بما يعن له من رأى دون خوف من الشرطة ، كانت أشبه شىء بنواة لحكومة قادمة ، وبمؤامرة حائزة لرضا القواد غرضها الحيلولة بين القيصرية وافساد ادارة الحرب ٠

ولكن الحكومة : الوزراء والمحافظين وكبار الموظفين وصغارهم والقانون، كل أولاء تألبوا على تلك الجماعات السياسية الصناعية وأثاروا عليها حربا أظهرت حيالها الحـكومة من العجز وقلة الـكفاية مثل ما أظهرت فى ادارة

الحرب العامة . وفتح (البلاط) مجاريه الخفية ففاضت على مراكز النشاط الوطنى هذه بسيول من البذاءات والاساءات ، وأبدت القيصرية الورعة حنقها على الدوما ، وأوحى اليها صفيها رسبوتين أنه يرى فى ذلك المجلس المسيخ الدجال ، فاتخذت أحزاب الأحرار من السفارتين البريطانية والفرنسية قلعتين تحميان مراكزهما .

وسأل الاشتراكيون البريطانيون والفرنسيون حكومتى لندن وباريس : أليس من الخير اثارة القوى التى تألبت على القيصرية فى سنة ١٩٠٥ لمحاربة ألمانيا الآن ؟ وأرسلت فرنسا الى بطرسبرج وزير الأعتدة الاشتراكى ألبير توماس فى صحبة رئيس الوزراء ڤيڤيانى لكى يفتش المصانع ويحفز عمالها الى مضاعفة الانتاج ، اذ أن روسيا كانت قاصرة عن تزويد المحاربين لا بوسائل القتال وحدها بل بالرغبة فى القتال أصلا ، ولهذا كان على فرنسا بعد أن أقرضت روسيا أموالها أن تقرضها اشتراكييها المسالمين أيضا ، ومن ثم رحل ألبير توماس ليمد يد المعونة الى جتشكوف من كبار أصحاب المصانع ورئيس حملة الأعتدة والذخائر .

وخطرت ببال جتشكوف لجنة التأمين الصحى وهى المنظمة العالمية الوحيدة التى كانت قد بقيت فى البلاد ، فدعاها أن ترسل مندوبين من قبلها يمثلون العمال فى لجنة الحرب ، فأجابت بأنها لم يفوض اليها البت فى أمثال هذه الشئون . ولهذا قام العمال فى المصانع بانتخاب مندوبيهم للمرة الأولى منذ سنة ١٩٠٥ . وأذكت تلك الحركة النار التى كانت قد أوشكت أن تخبو فى صدورهم ، وأمدت فصاحة كبار رجال الصناعة فى المسألة الوطنية الجماعات الصغيرة التي كانت لا تزال تعمل فى الخفاء بشىء من الحيوية والنشاط . وقد أعرض البلاشفة عن الانتخاب وخاض غماره المناشفة ومن اليهم ، بيد أن الكثيرين ممن فازوا فى الانتخاب أبوا أن يتصلوا بلجان الحرب .

مصرع رسبوتين

علا شأن رسبوتين فى القصر وانحط شأن القيصر لدى الطبقة البرجوازية ، وأخذت الشائعات ترقص حول التاج رقص الأشباح فى الليالى المشئومة وانثالت الأهاجى والشتائم على رأس الكسندرا فيودورفنا فدفنت رأسها فى حجر رسبوتين ٠

وبرح رسبوتين مخدع القيصرة فى قصر الشتاء الى مادبة الصيرفى مانس حيث كان يرقص قانصو أرباح الحرب لا الأشباح المشئومة ، وهناك عند ذلك الرجل الخير المعروف بوفرة ما بذل من المال والجهد لاصلاح الفتيات الساقطات وانتشالهن من وهدة الفساد كانت فتاة هيفاء مغرية من جورجيا تتذوق الخمر غير المقدسة وتسقى الشاربين ٠ وكان (ياور) صاحب الجلالة هو وروبنشتين الذى أغرم بالتعهد بأعمال الجيش وحاجياته ومطران بتروجراد وبروتوبوبوف وزير الداخلية والجنرال فويكوف يحتسون فى لذة ما فى الكئوس الذهبية ويتناقلون الحديث عن الأوقات العصيبة والصلح المنفرد وعن بهاء الأوتوقراطية الأبدى ويجدفون على لجان الحرب ويعبرون عن استيائهم مما تبديه الطبقات السفلى من جشع ٠

ومن هناك شخص رسبوتين الى قلعة بطرس وبولس ليقابل رئيس الوزراء شترمر ٠ وأتى الرجل المقدس ابنة حاكم ذلك الباستيل ليلا وكانت فى انتظاره ليخلصها من عذاب الجحيم ، وهذه الفتاة هى التى وثقت عرى الصداقة بينه وبين الدكتاتور شترمر الذى قصد هو اليه الآن لمباحثته فى مصير الدولة ٠

وكان القواد قد أحاطوا بالقيصر ولم يزالوا به حتى وقع — فى موهليف حيث نزل بها فترة قصيرة بمنأى عن صوت زوجته الحزين ونظراتها الطافحة باللوم والعتاب ، عهدا بعزل الدكتاتور شترمر عن منصبه ، فيممت القيصرة جلالته فى موهليف وقد استصحبت أطفالها وطفقت تنوح وتعول وأسلمته رسالة رسبوتين ولم يستطع القيصر أن يسترد اقالته لرئيس الوزراء بيد أنه أذعن لأسى زوجته فأعاد بروتوبوبوف وزيرا للداخلية ٠ وكان بروتوبوبوف ينتمى الى الأحرار ، وكان يهمس بأسرارهم الى رسبوتين ، ولذلك عبد له رسبوتين سبيل الرقى ٠

***

لقد كان يحنق البرجوازيين أن يسبقهم فى القصر وغد مثل رسبوتين فكانوا ينفسون عليه منزلته فيه وكانوا يكرهون منه ما يعلمون من تحبيذه لعقد الصلح ٠

وكانت فيلا الغادة الفاتنة صـــديقة الامير جبريل كنستنتينوفتش مسرحا لأحداث السياسة والخمر والهوى وكان أول انتصار للمختلفين اليها مصرع الدجال العربيد رسبوتين ٠

قتل رسبوتين فى ديسمبر ١٩١٦ فى دار الأمير يوسوبوف بمحضر رهط من الضباط الأرستقراطيين ٠ أراد مغتالوه أن ينقذوا من غوائله النظام الملكى وقد رأوه يورد القيصرة مورد الهلكة ورأوا نفوذه فى الأسرة المالكة أشبه شىء بالتنويم المغنـاطيسى فهو أقوى من أن ينجح فى أمره اقناعها بانتباذه ، فليس من الميسور القضاء على نفوذه الا بالقضـــاء على شخصه ، الا بقتله ، وناهيك بنظام لا ينقذه الا القتل ٠

ولكن القتل أيضا لم يتسن له أن ينقذ ذلك النظام لأن أوان الانقاذ كان قد انصرم ٠

وفى غمرة الحزن الشديد أسندت ألكسندرا فيودورفنا ونقـــولا رومانوف الى وزير الداخلية بروتوبوبوف ، أعز أصدقاء الشهيد ، سلطة مطلقة ، وكان الدكتاتور الجديد يتكهن دائما بأحدث أخبار العـالم الآخر حيث يتنقل ولى الله الشهيد بين جماعة القديسين ليقص عليهم مآثر آل رومانوف ٠ لقد كان بروتوبوبوف يشكو أعصابه المضطربة وكانت تزوره الأرواح فينقل ايحاءاتها الى القيصرين ٠ وذكر السفير الفرنسى أن ذلك الدكتاتور الروحانى جثا مرة بين يدى القيصرة وهو يصيح « آه ياصاحبة الجلالة لقد رأيت خلفك يسوع المسيح » ٠

وقد انتهت شرور رسبوتين بمقتله ، أما شرور نقولا فظلت باقية ٠

اخفاق الانقلاب من الأعلى

كان البرجوازيون يرون فى جلاء عجز الحكومة القيصرية فيخشون ألا يجد القيصر سبيلا الى الخلاص من ورطته غير الصلح الذى يحرمهم أرباح الحرب ٠

وزين لزعماء الكادت والأكتوبريين والتقدميين أن يقوموا بانقلاب من الاعلى يبدأ على الفور وينتهى مثل خطف البرق ٠ وكان من قواد الجيش فريق يظاهرونهم ويبدون استعدادهم لاعتقال القيصر والقيصرة ، بل لقد كان فى الدوقات العظام من يظاهرون هذه الحركة ، فقد عرض أبناء الغرندوقة ماريا بفلوفنا الثلاثة : سيريل وبوريس وأندريف أن يقوموا على رأس ثلاث فرق regiments من الحرس بمحاصرة قصر الصيف Tsarskoye Selo ليلا وأن ينادوا بولى العهد ألكسيس قيصرا ٠ وكان البرجوازيون يؤثرون أن يخلف القيصر أخوه الغرندوق ميشيل وكان على صلات حسنة بهم ، وبذلك يضربون عصفورين بحجر واحد :

١ ــ فيستولون على السلطة ويضمنون مواصلة الحرب ٠

٢ ــ ويحولون فى الوقت نفسه دون انبعاث ثورة شعبية ٠

وهكذا بدأت ارهاصات الثورة فى قصور السراة المتلألئة بالأنوار لا فى الأركان المعتمة التى ظل الثوار عشرات السنين يحوكون فيها ائتماراتهم ٠ اما الاشتراكيون فلم يكن من الميسور لهم أن يلاوصوا من ثقوب المفاتيح فى أبواب غرف الحكم المطلق ، وكان حديثهم عن الثورة فى ذلك العهد أقل من ذى قبل ٠ وقد تذاكر كرنسكى وأصدقاؤه الأمور فى صباح يوم الثورة فأجمعوا الرأى على أنه لا محل فى ذلك الوقت للكلام فى قيام الثورة ٠

لقد أخفق البرجوازيون فى أن يحلوا أزمة القيصرية باجراء يتخذ فى القصر palace coup فحلها الشعب بطريقته ٠

نجاح الثورة من الأسفل

ما فتىء البناء الاقتصادى فى روسيا يتصدع حتى أوشك أن يتقوض، وبلغ الخلل أقصاه فى مطلع سنة ١٩١٧ فارتبكت وسائل النقل وتعطلت قطر السكة الحديدية عن امداد العاصمة بحاجتها من الطعام والوقود فى ذلك البرد القارس ، فاذا المخابز تعـــدم الدقيق وربات البيوت يعدمن الخبز ، فتطاير الفزع فى كل مكان وانتشرت الشوائع أيما انتشار وغدا الجياع الشاحبة وجوههم ينظر بعضهم الى بعض جزعين مما قد يأتى به الغد ٠

وأعلن العمال أنهم لن يعملوا ما لم يحصلوا على الخبز وغشيت البلاد اضرابات هائلة ولكن الاضرابات أيضا لم تأت بالطعام ، فهجمت الجماهير على المخابز وأعملت فيها يد التحطيم والاخراب ، ولكن ذلك أيضا لم يملأ بطونهم ولم يسكت جوعتهم ٠

وأخذت المصانع تغلق أبوابها واحدا بعد واحد وزاد ذلك من عدد المتعطلين ومن عدد الذين يؤمنون أنه لا منجى من هذا الشقاء الا بقلب نظام الحكم ٠

وأصدرت احدى لجان البلاشفة نداء الى النســاء طالع النساء فيه أفكارهن التى كانت تجول فى أذهانهن « متى تنتهى كل مروعات الحرب؟٠٠ عندما يثور الشعب كله ويقلب الحكومة القيصرية ٠٠٠ » ، وكان ذلك أول اطلاق للمدفعية الكلامية ، وان هناك لأوقاتا تبز فيها مدافع الكلام مدافع الحديد والنار ، فقد سارت النساء فى يوم المرأة الدولى فى ٢٣ فبراير فى موكب حافل يندد بالحرب والمجاعة والقيصرية ، وأيد العمال مظاهرة العاملات باضراب عام شمل المدينة جمعاء ٠ ولم يمض على ذلك يومان حتى كانت الحركة الثورية قد انتظمت عمال پتروجراد قاطبة فساروا رافعين أعلاما ولافتات كتب فيها « ليسقط القيصر !» «لتسقط الحرب !» « الينا بالخبز ! » ، واصطدم المتظـاهرون فى بعض النواحى برجال الشرطة ثم ارتدت تلك المصادمات لباس ثورة عامة فنزع الشعب سلاح الشرطة وجنود النظام (الجندرمة) وتسلح هو به ٠

وكان بروتوبوبوف قد أصـــبح لا يثق بجنـــود الجيش المرابطين بالعاصمة فأبرق الى الجبهة يستدعى على عجل كتائب القوزاق المسلمين ٠

وأصدر القيصر فى ٢٥ فبراير ١٩١٧ أمرا الى الجنرال خابالوف جاء فيه « انى آمرك أن تضع قبل نهاية غد نهاية لهذه الفوضى التى تسود العاصمة » ولكن الوقت الصالح لانهاء الفوضى كان قد فات ، اذ أن الجيش الذى كان مواليا للقيصرية سنة ١٩٠٥ قد تمرد عليها الآن وأصبح لا يرى معنى أن يلطخ أيديه بدم الشعب على قوارع الطرقات ٠
وفى ٢٦ فبراير أطلقت فصيلة من الجند نيرانها ، لا على العمال بل على شراذم من الشرطة وجنود النظام كانت تناوش العمال ٠

وأذاع مكتب اللجنة المركزية للحزب البلشفى فى بتروجراد، برياسة مولوتوف ، فى اليوم نفسه نداء بمتابعة القتال لاسقاط القيصر وتكوين حكومة موقتة ٠ واندفعت النساء الى جنود الجيش يدعونهم الى المؤازرة فى اسقاط الحكومة القيصرية البغيضة ، فلم تغرب شمس ٢٧ فبراير حتى كان ٦٠٫٠٠٠ منهم قد انحازوا الى جانب الشعب ٠ وطفق الجنود والعمال يعتقلون القواد والوزراء ويطلقون الثوريين السجناء ٠

وألفى القيصر نفسه وحيدا وأيقن أن قد ولى زمانه فاعتزل الحكم فى الأسبوع الثانى من مارس ١٩١٧ على أن يخلفه أخوه الغرندوق ميشيل رومانوف ، ولكن الأمور كانت قد بلغت مبلغا لا يدع مجالا لأن يتولى الحكم أى واحد من آل رومانوف ٠

وهكذا انتصرت الثورة البرجوازية الديمقراطية ، انتصرت على أيدى العمال الاشتراكيين لا على أيدى البرجوازيين الديمقراطيين ٠

السوفيت

ويرجع بعض الفضل فى هذا النجاح الى الثورة الاولى سنة ١٩٠٥ فهى التى أظهرت ما للسوفيتات من خطر فى انشاب الثورات وفى توجيهها واذكاء جذوتها ٠ ولم تكن السوفيتات فى سنة ١٩٠٥ تنتظم غير مندوبى الطبقة العاملة فأصبحت فى سنة ١٩١٧تشمل مندوبى العمال والجنود معا٠

وقد كان زعماء الحزب البلشفى ، الذى أثار الثورة على الرغم من الاشتراكيين الثوريين والمناشفة ، منفيين فى سيبيريا أو مبعدين خـارج البـــلاد ، ولهذا فاز الاشتراكيون الثوريون والمناشفة بكثرة المقاعد فى السوفيتات وفى لجانها التنفيذية(١) •

وبما أن هؤلاء كانوا يرون أن أزمة الحكم فى أثناء الثورة البرجوازية يجب أن تكون بأيدى البرجوازيين فقد زعموا أن الثورة انتهت فأصبح من الواجب اعادة الحياة الدستورية الى البلاد •

وباعتزال القيصر الحكم ، وهو مصدر السلطات جميعا ، خلت البلاد من مصدر للسلطات ، فاشرأبت الاعناق نحو الدوما الرابعة (٢) فى انتظار أن تعين حكومة موقتة •

وقد أقام الأعضاء الأحرار بالدوما فى ٢٧ فبراير ١٩١٧ ــ بعد أن تذاكروا فى ذلك هم والاشـــتراكيون الثوريون والمناشفة ــ لجنة موقتة برآسة ردزينكو رئيس الدوما ومن كبار الملاك وأنصار الحكم الملكى •

على أن الذين بيدهم مقاليد الامور فى بتروجراد كانت تطيب نفوسهم بتنفيذ أوامر السوفيت دون الدوما ، فما هى الا أيام حتى اضطرت تلك اللجنة الى أن تقيم بالاتفـاق مع زعماء السوفيتات حكومة موقتة برياسة الأمير لفوف (٣) الذى كان القيصر قبيل ثورة فبراير على وشك أن يدعوه لتأليف الوزارة •

وهكذا حالفت دكتاتورية البرولتاريا الممثلة فى السوفيت دكتاتورية البرجوازيين الممثلة فى الدوما • وكان طبيعيا ألا يدوم هذا التحالف وأن يستأثر أحد الفريقين بالسلطة ولا سيما أن الحوادث كانت تقتضى تجميع القوة فى سلطة واحدة • ولقد كان فى يد الدوما أوزاق حسنة تقيض لها

---

(١) وقد ساعد على ذلك أن الطبقة العاملة كانت قد عرتها تغيرات كبيرة ، فقـه جند ٤٠ فى المئة منها فى الجيش وحل محلهم فى المصانع من يبتغون الهرب من الخدمة العسكرية من جماعة الصناع اليدويين والباعة وصغار الملاك ، ممن لم تكن أذهانهم قـــد أشربت التفكير العمالى •

(٢) مع أنها انتخبت بمقتضى قانون انتخاب مجحف ولم تكن تمثل أبناء البلاد باية حال •

(٣) وكان بين أعضائها البارزين من ممثلى الطبقة الراسمالية جتشكوف زعيم الاكتوبريين وكرنسكى من الاشتراكيين الثوريين ومليوكوف زعيم الدستوريين الديمقراطيين ومن أشد الاستعماريين صلابة وعنادا .

الفوز لو أنها أحسنت اللعب بها ، فقد كان السوفيت ، وعؤلاء أعضاؤه ، راغبا عن مغالبة الدوما ، زاهدا في الاضطلاع بتبعات الحكم ، فلو برز في الدوما شخص ذو بأس وحنكة فأعلن أنه سيضع حدا للحرب لدانت له البلاد ، غير أن الجماعتين اللتين تتعاوران السلطة لم تفكر كلتاهما في أن تمنح الشعب الطلبة الوحيدة التي طال نشدانه اياها ألا وهي السلام ، وبذلك سنحت بين يدي البلاشـــفة فرصة لاختطاف الغنيمة من الفئتين المتخاصمتين ٠

كانت الحالة في تلك الايام عجيبة معقدة ، فقد قطعت السوفيتــات على نفسها عهدا بمؤازرة الحكومة الموقتة ، وقابلت الحكومة ذلك برفع أجور العمال وخفض ساعات العمل اليومي الى ثمان ٠ وكان ســـــوفيت بتروجراد الذي دانت لسلطانه البلاد بأكملها ، متأثرا بنفـوذ الزعيمين المنشفيين تسرتلي ودان ، وكانا مع مناشدتهما الجنـــود أن يدافعـــو عن الثورة في وجوه الالمان ، يشجعان على انتخاب المنظمات الشعبية الثـورية التي تحمل طابع النظام الثنائي في وحدات الجيش كبيرها وصغيرها ٠

أما البلاشفة الذين ضمهم سوفيت بتروجراد فقد دفعهم كمنف ، قبيل عودة لنين ، الى سياسة واسطة لا تجاوز سياسة يساريي المناشفة الا قليلا ، ففيها تعاون مع المناشفة وتأييد للحكومة الموقتة ومعاضدة لسياستها في «الذياد عن الثورة» في وجه ألمانيا ، وحجتهم في ذلك أن الحرب التي كانت قبل الثورة خطأ لأنها كانت استعمارية غدت بعد الثـورة صوابا لأنهـــا صارت حرب الديمقراطية على الاستعمار ٠ وقـــد أقر ســتالين وميرانوف(١) هذه السياسة عند عودتهما من منفاهما ، ولم يناد من بين البلاشفة بالآراء التي كان يذهب اليها لنين ، دون اتصال به أو ســماع بآرائه ، الاسفردلوف ولكنه هبط الاورال في عودته من سيبيريا ليقـــوم بتنظيم كفاح المعدنين هناك ، فلم يبلغ بطرسبرج الا في أواخر أبريل ، فاستمر البلاشفة في مهادنة الحكومة الموقتة حتى عاد لنين من المنفى ٠

---

(١) أحد أعضاء الدوما الخمسة الذين نفوا الى سيبيريا ٠

المآب الى الوطن

كان حبل الصلة بين لنين وبلاده مبتوتا ، فلم يستطع على بعد نظره وصدق حكمه أن يحزر يوم اندلاع الثورة التى كان يعلم أنها لا بد آتية • ولم يكن يدور بخلده في أوائل سنة ١٩١٧ أنه سيتربع بعد أشــهر على عرش رومانوف ويحكم أضخم دول الارض ، فان صـــحف سويسرا قلما كانت تنشر شيئا عن الاحوال فى روسيا وكانت صحف الحلفاء لا تنشر عنها شيئا البتة • ولا ريب أن الذين كانوا يقتصرون فى استقاء معلوماتهم على ما تنشره صحف الحلفاء قد وقعت عليهم أخبار ثورة فبراير وقع القنبلة

لم يملك لنين حين طرقت مسمعه أنباء الثورة أن هرول يبتاع صحيفة واذا هو يرى فيها : لجنة تنفيذية من ١٢ عضوا من أعضاء الدوما تقبض على أزمة السلطة • جميع الوزراء قد ألقى بهــم فى السجن • الحكومة الموقتة ترحب فى سرور بأوبة كل الذين عنتوا وأوذوا فى سبيل بلادهــم سواء المنفيون والسجناء •

وقد بلغ منه التوق الى العودة كل مبلغ ، ولكن عودته لم تكن بالامر اليسير • أجل ، لقد صرحت وزارة الخارجية ، تلبية لطلب السوفيتات ، بأنها تطلق للمهاجرين جميعا حرية العود ، ولكنها أنهت الى الحلفاء أنهم لو استطاعوا أن يحولوا دون عودة الدوليين لطابت هى بذلك نفسا • وكان الحلفاء لايزالون يأملون أن يواصـــلوا حفز الجيش الروسى الى متابعـــة الحرب ، فلم يكن من الخير لهم أن يعود الى روسيا أولئك المهيجون الذين يدعون الى الســلام فيزيدون ما عرا البــلاد من تفكك وبلبــلة ، ولذلك لم يسمحوا لأكثر من ١٥٠ مهاجرا روسيا من الخمسمئة المشتتين فى بلاد هلفتسيا(١) بأن يعودوا الى وطنهم •

كان لنين كالذى يلم به كابوس ، فهو يريد أن يجأر مستغيثا ولكن صوته لا يطيعه ، كان جياش الرغبة فى شـــهود الحوادث عيانا وكان للسرعة فى العودة عنده المكان الأول ، يزيد فى قلقه ونفاد صبره خشيته أن يسبقه الى روسيا ترتسكى الذى وجدته الحرب فى مخيم الاعتقال فى

---

(١) Helvetia هو الاسم التاريخى لسويسرا •

قرية من كندا· وأخذ لنين يقلب وجوه الرأى كيف يعود . فجرى بباله أول الأمر أن يسلك طريق فرنسا فانجلترا فهولاندا بجواز صديق له يشبهه بعض الشبه على أن يزيد ما بينهما من تشابه باتخاذ شعر مستعار وعلى أن يتنكب هذا الصديق عن الظهور فى برن حتى يبلغ هو مأمنه ثم جرى بباله أن يسافر بجواز سويدى على أن يتصامم عن الحديث سترا لجهله بالسويدية ، وكان ذلك أحرى أن يعرضه للافتضاح ويفضى به الى المحبس حتى آخر الحرب فتفلت من يديه فرصة صنع التاريخ ·

لم يكن أمام لنين من سبيل الى بلاده الا اختراق بلاد أحد الفريقين المتحاربين ، واذ كان الحلفاء غير راضين عن عودته لم يبق أمامه الا طريق ألمانيا ، واذ كانت عودة المجاهدين المهاجرين تسوء الحلفاء فمن الطبيعى أن تسر الألمان(١)

وقد كان يدرك أن اجتيازه ألمانيا اذ ذاك واطلاق النمسا له من محبسه فى أول الامر سيفتحان لخصومه باب التقول عليه واتهامه بأنه أجير الألمان(٢) ، غير أن ذلك لم يقعده عما اعتزم ، فقد آثر أن يرمى بكل ما يمكن أن يرمى به من تهم على القناعة بأن يكون بمنأى عن بلاده فى اللحظة التى يتقرر فيها مصيرها · الا أنه اتخذ كل ما استطاع من حيطة لدرء تلك التهمة ، فأوفد لمفاوضة الحكومة الألمانية صديقين له من الاشتراكيين السويسريين لا يقوى خصومه على أن يقصدوا اليهما بقول (٣) واشترط على الحكومة الالمانية أن يباح له ولمن معه أن يحملوا معهم مايشاءون من الوثائق والرسائل دون أن يخضعوا لرقابة ودون أن يباح لأحد أن يدخل الى مركبة القطار التى تقلهم أو أن يبرحها داخل الاراضى الالمانية ، وحمل معه وثيقة تثبت أنه لم يلتزم لألمانيا ـ فى مقابل اجازتها له ولزملائه أن يجتازوا

---

(١) وقد رضيت جماعة أركان الحرب الالمانية بعودتهم متوقعة أن تجنى من وراء ذلك نفعا كبيرا · وقد برهنت الاحداث على أن لنين كان أبعد من لودندرف نظرا ·

(٢) كما هو دأب الناس فى مثل هذه الاحوال ، فقد كان الكثير من سكان لندن أيام الثورة الانجليزية يزعمون أن تلك الثورة ان هى الا دسيسة اسبانية ، وكان الكسالى فى فرساى يصمون الثورة الفرنسية بأنها مؤامرة انجليزية ، وكانت الجمهورية الثالثة فى رأى الكثيرين بيدقا فى شطرنج بسمارك ·

(٣) وهما Robert Grimm and Fritz Pietten وقد قاما بالمفاوضة واحدا بعد الآخر ، كما أن مفاوضة الحكومة النمسوية فى اطلاق سراحه عند نشوب الحرب قام بها كذلك رجال لهم مكانتهم فى الحركة الاشتراكية مثل فكتور آدلر Adler كما أسلفنا .

بلادها ــ بشيء الا أن يخلي سبيل عدد من الألمان المحبوسين في روسيا يماثل عدد المهاجرين الذين تتيح لهم ألمانيا أن يجتازوها الى بلادهم (١) ٠

وظعن لنين في ٢٦ مارس ومعه ٢٩ من صحبه فبلغوا بتروجراد مساء ٣ أبريل ١٩١٧ (٢)

كان لنين يتوقع أن تقبض الحكومة عليه هو ومن معه عند بلوغهم أرض الوطن وأن تزج بهم في قلعة بطرس وبولس ، وكان لهذا التوقع ما يسوغه ، اذ أنه لم يكن قد أعلن موقفه ازاء الحربين العامة والأهلية ٠

ولو أنه كان في الحكومة الموقتة رجل على شاكلة نسكه لما توانى أن يفعل ولكنه لم يكن فيها مثله ٠ وقد أطمع مسلك كمنف وستالين الودى نحو الحكومة الموقتة شخايدزه زعيم سوڤيت بتروجراد في اقناع لنين أيضا بمؤازرتها في حياطة الثورة ، واذن يكون من خطل الرأى أن يجعل من لنين شهيدا ، ذلك الى أنه كان من العسير على الحكومة وهي تتشدق بالحرية أن تأبى عودة هؤلاء الذين شردوا لمقاومتهم النظام القيصرى ٠

هبط لنين من القطار في ملابسه المهلهلة فقوبل على نحو يختلف كثيرا عما كان يعهده فيما غبر حين كان زملاؤه يشفقون أن يذهبوا لملاقاته فيسترعوا انتباه الشرطة اليهم واليه ٠ لقد ألفى ألوفا من العمال والجنود والبحارة محتشدين في محطة سكة حديد فنلاندا وفي ميدان المحطة لتحيته والترحيب به ، واحتواه الزحام حتى لم يستطع حراكا الا عندما شق له الجند طريقه ٠ كان يوما مشهودا (٣) ، بيد أن هذا الترحيب الفخم الذى قوبل به على أنه زعيم من زعماء الأحزاب الثورية الثلاثة وأحد الذين يحتلون في الدولة مكانة بارزة لم يكن يعنى الترحيب بنظرته الى الحرب ، اذ كان الناس في روسيا لا يعلمون شيئا من آرائه في الحالة بعد أن أصبحت روسيا ــ في وهمهم ــ « أكثر ديمقراطيات العالم حرية »

هبط من القطار غير مسلح بمسدس أو قنبلة بل مسلحا بشيء كان أفعل أثرا وأشد وقعا ، ذلك هو رأيه في الحرب ، فقد كان زملاءه في روسيا قد استخفهم الفرح لما تم أما هو فكان مهتما لما يجب أن يتم ٠

---

(١) وقد نشرت صحيفة برافدا تلك الوثيقة في ١٨ مايو ٠

(٢) وكان بلخنوف قد سبقهم بـ ٣ أيام اذ سافر هو و ٤٠ من مواطنيه على نهر مدرعة بريطانية تحف بها قوارب الطوربيد ٠

(٣) يوم مشهود : يجتمع فيه الناس لأمر ذى شأن ٠

هبط من القطار فتعالى هتاف الجماهير له وحملوه على الأعناق الى كبرى حجرات الانتظار وهي التي كانت مخصصة للقيصر ، وقدم له ثوروشيلوف طاقة من الورود ، ورحب به شخايدزه باسم المناشفة وخطب بين يديه قائلا « باسم السوفيتات ٠٠ باسم الثورة كلها ٠٠ نحييك ٠٠ ولكننا ٠٠ نعد الواجب الاول على الديمقراطية الثورية في الوقت الراهن أن تذود عن ثورتنا كل هجوم من الداخل أو الخارج ٠٠ واننا لنأمل أن تعاضدنا في تحقيق هذا الغرض » وأبدى ما كان يخالجه من أمل في أن يجدوا جميعا « لغة مشتركة يتفاهمون بها فيما بينهم »

لم يكن لنين قد خطب مرة في مئة مجتمعين ، بل كان يتنقل بين زمر معاونيه وليس فيها من تتجاوز العشرة أو العشرين عدا ، ولكنه ــ وقد سمع ما سمع ــ لم يذرف عبرة واحدة تأثرا بتلك العواطف الجياشة نحوه ولم يصغ طويلا الى الخطيب الذى كان يطنب في تمجيده والاشادة بمحامده ، بل أولاه ظهره واتجه الى جماهير الجنود والعمال فانطلق ينثر عليهم كلمات مما كان يدبجه في سويسرا كأنما هو قد ظل ثلاث سنوات يعمل في اعدادها لهذا المقام :

« أيها الجنود ٠ أيها الملاحون ٠ أيها العمال ٠٠ انني أرى فيكم طلائع جيش الطبقة العاملة ٠٠ ان حرب النهب والسلب الاستعمارية تتبع في كل مكان بحرب أهلية ٠٠ واننا لنشهد الآن فجر الثورة العالمية ٠٠ » وحمل في عرض خطابه على الحكومة وقال : « الشعب بحاجة الى السلام ٠ الشعب بحاجة الى الخبز ، الشعب بحاجة الى الارض ، ولكنهم لا يعطونكم السلام والخبز ، بل يعطونكم الحرب والجوع ويدعون الاراضي لسادة الأراضي » ٠

كان لنين هو السياسي الوحيد الذى وعد بالسلام وعدا قاطعا بريئا من اللبس والغموض وأهوى بضربة قاضية على كل تلك الاحاديث الرنانة في «الذياد عن الثورة» التي كان يتشدق بها الجميع ٠ وقد كان الجنود يمقتون الحرب ويتوقون الى السلام ، ومن ثم أصبح لنين بطل الجنود ، فأقلوه على متن سيارة مصفحة طفقت تجوب به الطرقات ليخطب في الجماهير بعد غيبته عنهم سنوات في المنفى ، وكانت تصحبهم جوقة موسيقية تعزف بين كل خطبة وأخرى ٠

وانتهى به التجوال بعد ساعة الى حيث أقام البلاشفة مقر قيادتهم ،

الى قصر متلده كشسنسكا(١) حظية القيصر ، فولجه واستمع هنيهة الى ما كانوا يزجونه من كلمـــات الترحيب ثم نهض فاشرأبت نحوه الاعناق واحتبست الأنفاس لالتقاط ما ينثره من عبـارات الحمد والثناء ، بيد أنه لم يقرظهم بالعبارات التقليدية التى تنتظر فى مثل ذلك المقام ، بل انهال على مكرميه تثريبـا وتقريعا وعابهم بأنهم أفسدوا فى غيبته كل شىء ، وهكذا كان كما عهـــدناه يصب أولى غاراته الضروس على معـــاونيه من البلاشفة • لقد كان من الضرورى أن يتبينوا الحالة فى جلاء وأن يفهموا الامور فهما صحيحا فى ضوء المبادىء الماركسية وأن يدركوا أن سوفييت مندوبى العمال والجنود أجدى على العمال من البرلمان الديمقراطى ، لذلك صاح بهم :

« اننا فى غير حاجة الى أية جمهورية برلمـانية ، فى غير حاجة الى ديمقراطية برجوازية ، فى غير حاجة الى أية حكومة الا سوفييتات مندوبى العمال والجنود »

---

(١) عندما انصرف نقولا الثانى عن هذه الراقصة اللعوب الى الكسندرا فيـودورفنا وصديقها وسبوتين ، حل محله عندها الغرندوق سـيرجى ميخايلوفتش رئيس ادارة صـناعة الاسـلحة ، ولم يكن شـأن تلك الغـانية الهلوك مقصورا على اتهـــا نديمة أنيســـة تعـاطى الـكثيرين كؤوس الهـــوى بل لقـــد كانت كذلك تمثل بعض مصانع الاسلحة . وكان مصنع كريزو للحديد ينفحها فى كل عام بمكافأة مالية سخية ، وكانت كذلك تتوسط لدى أولى الحل والربط فى وزارة الحربيـــة فيعفون من الخدمة العسكرية من يدفع ثمن هذا الاعفاء من الشبان •

وكانت دار هذه الراقصة أول دار هاجمها البلاشفة فاستصفوها واتخـذوها مقرا لهم ، مبتغين بذلك تعويد الشعب استصفاء الممتلكات وافهامه أن الاثرياء انما يجمعون ثرواتهم من مثل السبل التى سلكتها هذه الغانية •

وقد عجزت الحكومة عن حماية هذا الملك الخاص ، بل لقد سر الكثيرين من انصار الملكية الخاصة أنفسهم ما أصاب تلك المرأة . ولطالما انتابت الناس فى أثناء الثورات نوبات من الذود عن الفضيلة ، ولطالما صب أبناء الطبقة الخادمة وبناتها جام حقدهم على أمثال تلك الحظية ، وقد كان قصر الصيف الذى للحظايا courtesanes فى فرنسا أول ما هوجم واقتحم بعد الباستيل • وعندما طلب المدعى العام للثورة الفرنسية فوكيه تنفيل في ١٦ برمير رأس جان قوبرنييه زوجة المواطن دو بارى كان في طلبه هذا يعبر عن رغبات الفقراء المجروحى العزة .

وكان من مزايا قصر كشسنسكا أن به شرفة صالحة جد الصلاحية لأن يخطب المرء منها فى جماهير غفيرة فى الهواء الطليق .

مقالة أبريل

ما أصبح لنين حتى تلا على زعماء البلاشفة بيانا عن الحرب والثورة ، ثم ألقى فحواه في اجتماع من البلاشفة وغيرهم من الفرق الاشتراكية الديمقراطية ثم نشره في البرافدا . وقد أوضح في ذلك البيان المعروف باسم مقالة أبريل ان ثورة الروس لم تجرد الحرب من خصائصها الاستعمارية وأن شعار « الذياد عن الثورة في وجه الألمان » شعار زائف ، ثم أخذ يشرح كيف تنقل الثورة من مرحلتها الاولى « التي هي ـ نظرا لقصور الوعي الطبقي وقلة كفاية المنظمات العاملية ـ قد ألقت مقاليد السلطة الى أيدي البرجوازيين » الى المرحلة التالية « التي يجب أن تضع السلطة في أيدي الطبقة العاملة وأيدي أشد مراتب الفلاحين فقرا »(١)

لقد كان في سنة ١٩٠٥ ذكر في كتابه « خطتان للاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية » أن الطبقة العاملة ستتبع ازالة الحكم القيصري باحلال النظام الاشتراكي مكانه ، أما الجديد في مقالة أبريل فهو أنه رسم فيها خطة واضحة لبدء مرحلة الانتقال من الثورة الديمقراطية الى الثورة الاشتراكية . فاقترح فيما يتصل بالشئون الاقتصادية : استصفاء المزارع الكبيرة وتأميم الاراضي وادماج جميع المصارف المالية في مصرف قومي واحد يشرف عليه سوفييت مندوبي العمال ، واقامة رقابة على انتاج السلع وتوزيعها ، واقترح فيما يتصل بالشئون السياسية الانتقال بالبلاد من الجمهورية البرلمانية (٢) الى الجمهورية السوفيتية .

وطلب لنين الى الحزب أن ينضو عنه «القميص القذر» يعني به اسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، ذلك الاسم الذي لوثه النفعيون خونة الاشتراكيين والذي يظل المناشفة وأحزاب الدولية الثانية ، واقترح أن

---

(١) وكتب في صحيفة برافدا يؤكد هذا المعنى فقال : « ان الثورة التي حدثت ان هي الا نصف ثورة ، وليس واجبنا في المراحل الباقية أن نؤازر الحكومة المؤقتة (البرجوازية) المؤسسة على الانتخاب البرلماني وأن نعاونها على أن تصير حكومة دائمة ، بل هو أن نزيد في سلطان السوفيتات لتصبح هي الحكومة المؤقتة » .

(٢) وقد كان واضعو النظريات من الماركسيين يعدون أن الجمهورية البرلمانية هي خير شكل سياسي يمهد للانتقال الى النظام الاشتراكي .

يسمى بالحزب «الشيوعى» Communist وهو الاسم الذى أطلقه ماركس وانجلز على بيانهما ، وهو اسم صحيح من الوجهة العلمية اذ الغرض النهائى للحزب البلشفى هو احلال النظام الشيوعى وشعاره « من كل امرىء قدر طاقته ولدى امرىء قدر حاجته» (١) وان لم يكن ثم غنى عن اللبث بعض حين تحت لواء الاشتراكية وهى التملك المشترك لوسائل الانتاج مع توزيع المنتجات على مقدار العمل الذى ينجزه كل امرىء على حدة ٠

كان لهذا البرنامج بين الجماهير دوى كقصف الرعد ٠ وقد فوجىء به البلاشفة أنفسهم ، فمنهم من وافق عليه على الفور مثل ستالين ومنهم من عارضه مثل كمنف وريكوف وبياتكوف

ومكث لنين أياما يخطب فى الجماهير من شرفة قصر كشسنسكا ويكتب فى البرافدا ، ولم يجد من يروج لبرنامجه بين الجماهير غير أنستازيا كلنتاى وقد لاقت من جراء ذلك حملات عنيفة من الصحافة غير البلشفية ٠ ولم تفىء المعارضة فى داخل الحزب الى آراء لنين الا فى مؤتمر عقده البلاشفة بپتروجراد فى ١٤ ابريل واتخذوا فيه مبادىء لنين عقيدة رسمية لهم ٠

ولئن كان برنامج لنين قد أحدث كل هذا الأثر فى البلاشفة ، ان فى استطاعتنا أن نتصور كيف انقض انقضاضا على أولئك الساسة الذين كانوا يعيشون فى فردوس البله غافلين عن الحقائق ٠ لقد انتبهوا الآن من غفلتهم منزعجين فاذا هذا الطفيلى الذى قدم من خارج يثير فضيحة شعبية يوشك أن يفسد بها جهود زعماء السوفييت فى تسكين جاش الشعب وصرفه عن « السلام » الذى ثار من أجله ٠

أذاع المناشفة على العمال بيانا استهلوه بقولهم «ان الثورة فى خطر» والخطر الذى يشيرون اليه هو مطالبة البلاشفة للسوفيتات أن تنفرد بالسلطة ٠

ونشر پلخنوف مقالا فى صحيفة Yedinstvo أى «الاتحاد» وصف فيه خطاب لنين بأنه « خطاب مخبول هاذ » واقتبس فيه كلمة المنشفى شخايدزه « سيظل لنين وحده خارج نطاق الثورة على حين أنا نحن فى

---

(١) روى عن عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبة له : « الرجل وبلاؤه والرجل وحاجته » يعنى أنه ينبغى على كل امرىء أن يعمل قدر ما يستطيع وينبغى له ان ينال من الأشياء ما هو فى حاجة اليه ٠

طريقنا ماضين " • وكتبت صحيفة الكادت تقول " لقد كان لنين يبدو في البعد كابي الهول وكان لطيفه الظلي • ، " اذ في ضوء القمر فتنة وجاذبية لبعض الناس ، أما الآن فيستطيع كل امرىء أن يتبينه على حقيقته في وضح النهار فهو عدو نفسه " • وصرح الاشتراكيون الثوريون بأن الحكومة أخطأت اذ أقامت في سبيل عودته العراقيل فليس في بتروجراد من هو أهون منه خطرا

الحكومة الموقتة

وغرت صدور السادة الجدد في روسيا وحرقوا الارم لما تبينوا في لنين مادة تختلف كثيرا عن تلك التي قد منها غيره من زعماء البلاشفة • لقد كان هذا الشيطان يؤجج الثورة التي يبذلون جهدهم لتسكينها وكان يفضح ألاعيبهم ويتخذ من أعمالهم مصداقا لما يذهب اليه ، فقد كانت الحكومة الموقتة لا تعمل للسلام بل للحرب ولا تطعم الشعب بل تجيعه ، لا تعمل للسلام لئلا تخسر عطف الاستعماريين البريطانيين والفرنسيين ، ولا تطعم الشعب لأنها لا تريد أن تضرب على أيدى منتجي الغلال وتجارها فتخسر في سبيل توفير الطعام للطبقة العاملة معاضدة الطبقة التي تركن هي اليها •

وقد ظل الشعب فترة غير قصيرة مخدوعا بسياسة الحكومة الموقتة التي بلغ بها الأمر أن حاولت اظلال الحكم الملكي بحمايتها(١) • وأخذت تلك الحكومة في بادىء الأمر تعمل خفية لشل الثورة ثم تورطت في مهاجمة حريات الكلام والكتابة والاجتماع والتظاهر وذلك بحجة ضبط النظام وكانت بذلك تدفع الثورة في السبيل التي توفر الارباح للبرجوازية ، ولكن الشعب أصر على الاستمساك بهذه الحريات "الديمقراطية" • وأخذت

(١) فقد ندبت جتشكوف وشاجن في ٢ مارس ١٩١٧ لمقابلة القيصر سرا • وهتف جتشكوف مرة بحياة القيصر ميشيل شقيق القيصر السابق ، فاستفز عمال سكة الحديد الذين كان يخطبهم فطلبوا القبض عليه والفحص عن أمره •

مبادىء لنين تنتشر حثيثا بين الجماهير ، وزاد من سرعة انتشارها جفاء مسلك الحكومة ٠

فقد أرسل وزير الخارجية مليوكوف فى ١٨ أبريل رسالة الى الحلفاء يبلغهم فيها « أن الشعب كله يرغب فى متابعة الحرب العالمية حتى يكون نصر حاسم ، وأن الحكومة الموقتة تزمع فى غير تردد أن تضطلع بالالتزامات التى آلينا على أنفسنا أن نفى بها لحلفائنا » ٠

ثارت ثائرة الجنود حين علموا بهذه الرسالة التى تنطوى على الولاء لمعاهدات القيصر والوعد بأن يسفك من دماء الشعب قدر ما يحتاج اليه الاستعماريون للظفر بـ « الختام المؤزر » وتظاهروا فى الطرقات ـ دون تحريض من البلاشفة ـ منادين بسقوط مليوكوف عدو الثورة ، وأصبح قسم مطرد الازدياد من الجمهور ينظر الى لنين نظرهم الى زعيمهم الأمين الذى يعدهم السلام ، فارتفعت مكانته وقوى بأسه حتى ألفت الحكومة نفسها اذ ذاك عاجزة عن البطش به عجزها عن البطش بالسوفيت فى فبراير ٠

وفى ٢٠ و ٢١ ابريل سار مايربى على ١٠٠٫٠٠٠ عامل وجندى فى مظاهرات وقد رفعوا ألواحا مكتوبا فيها « أذيعوا المعاهدات السرية ! » « فلتسقط الحرب ! » «السلطة كلها للسوفيتات !» ، واصطدم المتظاهرون بجماعات من البرجوازيين ٠

وأصدر بعض غلاة الرجعية مثل الجنرال كرنيلوف أوامر باطـلاق النار على المتظاهرين ولكن فصائل الجيش أبت الامتثال ٠

وكانت تلك الأحـداث نذيرا بأزمة فى الحكومة الموقتة أدى فيها ضغط الجمهور الى سقوط حكومة مليوكوف ـ جتشكوف ٠ ونشأت أزمة وزارية ولبثت البلاد بلا حكومة فترة انتهزها لنين فرصة لمضاعفة نشاطه٠

مؤتمر أبريل

وعقد البلاشفة ، وقد انتقلوا بعد ثورة فبراير من طور الأعمال السرية الى طور الأعمال العلنية ، أول مؤتمر علني لهم في ٢٤ أبريل ١٩١٧ وحضره ١٣٣ مندوبا ذوو أصوات و١٨ مندوبا ليس لهم حق التصويت ، وكان جماع هؤلاء المندوبين يمثلون ٨٠٫٠٠٠ عضو نظامي ٠

بسط لنين للمؤتمرين آراءه التي كان قد نشرها في مقالة أبريل بعد أن أكملها ودبجها فانبرى له كمنف وريكوف يعارضانه محتجين بأن روسيا لما تنضج للثورة الاشتراكية مقترحين أن يقتصر عمل الحزب على « مراقبة » الحكومة ، وعارض تسنوفييف لنين حين طلب نقض ائتلاف تسمرفلد وتكوين دولية ثالثة ، وعارض بياتكوف ستالين حين طلب أن يكون للقوميات حق تقرير مصايرها ٠

وقرر المؤتمر :

١ ـ المطالبة بصلح عاجل ليس فيه غرامة ولا استلحاق أقاليم ، مع دعوة الجنود ألا ينتظروا حتى تجيب الحكومة هذا المطلب وأن يؤاخوا أعداءهم غير آبهين بالنظام ٠

٢ ـ الاهابة بالفلاحين ألا ينتظروا تحقيق الاصلاحات التي تعد بها الأحزاب الأخرى وأن يستصفوا الأراضي لأنفسهم بأنفسهم ٠

٣ ـ الدعوة الى اجتماع الدولية الثالثة من الثوريين الشيوعيين في مختلف أرجاء العالم ٠

وجاء في قرارات المؤتمر كذلك أن من أهم واجبات الحزب أن يفضح سياسة الاشتراكيين الثوريين والمناشفة وأن يبين للجماهير « أن الحكومة المؤقتة هي بطبيعتها آلة لسادة الأراضي وللبرجوازيين ٠

ليس هناك حكومة حريصة على استدامة الحكم لا تقابل هذا التحدي بالقبض على زعيم خصومها (لنين) بيد انه لم تكن هناك حكومة ٠وقد كان لنين فطنا أريبا اذ رمى قفازه في وجوه الحكوميين على حين فترة بين حكومتين ٠

الحكومة الائتلافية الأولى

وتكونت الحكومة الائتلافية الأولى في مايو برياسة الأمير لفوف وكانت تنتظم ممثلي البرجوازية والمنشفيين سكبلف وتسرتلي ونفرا من الاشتراكيين الثوريين نذكر منهم تشرنيوف وكرنسكي ٠

وهكذا نجد أن المناشفة الذين عارضوا سنة ١٩٠٥ في أن يشترك الحزب الاشتراكي الديمقراطي في حكومة موقتة « ثورية » قد اشتركوا الآن في حكومة موقتة « رجعية » وضموا الى معسكر البرجوازيين أعداء الثورة ٠

ترتسكي

كانت شرطة البحرية قد أخرجت ترتسكي في هاليفكس بنوفا سكوتشيا هو وأربعة من رفاقه المسافرين الى روسيا من الباخرة النرويجية كريستيانيا فيورد ٠ واعتقلتهم أياما ٠ ومن ثم وصل الى بتروجراد في ٤ مايو أي بعد أن وصل لنين اليها بشهر ، وما حل بها حتى أدرك بثاقب فطنته أن لنين قد شأن وأصبح في مكانة تسمو سموا بعيدا على مكانته قبل ، وهو الآن رجل الساعة ، فما وني أن أيده في محاربة الحكومة المؤتلفة معلنا حلول « عهد جديد » عهد دم وحديد ، لا في قتال شعب لشعب بل في قتال طبقة المضطهدين المتألمين لطبقة الحاكمين المتجبرين ، وربط مركبته بقطار لنين تاركا للأحداث أن تبين أي النجمين يكسف سناه سنا النجم الآخر ، وهل تسمى شركتهما باسم لنين وترتسكي أو ترتسكي ولنين ؟ وهل يخترم الموت أحدهما فيخلو الجو للآخر ؟

لم يكن في وسع لنين أن يصفق الباب في وجه ترتسكي في الوقت الذي لم يكن فيه في الحزب رجال ممتازون لهم كفاية نادرة ، وكان يخشى

أن تنهار التجربة البلشفية يوما لخلو الحزب من النوابغ المبرزين . فقد ارتمى زعماء البلاشفة ، قبل عودته ، بين أحضان السوفييت لضعف شخصياتهم وعجزهم عن الزعامة ، ولعلهم انما أنابوا اليه بعد عودته للسبب نفسه (١)٠

وقد ظفر ترتسكى فى الحزب الشيوعى بالمكانة التى تلى مكانة لنين (وان كان لم يعد بين أعضاء الحزب الا فى أغسطس) وأصبح اسمه يقرن دائما باسم لنين ٠ وكانت خطبه النارية فى « السرك الحديث» تؤجج التحمس للثورة فى نفوس سامعيه من العمال والجنود ومن اليهم وتفعم صدورهم سخيمة وحقدا ، فلم تكن تقل فى أثرها عن خطب لنين وان كانت تختلف عنها اختلافا بينا اذ كانت من طراز آخر ، فقد كان لنين داعية ذا منطق جلى يحلل ويوضح ويبرهن ويحمل الناس على التفكير بعقولهم وكان ترتسكى مهيجا يخاطب العواطف ويحمل السامعين على الانسياق اليه دون تفكير ٠

نجاح الحزب فى العاصمة

مضى الحزب فى فضح سياسة الحلول الوسطى التى كان ينتهجها المناشفة والاشتراكيون الثوريون وأخذ يضيق عليهما الخناق ويحول بينهما وبين الجماهير ليجذبها اليه ويظفر بكثرة فى السوفييتات ، وكان لا ينى يروج لآرائه فى السوفييتات وفى نقابات العمال وفى لجان الجنود والملاحين ونجم عن ذلك أن أجريت انتخابات جديدة فى نواح كثيرة أسفرت عن فوز البلاشفة ٠

ومضى لنين يتألف قلوب الفلاحين ، واذ كان يعلم أن الشيوعية عقيدة مدنية تحل بركتها على عمال المصانع قبل الفلاحين ، وكان يعلم أن

(١) وقد ذكر سخانوف فى مذكراته أنه لم يكن هناك شخص أو شىء فى الحزب له وجود الى جانب لنين ٠

الحزب الذى يقصر اهتمامه على شئون المدن وأبنائها فى بلد كروسيا جمهرة سكانه من الفلاحين ليس له أن يرجو النجاح ، وكان فى الوقت نفسه يخشى أن يسلك الفلاحون الروس مسلك الفلاحين الفرنسيين أيام الثورة الفرنسية الكبرى اذ تكونت منهم طبقة محافظة دأبت تناهض الثورة ، فقد أخذ يمنى الفلاحين أكثر مما يمنيهم حزبهم الاشتراكى الثورى الذى قيده اشتراكه فى الحكومة الى الدفاع عن الاصلاحات المحدودة البطيئة . وأغفل لنين الحديث فى نظرية البلاشفة الخاصة بتملك الدولة للأرض لأنهـــا لم تكن جذابة للفلاحين .

وأتاح شهرا يونيو ويوليو من سنة ١٩١٧ للنين فرصة لمواجهـــة الشعب فى حرية وأمن لم يحظ بمثلهما فى السبع والأربعين ســنة التى انصرمت من عمره ، فكان يخطب الجمــاهير الغفيرة كل يوم من شرفة قصر كشسنسكا ، وكان له من حمية الشعب ما يكثر ســـواد ســـامعيه ومن الأحداث المتعاقبة ما يزوده بموضوعات جديدة ويمده بحجج جديدة يحتج بها فى تأييد السياسة التى يدعو اليها وهى دفع العمال الى أن يســتولوا على السلطة . وكانت خطبه تؤثر فى سامعيه لوضوحها وصفائها ولبساطة أفكاره وحججه بساطة كانوا يشعرون معها أنه ينطق عن شعورهم ويترجم عما فى صدورهم من آراء وأحاسيس .

وقد بذل الوزراء الاشتراكيون وصـــحافة الاشتراكيين الثوريين والمناشفة قصارى جهدهم فى أن يخرسوا صيحات الاتهام الموجهـــة الى الحكومة ولكن الصوت الذى كان ينطلق مدويا من شرفة قصر كشسنسكا لم يكن ليخرس .

كان للبلاشفة الى جانب برافدا صحيفة خاصة بالجنود ، وقد أبدى لنين عظيم حنقه على الهدنة الفعلية التى سادت الجبهة ، فكتب لنين :

« يجنى الشعب ــ وبخاصة الجماهير الــكادحة ــ من الحرب آلاما لا مثيل لها ، على حين يجنى الرأسماليون الأرباح الجسام فى نذالة ولؤم . لقد بترت أشلاء الجنود ونال منهم العذاب الوبيل ، فما وجه العيب فى قيام هدنة فعليــة ؟ ما الضرر من وقف المذبحة ؟ ما الخطأ فى أن يرجىء الجنود انفاذ الحكم بالموت ؟ » .

كان الفلاحون والجنود يخالون أن الحرب أوشكت أن تنتهى على حين كان المثقفون والبرجوازيون يرون أنها بدأت تدخل طور الجد . كان الجنود

يقولون إن هذه الحكومة « موقتة » ولكنها تسوقهم الى الموت وليس الموت بالشيء الموقت ·

وصبت الحكومة فى ١٨ يونيو جحافلها على الالمان تلبية لرغبة بريطانيا وفرنسا ، حاسبة أنهم اما أن يحرزوا ظفرا يمكن لها فى البلاد ويتيح لها أن تمحق البلاشفة وتستغنى عن السوفيتات واما أن يبدءوا بالهزيمة فتلقى تبعتها على البلاشفة ونشاطهم المفسد فى الجيش وتتخذ من لنين تيسا (١) يحمل ذنوبها ويكفر عن هزيمتها ·

كان الجنود مجهودين ، قليلا عتادهم ، ضعيفة ثقتهم بضباطهم · وقد أخذ وزير الحرب كرنسكى يطوف فى الجبهة يخطب الجنود حفزا لهم الى الاستبسال فى القتال ، ولكن ملابسات الحرب كانت أفعل أثرا من خطبه، فحلت بهم فى ترنوبول هزيمة كاسحة وخسارة فادحة ·

وجاش مرجل العاصمة حين جاءها خبر الهجوم ، وارتفعت حرارة العمال حين ترامت اليهم أنباء الهزيمة ، وأيقن الشعب أن الحكومة الموقتة تخدعه عن نفسه وأن السوفيتات عاجزة عن وقم الحكومة أو أنها عن ذلك راغبة ·

أيام يوليـــو

وتكاثرت المظاهرات المسلحة فى العاصمة يوم ٣ يوليه وكانت اللوحات التى يجوب المتظاهرون بها الطرقات تحمل شعار لنين دون أشعرة غيره ، فقد ظل الجمهور يتجه فى سيره نحو اليسار ــ كما هو الشأن

---

(١) اشارة الى ما ورد فى الاصحاح السادس عشر من سفر اللاويين فى بيان الطريقة التى يغتفر بها كهنة اليهود ذنوب قرية ما ، اذ يحضرون تيسا يتلون عليه بعض كلمات اصطلاحية يحملونه بها ذنوب القرية ، ثم يطلقونه فى البرية فيذهب بخطاياهم ويصبحون من الابرار ·

دائما فى الثورات حتى أصبح المدى شاساعا بينه وبين أولئك الذين كان انتخبهم لتمثيله ، فهو الآن يطالب بحكومة عمالية ، وهكذا نجد الثورة الروسية قد دخلت بادىء بدء فى الديمقراطية البرجوازية ثم اجتازتها الى دكتاتورية البرولتاريا .

وقد أبدى أسطول البلطى استعداده لامتثال أوامر البلاشفة وقدم جيش من كرونشتات الى بتروجراد من تلقاء نفسه دون أن يتلقى دعوة من أحد ، فنزعت الحكومة سلاحه . ولجأت مفزعة الى المجلس التنفيذى للسوفيتات وكان الشعب يهيب به من أسفل أن « استأثر بالسلطة ! كل السلطة للسوفيتات ! » ولكن السوفيتات لم تكن تبتغى مزاولة السلطة. لقد أبت التاج اباء أقوى جدية مما أباه يوليوس قيصر (١) ، وأبت أن نضطلع بالأمر فأفلت من يدها زمامه واستقر فى يد الحكومة الموقتة ، وبذلك انتهى الحكم الثنائى .

وكان الحزب البلشفى يرى أن الأزمة الثورية لما تنضج وأن أهل الريف لم يكونوا على أهبة لمؤازرة انقلاب coup d'état يحدث فى العاصمة وأن الجيش أيضا لم يكن متوفزا للمؤازرة ، فالجنود يعوزهم البغض والسخيمة والجمهور يفتقر الى الاقدام على المخاطر والبلاشفة لم يكن

---

(١) جلى شكسبير فى مسرحيته « يوليوس قيصر » مأساة ذلك البطل الرومانى الذى لقى مصرعه سنة ٤٤ ق . م . اذ آب من بعض مغازيه ظافرا منصورا فاستقبله الشعب استقبالا حسنا وغرت له صدور نفر ممن يرون فى أنفسهم أندادا لقيصر وقد عز عليهم الا يظفروا بمثل ما ظفر به من اشادة وتمجيد . وصادفت عودته عيدا قوميا مشهودا يسرى الناس فيه عن أنفسهم بمشاهدة السباق بين الفرسان .

وتقدم أنطونيوس فى مضمار السباق الى قيصر وعرض عليه باسم جمهرة السراة فى روما أن ينادوا به ملكا على البلاد ، فأبى قيصر وألح فى الاباء الحاح أنطونيوس فى الرجاء . وازداد بتلك الحادثة استعار نار الغيرة فى نفوس الحقدة فائتمروا بقيصر وتربصوا به الدوائر ، وما زالوا به حتى ختلوه عن نفسه واستجروه الى حيث أغمدوا خناجرهم فى بدنه فخر الى الارض يتشحط بدمه .

والقى انطونيوس على الملأ مرثية أبن فيها قيصر وأبرز فيها زهد هذا الرجل فى الجاه والسلطان وذكرهم كيف أنه أبى ـ على مرأى منهم ـ أن يضع التاج على مفرقه .

وتأثر الجمهور بالحقائق التى تكشفت له فانطلق يتعقب القتلة الغدر . وجيش اكتافيوس جيشا يقتص به لقيصر ، ولم يكن هذا الجيش كفؤا للجحفين اللذين انبريا له تحت امرة بروتس وكسياس ، لولا أن الخلاف دب بين هذين القائدين ، وانتهى بهما الامر الى الانتحار .

قد توطد نفوذهم في غير النواحي الصناعية ، ولو شبت الثورة قبل أوانها لتيسر لأعدائها أن يبطشوا بطلائعها • على أن الحزب لم يتهيأ له أن يسلس من قياد الجمهور وأن يكفه عن المظاهرات المسلحة• لقد شرع الشعب يعمل دون زعامة فلم يكن أمام البلاشفة الا أن يعملوا معه والا وهم أنهم عجزوه فلم يدن لهم بزعامة •

وقد بذل البلاشفة جهدهم في طبع تلك المظاهرات بطابع المسالمة • وقد كان مسلك المتظاهرين سلميا حقـا ، ولـكن ذلك لم يحل دون أن تنقض عليهم وحدات من الضباط وطلبة المدرسـة الحربية وأن تخضب الأرض بدمائهم •

حكومة كرنسـكي

كان على الحكومة أن تختار بين أن تمحق البلاشفة محقا وبين أن تعتزل الحكم الى غير رجعة وقد آثرت أن تحتفظ بالحكم وأن تمحق البلاشفة وبدا لها أن تنظم منزلها ، قبل أن تبرحه لمنازلتهم ، تنظيما يتسنى لها معه أن تزعم أنها انما تنازلهم حفاظا على الديمقراطية ، ولم يكن من الديمقراطية في شيء أن تظل جل المقـاعد الوزارية بأيدى الكادت بعد أن أظهرت الانتخابات التى أجريت في بعض الجهـات أن كثرة النـاخبين تؤيد الاشتراكيين الثوريين ، ولهذا استقالت حكومة لفوف لتحل محلها حكومة يرأسها الاشتراكي الثورى كرنسكي •

وبتأليف الحكومة الجديدة انتهت الفترة السلمية من الثورة وأشرعت الرماح ، فقد كان كرنسكي لا يخادع نفسه في الحكم على الحالة ، وقد اجتمع رأيه أن يضرب في الحال ، ولهذا رحل وحدات الجيش الثورية من ثكنات بتروجراد الى خنادق جبهة القتال واستدعى الى العاصمة بدلا منها أشـد وحداته جهلا ورجعية وأرسلها على العمال ففتكت بهم وأعملت يد التخريب والسلب في دار الحزب البلشفي ودور صحفه ومضت تعتقل الناس زرافات زرافات • وتقاصرت السوفيتات بازاء ذلك فلم تحرك ساكنا ، فمضت

الحكومة الموقتة المؤتلفة في اسفافها الى الدرك الأسفل، وأقدم «الاشتراكيون» كرنسكي وتسرتلي وتشرنيوف وسكوبلف على ما احجم عنه البرجوازيان جتشكوف، ومليوكوف .

تعقب لنين

خرج ذوو المراتب الرفيعة أنصار النظام العتيق عن صمتهم وأخذوا يجهرون بوجوب انتضاء سيف العـدالة . وتغير حديث الاشتراكيين القوميين والبرجوازيين ومن اليهم في أمر لنين .. فبعد أن كانوا منذ أشهر يقولون انه لا شيء ويصفونه بأنه مهرج الثورة اذا هم الآن ينبزونه كبير الشياطين الذي في طوقه أن يخلق المصاعب أمامهم ويصب الكوارث على رءوسهم . لقد أنجزت له صحافة خصومه ما عجزت عنه صحافته الضئيلة ، فحملت قصته الى أبعد الخنادق وأقصى الأكواخ وأصبح الموطنون العائدون من العمل الى بيوتهم يطالعون اسمه مع كل صباح .

وقد كان يعنف على الحكومة في نقده فلم تر الحكومة بدا من اقصائه عن الحياة العامة بتلويث سمعته واسقاط مروءته ، وليس ثم شيء أيسر من رميه بالتهمة التي جرى الحلفاء على أن يعيبوا بها أنصار السلام خلال الحرب ألا وهي أنهم يعملون للألمان ، وأخذ وزير العدل يوزع منشورات يزعم فيها أن لنين صنيعة للعدو فاذا تسرتلي وزير الداخلية يجاهر بأن محتوى تلك المنشورات متجاف عن الصدق .

ورأت الحكومة أن تطيح رأس الحزب فأصدرت في ٧ يوليو أمرا بالقبض على لنين ونخبة أعوانه ، لا على أنهم مهيجون سياسيون ، بل على أنهم خونة يعملون للعدو ، اذ أن تهمة التطرف لم تكن مما يساغ توجيهه الى أحد في « روسيا الحرة » وسيق الى السجن ترتسكي وكمنف ولونا تشارسكي ومن اليهم ممن كانوا يجولون جهارا نهارا في الطرقات ، أما لنين وهو الذي تتألف سيرته من سلسلة من الائتمارات فقد أيقظ فيه

استشعاره للخطر موهبة الفرار التى طالما أنقذته فى الماضى ، وقد زاده يقينه بقرب النصر حذرا على حذر فبادر الى الفرار ونزل أول الأمر بدار أليلوف (والد الآنسة التى صارت زوجة لستالين) ثم انتقل منها الى دار أخرى ثم انزوى ٦ أسابيع فى كوخ وسط حقل بقرية رازليف النائية وهى تبعد ٣٠ كيلو مترا عن السكة الحديدية ثم اجتـــاز التخـــوم الفنلاندية مستخفيا فى زى وقاد ويمم مدينة هلسنجفورس حيث نزل بمنزل رئيس شرطتها وكان اشتراكيا ديمقراطيا ، وظل لنين خلال ذلك على اتصال بلجنة الحزب المركزية ولجنته المحلية بپتروجراد يشرف على أعمالها ٠

وانطلق ضباط الشرطة وعيونها وطلبة المدرسة الحربية وغيرهم من كلاب الحكومة يتشممون مكانه وأذاع النائب العام لدى محكمة جنايات پتروجراد الأسباب التى قررت السلطات من أجلها محاكمة لنين ، فهو متهم بالخيانة العظمى لما توافر من الأدلة على اتصـــاله بالذين يعملون للدول المعادية ، وقد بذل من النشاط ما حدا ببعض وحدات الجيش الى أن تتوقف عن الزحف على العدو ، وقد كشف الفحص والتحقيق أنه يرأس منظمة واسعة النطاق للجاسوسية الألمانية ٠ ثم قال النائب العـــام مؤكدا انه لا صلة البتة لهذا الفحص والتحقيق بآراء لنين السياسية اذ ليس من شأن المحكمة أن تنظر فيها ٠

وأذاع وزير العـــدل فى دهاء وخبث أنه اذا كان لنين بريئا فليتقدم الى منصة العدل فتقضى ببراءته وتخلى سبيله ، ولكن لنين كان أحكم وأحزم من أن يصيخ لمثل هذه النصيحة الماكرة ٠

وأرجف المتخرصون فى شأن لنين ، فذهبت ظنونهم مذاهب شتى ، فمن قائل انه فر الى ألمانيا ، وقائل انه فى كرونشـــتات أو الاورال أو القوقاز ٠ ونشرت بعض الصحف الفرنسية أن اسمه الأصـــلى جولدبرج (أى جبل الذهب) تريد أنه اسرائيلى وعلت صيحات المطالبين بالانتقام منه وصرح رئيس الوزراء للصحفيين قائلا : « اننى مقتنع أعمق اقتناع بأن دحرنا للجبهة اللينينية حدث أعظم خطرا من تقدم الألمان فى جبهتنـــا الجنوبية الغربية » ٠

عمد لنين فى هذه الغيبة الاضطرارية ـ كدأبه حين يقضى عليه بالحد من نشاطه ـ الى تخصيص جانب كبير من وقته للشئون النظرية ، فشرع ـ تحت الخيمة الزرقاء فى الحقول وكذلك فى أرجاء الضواحى العمالية ـ يسطر كتابه « الدولة والثورة » وهو من أهم آثاره اذ أنه نسق فيه آراءه التى كان قلمه قد جرى بها قبيل ذلك ، من أبريل الى يوليو ٠

وقد حدد فى هذا الكتاب الملابسات الضرورية للثورة فقال انه :

« لا مجال للثورة اذا لم يكن الحزب الثورى مستندا الى الكثرة من طلائع الطبقة الثورية ومن سكان الريف ٠ وليست الثورة تقتضى الحصول على تلك الكثرة فحسب ، بل لابد لها أيضا من :

١ ـ أن يطمو المد الثورى حتى يغمر الدولة كلها ٠

٢ ـ وأن يفلس النظام القديم (مثل الحكومة المؤتلفة) افلاسا تاما فى الناحيتين الأدبية والسياسية (١) ٠

٣ ـ وأن يعم العناصر المترددة شعور عميق بالقلق » اهـ ٠

لم يبن لنين نظريته فى الدولة على آراء مستمدة من الأساطير القديمة وأضابير آل رومانوف وأضاميم الأديار البيزنطية والمعاهدات الدينية بل من الفلسفة الألمانية، فلسفة هجل وماركس، ومن محاورات الكنفنسيون(٢)

(١) وهذا يذكرنا بالحالة التى كانت فى مصر قبيل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اذ عمد الملك فى الاشهر الاخيرة من حكمه الى تشكيل عدة وزارات اخفقت كلها فى توجيه دفة السياسة نحو الهدف المقصود ٠

(٢) ترادفت على الفرنسيين خلال ثورتهم الكبرى ٤ مجالس نيابية مختلفة أنواعها ، وهى :

١ ـ المجالس العمومية ٠
٢ ـ المجلس التأسيسى ٠
٣ ـ المجلس التشريعى ٠
٤ ـ المؤتمر الوطنى (الكنفنسيون)

الفرنسى ، ومن ثم جاءت ثمرة بحثه عن « الدولة والثورة » أوربية غربية •

وقد ضمن هذا الكتاب طائفة من المقتبسات الالمانية والفرنسية والانجليزية ، غير أنه انتهى فى آخره الى أن فرض على أتباعه الطاعة العمياء شأنه فى ذلك شأن بطرس الاكبر فى عهوده (أى المراسيم الصادرة عنه) أجل لقد كان لنين يسمح باعفاء اللحى وارسال الأظفار وبالزواج دون اختبار فى العلوم الرياضية (١) • ولكنه كان يسخر الناس للاشتراكية

= وكان آخرها أطولها عمرا وأعلاها شأنا وأحفلها بالاحداث . واليك بعض جسام الاحداث التى كان للمؤتمر الوطنى فيها شأو بعيد :

فى ٢١ سبتمبر عقد المؤتمر أولى جلساته ونادى بالجمهورية •

فى ٢١ يناير ١٧٩٣ أنفذ حكم الموت فى لويس السادس عشر •

فى ١٣ يولية ١٧٩٣ وفق البرجوازيون فى اغتيال خصمهم اللدود مارات •

فى آخر مايو وأول يونيه ١٧٩٣ قرر المؤتمر اعتقال الزعماء الجيروندبن جزاء ما سعوا اليه من انقاذ الملك السابق من مصيره الاليم ، وبذلك اعتلى اليعاقبة أرائك الحكم•

فى ٥ أبريل ١٧٩٤ حكم على دنتون بالموت •

فى ٧ منه قبض على روبسبيير وكونون وسان جوست •

وقد نجمت مأساة روبسبيير من أنه كان يلمس ما فى تنظيم الطبقة العاملة من خلل ويعرف أنها ــ بما يعيبها من قصور المعرفة وفقدان الخبرة والافتقار الى الحزم ــ أعجز عن أن تسير بالانتاج الاقتصادى فى طريق التقدم ؛ وكان يدرك أن الثورة لا تستغنى فى بناء المجتمع الجديد عن جهود البرجوازيين ، فاتخذ سياسة وسطا نفرت عنه الفريقين المتنازعين ، فالجاه ذلك الى اصطناع الارهاب فبدا للكثير من أعضاء المجلس موضع خطر عليهم ، ومن ثم كانوا البا عليه واستطاعوا أن يزجوا به الى المقصلة .

وعلا شأن البرجوازيين . وأعلن الكنفنسيون دستورا جديدا حصر حق التصويت فى المواطنين الذين يؤدون للدولة ضرائب بقدر معلوم • ثم انحل المؤتمر الوطنى تاركا صولجان الحكم بيد الديركتوار أى مجلس المديرين •

وفى أكتوبر ١٧٩٥ حاولت فلول الملكيين أن تنشب فتنة فى باريس فانبرى لها الضابط بونابرت وأخمدها وعين من غد ذلك اليوم حاكما لباريس •

وخشي البرجوازيون أن ينظم الياسرون صفوفهم ويلموا شعثهم فيتسنى لهم امتلاك زمام الحكم ، فالتفوا حول بونابرت ، فأصبح هو سيد فرنسا .

(١) فرض بطرس الاكبر على أبناء الموجيك أن يحفوا لحاهم ويقلموا أظفارهم. وفرض على أبناء الاشراف أن يتعلموا علم الحساب ونظريات اقليدس فى الهندسة و لا حظر عليهم الزواج • بيد أنه ، وهو الذى كان يجبر شعبه على الاخذ بالاساليب الاوربية الغربية ، اضطر الى أن يشكل آلة الدولة تشكيلا أوتوقراطيا ليتيسر له أن يذود عن بلاده غزوات الدول المتاخمة .

الآخذة اذ ذاك فى النمو كما كان ذلك العاهل قبل قرنين يسخرهم للرأسمالية وكانت اذ ذاك آخذة فى النّمو ٠

وقد كان لنين يؤلف هذا الكتاب وفي معتقده أنه سيكون مرشدا لأتباعه ، وأنه ، ان قضى ، سيكون لهم وصية من بعده ٠ على أنه لم يتسن له أن يتمه اذ صرفه عن ذلك تطور الأمور عقب أزمة كرنيلوف ٠ ولم يضايقه ذلك اذ أنه ، كما أبان فى مقدمته لذلك الكتاب الذى لم يكتمل، « ألذ وأجدى من الكتابة فى الثورة أن نخوض غمارها ونتمرس بنجاربها » ٠

لو

وهنا تطل برأسها « لو » التاريخية فيسائل المرء نفسه : ترى ما الذى كان يئول اليه مصير العالم لو أفلح كرنسكى فى اعتقال لنين كما أفلح فى اعتقال ترتسكى ؟

لقد كان ظفر البلاشفة بالنصر لايزال حتى ذلك الوقت بعيدا عن أن يكون محتوما ، فقد كان الناس يطلبون السلام ولكنهم لم يكونوا يطمئنون الى البلشفية فمن طبيعة البشر أن يتشككوا فى كل جديد من أنظمة الحكم وأن يخشوا الفوضى ويؤيدوا الحكومات القائمة ـ اذا كانوا من نجاحها على ثقة ـ فى اصطناع الحزم بازاء بث الفوضى وأخذ مثيريها بالشدة ، وكان الجيش كذلك لا يتخلف عن مؤازرة كرنسكى فى البطش بالبلاشفة لو أنه وقف الحرب ، ولكن الأمور مضت على العكس من ذلك ٠

كان الجيش منذ الثورة قد أصبح يقنع بالوقوف من الألمان والنمسويين موقف الدفاع، فلم يهاجمه هؤلاء بل نقلوا جحافلهم الى الغرب وأنزلوا بالحلفاء فى الأشهر الأولى من سنة ١٩١٧ خسائر فادحة وطالت الحال على هذا المنوال فتذمر ساسة الحلفاء من خطة « الدفاع الثورى » التى

التزمها الروس وطلبوا اليهم أن يشدوا على العدو فيقسروه على نقل جانب من قواته فى الميدان الغربى على أن تقرضهم أمريكا لقاء ذلك ٧٥ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل • وكر الجيش الروسى على الألمان فى غاليسيا ففسح الألمان له طريق التقدم فى بعض القطاعات ثم أطبقوا عليه وأنزلوا به فى ٦ يوليو ضربة قاصمة كانت فيها نهاية مجهود روسيا الحربى •

لو لم يذعن كرنسكى للرأسماليين الأمريكيين لاوشك أن يهزم لنين ولكن الرأسمالية حطمت نفسها بحماقتها كما ذكر ذلك لنين فى كتابه « الدولة والثورة » • وقد شدت هذه الخيبة فى الحرب أزر الحزب الوحيد الذى كان ينافح عن السلام •

وشعر الضباط الروس أن الهزيمة غضت من أقدارهم ، و ــ كما فعل الضباط الألمان من بعدهم عندما حاقت بهم الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى ــ اجتهد أولئك الضباط الروس أن يعزوا هزيمتهم الى الخيــــانة خلف الخطوط والى الدعاوة للسلام بين الجنود . وأكثروا من اللغو والهراء وتحدثوا عن الطعن من الوراء وعن ضرورة اقامة دكتاتورية صارمة تعيـد الحكم بالموت وتفتك بالبلاشفة •

المؤتمر السادس

وعظم الارهاب حتى انه لما اجتمع المؤتمر السادس للحزب بپتروجراد من ٢٦ يوليو الى ٣ أغسطس ١٩١٧ أى بعد انقضاء عشر ســـنوات على اجتماع المؤتمر الخامس بلندن كان المؤتمرون لايزالون ، بعـــد سقوط القيصرية بخمسة أشهر ، مضطرين الى أن يجتمعوا فى خفية واضطر لنين ألا يحضر •

كان الحزب البلشفى فى ذلك الوقت ينتظم ٢٤٠ر٠٠٠ عضو وكان لايزال صلبا متماسكا لم توهن اضطهادات أيام يوليو من سطوته بل زادته قوة ، وقد اقتنع مندوبوه فى المؤتمر بتضاؤل نفوذ المناشفة والاشتراكيين

الثوريين وشهدوا بأعينهم أعضاء ذينك الحزبين يمزقون بطاقات العضوية على حنق .

ووضع المؤتمر لائحة داخلية جديدة للحزب على أساس الديمقراطية المركزية تقضى بأن يكون الانتخاب هو الوسيلة الوحيدة لاختيار أعضاء جميع مجالس الادارة الأصلية والفرعية على السواء وبأن تكون قرارات المنظمات التى فى المستويات العليا ملزمة لما دونها من المنظمات ولجميع أعضاء الحزب .

وأقر المؤتمر قبول ترتسكى وجماعته فى الحزب .

وتذاكر فى الحالة السياسية وما بلغته الحركة الثورية من نمو ، ورضى برنامج البلاشفة الاقتصادى وهو يشمل استصفاء الأراضى وتأميم المصارف المالية والصناعات الكبرى وهيمنة العمال على الانتاج والتوزيع ، وأبدى ضرورة خضوع نقابات العمال لزعامة الحزب البلشفى منكرا ما ارتآه المناشفة من وجوب وقوفها على الحياد ، وقرر أن يبسط الحزب اشرافه على عصبة الشباب التى كانت قد تكونت من تلقاء نفسها ، وأنكر نصيحة كمنف وريكوف وترتسكى بأن يبرز لنين من مخبئه ليمثل بين يدى المحكمة ، اذ أن المحاكمة فى هذه الحالة لن تختلف عن القتل غير القانونى الذى يمضيه الرعاع بالشنق فى أعالى الشجر Lynch . وبحث المؤتمر فى الأحوال القائمة هل هى ملائمة لاثارة الثورة الاشتراكية ، فأبدى بخارين اشفاقه أن تؤدى اثارتها الى أن ينضم الفلاحون الى البرجوازيين ويناصروهم على العمال ولكن المؤتمر لم يقره على هذه المخاوف وأصدر بيانا الى العمال والجنود وفقراء الفلاحين يهيب بهم فيه أن يحشدوا حشودهم للوقعة الحاسمة مع البرجوازية .

دكتاتورية العجز والفشل

نفد صبر البرجوازيين ازاء العمال « جيش القتلة فى الضواحى » فانبروا ينادون بنصب المخانق ويحبذون عرض الثائرين على السيف

و ــ كما كان يصنع أشياع كرومول(١) وكلفن (٢) وربسبيير فى أيامهم ـ أخذ أشياع لنين يتنادون بالبطش بخصومهم ، فليس المحافظون عندهم الا من آثار الماضى • هم أغصان ميتة فى الشجرة الحية فمن الواجب شذبهم ، أما الاحرار والديمقراطيون القدامى والارستقراط المتفلسفون فقد أنكروا كل أمانيهم وأحلامهم السابقة وأمست قلوبهم الوجلة توحى الى أذهانهم المكدودة بوجوب القضاء على كل ما يمت الى الشعب بصلة : الصحف والأحزاب والمؤتمرات والمظاهرات • وأجمع الزعماء الديمقراطيون رأيهم على أن الدكتاتورية هى وحدها التى تستطيع « انقاذ الدولة » •

وبدأت الحكومة المؤقتة ، وقد استبدت بالأمر ، تعمل على تحطيم السوفيتات التى كان قد خامرها الفشل والوهن فدعت الى عقد مجلس الدولة Council of st c فاجتمع يوم ١٢ أغسطس بالمسرح الكبير فى موسكو (٣) وخطب كرنسكى فيه طالبا أن تقمع « بالحديد والدم » كل محاولة للقيام بحركة ثورية وكل محاولة للفلاحين أن يستولوا على أراضى كبار الملاك • لقد كان هذا الوزير يستأثر بثلاث وزارات وبالقيادة العليا للجيش وكان يود لو نصب نفسه امبراطورا ولكن الشبه بينه وبين النسر (٤) كان بعيدا ، فكان اذا تحدث عن اصطناع الحزم والصرامة لم يطالم الناس من ذلك غير الصوت الاجش والاصبع السبابة دون أن تدعم ما يصطنعه من مظاهر البطولة فكرة سامية أو يؤيد تفكيره الرجعى منطق السلاح • لقد كان يمثل نوعا من الدكتاتورية هى دكتاتورية العجز والفشل •

---

(١) كان اليفر كرومول (١٥٩٩ ــ ١٦٥٨) فى انجلترا من عناصرى الجمهورية • انتصر على جيش الملك تشارلز وحكم عليه بالاعدام وحل البرلمان وتولى الحكم بصورة دكتاتورية •

(٢) ولد جون كلفن سنة ١٥٠٩ وكان اسمه جون شوفن • استقر سنة ١٥٣٦ فى جنيف وعين واعظا بها ، فوضع التعاليم المشيخية وأراد الناس على الاخذ بها • وانتشر مذهبه فى أرجاء أوربا ودانت به اسكوتلاندا وتأثر بهم الطهريون (بيورتان) •

(٣) فدعا البلاشفة الى الاضراب العام ولبت الدعوة كثرة العمال •

(٤) اللقب الذى كان يطلق على نابليون بونابرت •

محاولة كرنيلوف

مل الضباط العظام رؤية رجال السياسة يحاكون الفلاحين فى سوفيتاتهم فيعقدون المجالس ويخطبون في المؤتمرات ، وخيل اليهم أن الشعب، وقد سئم الفوضى، سيظاهرهم اذا هبوا بزعامة قائدهم كرنيلوف وأعلنوا أنهم يعملون لاستتباب النظام ، ولئن كان الساسة يعيشون من أجل أبهة مؤتمراتهم وروعة خطبهم انه لابدع أن يغالى القواد فى قيمة أفراسهم وفرسانهم ، وأن يتوهموا أن السلطة شيء لا مالك له فهو ـ كما فى القانون الرومانى ـ يصبح ملكا لاول من يحتازه ٠

وشاع عقد الموازنات بين كرنيلوف وبونابرت ، بيد أن الخطين المتوازيين كانا يفترقان في مواضع كثيرة ليس أهونها شأنا أن بونابرت كان يعد بالسلام على حين كان كرنيلوف يستديم الحرب ٠

لقد كان كرنيلوف ثائرا متمردا وليست اعادة الحكم بالموت هى الصيحة التى تؤجج بها الثورات ٠

وقد اطال كرنيلوف ، كغيره من القواد ، مفاوضة كرنسكى وطلب اليه الغاء لجان السوفيتات واعادة الامن الى نصابه ٠ وتجمع التجار والصيارفة وأرباب المصانع فى دار قيادته يعدونه المال والمعاضدة وتوافد عليه ممثلو « الحلفاء » يستحثونه ألا يتريث فى قمع الثورة ٠ ثم بلغ الائتمار ذروته فاعتزم الزحف على مصدر الفوضى ، على بتروجراد ، على الحكومة الموقتة ، وكان يعد عدته لذلك جهارا وكان يطلق الشاعة بأن الشيوعيين يتأهبون للثورة فى بتروجراد يوم ٢٧ أغسطس وهو يوافق انقضاء ٦ أشهر على بدء الثورة ، ثم أصدر بيانا ينحى فيه على البلاشفة بالملامة ويقول « ان العدو الذى مكنت له الرشوة والخيانة أن يرفع رأسه فى بلادنا كما لو كانت بلاده ـ لا يعمل للقضاء على الحرية وحدها بل على كيان الشعب الروسى كله ٠ يا رجال روسيا ارعووا عن هذيانكم المخبول ! »

وفى ٢٥ أغسطس زحفت فصائل الفرسان على بتروجراد تحت امرة الجنرال كريموف الذى أعلن اعتزامه « أن ينقذ الوطن » ، وأهابت اللجنة المركزية للحزب البلشفى بالعمال والجنود أن يقاوموا الثورة المضادة بالسلاح ٠

وهكذا انتصب على مرأى ومسمع من السياسيين الذين ما برحوا يتفتلون من معسكر الى آخر وعلى مرأى ومسمع من الجهاز الحكومى الذى لم يكن شيئا مذكورا ـ انتصب خصمان لدودان أحدهما قبـالة الآخر : كرنيلوف فى روعة ضباطه وأركان حربه ولنين المستخفى طريد القانون وانقادت الجماهير بغريزتها الى جانب لنين وتآزرت جميع العناصر الثورية على وأد تلك المغامرة فى برعمها ، فاشتركت نقابات العمال فى الكفاح ونمت فصائل الحرس الاحمر نموا عظيما وقدمت من كرونشتات ألوف من الملاحين المسلحين للدفاع عن العاصمة • وكانت وحدات الجيش الثـورية فى بتروجراد متأهبة للواقعة فاحتفرت الخنادق حول المدينة وقطعــت خطوط السكة الحديدية المؤدية اليها ، وأنفذ البلاشفة مندوبين عنهم الى الفصـيلة الهمجية Savage Sivision الزاحفة على العاصـمة فما زالوا بأولئك القوقازيين الجبليين حتى ثنوهم عن ذلك الزحف • وأطلقت حكومة كرنسـكى من غيبتهم السجون من المـلاحين والجنود الذين كانوا قد ثاروا عليها فى يوليو وعهدت اليهم فى حماية الدولة من شرة القائد المتمرد •

وتذكر كرنسكى فجأة سابق صلته بالديمقراطية فلاذ بالسوفيتات ويمم الاشتراكيون الثوريون والمناشفة المرعبون شطر البلاشفة لعلمهــم أنهم هم القوة القادرة على كسر كرنيلوف ولكن البلاشفة لم يكفوا فى أثناء قتالهم كرنيلوف عن التنديد بالحكومة الموقتة والاحزاب المؤيدة لها •

وذابت قوى زعيم الفرسان قبل بدء المعركة وانتحر الجنرال كريموف واعتقل كرنيلوف ومعاوناه دنكين ولوكمسكى ، ثم أخلى سبيل كرنسكى

كانت مكيدة القائد المتمرد بمنزلة العناية الالهية للبلاشفة ، فقد أوقعت الخلل فى صفوف الجيش وأظهرت الشعب على أن ثمة خطـــــرا حقيقيا أن تقوم ثورة مضادة وأبانت له أنه يصبح أكثر أمنا وأشد اطمئنانا اذا استقاد للذين كانوا أصلب عودا فى مكافحة الثورة المضادة ، وجذبت الفلاحين الى ناحية البلاشفة اذ علموا انه لو أفلح كرنيلـــوف فى محق انبلاشفة لأتبع ذلك محق الفلاحين (وكانوا قد دأبوا على استصفاء الضياع عنوة لا يثنيهم عن ذلك وعد أو وعيد) ، كما حررت هذه المكيدة مندوبى العمال والجنود فى السوفيتات من سياسة الحلول الوسطى فقوى سلطان البلاشفة فى السوفيتات ووهن تأثير مناوئيهم • ولــو أن النصر حالف كرنيلوف لكان فى ذلك قهر البلاشفة ، ولكنه باء بالهزيمـــة فكان ذلك

فوزا لهم . وقد كتب كرنسكى بهزيمته لكرنيلوف الهزيمة على نفسه ، وحقت عليه الهزيمة حين غاب عن فطنته أنه من العسير على حكومة ما أن تكافح مكافحة مظفرة فى جبهتين مختلفتين فى وقت معا .

تبلشف السوفيتات

وانتعشت السوفيتات وتغير تكوينها ، فقد حدثت فى المصانع والوحدات الحربية انتخابات جديدة ، فأرسلت هذه المؤسسات الى السوفيتات مندوبين بلاشفة ، واستحال سوفيت بتروجراد عقب هزيمة كرنيلوف الى مجلس بلشفى فتنحى مكتب الرياسة وعلى رأسه شخايدزه عن مكانه فاسحا الطريق لمكتب أعضاؤه من البلاشفة . وتبلشف كذلك سوفيت موسكو فى ٥ سبتمبر باعتزال المكتب القديم عمله . وكان فى ذلك دلالة على أن الاحوال والملابسات قد أصبحت مهيأة للثورة .

تحديد يوم الثورة

أحس لنين ، وكان مختبئا فى القرية الفنلاندية ما يزال ، أن فى هذه المحاولة التى قام بها كرنيلوف تهوينا لشأنه . وكان يحنقه ما يدور بخلده من أن مغامرا آخر بعد كرنيلوف قد تسول له نفسه أن يسلبه طفله المحبوب : السلطة . وقد استبان له فى أواخر سبتمبر أن مقومات الثورة التى عددها فى كتابه « الدولة والثورة » متوافرة . فمن آيات المد الثورى :

١ ـ أن أعضاء الحزب البلشفى قد ارتفع عددهم فى شهرين أو ٣ أشهر من ٧٠٫٠٠٠ الى ٢٠٠٫٠٠٠ ٠

٢ ـ وأن الانتخابات المتوالية للسوفيتات فى مختلف البلدان كانت تحمل الدليل تلو الدليل على التحول المطرد نحو البلاشفة ٠

ومن دلائل افلاس النظام القديم :

١ ـ عجز الحكومة عن سياقة الجيش الى القتال

٢ ـ واخفاقها فى الاحتفاظ بنشاط الحياة الصناعية ٠

لقد كان لنين يرى طلائع النصر فلم يبق الا أن يسارع الى القبض على ناصية الحكم ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يبرز فى ميدان العمل جهرة ، اذ أن ذلك يعرضه للاعتقال وفى اعتقاله تفويت لفرصة العمل فى تلك الملابسات الثورية الممتازة ٠وقد كان لا يعول كثيرا على زملائه فى الحزب لعلمه أن الكثيرين منهم لم يكونوا تواقين للعمل (١) فكان كمن يطويه ليل لا مطلع لصبحه ٠ وأخذ نفاد الصبر يقرع فى الحاح وقوة باب المخبأ الذى يستخفى فيه،وغدا لا ينفك يردد القول «الآن أو لايكون ذلك ابدا» وأخذ يلح على أصدقائه ويتضرع اليهم أن يعملوا ، وطفق يرسل رسالة اثر رسالة الى لجنة الحزب المركزية ، وهى رسائل ذات قيمة تاريخية عظيمة تمتاز بنظرتها الموضوعية الصادقة لمختلف القوى التى كانت تضطرب بها البلاد اذ ذاك ، واليكم شذرات مما جاء فى احداها :

« ان الحوادث تملى علينا واجبنا فى وضوح يصبح معه التراخى والوناء جريمة ٠ ان حركة الفلاحين تنمو ٠٠٠ ويزداد الميل الينا باطراد ٠ ان ٩٩ ٪ ممن بموسكو من الجنود فى جانبنا ٠٠٠ الكتائب الفنلاندية والأسطول الب على الحكومة ، وعمال سكك الحديد والبرق فى مشادة معها٠

التمهل والانتظار فى مثل هذه الاحوال والملابسات مأثم ٠ ليس

---

(١) وقد وصف ترتسكى موقف لنين فى تلك الملابسات بقوله :

« وقد طلب الينا أن نبدأ العمل على الفور فنربك الخصوم ونحيرهم ونختطف منهم قياد الامر ثم نرى ما يكون ٠٠ لقد كان يؤمن ايمانا عميقا بأن الجماهير تستطيع أن تمضى فى الثورة الى غايتها وبأنها ستمضى فيها ، بيد أنه لم يكن لديه مثل هذه الثقة بلجنة الحزب المركزية وقد أخذ يرى فى جلاء مطرد أن ليس ثمة ما يمكن اضاعته من الوقت ، فما يستطاع الاحتفاظ بالحالة الثورية بحسب المشيئة حتى يصبح الحزب متأهبا للانتفاع بها ٠

للبلاشفة أن يتلبثوا . عليهم أن يقبضوا على ناصية الحكم والا قويت موجة الفوضى فاذا نحن لاقبل لنا بها .

من الاجرام أن نتردد . ان في انتظار مؤتمر السوفيتات لاهتماما صبيانيا بالرسميات ... هو خيانة للثورة .

ليس هناك من حاجة مطلقا الى البدء من بطرسبرج . اذا بدأت موسكو دون سفك دم فستحصل على المعاضدة يقينا ...

يجب أن تكون صيحتنا : السلطة للسوفيتات . الارض للفلاحين . السلام للشعب . الخبز للجياع .

النصر مقطوع به ، ومن الراجح بنسبة ١٠ : ١ أن يتم دون سفك دماء .

الانتظار جناية على الثورة

تحيتى

« ن . لنين »

ولكن النصائح التى مكث يبثها أشهرا لم تقنع بعض أصدقائه بسداد فكرة الثورة ، فقد كان من رأى تسنفييف وكمنف أن ارتفاع الموجة الثورية كفيل وحده بانجاح الثورة بالوسائل السلمية فمن الخطل المخاطرة بمحاولة الاستيلاء على السلطة بالعنف . لقد كان هذان الزعيمان ومعهما كتلة مثقفى الحزب راغبين عن الثورة المسلحة مغالاة منهما فى قدر قوات الحكومة وخشية أن يؤدى العمل الثورى الى أن ينعزل الحزب ويقاطعه أقرب الناس اليه فى العقيدة وهم المناشفة الدوليون والمياسرون من الاشتراكيين الثوريين ، وكانوا يأملون أن ينالوا فوزا سهلا فى الانتخاب الذى كانت الحكومة قد دعت اليه قبل أسابيع وضربت له أجلا بعد ٣ أشهر . وكان لنين لا ينفك يحارب هذا المسلك ويقول ان ذلك الانتخاب لن يكون لأن الأحزاب المؤتلفة ترهبه ، وكان يجزم بأنه لن يكون ثم انتخاب الا على يد حكومته هو .

وقد صدق ظنه وكان ماتوقع أن يكون · رأت تلك الأحـــزاب بعد هزيمة كرنيلوف أن تضـــم شملها وتلم شعثها وتتعـــاون على وقف المد الثورى ، واذ كانت لا ترجو من الانتخاب خيرا وكانت ترغب فى أن تضفى على حكومة كرنسكى شكلاً شبه دستورى فقد أجمعت الرأى على أن تدعو الى « مؤتمر ديمقراطى » يجمع بين ممثلى الأحزاب الاشتراكية والسوفيتات التى قبلت الحلول الوسطى والنقـــابات والدوائر الصناعية والتجارية والوحدات العسكرية · وقد اشترك البلاشفة فى هذا المؤتمر على الرغم من لنين ·

وانتخب المؤتمر من بين أعضائه طائفة كون بهم ما أسماه البرلمان التمهيدى Pre-Parliament ودعى البلاشفة الى ايفاد ممثليهم فيه ، فأرســل لنين الى رفاقه يحذرهم تلبيــة الدعوة فان اشــتراكهم فى ذلك المجلس مدرجة الى احسان الظن به والتعويل عليه ·

واجتمعت لجنة الحزب المركزية فى ٢٠ سبتمبر للبت فى هذا الأمر ، وعارض ترنسكى وستالين فى تلبية الدعوة ، ولكن اللجنة أقرت كمنف على خطته فى دخول البرلمان التمهيدى والكفاح داخله ·

وقد حبذ لنين مسلك ترتسكى قائلا :

« علينا أن نقاطع البرلمان التمهيدى ، علينا أن نقصد الى سوفيتات مندوبى العمال والجنود والفلاحين ، أن نتجه الى نقـــابات العمال ، الى الجماهير · يجب أن نهيب بهم أن يكافحوا ، وعلينا أن نقــدم لهم شــعارا سليما واضحا ليطردوا شرذمة كرنسكى البونابرتية وبرلمانها التمهيدى·· لقد ناصر ترتسكى سياسة المقاطعة ، فمرحى أيها الرفيق ترتسكى » ·

وهكذا تحالف لنين وترتسكى طلبا للنصر وما أيسر انتصارهما حين يتحالفان ·

حكومة مؤتلفة جديدة

وقد نجم عن المؤتمـــر الديمقراطى كذلك أن اتسع نطاق الوزارة وتألفت حكومة مؤتلفة جديدة برياسة كرنسكى نفسه تنتظم ١٠ وزراء من الاشتراكيين و٦ من غـــيرهم ، ومن ذلك نرى أن الأزمة التى أثارها كرنيلوف لم تؤد الى نقل السلطة فى هدوء وسلام الى الســـوفيتات بل انتهت باقامة ائتلاف على أساس غير مكين ٠

ولكن فى اليـــوم الذى اجتمعت فيه الحكومة المؤتلفة اجتمع كذلك سوفيت بتروجراد يتصدره للمرة الأولى رئيسه الجديد ترتسكى٠ وقد قال فيه : « ستقابل الديمقراطية الثورية جميعا نبـأ تكون الحـكومة بجواب واحد : اعتزلى الحكم . واستجابة لهذه الأصوات المتوافقة من الديمقراطية الحقة سيخلق مؤتمر سوفيتات روسيا كلها حكومة ثورية أصيلة » ٠

بين أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر

أصبحت للبلاشفة فى أواخر سبتمبر كثرة فى سوفيتات بتروجراد وموسكو وغيرهما من أمهات المدن ، وأصبحت للأحزاب الحكومية أجنحة يسارية فكان « المناشفة الدوليون » يتزعمهم مرتوف ويساريو الاشتراكيين الثوريين أميل الى لنين منهم الى كرنسكى ٠

وقد لبث البرلمان التمهيدى حتى أوائل أكتوبر يضـــيع وقته فى مجادلات ومهاترات لا طائل تحتها وتتطاحن فيه شتى الجماعات دون أن تظفر واحدة منها بكثرة تؤيد سياستها ٠ وكان الموقف فى خــلال ذلك يزداد على الأيام توترا، فقد برم الفلاحون بعجز الحكومة الموقتة واحجامها عن منحهم أراضى كبار الملاك فشرعوا يتمردون ويثورون فى جميع أرجاء البلاد ٠

أجل ، لم يكن الفلاحون ماركسيين فالماركسية ، كما أسلفنا ، عقيدة لأبناء المدن ، ولكن الفلاحين كانوا هم الجنود وكان الجنود هم الفلاحين ، وقد آثروا لنين والسلام على كرنسكى والحلفاء . وقد تعلموا فى الجيش أن الكلمة الفاصلة هى لمن كان أمضى سيفا ، وأخذوا فى هذا الخريف يلبون ، فى ولاية اثر ولاية ، دعــوة لنين اياهم الى الاستيلاء عنوة على الأراضى .

وأوفد الجيش منــدوبين عنـه ، وكان بعضهم من الضــباط غير الاشتراكيين ، يعلنون الى السوفيتات أن الجنــود لن يقاتلوا بعد وأنهم لا يطلبون شيئا الا عقد الصلح وتسريحهم . وانهار دولاب الادارة ووقفت قطرات السكة الحديد عن السير فأصبحت العاصمة مهددة بالمجاعة ، اذ نقصت وزنة الخبز اليومية للفرد من ¾ كيلو الى ¼ كيلو وما عتم الخبز أن اختفى من بعض الأحياء فى الأسبوع السابق للثورة ،واصطنع الرأسماليون سياسة جديدة هى أن يغلقوا مصانعهم فزاد ذلك من جموع المتعطلين . وقد استولى الأسطول الألمانى على ريجا وجزائر مونزند وبذلك بات فى يد ألمانيا مفتاح خليج فنـلاندا الذى تطل عليه بتروجراد ، وكان ثم من الأسباب مايبعث على الاعتقاد أن القيادة الروسية العليا هى التى أمرت بالجلاء عنهما بغية ارهاب الشعب وحمله على الامتثال لأوامرها .

وبدأت حوادث التمرد فى الأسطول الألمانى فى سبتمبر ، وألقى القبض على الاشتراكيين فى ايطاليا ، فتوهم لنين أن أوربا كلها مستعدة لأن تثور حين تجد رجالا ذوى صلابة وعزم يبدءون الثورة ، وكتب فى رسالته « الأزمة ناضجة » يقول « نحن على أبواب ثورة عمالية عالمية » .

الدعوة الى الثورة

كان لنين يدرك أن المد لن يظل طويلا فى ذروته ، فاذا أغفله وهو فى الذروة انفض العمال عن البلاشفة انفضاضهم من قبل عن المناشفة وعن الاشتراكيين الثوريين . وقد يكون منصرفهم الى حــزب آخــر

كالفوضويين أو الى اليأس المطلق . وكان يحز قلبه أنه لا يستطيع الذهاب الى العاصمة على حين هو لا يثق بالذين يزعمون على الحزب فيها ، أولئك الذين دلوا بتقريرهم المشاركة فى البرلمان التمهيدى على أنهم يفتقرون الى الذكاء والحزم وقوة الارادة .

ومضى يرسل الى اللجنة المركزية يستحثها على اثارة الثورة واقامة دكتاتورية البرولتاريا قبل أن يتسنى للبرجوازين توطيد دعائم حكمهم بل قبل أن يسلموا العاصمة الى الألمان فتسقط بسقوطها القوتان المنظمتان الوحيدتان (أسطول البلطى وعمال بتروجراد) فى براثن الاستعمارية الأجنبية .

كان الذين فى الدوائر العليا من الحزب يترجحون ويتذبذبون ويجتزئون باعلان الاستنكارات واتخاذ القرارات ويجنحون الى الحلول الوسطى . وكان بعضهم لا يبتغون الثورة الا أنهم يخشون أن يضمحل الحزب البلشفى فيقعوا فى قبضة كرنسكى . وقد زعموا أنه ما من شىء يستطاع عمله قبل أن يجتمع مؤتمر السوڤيتات ، فرد عليهم لنين برسالته « الثورة ناضجة » قائلا أنهم اذا انتظروا ضاعت منهم فرصة الاستعداد النفسى عند الشعب للقيام بالثورة ، وانها لسياسة « لا تعدو أن تكون غباوة مطبقة أو خيانة منكرة » .

لقد جرت عادة الثوريين الذين لا يرغبون حقا فى الثورة أن يتساءلوا : الدى الثائرين من الحنكة والكفاية ما يستطيعون به ادارة الدولاب الحكومى المعقد ؟ أولا يلحق الضر بالغاية التى يسعون اليها اذا أخفقت المحاولة ؟ وقد ضرب لنين صفحا عن كل تلك الأقوال .

وفى كتابه « هل يستطيع البلاشفة الاحتفاظ بالسلطة ؟ » عمد الى الازدراء بأولئك الثوريين «الذين هم على استعداد لتقبل الثورة الاجتماعية اذا أقلنا اليها التاريخ فى هدوء وسلام ونظام كما يقلنا القطار الألمانى السريع الى المحطة فيفتح الساعى أبواب المركبات مناديا : محطة الثورة الاجتماعية . لتنزلوا جميعا » .

وجاء لنين فى ٧ أكتوبر خفية من فنلاندا الى بتروجراد و — على الرغم من لجنة الحزب المركزية — أهاب بمندوبى البلاشفة فى مؤتمر سوڤيتات الأقاليم الشمالية (١) أن يبادروا الى الثورة .

---

(١) كان البلاشفة وعلى رأسهم ترتسكى وبخارين قد دعوا الى هذا المؤتمر غير الرسمى حين بدأ من الحكومة ما يشى برغبتها فى منع أجتماع المؤتمر الثانى لسوفيتات روسيا كلها . وقد أعلن مؤتمر سوفيتات الشمال أنه سيظل مجتمعا لا يرفض ما دام هناك شك فى اجتماع المؤتمر الكامل .

واجتمعت لجنة الحزب المركزية فى ١٠ أكتوبر اجتماعها التاريخى متحامية خطر الشرطة بأن جعلت اجتماعها فى منزل المنشفى سخانوف الذى تكفلت زوجته البلشفية باقصائه عن المنزل حتى ينتهى ضيفه غير المدعوين من الائتمار به هو وحزبه . وحضر لنين الاجتماع وقد حلق لحيته واتخذ جمة من الشعر المستعار وحجب عينيه بمنظار ، وعرض على اللجنة مشروع قرار بضرورة الثورة فأقره عشرة من المؤتمرين وأباه اثنان هما تسنفييف وكمنف ثم أردفا ذلك بنشر كراسة يسوغان فيها موقفهما .

وعاد لنين الى مخبئه ، وأخذت الأيام تدور دون أن ينجز شيء . فاصر لنين على عقد لجنة الحزب المركزية مرة أخرى فاجتمعت يوم ١٦ منه فى لزنوى وهى مشرف من مشارف العاصمة . وتمادى تسنفييف وكمنف فى المعارضة وأعقباها هذه المرة أيضا ببيان نشرته لهما صحيفة جوركى (١) .

وآذن كمنف لجنة الحزب المركزية باعتزاله عضويتها على حين كان لنين قد طلب اليها أن تفصله من سلكها لافشائه سر القرار بالثورة . فقبلت الاستقالة بخمسة أصوات ازاء ٣ أصوات كان منها صوت ستالين وكان فى ذلك الوقت معارضا للنين وترتسكى (٢) .

---

(١) وقد كتب لنين على لسانهما متهكما : « الاحزم الا نثور لأنهم ان أردونا بالرصاص خسرت الدنيا هؤلاء الدوليين المعقولين المثاليين . ولنظهر ما لنا من فطنة بأن نصدر بيانا نعلن به عطفنا على الثائرين فى ألمانيا ونرفض شب الثورة فى روسيا . ان ذلك ليكونن دولية خالصة معقولة » .

(٢) وقد رفض ستالين كذلك اقتراحا بمنع تسنوفييف وكمنف من القيام بدعاوة تناقض رأى الحزب ، وفسر بعضهم ذلك بأنه لم يكن يؤمن حقا بمجيء الثورة التى وافق على اثارتها وأنه — لهذا — كان يتوقع ان تنحط مكانة لنين وترتسكى ويرتفع شأن تسنفيف وكمنف فاخذ يتألفهما .

التأهب للثورة

وبث الحزب الدعاة فى الثكنات والمصانع للقيام بدعاوة طويلة ربما كان الأمر فى غنى عنها ، وأرسل رجالا من أمثال ڤوزشيلوف ومولوتوف وكيروف وكاجانوفتش ويارسلافسكى وزدانوف لتنظيم الثورة فى الأقاليم وأخذ يعد العدة للثورة فى المصانع وفى الجيش وفى السفينتين الحربيتين أورورا (أى شفق الفجر) وزاريا سفوبودى ٠

وانشأ سوڤيت پتروجراد لجنة عسكرية تستقر فيها قيادة الثورة ٠ وأعلنت حامية پتروجراد ولاءها للسوفيت ، وبدأ المندوبون يتوافدون من شتى أرجاء روسيا على مؤتمر سوڤيتات روسيا كلها ، وكانت كثرتهم من البلاشفة .

وحدد لنين اليوم الذى تشب فيه الثورة فقال :

« سيكون يوم ٢٤ أكتوبر متقدما ٠٠٠ اذ لن يكون مندوبو المؤتمر قد وصلوا جميعا ومن الجهة الأخرى سيكون يوم ٢٦ أكتوبر متأخرا اذ أن المؤتمر سيكون قد التأم شمله ، وانه لمن العسير أن تقوم جماعة كبيرة من الناس بعمل حاسم سريع ، فيجب أن يتم الأمر فى ٢٥ أكتوبر وهو اليوم الذى يجتمع فيه المؤتمر لنقول له : ها هى ذى السلطة فماذا أنت صانع بها ؟ »٠٠

وصرح ترتسكى باسم السوفيتات قائلا : « يسألوننا هل نعتزم القيام بثورة . اننى أستطيع أن أجيب عن ذلك بجواب واضح جلى : ان سوڤيت پتروجراد يشعر أن الساعة قد أزفت بعد لأى ليكون زمام السلطة بأيدى السوڤيتات ، وسيخطو مؤتمر روسيا كلها هذه الخطوة خطوة نقل السلطة من قبضة حكومة الى أخرى ٠ أما القيام بجهوم مسلح فذلك من شأن أولئك الذين يريدون أن يتصدوا لمؤتمر روسيا كلها » .

وبذلت الحكومة قصارى جهدها فى التأهب لقمع الثورة ونصبت مفوضين ناطت بهم صيانة الأمن والنظام فى المدينة ، ثم شرعت تعد العدة لنقل العاصمة من بتروجراد الى موسكو مما أثار الظن بانها كانت تعتزم أن تتخلى عن بتروجراد للألمان لتتيح لهم القضاء على الثورة ، على أن العمال والجنود الزموها البقاء حيث كانت ، وأخذ رجال الثورة المضادة يتألبون ، فأنشأ الضباط الرجعيون منظمة لهم باسم «عصبة الضباط» وشرعوا يكتبون الكتائب ويحشدون من يعرفون بفرسان القديس چورج •

وتقدم كرنسكى الى بعض الفصائل التى فى ثكنات بتروجراد بالذهاب الى الجبهة فتصدى ترتسكى باسم لجنة الحزب الثورية قائلا : أن لا • وأمر كرتسكى باستدعاء بعض الفصائل من الجبهة الى بتروجراد فأرسل مجلس تلك الفصائل الى السوفيت برقية جاء فيها « نحن مرسلون الى بتروجراد وليست لدينا فكرة عن السبب فنرجو الايضاح » فأجابه السوفيت : راجين أن تحضر تلك الفصائل لتشد أزر اللجنة العسكرية.

وكانت الحكومة الموقتة قد تريثت فى اللجوء الى القوة فأتاح ذلك للبلاشفة وقتا كافيا لدراسة مصور بتروجراد وتوزيع قواتهم فيها •

وأجمعت الحكومة رأيها آخر الأمر على أن تقبل التحدى وأن تقابل العنف بالعنف ، وكان كرنسكى يؤمن بالنصر ، وقد ذكر للسير جورج بوكانان (قبل أن يهرب هو من باب احدى دور الحكومات مستخفيا فى زى طاه) أنه يود أن تشب الثورة ليقمعها •

ثورة اكتوبر

كانت الحكومة الموقتة ـ من الوجهة الفنية ـ هى التى بدأت الثورة وأهوت بالضربة الأولى ، فقد رأى كرنسكى أن يبادر الى العمل قبل أن يجتمع مؤتمر السوفيتات فأمر بكرة يوم ٢٤ أكتوبر بوقف مطابع البلاشفة وتعطيل صحيفتهم «طريق العمال» عن الاصدار ، الا أن جنود السوفيت « الحرس الأحمر » مالبثوا أن طردوا جنود الحكومة ومركباتها المصفحة • وما وافت الساعة الحادية عشرة حتى صدرت الصحيفة مذيعة الدعوة الى خلع الحكومة الموقتة •

ولم يقنع الحرس الأحمر بالمحافظة على صحف البلاشـــفة وحياطة مطابعهم بل لقد مضى فى الأمر فعطل صحف الحكومة ، وتتابعت الأعمال سراعا فاحتلت القوات الثورية مبانى الحكومة واحدا اثر واحد دون أن تلقى مقاومة ، ودانت بتروجراد للبلاشفة دون أن تهرق قطرة من الدم ، فلما قدم لنين من فيبورج الى سملنى ليحضر اجتماع سوفيت بتروجراد ذلك المساء ،علم أن ترتسكى أصبح صاحب الأمر فى المدينة فلم يبق عاصيا فيها الا قصر الشتاء الذى لجأت اليه الحكومة فى حمـــاية طلبة المدرسة الحربية وفصائل الصدام shock battalions • وما أسفر فجر ٢٥ أكتوبر حتى كان كرنسكى قد هرب فى سيارة للسفارة الأمريكية ينشد الغوث من الفرق الروسية التى فى الجبهة •

واكتست الجدران بمنشور « الى أهالى روسيا » يعلن خلع الحـكومة الموقتة وانتقال سلطتها الى اللجنة العسكرية الثورية ويبين أغراض الثورة وهى « عرض صلح ديمقراطى والغاء مالأصحاب الأراضى على الأراضى من حق الامتلاك ، وهيمنة العمال على الانتاج ، واقامة حكومة سوفيتية » •

وسددت الطرادة أوورورا مدافعها الى قصر الشتاء ، ودوت القنابل فى ذلك اليوم ٢٥ أكتوبر (١) مبشرة بالثـــورة الاشتراكية ، فما أقبل المساء حتى كان الجنود والملاحون قد استولوا على قصر الشتاء وقبضوا على

---

(١) وهو يوافق ٧ نوفمبر فى التقويم الجريجورى المعمول به فى بقية العالم والذى أقرت الحكومة الروسية فى أوائل فبراير ١٩١٨ اتخاذه فى روسيا أيضا ، ولهذا يحتفل الروس لثورة ٢٥ أكتوبر فى ٧ نوفمبر من كل عام •

اعضاء الحكومة الموقتة • وهكذا انتهت تلك الحكومة وبرلمانها التمهيدى وتم الانقلاب المسلح فى بتروجراد •

وما فتئت الثورة تفتتح البـــلاد الروسية بلدا اثر بلد ، فما وافى فبراير ١٩١٨ حتى كانت قد تغلبت عليها جميعا •

أسباب انتصار الثورة

وهكذا تم النصر لثورة أكتوبر بفضل لنين ومبادئه وقيادته وبفضل بعض ملابسات سعيدة نذكر منها :

١ ـ أن البرجوازية الروسية التى تصدت للثورة وكاشفتها بالعداوة لم تكن قوية فى اقتصادها ولا منظمة فى كيانها ولا محنكة فى سياستها ، فهى لا تقاس بالبرجوازية الفرنسية فى سعة الحيلة وعظم المقدرة على الغدر ولا بالبرجوازية البريطانية فى الاستخباث والختل بالحلول الوسطى • وقد خلعت القيصر ثم مضت على سننه فنادت بالحرب حتى النصر غير عابئة بمن هلك من ملايين الناس وظاهرت كبار الملاك على الفلاحين وبذت القيصر فى مقتها للعمال •

ولم يلمس الشعب فرقا واضـــحا بين حكومة البرجوازية وحكومة القيصر ، فالموظفون هم هم ورقـــابة الشرط هى هى والنظام الاقتصادى المرهق هو هو ، ومن ثم وجه الشعب للحكومة البرجوازية ما كان يكاشف به حكومة القيصر من مقت •

وقد استطاع المناشفة والاشتراكيون الثوريون أن يضللوا الفلاحين زمنا ثم انكشف الستار فاذا هم خول للبرجوازية ، فانقلب عليهم الفلاحون فاذا البرجوازية قد سقط فى أيديها ولم يبق لها ولى ولا نصير •

٢ ـ وأن الطبقة العاملة التى تصدرت ثورة أكتوبر وتولت قيادتها كانت قد خاضت قبل ذلك ثورتين فوثق بها الفلاحون وناصروها •

وأن فقراء الفلاحين كانوا قبل ثورة أكتوبر قد مارسوا الثورة ثمانية

أشهر تبينوا خلالها أن الحزب البلشفى هو وحده الحزب الجدير بأن يخلصهم من سادة الأراضى فاتحدوا مع العمال ، وتأثر بذلك متوسطو الحال من انفلاحين فزايلهم التردد وانحازوا الى الثورة ٠

٣ ـ وأن الطبقة العاملة أسلمت قيادها لحزب محنك هو الحزب الوحيد الذى آنس فى نفسه الشجاعة لقيادة الشعب فى الهجوم الحاسم غير ناكل أمام العقبات والعراقيل ٠ وقد وحد الحزب البلشفى بين شتى الحركات الثورية (كحركة الجند للسلام وحركة الفلاحين للاستيلاء على الضياع الكبيرة وحركة القوميات المضطهدة للتحرر وتحقيق المساواة وحركة العمال للتخلص من نير البرجوازية) ووصل بين تلك الروافد الصغيرة فأجرى منها نهرا دافقا جرف طبقة الرأسماليين من روسيا ٠

٤ ـ وأن ثورة أكتوبر بدأت فى وقت كانت فيه الحرب الاستعمارية فى عنفوان اضطرامها وقد فتكت الدول البرجوازية الكبرى بعضها ببعض حتى نهكت فلم تستطع بتدخلها فى الشئون الروسية أن تقضى على الثورة ٠

فضل لنين فى نجاح الثورة

كان شبوب الثورة الثانية أمرا محتوما ، لا لأن الناس كانوا ينشدون البلشفية بل لأنهم كانوا ينشدون السلام ٠ ولو أن لنين لم يكن لما حال ذلك دون قيام الثورة ولكنها كانت فى تلك الحالة لا تعدو أن تكون فتنة فاشلة تندفع اليها جماهير يائسة لا قيادة لها ٠ وقد ظل الفقراء قبل ذلك أربعة آلاف عام يثورون وانطوى التاريخ على الكثير من وقائع الحروب الطبقية ، وقد أصاب المتذمرون فى كل مكان : فى بلد الفراعنة وأرض الأوليمب وحدائق صقلية وروما الجمهورية والقيصرية وجنوب فرنسا والألبيين (١) واحدى الكاتدرائيات بألمانية القرون الوسطى وفى كومون

(١) نشأت فى مدينة البى بجنوب فرنسا جماعة دأبت تعمل خفية لخلع نير القساوسة عن كاهل الشعب والحيلولة دون مضيهم فى افساد المجتمع ، وكانت هذه =

باريس ، أصابوا لحظات نصر قصيرة ، قصيرة حتى لكأنها في التاريخ لمح بالبصر ، وكانت ثوراتهم تضرج عروش الحكام المهزومين بلون أحمر قان لا يلبث أن يطمسه المطر التالي ويعفي على آثاره .

ولكن ذلك الرجل الفذ الذي ظل طوال عمره يردد أن التطورات الاقتصادية (١) هي التي تفضي الى التغييرات السياسية لا مشيئة أفذاذ الرجال ، استطاع أن يصنع الثورة الروسية ورسم الخطة المحكمة لمحق مناوئيه فلم يحل دون نجاحه ما كان لأولئك الخصماء من قوة ومنعة وما اتصف به نصراؤه من قلة مروءة واستضعاف وما غرق فيه شعبه من جهالة وركون الى الخرافات والأوهام . لقد كان محوطا بأعوان لا هم لهم الا الثرثرة ولغو الحديث ، ينفرون من العمل المنظم وتعوزهم الخبرة حتى فيما يتصل بعملهم من سياسة وآداب وتاريخ واقتصاد ، وهم مكتفون بما تجود به عليهم قرائحهم الفطرية ولهذا لم يعدوا أن يكونوا ذوي كلام وحسب . كانوا شحاذين يزهون بما هم فيه من الفاقة والطوى زهو أصحاب الملايين بما يحوطهم من اليسار والنعمى ، وبهؤلاء الفوضويين الملتفين حول لنين نجح في أن يؤسس دولة . لقد فطن بعبقريته الى أن الثورة لا يجوز أن تكون مجرد ثورة تهب ريحها بل يجب أن يكون لها أس من نظام جديد ، وقد فهم مطالب الشعب وأحسن التعبير عنها في بيان واضح جلي ، ومن ثم جعل من الثورة عملا سياسيا واعيا أثمر تكوين حكومة ذات كفاية تنطق بلغة الجماهير وتعامل أعداءها بأسلوب شعبي .

وقد استعان بعلم التاريخ العملي ، الذي جلاه ماركس وانجلز ، في فهم التاريخ المعاصر واكتسب باصطناع الأسلوب الماركسي مزية لم تكن

= الجماعة تنادي بالرجوع الى تعاليم المسيحية في بساطتها الاولى .

وعهد البابا في القرن الثالث عشر الى الآباء الدومنيكيين ان ينشئوا منظمة تطارد أعضاء هذه الجماعة ومن اليهم من الزنادقة والهراطقة ، فأنشئوا ديوان التحقيق (محاكم التفتيش) ، وما زال هذا الديوان الفظيع بتلك الجماعة حتى افناها . بعد أن لبثت تقاوم سلطان الكنيسة زهاء قرنين ، ثم انبرى يتعقب المسلمين واليهود فاستأصل شأفتهم في اسبانيا ولم يخل الكاثوليك انفسهم من التعقب والاضطهاد فأودع مطابقة الراعبة كثيرا منهم سلط عليهم فيها آلات العذاب الشيطانية وما فتئ يعثو في تلك البلاد حتى غزاها نابليون بونابرت وأصدر في سنة ١٨٠٨ مرسوما بالغاء ذلك الديوان البغيض . ولما شاهد أبناء الشعب الاسباني تلك السجون البشعة وآلات التعذيب الجهنمية وجثث الضحايا الابرياء ثار بالآباء اليسوعيين ونكل بهم واذاقهم الكأس التي كانوا يجرعون ابناءه اياها .

(١) كحلول الآلات البخارية محل الادوات اليدوية في نهاية العهد الاقطاعي ومستهل العهد الراسمالي .

للذين نهضوا بالثورات البرجوازية من ثوريى ما قبل العهد العلمى • وانه ليكفى أن نوازن بين لنين ودنتون (أقدر الزعماء فى الخطط كما نعته ماركس) لنتبين ما بينهما من عظم الفارق •

فان دنتون لم يمض طوال حياته فى التأهب ليوم ١٠ أغسطس (١)، ولم يكن فى وسعه أن يعبر عن آرائه بصيغ يستطيع العالم كله أن ينتفع بها ، وان شعاره «الشجاعة الشجاعة ثم الشجاعة» ليمكن ان يفسر على نحو لا يعلى من قدره • أما لنين فقد أحسن اصطناع الأسلوب الماركسى وعصمته قوة ايمانه من الوقوع فى مثل الخطأ الذى وقع فيه الشيوعيون المجريون ذات يوم باتفاقهم مع اشتراكيين غير ثوريين (٢) •ووقاه تشبعه بالتفكير الجدلى dialectical من تحويل ماهو جدلى الى تلقينى dogmatic ولطالما ردد أن القانون انما يستمد من الحقائق الملموسة وأنه يكسب ماله من خطر بجريانه مع الواقع •

وعندما أوشكت ثورة أكتوبر أن تشب بدأ البلاشفة يتذاكرون أيحملون عبء قيادتها أم يتركون الزمام لغيرهم ، فكان لنين هو الذى بت فى الأمر مخاطرا بحياته فى سبيل مبدئه . مع أنه لم يشترك بنفسه فى

---

(١) فى ١٠ أغسطس من سنة ١٧٩٢ اقتحمت جموع الشعب الثائرة قصر التويلرى بعد مذبحة فى الحرس السويسرى • وساقت أبناء الاسرة المملكة الى السجن ، وطالبت بانتخاب المؤتمر الوطنى فاستجيب لها ، وبذلك بدأت فى تاريخ الثورة الفرنسية مرحلة جديدة تحررت فيها الى حد ما ، من نفوذ البرجوازية النفعية وقبض فيه القادة المخلصون للثورة المستمسكون بمبادئها على ناصية السلطان لضمان مصالح الشعب ، وبذلك أصبح الشعب سيد نفسه فعمد الى تحقيق أمانيه من التمتع بالحريات وممارسة الحقوق المدنية ، كما أنه رفع راية التضامن بين مختلف الشعوب ، ونادى بتحرير شعوب مستعمراته •

(٢) لقد غالى الخلفاء المنتصرون فى الحرب العالمية الاولى فى فرض شروط صلح قاسية على بلاد المجر المهزومة فلم تجد حكومة كارولى بدا من اعتزال الحكم فى ربيع سنة ١٩١٩ وترك زمام البلاد فى قبضة بلاكون Bela Kun • وهو يهودى ولد سنة ١٨٨٦ ودرس الحقوق ومارس الصحافة ووقع فى أسر الروس فلما نشبت الثورة الشيوعية فى روسيا انضم الى صفوفها ودعا الى مبادئها بين الاسرى المجريين ، ثم عاد الى بلاده ، وأصدر صحيفة تروج لهذه المبادىء •

ولما استولى على أزمة السلطة امم كبريات المصانع والمزارع والمبانى ، وتعاون أول الامر هو والاشتراكيون الديمقراطيون ثم بدا له فاستغنى عن معاونتهم •

ولم يتح له المضى طويلا فى انفاذ برنامجه اذ كان عليه أيضا أن يطارد جحافل التشيك التى احتلت سلوفاكيا ، وقد ظهر عليهم وقهرهم ، غير أن الحلفاء انبروا له وأخذوا يؤلبون عليه العناصر المناوئة للثورة ، وأطلقوا الجيش الرومانى على البلاد فأغار عليها واقتحم حاضرتها بودابست ففر بلاكون الى فينا وانتهى حكمه •

رسم الخطط الحربية للثورة فقد كان للمعلومات التى لقنهـا فى ثورة سنة ١٩٠٥ فضل فى المبـادرة الى الاستيلاء على المراكز الهـامة كدور البرق والبريد والمصارف المالية ومولدات الكهرباء ·

وقد كتب سنة ١٩٠١ فى ميونخ بحثـه « من أين نبدأ ؟ » وكتب وهو فى منفاه نظريته عن الدولة ليطبقها حين تنتصر الثورة ، وقد كتبها بمثل الثقـة واليقين اللذين يعد بهمـا ولى العهد اعلان ارتقـائه العرش ليذيعه ساعة اعتلائه · وعندما نجحت الثورة كان لنين هو الرجل الوحيد الذى هيأ فى ذهنه خطة كاملة لنظام جديد ·

وقل من كان يعتقد اذ ذاك أن سـلطان لنين سيكون أطول مدة من سلطان من سبقه من الحكام ، ولكنه هو كان راسخ اليقين بدوام سلطانه، فقد أمضى التاريخ أمره بذلك· وقد تكهن ماركس من قبل بانتقال السلطة الى العمال وبحلول النظـام الاشتراكى ، وكذلك تكهن بلخنوف قبل ٢٨ سنة بأنه اذا قيض للثورة الروسية أن تنتصر فلن يكون ذلك الا بوصفها جمهورية عمال ووطنا للثورة الدولية · وقد اختارت القوى التى تطرق التاريخ وتصوغه لنين لتتخذ منـه آلة لانفاذ مشيئتها فلم يكن بأقدر من القيصر على الهرب من المصير الذى أعتد له ·

موازنة بين الثورتين
الفرنسية والروسية

تمتاز الثورة البرولتـارية فى روسـيا من الثورة البرجوازية فى فرنسا :

١ ـ بأنها كانت تتجه حقا الى الغاية التى كانت تقصد اليها .

٢ ـ وبأنها كانت لديها الوسائل لبلوغ غايتها ·

٣ ـ وبأن زعمـاءها كانوا زعمـاء ظفر وفوز لا زعمـاء مأسـاة واستشهاد ·

٤ — وبأن زعيمها الأكبر لنين الذى تتجسد فيه الثورة كان هو المهيج الشعبى الذى يدبر الهجوم كما كان هو المهندس الاول لبناء الاشتراكية.

أما الثورة الفرنسية الكبرى فقد كانت تختلف ذاتيا عنها موضوعيا اذ لم تكن تتجه الى الغاية التى تنادى بها • فلقد أشعلها مشعلوها ليعمموا العدالة فى الشعب ، وليحققوا السعادة للناس ما استطاعوا ، ولكن الثورة كانت تتجه نحو تأليف مجتمع صالح لنمو الأعمال الصناعية الرأسمالية. ومن هنا نجمت مأساة زعمائها المثاليين ، فقد كانوا لا يقدرون أن يصلوا بما أوتوا من وسائل الى الفرض الذى وضعوه نصب عيونهم ، ومن ثم لم يكن فصل المقال فى الثورة للزعيم الثائر الذى نادى بالحرية بل للزعيم المضاد للثورة الذى أعاد النظام الى نصابه ، لم يكن لروبسبيير بل لبونابرت •

المؤتمر الثانى لسوفيتات روسيا كلها

اتخذ السوفيت معهد سملنى مقرا له وهو مبنى فسيح ضخم يقوم على ضفة النيفا على بضعة فراسخ من بتروجراد • وأصبح مندوبو المصانع والثكنات يذهبون ويجيئون فى جلبة وزياط فى دهاليزه التى كانت قبل تتجاوب فيها ضحكات التلميذات. وكانت بعض حجراته لاتزال تحتفظ على حوائط أبوابها باللوحات القديمة « فصل لدراسة السيدات » «حجرة المدرسات » ولكنها كانت تضم رجالا جفاة غلاظا من مختلفى الأجناس المنبثة فى روسيا تجهل كثرتهم القراءة والكتابة جذبتهم الثورة جذب القمر للماء وطوح بهم المد الى هذا المعهد التعليمى •

وأخذ يبدو على المكان طابع المقر الحكومى ،فعنه كانت تصدر أوامر مضادة للأوامر التى تصدرها الحكومة الموقتة •

اجتمع مؤتمر السوفيتات فى صباح ٢٥ أكتوبر ١٩١٧ والثورة قاربت أن تنتصر ، فأيد ٣٩٠ عضوا من أعضائه الستمائة والثلاثين

سياسة البلاشفة (١) وأقر ٥٠٥ منهم نقل أزمة السلطات جميعا الى يد السوفيت ، ثم انتخب مكتب الرياسة (بريزيديوم) وسط ضجيج الاستحسان والاستهجان فكان ينتظم ١٤ بلشفيا على رأسهم لنين و ٧ من الاشتراكيين الثوريين و ٣ من المناشفة ودوليا واحدا (من جماعة جركي). أما أنصار الاشتراكية المعتدلة على اختلاف منازعهم ومنازلهم من التطرف فقد اختفوا من الميدان .

وبرح لنين مخبأه فى احدى ضواحى بتروجراد ميمما معهد سملنى فبلغه عشية، وكان فى اثناء الانتخاب جالسا فى دهليز خارج قاعةالجلسة، على رأسه شعر مستعار وعلى عينيه منظار ، وأحس ببعض الأعين تحدق اليه فآثر أن يقصد الى غرفة جرداء غير مفروشة بأحد المنازل القريبة حيث وافاه ترتسكى واضطجع الى جواره مفترشين دثارا من الصوف (بطانية) وجعلا يتدارسان الأمور .

وارتج مبنى سملنى بدوى المدافع فصاح المناشفة بالبلاشفة : أيها القتلة، لقد اقتحمتم المدينة من خلفنا شأن قطاع الطرق. ولما تبين المناشفة ويهود العصبة وميامنو الاشتراكيين الثوريين هزيمتهم خرجوا من المؤتمر حانقين معلنين أنهم يأبون أن يشتركوا فى أعماله ، واصفين ثورة أكتوبر بأنها « مؤامرة عسكرية » فأعلن المؤتمر أنه يرحب بخروجهم ، وأصبح بعد ذلك مؤتمرا خالصا لمندوبى العمال والجنود .

وكان مرتوف يحمل لواء المعارضة فى المؤتمر ويصيح بأن سياسة البلاشفة ستلقى البلاد فى أتون ثورة مضادة . وطير الخبر الى ترتسكى وهو الى جوار لنين فسار قدما الى منصة الخطابة تقدمه لحيته ، وقال موجها الكلام الى مرتوف .

« لقد انتصرت ثورتنا . وأنت الآن تعرض علينا أن ننكر نصرنا ونقبل حلا وسطا ، وانى لأسأل : مع من ؟ نقبل حلا وسطا مع من ؟ مع الشرذمة الخليقة بالرثاء ، تلك التى فصلت منذ لحظة ؟.. انا لنقول لهؤلاء الذين فصلوا ولكل من يبسط مثل هذه المطالب : أنتم نفر منعزل خليق بالاشفاق . أنتم مفلسون . لقد انتهى دوركم وذهبت ريحكم فامضوا الى حيث أصبح جديرا بكم أن تكونوا ، الى صندوق قمامة التاريخ » .

فقال مرتوف « ها نحن أولاء ذاهبون » وشق طريقه الى خارج .

---

(١) ونستطيع أن نتبين ما طرأ على الاتجاه الفكرى فى البلاد من انعطاف وانثناء اذا لاحظنا أن البلاشفة لم يظفروا فى يونيو الا بـ ١٠٠ صوت من ٨٢٠ صوتا .

ووقفت الجلسة في الساعة الثانية من الصباح مدة ٣٠ دقيقة ثم أعيد الاجتماع ، فتلا الرئيس كمنف برقية باقتحام جيش الثورة لقصر الشتاء واعتقاله الوزراء جميعا ما عدا كرنسكي ، ثم اعتلى المنبر مندوب لكتيبة الدراجات التي جلبها كرنسكي لاعادة النظام فأعلن انحياز كتيبته الى البلاشفة ، وتليت برقية بأن الجيش الذي في الجبهة الشمالية أبى أن يزحف على البلاشفة وأنه كون لجنة عسكرية ثورية • وأحدثت هذه الأنباء أثرها فاغرورقت العيون وأخذ المجتمعون يعانق بعضهم بعضا ، ثم نهض لوناتشارسكي واقترح على المؤتمر أن يضع السلطة في النواحي المحلية في يد السوفيتات فوافقوا على ذلك أجمعين خلا ٢ عارضا و ١٢ أمسكوا عن ابداء آرائهم • وانفض المؤتمر في الساعة السادسة من الصباح •

حكومة البلاشفة

اجتمعت لجنة الحزب المركزية في اليوم التالي وأقرت لنين على مقترحه اقامة حكومة من البلاشفة وحدهم •

وألف لنين وزارة من البلاشفة أسميت « مجلس مفوضي الشعب » Sovet Narodnykh Komissarov وذلك كراهة لكلمة « وزير » التي كانت تستعملها الحكومة الموقتة (١) • وقد اجتزأ لنين بالرياسة وولي ترتسكي مفوضية الشئون الخارجية وستالين مفوضية القوميات وكرلنكو مفوضية الدفاع ولوناتشارسكي مفوضية التربية •

وبدأ المناشفة الدوليون ويساريو الاشتراكيين الثوريين الذين كانوا يعارضون كرنسكي يطالبون بنصيب في مناصب المفوضين ، وكان يساندهم في ذلك عمال سكك الحديد وفريق المثقفين بين البلاشفة أمثال كمنف وتسنفييف وريكوف ولوناتشارسكي وريازانوف فقد أبوا أن يؤيدوا لنين ما لم يأتلف مع الأحزاب الاشتراكية الأخرى ، ولكن لنين لم يحفل

(١) بيد أن حكومة ستالين عادت في سنة ١٩٤٦ الى كلمة « وزير »

بذلك اذ رای أن تلك الحركة أن هی الا حركة « أفراد من المثقفين » على حين تعضده الكثرة من أعضاء الحزب · ومع ذلك لم يكن لنين يعارض معارضة شديدة فی أن يتعاون هو وتلك الأحزاب على شريطة أن تقر برنامجه الذی يجعل السلطات كلها للسوفيتات ويعترف للقوميات فی داخل روسيا بحق تقرير المصير ويؤمم الأراضی ويفرض هيمنة العمال على الصناعات ويسخر البرجوازيين فی العمل ويدعو الى وقف الحرب على الفور · وقد أنكر مرتوف هذا البرنامج ، أما يساريو الاشتراكيين فكانوا على استعداد لاقراره بيد أنهم آثروا أن ينتظروا قرار مؤتمر سوفيتات الفلاحين الذی كان موشكا أن يجتمع بعد أيام معدودات ·

مؤتمر سوفيتات الفلاحين

ومضى لنين الى مؤتمر سوفيتات الفلاحين ولم يكن للبلاشفة فيه سوى خمس المقاعد ، أما كثرة المندوبين فكانوا من الاشتراكيين الثوريين، وباسمهم قال أحد مندوبی الارياف « اننا نأبى الاعتراف بما يسمى حكومة العمال والفلاحين ما دام الفلاحون غير ممثلين فيها ، وما الحكومة الى الآن الا دكتاتورية العمال » ·

وحاول مفوضو الشعب أن يدلوا بأقوالهم فقابلهم المندوبون بالضجيج والصراخ والعواء ، فلما نهض لنين ليتحدث اليهم قال له بعضهم « اقعد فليس لك أن تحدثنا بشیء » · ولكنه لم يقعد بل تريث لحظة ثم قال « لست أتحدث اليكم هنا على أنی عضو فی مجلس مفوضی الشعب بل على أنی عضو مندوب فی هذا المؤتمر » فلما أصاخ اليه القوم قال «ماذا تريدون على التحديد ؟ ان لكم مزارعكم فاحتفظوا بها ، ولكن كل شیء سيؤخذ منكم ثانية ان لم نستمر نحن فی حكم البلاد · ليس بيننا وبينكم خلاف فی الرأی ، والطريق مفتوحة للاتفاق · ان فی وسعكم أن تخلعونا من الحكم ، ولكن من سيخلفنا عليه ؟ أتعلمون ؟ انكم غير قادرين على أن تستقلوا به

بل أنتم مضطرون أن تحكموا مؤتلفين مع غيركم ، ثم رحب بالتعاون بين البلاشفة والاشتراكيين الثوريين ٠

وانطلق بعد ما انتهى من خطابه اثى سملنى حيث فاوض يساريى الاشتراكيين الثـــوريين ومنحهم ٣ كراسى وزارية أحدها كرسى مفوضية الزراعة ، اما يمينيو الاشـــتراكيين الثوريين فقـــد ائتلفوا هم وأعداء الجمهورية ٠

لنين فى المؤتمر الثانى

لسوفيتات روسيا كلها

واجتمع مؤتمر سوفيتات روسيا كلها مرة أخرى فى مساء ٢٦ اكتوبر وأعلنت موجة من الهتاف الصاخب دخول الحكومة الجـــديدة قاعة الاجتماع ٠ لقد ظل لنين فى مخبئه طوال أربعة الأشهر السالفة التى نمت فيها قوة البلاشفة نموا عظيما وقضى قبل ذلك سنوات فى منفاه ٠ وقل من بين المجتمعين من عجمت عيناه لنين من قبل ٠ لقد كان عندهم أشبه ما يكون بأبطال الاساطير ، وها هو ذا الآن تتجسد فيه عقيدتهم ويجد فيه ايمانهم بالثورة تعبيرا قويا ٠ لقد أصبح الآن شخصية عالمية تقبض بيدها على دفة التاريخ العالمى وتثنيها الى اتجاه جديد ٠

وأعلن كمنف نجاح الثورة وقال ان ثمة مسائل يجب البت فيها وهى ما يتصل بالسلام والاراضى والحكومة ٠ وتلاه أحد المناشفة فجعل يصخب ويتهـــدد ، فان المعتدلين الذين أعلنوا فى جلسة أمس أنهـم يبرحون السوفيت الى غير رجعة عادوا اليوم متهددين متوعدين ٠

وكان لنين يجيل طرفه فى الجالسين ليتبين ما يرتسم على وجه كل منهم من آيات السخط والحنق أو الرضا والتحمس ، وكان مئات البلاشفة يشرعون أنظارهم اليه ، وكأنما تتدفق منهم تيارات من القوة تتجمع فى رأسه. لقد ظل السنين الطوال يعمل فى العواصم الاوربية المختلفة تطلعا الى هذا اليوم فلما ظفر بالسلطة التى كان يسعى اليها أخذت الصعوبات تواجهه والعراقيل تبرز فى طريقه ٠

والآن ، الى العمل سريعا

ورقي المنبر ، وكان في تلك اللحظة ـ كما وصفه چون ريد في كتابه « عشرة أيام تهز العالم » ٠

« جسما قصيرا بدينا ركب بين كتفيه رأس كبير أصلع قليلا ذو عينين صغيرتين فيهما رأرأة وأنف أفطس وفم واسع وذقن قوى كان حليقا ٠ بيد أنه بدأت تظهر عليه لحيته التى عهدناها له في الماضي والمستقبل ، وكان رث الهيئة سرواله عليه ســابغ بافراط وشكله لا يلائم من يكون معبودا للدهماء ، فياله من زعيم شعبي عجيب ٠٠ وقد ارتفعت أصوات التهلل له والترحيب به ٠٠ فلما فترت الحدة قال : والآن ، هلموا بنا نعمل لبناء النظام الاشتراكي »

وأخذ لنين كعادته ينثر الكلام غير مشوب بمظاهر البطولة ولا هو معبر بجمل بليغة في مقاطعه ، بل كان يختم كل جملة من كلامه بقوله : هذا هو كل ما أردت أن أقوله لكم ٠

قال «ما هو الخطر الذى لثورة العمال والفلاحين ؟ أن خطرها هو ـ قبل كل شيء ـ أن لنا الآن أداة سلطتنا التى لاتشترك فيها البرجوازية .. أما آلة الدولة القديمة فقد نسفت » ثم قال وهو يعلم أن الورقة التى ربح بها هى ورقة السلام : « ان حكومة العمال والفلاحين التى جاءت بها الثورة فى ٢٤ ـ ٢٥ أكتوبر والتى تعتمد على سوڤيتات مندوبى العمال والجنود تتجه الى جميع الشعوب المقاتلة وحكوماتها طالبة اليها البدار الى المفاوضة لعقد صلح عادل ديمقراطي »

وحبذ نشر جميع الاتفاقات السرية والغـاء الدپلوماتية السرية الغاء تاما ، واقترح عقد هدنة لثلاثة أشهر ، ثم قال « والآن. لقد خلعنا حكومة الصيارفة.» فوقف الجميـع رافعين عقائرهم بالنشيد الدولى وهو ينشد معهم من فوق منبر الخطابة ٠

ثم عرج على مسألة الاراضى ، وكان يعلم أن بقــاء البلشفية رهن باكتساب الفلاحين فى صفوفه فلم يجد بدا في سبيل اكتسابهم من أن ينزل الى حــين عن طرف من مبـادئه ، فاقترح أن تسـتصفى على الفـور اقطاعيات الاسرة المالكة وأراضى كبار الملاك والأديار والكنائس بماتحوى من آلات ومواش (على أن تقوم سوڤيتات الفلاحين بحراستها بوصفها أملاكا قومية) أما أراضى سواد الفلاحين فتبقى فى أيدى أصحابها ٠ والواقع أن

توزيع الاراضى بالقسطاس لا يمت بصلة الى الاشتراكية ، ولكن لنين كان فى حاجة الى معونة الفلاحين ، وسيحل اليوم الذى يستغنى فيه عن تلك المعونة فيدفع بالمسألة خطوات أخرى الى أمام .

وأصدر المؤتمر فى تلك الليلة مرسوم الاراضى فاستعاد به الفلاحون ما يربى على ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ فدان وتخلصوا عـلاوة على ذلك من أداء ايجارات سنوية قدرها ٥٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل ذهبا كما أصبحت به جميع المنابع المعدنية (النفط والفحم والفلزات) والغابات ملكا للشعب .

لقد بلغ لنين بهذا المرسوم الغـاية من سياسة الاراضى التى يرجع عهدها الى سنة ١٩٠٥ والتى تجعل الطبقة العاملة تلقى بالها الى مطالب الفلاحين .

وهكذا غير فى الســـاعات الاولى من حكمه كل شيء ، غير مذعن لقانون المعارضة التقليدى غير المكتوب الذى يملى على رجال السياسة أن ينسوا حين يصلون الى الحكم كل ما قالوه وعاهدوا الناس عليه من قبل

وقد تفرق المندوبون بعد انفضاض المؤتمر لينشروا فى طول البلاد وعرضها نبأ انتصار السوفيتات .

متاعب الحكومة

ولكن الثورة التى ظفرت بالنصر سهلا فى پتروجراد لم تلبث أن تعرضت لكيد أعدائها ومقاومتهم لها مقاومة ايجابية وسلبية ، فقد تضافر أعضاء الدوما المنحلة والجمعية الدســتورية التى عوملت بازدراء ورئيس الوزراء المخلوع كرنسكى ـ على تعكير صفو البلاد وزعزعة الامن فيها ، وألف الساسة المخلوعون لجنة لذلك تنتظم شتى العناصر المناوئة للبلاشفة تسمى « لجنة انقاذ البلاد والثورة » ، وأبى البرجوازيون أن يتعاونوا هم والحكومة السوفيتية ، وكانت مقاطعة الحكومة مما يجلب لصاحبها التجلة والتمجيد ، بيد أن البرجوازية الروسية ـ كما ورد فى بيان المؤتمر الاول للاشـــتراكيين الديمقراطيين ـ كانت تنطوى على الجبن لا بازاء القيصر

وحده ، بل كذلك بازاء أعدائها الطبقيين الجدد ، أجل ، لقد كانت تضمر من الحقد مايكفى لاشعال حرب أهلية ، بيد أنها لم تكن تملك من الشجاعة ما يكفى لخوض غمارها ، ولهذا تسنى للثورة أن تعم البلاد ، فلم يقاومها الا طائفة الضباط وطلبة المدارس الحربية .

وقد ووجهت بتروجراد بعد انتصار البلاشفة باضراب عام لم يقتصر على كبار الموظفين بل شمل كذلك ذوى الأردية السوداء (مثل موظفى المصارف المالية) وغيرهم ممن قضوا الشطر الأكبر من حياتهم فى غرف فاسدة الهواء ومن لا يحذقون غير الاستكانة والرياء .

لقد كان أولئك الصعاليك المساكين لا يعرفون شيئا أكثر من امتعتهم فى بيوتهم ومن مكاتبهم فى مصالحهم الحكومية . ومن أشجار عيد الميلاد والاطفال فى مساكنهم ومساكن جيرانهم والتنزه أو معاقرة الخمر فى بعض أيام الآحاد ، ولكنهم كانوا يجدون العزاء عن تفاهة حياتهم فى رحابة قصر القيصر الذى يعطيهم خبزهم وفى زركشة ثياب سادتهم وتلألىء حلى نساء الوزراء والكبراء ، وكانت فظاظة الحجاب وذوى الثياب الموشاة تجعل حياتهم هم محتملة .

نعم ، لم يكن عبيد المصالح الحكومية هؤلاء ممن يرتدون الاردية الرسمية ولكنهم كانوا أعضاء فى الطبقة المثقفة يلبسون أقمصة صدورها منشاة . وكانت الكاتبات بالآلات الكاتبة على مخصصتهن يطلين أظفارهن ويقرأن القصص الرومنسية فيشاطرن بطلاتها الأميرات والكونتسات ما يصيبهن من آلام وما يعتريهن من أتراح ، فكيف يتأتى أن يأتى الى هؤلاء الموظفين والموظفات بعد ذلك وزراء من أوساط الناس لا يرتدون الحلل الرفيعة : الردنجوت فى النهار والفراك فى الليل ، ثم يتحدثون الى الموظفين فى مكاتبهم فى غير كلفة ولا وقار ؟ ان هؤلاء الموظفين ليستنكفون أن يعملوا تحت امرة حكومة من هذا الطراز .

وقد أبى عمال البرق وسكك الحديد أن يمضوا فى أعمالهم ، أما محطات اللاسلكى فكانت لا تزال تعمل وكذلك بعض الطائرات . واجتثت الحكومة المضربين والذين كانوا يستخبثون فى أعمالهم من مناصبهم دون رحمة وأحلت محلهم آخرين يوثق بولائهم . وأبى الصيارفة أن يسلموا مقاليد خزائنهم ففتحت بالديناميت . وأعلن لنين شعاره « لا طعام بغير عمل »

لم يتطلب الارهاب فى الأسابيع الاولى من الحكم الجديد أرواحا

بشرية ، ولم تسمع همهمة الأسرى في محابس الباستيل القديم ، وكان مباحا لصحف المعارضة أن تطبع وأن تنشر ما تهوى ، فلم تتورع عن تخرق أبشع الأكاذيب حول ما يجرى في سملني وما تتجاوب به قاعاته من عربدة مفوضى الشعب وحياة الحاكم الجديد وسط « حريمه » وعزت الى البلاشفة انهم يصدرون في كل أعمالهم عن توجيهات انضباط الألمان وأنهم يمتثلون ما يتلقون من أوامرهم .

كان لنين يتسخط حلم زملائه وكبار موظفيه ويقول انهم بوقوفهم ساكنين بازاء مسلك خصومهم لاينهضون بما تفرضه عليهم الاشتراكية وان المرء لايستطيع في الثورة أن يقف ساكنا بل هو مكره أن يسير الى أمام والا سقط ، واذن ف « لن نسمح للبرجوازيين باحتكار الصحف والمطابع والورق وما الى ذلك ، فيجب أن يصبح كل ذلك ملكا للحكومة السوفيتية» وقال عندما علم بأن مجلس مفوضى الشعب ألغى عقوبة الموت في اجتماع غاب هو عنه «ياله من جنون .. على أية صورة تتصورون ماتكون عليه سياستكم لأعدائكم اذا جردتم أنفسكم من السلاح ؟ وماذا يبقى لكم لتفرضوا سلطان الدولة ؟ السجن ؟ ومن ذا الذى يعبأ به في وقت الحرب الأهلية وكل حزب يأمل أن ينتصر ؟ » .

لقد لبث مجلس مفوضى الشعب زمنا ما يلتزم القصد والاعتدال في سياسته فشجع ذلك الرجعيين على الاسترسال في غوايتهم ونمت التجارة المحرمة والمضاربة وتفاقمت الجرائم وكثرت حوادث الفرار من الخدمة العسكرية فعمد لنين الى :

١ ـ انشاء لجنة لمكافحة أعداء الثورة ومستغليها، تلك هى « اللجنة الروسية الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب» وهو الاسم الذى استبدل به فيما بعد اسم تشكا Cheka ، وعين جرجنسكى رئيسا لتلك اللجنة التى ظلت ضئيلة الأثر حتى بدأت الحرب الأهلية الحقيقية .

٢ ـ وأنشأ كذلك المجلس الاقتصادى الأعلى ورخص له في استصفاء المؤسسات الصناعية .

٣ ـ وأمم جميع المصارف المالية وضخم النقد تضخيما أضاع على الناس ماكانوا قد ادخروه في العهد القيصرى، فلم يبق لهم من دخل الاما يستأدون من أجر على ما يؤدون من عمل .

كان لنين لايفتأ يردد قول ماركس ان الحكومة ان هى الا « لجنة تنفيذية لتدبير شئون الطبقة الحاكمة » .

وقد كان يطالب الحكومة ـ خلال حكم الطبقة المعادية ـ بالاصلاحات المسايرة لمذهب الاحرار كحرية الكلام والنشر واصدار الدستور ، لأن هذه المنح توهن من قوة الحكومة ، ومن ثم كان من خطل الرأى أن يوهن هو من قوة حكومته عند استيلائه على الحكم بأن يسخو بمنح ينتفع بها أعداؤه

المتاعب فى صفوف الحزب

وبينما كان لنين يعالج معارضة خصومه اذا المعارضة تشب فى معسكره هو ، وذلك ما لم يكن يستسيغه أو يفهمه • لقد تأثر نفر من البلاشفة القدامى بالرأى العام وأفزعهم أن يروا الحكومة تنأى عن سائر الاحزاب الاشتراكية فطلبوا تأليف حكومة تنتظم الاحزاب الاشتراكية جميعا ومن بينها الحزب المنشفى والحزب الاشتراكى الثورى اللذان كانت ثورة أكتوبر هزيمة لسياستهما ، ولكن لنين لم يكن بالرجل الذى يضعف من الوحدة والاتساق بتقديم كراسى الحكم لأولئك المناشفة الذين أدرك ببصيرته السياسية أن زمانهم قد آذن بالانصرام • ولعله كان يود أن يقول للمعارضين من رفاقه ما قاله ايفان المرعب للترجمان حين سأله وزير هولاندا لم يعامل الشعب بهذا الجور والقسوة « قل لهذا الغبى الاجنبى انه لا يعرف روسيا ولكنى أنا أعرفها جيدا ، فأنا ان لم أشنق رعاياى شنقونى هم •• »

وقررت لجنة الحزب المركزية فى ٢ نوفمبر رفض سياسة الائتلاف ووجهت اللوم الى أنصار تلك السياسة فاعتزلوا اللجنة قائلين انهم لا يستطيعون أن يقروا « ابقاء حكومة بلشفية محضة بوسائل الارهاب السياسى » فرد لنين عليهم ساخرا من أولئك « الذين يفرقون من البرجوازية » معلنا أن الطبقة العاملة تنبذ الهاربين بمثل السهولة التى ينبذ بها قطار السكة الحديدية ما يكون فى سبيله من حصباء •

واعتزل ٣ من مفوضى الشعب مناصبهم فاتصل بهم المناشفة

ويساريو الاشتراكيين ثم أعلنت هاتان الكتلتان استعدادهما لأن تأتلفا هما والبلاشفة اذا استقال لنين وترتسكي ، فأذاع لنين بيانا جاء فيه : « لقد ظفر الحزب البلشفي بتأييد كثرة المؤتمر الثانى لسوفييتات روسيا كلها فلم يكن ثمة بد من تأليف الحكومة السوفييتية من بين صفوفه • وقد أعلن أمس نفر من أعضاء اللجنة التنفيذية لحزبنا وأعضاء مجلس مفوضى الشعب: كمنف وتسنفييف وريكوف ومليوتين وغيرهم اعتزالهم لجنة الحزب المركزية•• واستقال كمنف وريكوف ومليوتين من مجلس مفوضى الشعب•• وانا لعلى يقين أن جميع ••• العمال والجنود والفلاحين سيوافقوننا على استنكار مسلك هؤلاء الآبقين • ألا سحقا لهؤلاء الذين وهنت منهم العقيدة وتفشاهم الجبن واستبد بهم التشكك ، أولئك الذين سمحوا لأنفسهم أن يتطرق اليها الفزع من ضجيج غير ذى بال »

وقد أناب أولئك المفوضون بعد أيام معدودات الى لنين سائلين العفو والمغفرة •

الثورات المضادة

اخذ أعداء الثورة يعملون لاستعادة سلطانهم المضيع فأثارت «لجنة انقاذ الوطن والثورة » فى ١١ نوفمبر فتنة فى بتروجراد قام على رأسها طلبة المدرسة الحربية بيد أن الملاحين والحرس الأحمر أخمدوها عشية اليوم نفسه •

وتقدم كرنسكى ، وكان قد استقر بعد هربه فى بسكوف ، الى الجنرال كرزنوف قائد تلك المنطقة بالزحف على بتروجراد ، فزحف اليها فأوقع الحرس الأحمر به الهزيمة فى ١٣ منه ، وتمرد عليه من تحت امرته من القوزاق الراغبين عن القتال وأسلموه للبلاشفة ، فأخلوا سبيله بعد أن وثق لهم العهد أن ينتهى عن مناهضة الحكومة السوفيتية (١) • أما

(١) ثم خفر العهد ، كما سيأتى ، وكان له فى حروب البيض بجنوب روسيا شأن كبير •

كرنسكي فقد تخفى فى لبوس امرأة وبذلك أفلت من الاعتقال .

وكانت موسكو أصلب على البلاشفة عودا من بتروجراد ، وكان كفاح اليونكرز (١) فيها أشد ، وذلك يخالف ما كانت عليه الحال سنة ١٩٠٥ وما كان يتوقعه لنين ، ومع ذلك فانه ما كاد يبدأ الشهر التالى حتى استسلمت للبلاشفة ، وأصبح البلاشفة بعد أسابيع سادة روسيا كلها ما عدا :

١ - أكرانيا الغربية اذ اجتمع فى عاصمتها كييف « رادا » (٢) أكرانى قومى .

٢ - بلاد قوزاق الدون وقد ظلت موالية لأتمانها (٣) الجنرال كالدين .

٣ - الأقاليم التى كانت تحتلها دولتا الوسط .

٤ - وكانت بعض النواحى الريفية مرتطمة فى أوحال الفوضى .

الجمعية الدستورية

كان البلاشفة قبل ولايتهم الحكم يلحفون على كرنسكى أن يدعو الى انتخاب الجمعية الدستورية بزعم أنها أكمل تعبير عن مبادى الديمقراطية(٤) وقد ظل لنين ثلاثين عاما ينادى بالحكم النيابى وكان من أسابيع قليلة

---

(١) تطلق الكلمة الالمانية Junker على النبيل الاقطاعى وتدل بوجه عام على طبقة كبار ملاك الاراضى .

(٢) Rada أى مجلس .

(٣) Ataman هو لقب زعماء القوزاق .

(٤) على أن الحزب البلشفى لم يفتأ منذ مارس ١٩١٧ يردد القول بأن الديمقراطية السوفيتية خير من الديمقراطية البرلمانية وانها الطراز الحكومى الوحيد الذى يسهل الانتقال الى الاشتراكية انتقالا غير مشوب بمعقبات اليمة .

يرمى كرنسكى بأنه يخشى اجتماع الجمعية الدستورية ، فما كاد يرتقى منصة الحـــكم حتى دلف اليه بعض زعماء الحزب يطالبونه بالدعوة الى انتخاب الجمعية الدستورية قائلين انهم سيوصمون بين الناس بالرياء ان لم يحققوا ما وعدوا . لقد ظلت أجيال من الشعب الروسى تحلم بالجمعية الدستورية وتنيط بها آمالها ، وفى سبيلها ترنحت أجساد الألوف من المجاهدين على أعواد المشانق .

لم يكن لنين مرتاحا الى هذه المطالبة ، فهو لم يهزم الأعداء لكى يضيع معهم الوقت فى مجادلات جوفاء . وقد أراد أن يرجىء الأمر ، على الأقل ، حتى ينظم قوائم الانتخاب ويضع قوانين يحرم بها رجال كرنيلوف ومن اليهم حق الانتخاب ، ولكن مفوضى الشـعب أنبأوه أن الولايات لن تستطيع صبرا ، وما زالوا به حتى أذعن وهو يردد « يالهـا من غلطة جسيمة » .

وتم الانتخاب بعد ثورة أكتوبر بقليل وكان الترشـيح للدوائر الانتخابية قد سبق ذلك بأسابيع ، أى قبل أن ينقسم الاشـتراكيون الثوريون الى مياسرين وميامنين ، فانجذبت الجماهير الى ذلك الحزب بأسماء المياسرين على حين أن قوائم الحزب لم تكن تضم منهم الى القليل . ففى مدينة موسكو ، مثلا ، كانت قائمـة الحزب مبتدئة باسمى عضوين من الميامنين تتبعهما أسماء عدة لأعضاء مياسرين ، وبما أن الأصوات التى ظفر بها الحزب لم تكن تكفى الا لانجاح عضوين اثنين نجح العضوان الميامنان وحدهما .

وقد صوتت كبريات المدن للبلاشفة وخذلتهم القـرى ، وكانت نتيجة الانتخاب على النحو الآتى :

نال البلاشفة	٩	ملايين صوت
والاشتراكيون الثوريون	١٦	مليونا
والجماعات المحافظة	٣	ملايين
والمناشفة	١	مليون
والكادت	١	مليون

وقد جرت بعد الانتخاب أحداث غيرت من توزيع القوى السياسية وأظهرت فى جلاء أن الجماهير فى جانب الحكومة السوفيتية ٠

ولم يكن من المعقول أن يتخلى البلاشفة عن السلطة نتيجة للتصويت العام وان يتقهقروا أو يقبلوا مكانا ثانويا فى كراسى المعارضة،ولم يكن من طبيعة لنين أن يصافح آخر يخلفه على الحكم وأن يجمع رؤساء المصالح الحكومية ليدعوهم الى الولاء للخلف ٠ وهل كان من سبقه قد سلمه السلطة فى سلام ؟ وماذا عليه ان لم يفز بأصوات كثرة الشعب ؟ وما هى الكثرة ؟ هى التى تمثل ألف سنة من العبودية والقنانة (١) ؟ هى ربيبة المعاهد التى قوضها وقلبها رأسا على عقب ٠

وعمد لنين الى مراجعة حساب الأصوات التى ظفر بها فى المدن الكبيرة فوجد أن كثرة العناصر النشيطة فى جانبه ، وقد قال فى ذلك :

« يجب أن نتبين ٣ دعائم هى التى أتاحت النصر للبلاشفة ، وهى

كثرة محققة بين الطبقة العاملة ٠

نحو ½ أصوات الجيش ٠

الرجحان فى اللحظات الخطيرة فى الأمكنة الخطيرة ، يعنى العاصمة وبعض جبهات الحرب الهامة ٠

لقد استمدت الحكومة السوفيتية سلطانها من مؤتمر سوفيتات الفلاحين ومن العمال والجنود ، فكان من حقها أن تنقض الجمعية الدستورية مستعينة بمن يشد أزرها من العناصر النشيطة ٠

وأنفذ لنين الى مندوبيه فى المصانع والثكنات يبين لهم جانبا مما سيكون ٠ واتخذ الحيطة التامة ليوم افتتاح الجمعية الدستورية ، وعين

---

(١) ظل نظام العبودية slavery ساريا فى بلاد الرومان وغيرهم حتى أوائل العهد المسيحى حيث كان العبد يباع كالبهيمة مستقلا عما سواه ، وقد انتهى ذلك النظام العتيق ابان القرون الوسطى وحل محله نظام القنانة serfdom فأصبح الاقنان يباعون مع الاراضى التى يفلحونها دون أن يباح لهم منها البراح ٠

ضابطا للاشراف على قصر توريدا الذى ستجتمع فيه والذى كانت تجتمع فيه الدوما من قبل ، وجلب الى بتروجراد فيلقا لتوانيا كثرته من العمال « فان الفلاحين يخذلوننا فى مثل هذه الشئون » ٠

وفى ٥ يناير ١٩١٨ قام ٥٠٠٠ره ملاح بتشتيت الزحام فى بتروجراد وأخلوا الشوارع من الناس ٠ وكان لنين يدير هذه الأعمال بنفسه ويرقب تنفيذها من نافذة بقصر توريدا ٠ لقد تعلم وهو يكافح دوباسوف منذ ١٣ عاما خلت كيف يقمع المتمردون وكيف تدار حرب السدود والموانع فى الطرقات ٠

وتبوأ النواب أمكنتهم فى القاعة وكانت عدتهم ١٤٠ من الموالين للحكومة و ٢٧٣ من المعارضين ٠ وقد جاء المعارضون ليتكلموا باسم الأم المقدسة روسيا ، ولم تكن لديهم فكرة عن أى شىء آخر يقومون بعمله ولم يجل بأخلادهم احتمال أن يحل لنين الجمعية ٠ وكان كل ما اتخذوه من حيطة أن جلبوا معهم مقادير وافرة من الشطائر ليتبلغوا بها اذا حيل بين المطاعم وبين تقديمها الطعام لهم ، وهكذا ـ على حد تعبير ترتسكى ـ « اشتبكت الديمقراطية فى قتال الدكتاتورية وهى مسلحة حتى أسنانها بالشطائر والشموع » ٠

لقد كان من الجلى ان الروح المهيمنة على الجمعية مناوئة للبلشفية بيد أنه كان من الجلى كذلك أن الذين غصت بهم شرفاتها من حرس وجند وملاحين وعمال كانت كثرتهم من البلاشفة وكانوا لا يفتئون يقاطعون النواب بالقهقهة والمكاء والمواء ٠

وبرح لنين قصر توريدا ليتحدث الى اللجنة التنفيذية المركزية للسوفيتات ، ففوضت اليه أن يصدر مرسوما بحل الجمعية الدستورية فكتبه فى مكانه متهما فيه الجمعية بأنها تأبى الاعتراف ببرنامج المجالس وأنه :

« بذلك قطعت الجمعية الدستورية كل صلة تربطها بجمهورية روسيا السوفيتية ٠٠٠ ثم ان الأحزاب التى تنتمى اليها كثرة الجمعية تناوىء الحكومة السوفيتية علنا خارج الجمعية وتحض على خلعها ، ومن ثم أجمعت اللجنة المركزية رأيها على حل الجمعية الدستورية ٠

ورجع لنين الى الجمعية فدعا الضابط الذى وكل اليه الاشراف عليها وخط له رقعة تقدم اليه فيها بأن يدع هذه الجلسة حتى تنفض على ألا يسمح لامرىء منذ الغد أن يطأ عتبة قصر توريدا ٠

ولما كانت الساعة الرابعة من الصباح نفد صبر الضابط وضاق بالجمعية ذرعا فمضى الى لنين يستأذنه فى فضها فأذن له فى ذلك مبتسما وانصرف الى سملنى مخليا بينه وبين مايريد ، فاقتحم الضابط قاعة الاجتماع وارتقى المنصة وربت كتف الرئيس تشرنوف فى غير كلفة منبئا اياه أن الجمعية قد حلت وأن عليه أن يصرف النواب لأن الحرس قد نهكهم التعب ، فانفض النواب كقطيع من الأغنام يثغون بالتذمر ويرغون بالاستنكار •

وأصبحت بتروجراد فاذا طريق قصر توريدا يغرقها الحرس • وذاع النبأ بأن الجمعيةالدستورية قد حلت لأنها لم تكن الا سترا للثورة المضادة البرجوازية فى كفاحها فى سبيل خلع سلطان السوفيت (١) •

وكان ذلك ختام الديمقراطية التى عاشت فى روسيا خمس ساعات (٢) •

صلح برست لتفسك

كان لنين يدرك أن الشعب لا يطيق الصبر طويلا على الاكتفاء فى غذائه بكراهة البرجوازية والحقد عليها ، فهو يجنح الى السلام وقد أودى بالبرجوازية لأنها لم تبلغه تلك الغاية (٣) وهو يبغيه مهما يبلغ ثمنه وهو يصر على ألا يأتى عليه شتاء آخر وهو يصلى نار الحرب •

---

(١) وكان من نتيجة حل الجمعية الدستورية أن صارت روسيا جمهورية سوفيتية ، بيد أن دستور الجمهورية لم ينجز الا بعد ٨ أشهر فى مؤتمر السوفيتات الخامس فى يوليو ١٩١٨ •

(٢) وقد أعلن لنين بعد ذلك انه لا يتاتى أن تكون هناك حرية قبل أن ينقضى طور الانتقال الى النظام المنشود الذى تعم فيه الحرية ويختفى منه تباين الطبقات •

(٣) وقد تابعه فى مسعاه للسلام كثير من غير المشتغلين بالسياسة وبعض رجالات الجيش مثل الجنرال فرخفسكى فكان ذلك مما عجل بسقوط حكومة كرنسكى •

وقد أصدرت الحكومة السوفيتية «مرسوم السلام» فى أول يوم من حكمها ووجهت نداءها فى ذلك الى الطبقات العاملة فى الدول المحتربة فلم تتلق جوابا من بلاد الحلفاء اذ أبت حكوماتها أن تعترف بالحكومة التى لا تمضى مضـــيها فى الحـــرب ، وأمر مجلس مفوضى الشـــعب بمفاوضة الألمان ولكن سردار الجيش دخونين كره أن يمتثل هذا الأمر فاتصـــل به رئيس الحكومة تليفونيا وسأله فى ذلك فجعل يراوغ ، فاقتضـــب لنين حديثه معه وعزله ونصب مكانه كرلنكو الطالب بالمدرسة العســـكرية ، وأذاع بيانا جاء فيه « لقد أقيل من القيادة دخونين اذ أبى أن يفاوض لوقف الحرب ، فيأيها الجنود : اذا كنتم راغبين فى مواصلة الحرب فنافحوا عن دخونين ، أما اذا كان السلم بغيتكم فاحموا بســـلاحكم مجلس مفوضى الشعب » . وما عتم القائد المعزول أن أردى قتيلا ، طعنه أحد الملاحين بسنان رمحه .

وأنفذ لنين الى الألمان وفدا لمهـــادنتهم برياســـة جوفه . وبدأت محادثات الهدنة فى ١٩ نوفمبر ووقعت فى ٢٢ منه وما مضى اسبوع حتى بدأت المفاوضة فى الصلح (١) . وقد ألفت كل من الدولتين المتفاوضتين نفسها عاجزة عن أن تحطم الأخرى ، فان لودندرف لم يكن لديه فضل من الجند ولنين لم يكن لديه جند على الاطلاق فلم يكن من احلال الســـلام بينهما مناص .

واقترح جوفه أن تجرى المفاوضة علنا وعلى أساس أن لاضم أقاليم ولا فرض غرامات وأن يكون للبلاد المتنازع عليها حق تقرير مصيرها ، فرد وزير الخارجية الألمانية كولمان ردا مبهمـــا ولكنه منطو على العطف مبشر بالموافقة ، غير أن الجنرال هفمن ممثل العسكرية الألمانية قال فى صرامة وصلف « يجب على البلاشفة أن يقبلوا شروط دولتى الوســـط بالغة من القسوة ما بلغت .

واسندت رياسة الوفد الروسى الى ترتسكى ، وكان الروس يأملون أن يجمع الحلفاء رأيهم آخر الأمر على الاشتراك فى المفاوضة لعقد صـــلح عام ، الا أنهم مالبثوا أن استتبان لهم أن الحلفاء قد طابت أنفسهم بترك روسيا لمصيرها كما استبان لهم أن انتشار الشعور الثورى فى ألمانيا لم يصل الى الحد الذى يؤثر فى المفاوضات .

---

(١) وكان الوفد ينتظم بين اعضائه احد العمال وأحد الفلاحين . وقد زعم بعض الكتاب ان الفلاح كان يسقى من الشراب ما يدعه مخمورا طوال الوقت ، وذلك اتقاء لما هو حرى ان يحدثه من مضايقات .

كان كولمان يقصد الى استدراج الحلفاء فى مفاوضات الصلح لأنه كان على بينة من ادبار القوة العسكرية فى ألمانيا ، ومن تم حاول أن يظهر صلح برست لتفسك مظهر صلح كريم مطابق لمبادىء وسون ولم يكن يستطيع أن يستأنى فى جلب المواد الغذائية من روسيا ليمد بها جيوش بلاده فى الجبهة الغربية ، ولكنه كان يود لو تم ذلك بموافقة البلاشفة أنفسهم مراعاة لمبادىء ولسون ٠

وكان الحصر الذى ضربه الحلفاء على ألمانيا قد أوقعها فى ضنك شديد أرغمها على أن تعود فى معيشتها على القليل الذى تنتجه من المواد الاستعاضية Ersatzmittel أعنى تلك المواد التى يستعاض بها عن المواد الأصلية غير المتوافرة لديها ٠

وبلغ من استحكام حلقة المجاعة فى النمسا أن أقدم بعض أعضاء مجلس تموينها على الاستيلاء على شحنة من الذرة كانت فى طريقها من رومانيا الى ألمانيا ٠ لقد كانت ألمانيا المنتصرة على طول الجبهه الشرقية ترى أهراء الغلال فى متناول يدها وكان الشعب الألمانى الجائع المقرور يحلم بما سيجلبونه له من روسيا من بيض وزبد ومن فحم ونفط ، وكان ذلك كله موفورا فى جنوب روسيا دون شمالها ، فزعم المتفاوضون الألمان أن أكراينا دولة مستقلة يحكمها مجلس الرادا ٠ ولم يعترض ترتسكى بادىء الأمر على ذلك ٠

وحدث أول نزاع بين الفريقين المتفاوضين على ولايات البلطى ، فقد أبدى ترتسكى أن لها الحق فى أن تقرر مصيرها بنفسها فى استفتاء حر فزعم كولمان أنها قد أبدت فعلا رغبتها فى الانفصال عن روسيا ، مؤيدا قوله بمقتبسات فى هذا المعنى مما تنوقل فى مجلس اللوردات ، ولما اعترض ترتسكى على سياسة القوة رد عليه الجنرال هفمن قائلا « ان الحكومة السوفيتية انما تقوم على القوة ، فمن خالفها فى الرأى قرف فى يسر بأنه مناوىء للثورة وأنه برجوازى وكان مصيره النفى » ٠

وقدم هفمن فى ٣ يناير انذارا الى البلاشفة يعالنهم فيه بفصل الأقاليم التى الى الجنوب من برست لتفسك على أن يبت فى مصيرها فى مفاوضات تدور بين دولتى الوسط ومجلس الرادا الاكراينى ، أما فيما يلى برست لتفسك الى الشمال فتنزل روسيا عن البلاد التى استلحقتها وعن ولايات البلطى ٠

فزع ترتسكى من تلك الشروط ، فقد أبعدت كثيرا فى القسوة والصرامة ، يضاف الى ذلك أن شمال روسيا كان خليقا أن تجتاحه المجاعة اذا ترك الألمان يستولون على قمح الجنوب ، ولهذا نصح بخارين

وصحب له (رادك ٠ أورتسكى ٠ بكرفسكى ٠ بياتكوف الخ ٠ الخ) برفض ذلك الصلح الغاشم غير الكريم ، ولكن لنين تبين مافى نصحهم من خطل وأدرك أن الأخذ به يودى بالنظام البلشفى كله ، فكتب اليهم فى ذلك مذكرا اياهم بموقف الحزب عقب هزيمة سنة ١٩٠٥ اذ أجمع رأيه على أن يشترك فى انتخاب الدوما وأن يقسم نوابه يمين الولاء للقيصر ، وكان ذلك أيضا عملا غير كريم ، وقال ان روسيا أبرمت صلح تلسيت سنة ١٨٠٧ (١) ثم لم يمنعها ذلك أن تبلغ بعد ٦ سنوات مبلغا عظيما من القوة والبأس ٠ وأرسل فى ٧ يناير ١٩١٨ الى لجنة الحزب المركزية كلمة مسهبة أوضح فيها مجريات الأحوال استهلها بتحليل الموقف تحليلا خلص منه بأن الغرض الاشتراكى فى روسيا بحاجة الى فسحة من الوقت ، الى لحظة تتنفس خلالها البلاد حتى تتم قهر البرجوازية ، وذكر فيها أنه وان لم يكن ثمة ريب فى أن الثورة الاشتراكية ستندلع فى أوربا فى يوم غير بعيد وفى أنها ستكلل بنصر عزيز فمن الخطأ أن ترسم الحكومة الاشتراكية فى روسيا خطتها على أساس أن ذلك واقع فى الأشهر القريبة التالية (٢) ٠

أنكرت اللجنة المركزية رأى لنين فلم يؤيده من أعضائها غير سفردلوف وتسنفييف وستالين وسوكلنكوف وسمجلا ، وابدت كثرة منظمات الحزب، ومن بينها منظماته فى موسكو وأسطول البلطى، وكذلك يسايو الاشتراكيين الثوريين ـ معارضتهم للصلح الذى ينطوى على ضم للأقاليم ٠

أما ترتسكى ، وهو الذى لم تكد تقع عيناه فى أثناء رحلته الى برست الا على الجنود يفرون زرافات ووحدانا ، فقد وقف ـ على مألوفه ـ

---

(١) عقد الصلح فى ٨ يوليو ١٨٠٧ ببلدة تلسيت من أعمال شرق بروسيا بين روسيا وبروسيا من ناحية وبين فرنسا من الناحية الاخرى فاعترف الامبراطور ألكسندر الروسى بفتوحات نابليون فى أوربا وأرغمت روسيا فى ذلك الصلح على منح الاستقلال لوستفاليا ٠

(٢) من الخطأ أن يوصف موقف لنين هذا بانه وطنى patriotic فلقد أيد نسنفييف خطة لنين فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب تأييدا يستند الى الفكرة الوطنية، فاستدرك لنين وصرح بأنه يرى أن قيام الثورة الاشتراكية فى المانيا اهم من قيامها فى روسيا وأنه لن ينكل عن التضحية بالثورة الروسية لو كان فى ذلك انجاح الثورة فى المانيا ولكن الموقف يختلف عن ذلك فان « المانيا ما تزال حتى الآن حبلى بالثورة على حين قد ولد فى روسيا طفل مكتمل الصحة يصرخ بكل ما أوتى من قوة ألا وهو الجمهورية الاشتراكية » وقال ان من واجبهم الآن أن يدرءوا الاذى عما وجد فيلا لا أن يخاطروا على شىء لا يعدو أن يكون احتمالا ٠

موقفا فريدا بشبه موقفه ابان النزاع بين البلاشفة والمناشفة فهـو يقر لنين على أن متابعة الحرب حمق وهوس فضلا عن أنها أصبحت متعذرة بعدما فر الجند ، و ـ على حـد تعبيره ـ « سرح الجيش نفسه بنفسه » الا أنه بعد ذلك يسائل : ولم نتقبل شروط الألمان ؟ لم لا نعلن أن الحرب قد انتهت ونمسك في الوقت نفسه عن توقيع شروط الصلح فيقع عار ما يحدث على الألمان وحدهم ٠

كان ترتسكى ، الثورى الذى يصبو الى المشاهد المسرحية العنيفة ، حريصا على أن يتخذ من مؤتمر الصلح مسرحا للدعاوة ، وكان يستوجب على نفسه أن يصون وجه الثورة الروسية من المهانة بين يدى عمال العالم باعلامهم أن روسيا لن تذعن صاغرة لصلح استعمارى ، أما لنين ، الزعيم البرولتارى الحكيم الذى يحسن وزن الأمور فقد كان يرى الجيش الروسى يضمحل يوما بعد يوم وكان يرى أن واجبه الأول أن يحتفظ بما يستطيع الاحتفـاظ به من الجمهورية الاشتراكية فى روسـيا ، وعنده أن الظفر بالسلام أهم من اشهاد العالم على أن الثورة لن تذعن الا للقوة الباطشة ٠ ولكن لجنة الحزب المركزية لم تر رأى لنين وأخذت بما ذهب اليه ترتسكى٠

وشمر الخبير القـانونى الألمانى بالمؤتمر عن ساعده فى البحث عن مثيل لتلك القاعدة العجيبة : « قد انتهت الحرب من ناحيتنا ولكنا نأبى أن نوقع الصلح » ثم أفتى قومه بأن حادثا مثل هذا وقع من عدة قرون بين الاغريق والسيثيين ٠

وحدث ما توقعه لنين ، فان الألمان لم يطيقوا أن يمكر بهم على هذا النحو الذى تفتق عنه ذهن ترتسكى ، وارتأى كولمان أنه اذا انتفى الأمل فى الافضاء بالمفاوضات الى صلح فالخير فى أن يفرض الصلح فرضا ٠

وأعلن ترتسكى آخر الأمر أن الألمان قد اشتطوا فى مطالبهم شططا يجعل من غير الممكن قبولها ، وقطع المفاوضات بغير تفويض اليه بهذا الاجراء ، وهكذا وضع نظريته أن « لا حرب ولا صلح » موضع التنفيذ٠

وألقى ترتسكى بعـد عودته خطابا حارا عده الألمان اعلانا بفسـخ الهدنة ، وتبادرت جحافلهم زحفـا فى الشمال والجنوب فـكانت تفتتح البلاد وتغنم الغنائم دون أن تلقى مقاومة اذ أخذ الجيش القيصرى يندحر أمامهم دون توقف (١) ٠

---

(١) وقد أهاب الحزب البلشفى والحكومة السوفيتية بالشعب أن « الوطن الاشتراكى فى خطر » فهبت الطبقة العاملة تنتظم فى سلك الجيش الاحمر ٠ وأفلح جيش الشعب الثائر فى مقاومة جحافل الالمان المدججة بالسلاح واستطاع أن يمنع تقدمها فبقيت =

واجتمعت لجنــة الحزب المركزية فى ١٨ فبراير لمـذاكرة الموقف ، واقترح لنين أن يبرق مسلما بالشروطاتي رفضها ترتسكى فابى المقترح سبعه من أعضــاء اللجنة وارتضاه منهم سـتة ، غير ان الجديد من أنبـاء الزحف الألمانى روع اللجنة المركزية فاجتمعت فىمساء اليوم نفسه وألح لنين فى قبول ما يشترطه الألمـان على الاطلاق ما داموا لا يطالبون بفض الحكومة السوفيتية • وانحاز ترتسكى نفسه الى جانب لنين ففاز المقترح مرجحا بصوت واحد •

وارسل مجلس مفوضى الشعب الى الألمان رسالة لاسلكية بقبول مطالبهم ، فجـاء رد الألمـان فى ٢٢ فبراير بأنهـم يضيفون الى مطالبهم السابقة تخلى روسـيا عن استونيا وفنـلاندا واعترافها بحكم الرادا فى الجنوب واسترداد الكتائب الروسية من أكرانيا والنزول لتركيا عن بعض اقاليم انقوقاز ، وامهل الألمان الحكومة السوفيتية أياما ثلاثة لقبول هذه المطالب وأسبوعين لابرامها .

وكثر اللجاج والحجاج واقترح ترتسـكى الاهابة بالحلفاء أن يمدوا اليهم يد المعونة فعارض لنين فى ذلك (١) وهدد بأن يستقيل اذا عرض الحزب كيان الجمهورية الاشتراكية للخطر برفض المطالب الألمانية ، فاقترح لوموف قبول الاستقالة ولكن اللجنة المركزية لم تكن تريد أن ينحسم الأمر على هذا النحو •

وانتهت اللجنة المركزية للحزب الى أن قبلت فى ٢٣ فبراير شروط القيادة الألمانية • وأشخص مجلس مفوضى الشعب الى برست وفدا يرأسه سكلنكوف لتوقيع المعاهدة فوقعها ولكنه عف عن أن يقرأ ما تحويه من شروط تفصيلية آية أنهم انما يوقعونها اذعانا للقوة الغاشمة (٢) •

لقد كان الجيش الألمانى اذ ذاك منتصرا ، ولـكن نصره النهائى كان أمرا مشكوكا فيه . ولئن كان الألمان قد نالوا بهذه المعاهدة رطلهم من

= فى نارفاويسكوف وان يعوق سيره صوب بتروجراد وقد تم له ذلك فى ٢٣ فبراير ١٨١٨ ، ومن اجل ذلك يعد هذا اليوم عيد ميلاد الجيش الأحمر •

(١) على أن الحكومة السوفيتية كانت تخشى أن يتابع الالمان هجومهم غاضين النظر عن قبولها مطالبهم كما كانت تخشى أن يأبى مؤتمر السوفيتات اقرار هذه المطالب ، فقبلت ما عرضه عليها الكولونيل روبنز المندوب غير الرسمى للرئيس ولسون من امداد الحلفاء اياها بالاعتدة فى تلك الحالة لمتابعة الحرب ، دون أن يكون لذلك مساس باستقلال الحكومة السوفيتية السياسى •

(٢) وهو موقف لم يسمح للالمان أن يقفوه فى فرساى •

اللحم كاملا (١) لقد برهن لنين مرة أخرى أنه كان أبعد من زملائه نظرا وأصدق حكما ، فان صلح برست أنقذ الجمهورية الاشتراكية فى روسيا من الموت ولم ينقذ الألمان من أن يوقعوا بعد عام صلحا اشد منه قسوة .

على أن امضاء الوفد لمعاهدة الصلح لم ينه المسألة ، فقد كان على مجالس السوفيت أن تبرمها ، ولذلك دعى مؤتمر غير اعتيادى للسوفيتات كى يجتمع فى أول مارس .

المؤتمر السابع للحزب

واجتمع المؤتمر السابع للحزب فيما بين ٢١ الى ٢٣ فبراير أى قبل مؤتمر السوفيتات بأسبوع ليحدد المسلك الذى يجب أن يسلكه الشيوعيون فى ذلك المؤتمر ، وقد حضره ٤٦ مندوبا لهم حق التصويت والبت فى المقترحات و٥٨ مندوبا لهم حق الاشتراك فى المباحثة ليس غير ، وكان هؤلاء المندوبون جميعا يمثلون ١٤٥٫٠٠٠ عضو بالحزب وكان أعضاء الحزب فى ذلك الوقت لا يقلون عن ٢٧٠٫٠٠٠ عضو ولكن بعض منظماتهم لم يتسن لها أن ترسل مندوبين عنها لضيق الوقت أو لأنها فى أقاليم يحتلها الألمان .

وأقر المؤتمر رأى لنين بكثرة ٣٠ صوتا نظير ١٢ وأمسك ٤ مندوبين عن ابداء آرائهم . وأصدر كذلك قرارا بأن من واجب الحزب أن يتولى الاعداد والتنظيم لقوة تتصدى للألمان اذا ما تابعوا الهجوم . ووافق على تغيير اسم الحزب ليكون اسمه « الحزب الشيوعى الروسى (البلشفى) » ورمزه « ج . ش . ر . (ب) » وهو فى الانجليزية R.C.P. (B.) وانتخب لجنة لوضع برنامج الحزب .

---

(١) اشارة الى شروط اليهودى شيلوك فى مسرحية تاجر البندقية لشكسبير .

اجتمع المندوبون في قصر توريدا وعلا الصخب واشتد اللجاج وتليت برقيات من عمال المصانع وملاحي كرونشتات يستفزونهم الى استئناف القتال ، وتعاقب الخطباء يدعون الى المقاومة في كلمات طنانه رنانة ، وكل يأمل أن تثور أوربا وتسرع الى نجدتهم ، وكانت ذكريات الانتصار السهل على آل رومانوف تخيل اليهم أن الأمر هين لين .

وارتقى لنين المنبر فتلقاه أصدقاؤه القدماء بلفظة « خائن » فكظم غيظه اذ كان يعلم أن الثورة ستفقد كل شيء ان لم يتمكن من اقناعهم بصواب ما يذهب اليه .

واستهل خطابه بقوله « فلنتق أن نكون عبيدا لكلمات نصوغها بأنفسنا ... ان الحروب في يومنا هذا لا تكسب بالتحمس بل بالتفوق الصناعي والفني وبانتظام السكك الحديدية ... والمحور الذي تدور حوله رحى الحرب العالمية اليوم هو التنافس بين المالية العليا البريطانية والمالية العليا الألمانية، وهذه المناجزة بينهما هي التي ينبغي أن تستخدمها الثورة لمصلحتها » .

ثم اتجه الى قواد الجيش مسائلا اياهم أن يدلوا بما لديهم من جلية الأمر فأجابوا بأنه ليس في الجبهة ما يقودون .

والثورة العالمية ؟ لقد رد عليهم قائلا « أجل ، اننا سنشهد الثورة الدولية العالمية ، ولكنها في وقتنا هذا لا تعدو أن تكون أسطورة حسنة، أسطورة ظريفة » ثم قال « اقتبسوا من الألمان نظامهم ، والا كان مصيرنا الهلاك ... يجب ألا نجعل همنا التشدق بالكلمات البراقة ... واني لأكررأني مستعد وأني أرى من واجبي أن أوقع معاهدة الصلح ولو كانت أكثر اذلالا من هذه عشرين مرة أو مئة مرة ... » ثم قال « وسيكون علينا — ان قسرتنا الأحوال — أن نتابع تراجعنا الى الشرق حتى ما وراء الأورال بل حتى كمتشتكا ، ولكننا سنقف في موضع ما ، وسيتغير الوضع الدولي اثنتي عشرة مرة... وسنمد تخومنا كرة أخرى ونرجع الى موسكو وسانت بطرسبرج » (١) .

(١) وقد صح حدس لنين ، فقد تحطم سلطان الدولة وانفصلت عنها الولايات ثم تجمعت ثانية بتأثير الآلام المشتركة .

وأبرم المؤتمر معاهدة الصلح فى ٢ مارس ١٩١٨ بكثرة ٧٨٤ صوتا للبلاشفه نظير ٢٦١ صوتا ليساريي الاشتراكيين الثوريين · وأضرب يساريو الشيوعيين عن الادلاء بأصواتهم خشية أن تتحطم وحدة الحزب .

* * *

ربما كانت الأسابيع الثلاثة التى أخذ لنين فيها يكافح فى سبيل ابرام الصلح (بعدما انقطعت المفاوضات فى برست فى ١٠ فبراير) هى أهم فترة فى حياته وأعظمها بطولة ، فهو لم يكن فيها ذلك الديماجوج الذى يهيج الجماهير بخطاباته بل كان سياسيا يعمل على تسكين الذين ألفوا منه أن يستنفرهم · ومع أنه عقب هزيمة سنة ١٩٠٥ كان يزرى على بلخنوف أنه أنذر البلاشفه بأن قتال الشوارع طيش لا غناء فيه ، فقد غدا يقول لنفر من صحابته « ··· اذا كنتم لا تعرفون كيف تلائمون بين أنفسكم وبين الأحوال والملابسات فما أنتم بثوريين بل أنتم أصحاب شقشقة وتشدق بالكلام » ·

لقد كان فيما مضى يعمل بالروح التى قال بها دنتو « الشجاعة ، الشجاعة أيضا ، ودائما الشجاعة » أما الآن فقد غدا أستاذا فى التقهقر ، غير أن تقهقره فى معاهدة الصلح وفى السياسة الاقتصادية الجديدة على السواء أريد به الاستجمام والتأهب للتقدم فى أحوال وملابسات خير من تلك التى كانت تتكنفه ·

هذا ، وقد لوحظ أن سياسة لنين ، وان كانت قد بدت فى بعض الأحيان غير محببة الى قلوب الشعب ، لم توهن قط من حب الجمهور اياه ، لأنها كانت دائما تساير ما تنطوى عليه نفوس الجماهير وأن غايرت ما تنطق به أفواههم · وقد اعترف مياسرو الشيوعيين فيما بعد بأن لنين كان على حق فى ابرام الصلح وأنهم كانوا هم المخطئين (١) وقد أتاح لنين لبلاده بتوقيع معاهدة الصلح مندوحة من الوقت تستجم فيه · على أنه لم يكن يجد نفسه ملزما بالاذعان لمعاهدة الصلح الا حين لا يكون من ذلك بد ، ومن ثم لم يمسك عن امداد الشيوعيين الثائرين على الرادا وعلى الحكومة الفنلاندية بالسلاح والعتاد ، ثقة منه بأن الألمان لن يستردوا جنودهم من الجبهة الغربية لمعاقبته ·

(١) الا أنهم اعتزلوا المناصب الوزارية ووقفوا فى صفوف المعارضة وان ظلوا بضعة أشهر أخرى محافظين على ولائهم للسوفيتات ، وسيأتى ذكر ذلك ·

البدء فى اعمال الانشاء الاشتراكى

لم ين لنين بعد مرحلة « هجوم الحرس الأحمر على رأس المال » (بين أوائل نوفمبر ١٩١٧ وأخريات فبراير ١٩١٨) وبعد عقد الصلح فى ٢ مارس عن استغلال مهلة التنفس التى حصل عليها فى لم قوى الثورة ودعمها وقصم قوة البرجوازيين الاقتصادية والاستيلاء على مقاليد الاقتصاد القومى (المصانع والمصارف المالية والسكك الحديدية والأسطول التجارى والتجارة الخارجية الخ) وحطم ذلك الجهاز الذى كانت تستخدمه الحكومة فى فرض سلطانها .

بيد أن تقويض النظام القديم لم يكن كافيا وحده لتوطيد أركان الثورة ، بل كان لزاما أن يعقبه بناء النظام الجديد ، فكان على البلاشفة أن ينهجوا نهجا جديدا فى تنظيم الانتاج وادارته ، ولهذا شن لنين حملة لتدريب العمال والحزب على الأعمال التعميرية .

الواجبات الراهنة على الحكومة السوفيتية

ونشر فى ١٦ أبريل رسالة له بعنوان « الواجبات الراهنة على الحكومة السوفيتية » ذكر فيها أن الثورات البرجوازية كانت تضع نصب عينيها هدفا واحدا هو الهدف السياسى ، هدف تحطيم أغلال القرون الوسطى المعرقلة لنمو الاقتصاد الرأسمالى ، وقد اضطلع البرجوازيون أنفسهم باختيارهم بالواجبات الاقتصادية التى كان على الثورات البرجوازية أن تنهض بها ، أما الثورات الاشتراكية فعليها أن تضطلع بنفسها بواجباتها الاقتصادية .

لقد مضى البرجوازيون قدما فى طريق الاقتصاد الاحتكارى ، فحق على الطبقة العاملة أن تتولى ادارة مخلفاتهم وأن تقبس منهم روح العمل

دون تراخ والنظام والأمانة الخ • لقد كنا نحقر هذه الفضائل حين كانت غايتها ادرار الربح للرأسماليين ، فأما وقد أصبح العمال هم المالكين فقد أصبحت لا غنيه عنها ، و « ليست القدرة على الادارة سجية فطرية في الانسان بل هي وليدة الخبرة، ونحن ليست لدينا بعد هذه الخبرة ، ولهذا ندعو المديرين الرأسماليين للعمل باشرافنا • يجب أن نزيد من تنظيم العمل وأن نرفع من كفاية العامل ونرقى بالمستوى الثقافي للشعب ، وأن نستعير ما يلائم ذلك مثل منهج تيلور (١) ، وذلك يتطلب التآزر بين حسن نية الجمهور والمسئولية الفردية ، ويتطلب ، من الناحية السياسية، فرض الدكتاتورية ، اذ أنه من الضروري أن نقمع العدو الذى لما يزل قائما ، وسيظل هذا ردحا من الدهر أمرا لا غنى عنه ، فان الطفرة الى الاشتراكية التى تحدث بها انجلز والتى يميل بعض الاشتراكيين الى أن يفهموها بمعناها الحرفى تستغرق سنين طويلة ، عشرا أو تزيد » •

وقال أيضا فى هذه الرسالة « لقد نلنا نصرا بطريق البطش والقمع وسنعرف كذلك كيف ننتصر بطريق التنظيم الادارى ... ولا سبيل الى الانتقال الى الاشتراكية ••• دون أن نجلب الخبراء••• ان ما يلقاه الكثير ممن يعدون أنفسهم اشتراكيين من صعوبة ادراك الحالة التى نعيش فيها يرجع الى أن هؤلاء الناس قد تعودوا أن يضعوا الاشتراكية فى الناحية المضادة للرأسمالية » •

لقد رأى أن المصانع المستصفاة لن تنتج سلعا حتى تتآزر القوى العضلية والذهنية معا على العمل فيها، فعلى العمال رجالا ونساء أن يعودوا الى الآلات ، وعلى الحكومة أن تستأجر الخبراء البرجوازيين بأجور عالية حيث لا يستطيع بلشفى أن ينهض بالعمل •

بيد أن الجهود التى شرع اذ ذاك يبذلها فى الانشاء والتعمير لم يقيض لها أن تبلغ نضجها بل تبخرت فى أتون الحرب الأهلية التى اشتعلت فى ١٣ مايو عندما تمردت الوحدات التشكوسلافية فى غضون اجتيازها سيبيريا الى فلاديفستك لترحل منها الى بلادها بطريق البحر •

---

(١) ربما كان المهندس الامريكى تيلور أول من عنى بتنظيم العمل فى المصانع على أسس علمية ، وقد نشر آراءه سنة ١٩١١ فى كتابه « مبادىء التنظيم العلمى » •

وهو ينصح بمراقبة العامل فى أثناء عمله وفحص كل حركة من حركاته على حدة ونفى ما لا جدوى فيه منها ثم فرض الطريقة المثلى للعمل على جميع العمال مع فصل المقصرين واثابة المجدين •

فشو المجاعة

بينا مفاوضات الصلح تجرى بين الروس والألمان كانت الأحوال داخل روسيا تزداد على توالى الأيام من سوء حتى لم يكن ثمة من شبه بين سكان فردوس الأرض وسكان جنة السماء غير العرى. وأخذت الجمهورية توزع على كل فرد من أبنائها رغيفا زريا ما فتئت المواد التى يصنع منها تزداد على الأيام غموضا، وكان الناس لا يظفرون بما فرض لهم من الدقيق والسمك القديد وحساء البطاطس الا بطول المسألة وشدة العنت ، أما الصابون فقد بذ الجواهر الكريمة ندرة .

كان الجوع عاما بين الأغنياء والفقراء ولكن الفقراء كانوا أكثر له احتمالا لاعتيادهم اياه ولما يغذى أذهانهم من الأفكار السامية التى يتحملون فى سبيلها ما يتحملون ، وكانوا كلما عضهم الجوع كظ صدورهم الغيظ نحو أولئك الذين كان الطعام يكظ بطونهم بالأمس .

وقد فقدت موسكو ما كان لها من رواء وأصبحت أشبه شىء بقرية وسيعة ، وألف أهلها مناظر الجرذان والشحاذين كما ألفوا رؤية مديرى المصارف المالية وضباط أركان الحرب ومن اليهم ممن كانوا سادة بالأمس يذهبون ويجيئون فى الشوارع لبيع الصحف ولفائف التبغ وكما ألفوا رؤية الرجال والنساء يجوبون الطرقات مدججين بالسلاح وسيارات النقل تمر مقلة « الذين تحوم حولهم الشبهات » .

الكرملن

وكانت حركات الجماهير النزاعة الى الانتقام تدار وتوجه من معقل يعلو عن موسكو زهاء ٤٠ مترا ، ذلك هو الكرملن Kremlin أشهر

صرح فى تاريخ روسيا ، يطالعك منه جدار يربى على ١/٢ كيلومتر طولا ينتظم فى داخله قصورا وأديارا وكنائس ومصانع للأسلحة وقلاعا واصطبلات ومدافن الخ · وقد حشدت فى قصور القيصر فنون فارس وبيزنطة وعصر النهضة والقوط ولمبارديا ولكنها جاءت نابية عن الذوق عارية عن التنسيق ، فلم تكسب تلك القصور الامبراطورية شيئا من الجلال والبهاء ·

وها هو ذا لنين قد أصبح بعد نقل العاصمة الى موسكو يجوس فى تلك القصور خادشا أرضها الخشبية المصقولة (الپاركيه) بمسامير نعله ، وقد دس يده فى جيب سرواله الذى يرجع العهد به الى أوقات زيورخ وأخذ يشرف من شرفات أبراج القصر على المدينة التى تتضور من الجوع كما كان نابليون يشرف من درجه الأحمر عليها وقد احتوتها شعلة من النيران· على أن لنين لم يكن مثل نابليون كلفا بالأبهة والترف فلم يول ما يزدان به الكرملن من نقوش شرقية فخمة شيئا من عنايته ولم يبدل من أسلوب معيشته الساذج (١) وانما اتخذ من هذا المكان مقرا لحكمه لموقعه الاستراتيجى ولأنه كان فى أعين الناس رمزا للحكم والسلطان ·

الكفاح من أجل الغلال

جعل لنين وحكومته همهما انقاذ الشعب من المجاعة ، ولم يكن الأمر هينا سهلا ، فقد احتل الالمان أكراينا وابتزوا ما أنتجته من غلال · وقد

(١) وقد كتب بعض الذين زاروه بعد ٣ سنوات من حكمه المطلق يصف بساطة مسكنه وسذاجة معيشته ، فقال : « لقد رأيت كثرة من مساكن العمال كانت أغنى تأثيثا من مسكن دكتاتور موسكو المطلق السلطان · وقد ألفيت زوجة لنين وشقيقته تتناولان العشاء وكان الطعام من تلك الالوان التى هى فى متناول عامة الموظفين السوفيتيين (فى ذلك العهد) ، فهو يتألف من شاى وخبز اسود وزبد وجبن . وقد طلب الى شقيقته بعد ذلك ، فى المساء ، أن تبحث عن شىء من الحلواء ، فذهبت وعادت الينا باناء زجاجى يحوى فاكهة محفوظة » ..

أدت الحرب العالمية والحرب الاهلية وما تخللهما وما تلاهما من الفوضى والاضراب الى خفض الانتاج الصناعى حتى أوشك ألا يكون ثم انتاج ، فلم يكن فى الموسوع أن يعطى الزارعون منتجات صناعية لقاء منتجاتهم الزراعية ، فلما طلب اليهم ان يسلموا الى الحكومة جانبا من حاصلاتهم نظير قدر من تلك الأوراق الملونة التى تسمى نقودا أبوا ذلك وعمدوا الى الحد من زراعتهم ليقضوا بقية أوقاتهم فى حبك الأساطير حول سادة موسكو .

كانت الثورة قد انتهت عند أولئك الريفيين فأصبحوا ، وهم الذين كانوا بالأمس ينهبون ويسلبون ، لا يعنيهم اليوم الا حقولهم الصغيرة . وقد وزعت الأراضى المستصفاة على الفلاحين قطعا متساوية فلم تنقض بضعة اشهر حتى بدأ تفاوت الملكيات يطل برأسه من جديد وأخذ الزراع ينقسمون الى أغنياء وواسطين وفقراء ، فهذا له ٦ بقرات وذاك له اثنتان وذيالك ليس له من البقر شيء . ولجأ الزراع الأغنياء والمتوسطون الى المكانفة فيما بينهم للدفاع عن صوالحهم ووقايتها شر المنبوذين الجدد . لقد ألف صغار البرجوازيين أن يتمرغوا فى حمأة الرأسمالية وأن يهتبلوا جوعة الشعب فيجنوا الأرباح الفاحشة ، ولذلك أبوا أن يذعنوا لهيمنة الحكومة وقبضوا أيديهم عن بيع الغلال بالأسعار الجبرية .

وقد وجد الكولاك عونا قويا فىالاشتراكيين الثوريين، فهمينافحون عنهم ويحتجون لهم ، وكانت لهم المقدرة على اجتذاب الفلاحين اليهم بما يمنونهم به من أمانى عريضة ، وهم فى ذلك يباينون الرجعيين السافرين الذين استولوا على السلطة بعد الهدنة (١) .

وفى مايو ١٩١٨ أصبح خطر الموتمن الجوع حقيقة ماثلة أمام عمال بتروجراد ، وقد ذهب مندوبون عن عمال مصانع بوتيلوف للصلب الى لنين فآذنهم أنه قد عين الواجب الأول على الحكومة السوفيتية والطبقة العاملة وأن هذا الواجب هو « شن حرب صليبية على جناة الأرباح من تجارة الحبوب ». وكتب يصف الحالة فى بتروجراد فقال فى صراحة «ليس ثمة من خبز .. ان العاصمة الحمراء مشفية على الموت جوعا ، والثورة المضادة ترفعرأسها موجهة تذمر الجماهيرالجائعة نحو الحكومة السوفيتية».

---

(١) أما هزيمتهم فى الصراع الدموى بين دكتاتورية الطبقة العاملة ودكتاتورية رأس المال فترجع الى أنهم لم يحذقوا فن الحكم .

كانت روسيا أشبه شيء بمدينة محصورة فيجب أن يكون للقيادة المركزيه فيها سلطة مطلقة وبخاصه فيما يتصل بالتموين · كانت مسألة التموين مسألة حياة أو موت ، وقد واجهها لنين بما عرف عنه من حزم وعزم ، فانطعام عند من ينتجونه ، عند الزراع ، ولن يؤخذ منهم الا اذا غلبوا عليه ، اذ ليس ثمة ما يستطاع تقديمه لهم عوضا عنه ، واذ كان يحرص على ألا تصطدم الحكومة والزراع لم يبق أمامه غير استخدام لغة الكفاح الطبقي والتحريش بين المحتكرين الذين يحبسون الطعام وبين غيرهم ممن لا يجدون القوت ، ولهذا أذاع بيانا رسميا جاء فيه :

« بينا تموت الولايات المستهلكة من الجوع اذا بالولايات المنتجة تحوى الآن ، كما كانت تحوى من قبل ، مدخرا وافرا من البر لم يطحن منذ موسمى الحصاد فى سنتى ١٩١٦ و ١٩١٧ ، وهذا البر فى أيدى الكولاك والاغنياء ، فى أيدى برجوازيى القرى ··· ولا مناص من انهاء عناد هؤلاء الكولاك والأغنياء المنهومين ··· بالعنف مع البرجوازية · فليتحد العاملون والذين لا ملك لهم من الفلاحين على الفور ، ليشنوا على الكولاك حربا شعواء ··· عليكم بالقوة المسلحة اذا لقيتم مقاومة تصدكم عن الاستيلاء على الحبوب وما اليها من المنتجات الغذائية » ·

وأرسل الحزب أفواجا من العمال لتنظيم فقراء الفلاحين فى حربهم للكولاك وأصبح التعبير الاقتصادى للحرب داخل البلاد « الحرب من أجل الحبوب » وقال لنين « ان الكفاح فى سبيل الخبز هو كفاح فى سبيل الاشتراكية» وصدرت مراسيم عهدت فى القيام على شئون الاطعام والتموين الى لجان خولت سلطة مطلقة وأقر أحد هذه المراسيم لجان الفلاحين الفقراء (١) ·

لقد كانت تلك الأيام أشد على الثورة من أيامها الأولى حين لم يكن يقاوم النظام الجديد الا بعض الطوائف المعروفة : الأغنياء والسياسيون

---

(١) كان لتلك اللجان شان عظيم فى القضاء على الكولاك · وقد حولت ٥٠ مليونا من الكهتارات (نحو ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان مصرى) من أيدى الكولاك الى أيدى الفلاحين الفقراء والمتوسطين ، ووزعت عليهم الآلات والادوات الزراعية واستولت على الاغذية المدخرة الزائدة عن حاجة منتجيها فاحتفظت ببعضها لأعضائها وأمدت ببقيتها المراكز الصناعية والجيش الاحمر ، وساعدت فى تجنيد الفلاحين وأصبحت معاقل لدكتاتورية البروليتاريا فى القرى ، وكان لها فضل فى جذب متوسطى الحال من الفلاحين الى جانب الدولة · وقد انتهى عملها بنهاية سنة ١٩١٨ ·

والشعراء والفلاسفة والصحفيون والسيدات الراقيات المتعصبات الخ .
قال لنين « لقد استولينا على السلطة فى أكتوبر ١٩١٧ بمعونة الفلاحين جميعا . لقد كانت ثورة برجوازية اذ أن كفاح الطبقات لم يكن قد بدأ بعد فى النواحي الريفية . أما الثورة البروليتارية الحقة فلم تبدأ الا فى صيف سنة ١٩١٨ » .

وقد مضت الحكومة فى سياسة الاستيلاء على الغلال حتى نهاية الحرب الاهلية ، وبذلك وقت نفسها الهزيمة والخذلان ، بيد أن حالات التمرد بين الزراع تفاقمت حتى لقد أحصى منها فى ذلك الصيف ١٠٨ حالات . ورأى الزراع أنهم كانوا قد تعجلوا فى الترحيب بالبلشفية . ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يرغبون فى رؤية سادة الأراضى مرة أخرى ، ولهذا لم يتألبوا مع جيش دنكين الذى أعلن ضباطه أنهم يعملون لرجع النظام القديم . على أن زراع الفلجا وسيبيريا تبعوا الاشتراكيين الثوريين فى التمرد على حكومة السوفيت تحميهم حراب التشكوسلافيين . ذلك أن مياسرى الاشتراكيين الذين كونوا بعد صلح برست معارضة « برلمانية مشروعة » داخل السوفيتات جعلوا من أنفسهم منذ ذلك الحين لسانا للزراع المتذمرين .

لقد افترق لنين والاشتراكيون الثوريون ، بيد أن الأحزاب لا تفترق فى الثورات بسلام ، وان للثورات لصحائف تبلغ من الوضوح ما يجعلها ميسورة القراءة حتى للأميين ، وهؤلاء يلقون الأسئلة ويلحون فيها ويطلبون عنها جوابا واضحا ويكرهون أى انحراف عن الجادة التى يجمعون الرأى على المضى فيها .

وقد مضى الاشتراكيون الثوريون فى الثورة على لنين حتى لقد رغبوا فى العودة الى حرب الموانع والسدود ، ورأى لنين أن الاغضاء عنهم يعبد الطريق لعودة القيصرية ، ولكن هؤلاء القوم لايزالون أصحاب الكثرة فى السوفيتات التى أكثر لنين من تمجيدها فلم يكن يستطيع أن يحل المؤتمر الخامس لسوفيتات روسيا كلها على النحو الذى حل به الجمعية الدستورية من قبل . ولهذا قام مؤتمر من « لجان الفلاحين الفقراء » اجتمع فى بتروجراد ، بارسال مندوبين عنه الى مؤتمر السوفيتات بموسكو ، فتغير بذلك تكوين مؤتمر السوفيتات وأصبحت الكثرة فيه للبلاشفة .

المؤتمر الخامس للسوفيتات

وقد أتاح المؤتمر الخامس لسوفيتات روسيا كلها ، المجتمع في موسكو فيما بين ٤ و ١٠ يوليو ١٩١٨ للاشتراكيين الثوريين فرصة يكشفون فيها عن مبلغ لددهم للحكومة السوفيتية ويكاشفونها بالعداء ، فنددوا بسياستها عامة وبخاصة الصلح الذى أبرمته مع الألمان ، ولما ولج لنين قاعة الاجتماع جعلوا يزمجرون ومضوا يصيحون «أجير للألمان! خائن! لقد باع لنين الثورة ! » وألقت زعيمتهم الملتاثة ماريا سبردنوفا التى اغتالت الموظف القيصرى لنفسكى خطابا أنحت فيه على لنين فى هستيريا وتوحش وصاحت به وهى تصبع عليه : « انى اتهمك بخيانة الفلاحين وبأنك تستخدمهم فى أغراضك الخاصة دون أن تخدم صوالحهم » ثم التفتت الى من خلفها من الفلاحين وصاحت بهم « انكم ، فى فلسفة لنين ، لستم الا زبلا وروثا • ان خلافاتنا الأخرى وقتية عارضة ، أما فيما يمس الفلاحين فنحن مستعدون أن نقاتل ، وعندما يحقر الفلاحون ويستذلون:
الفلاحين فنحن مستعدون أن نقاتل ، وعندما يحقر الفلاحون ويستذلون :
السواء ستجدون فى يدى المسدس نفسه والقنبلة نفسها » •

وعلا الصخب والضجيج • وعبثا حاول الرئيس سفردلوف أن يستعيد بجرسه النظام ، فوثب ترتسكى محاولا الكلام ، فردته الى مكانه زمجرة كأنها عواء الوحوش •

فنهض لنين وخطا الى سفردلوف وقر فى أذنه بضع كلمات ثم رجع ولبث ماثلا فى مواجهة الجميع يبتسم متهانفا وهو ممسك بطية سترته ، حتى اذا غلبهم الاعياء بعد دقيقة أو اثنتين رفع يده فى وقار فسكتوا جميعا ، فأوضح لهم فى هدوء سياسته وبين لهم عظيم خطرها وأكد لهم ألا مفر من انبعاث ثورة عالمية ، فاقتنعوا بكلامه وعقبوه بالهتاف والتصفيق • الا أن فوزه كان قصير الأمد ، فقد وثب الاشتراكى الثورى كمكوف من مقعده صائحا « لقد تحولت دكتاتورية البروليتاريا الى دكتاتورية مرباخ • وقد ظلت سياسة لنين ــ مع كثرة تحذيرنا اياه ــ على ما كانت عليه ، فلم نبق دولة مستقلة بل صرنا اتباعا للاستعماريين الألمان الذين لديهم من الجرأة ما يجعلهم يطالعوننا بوجوههم حتى فى هذا المسرح » •

وعاد الاشتراكيون الثوريون الى الوقوف والزياط وهز قبضاتهم متهددين وأخذوا يتصايحون « فليسقط مرباخ • اطردوا السفاحين الألمان » •

وقد زيف لنين ما اتهم به من أنه أجير للألمان وأبدى اصرارا على تنفيذ سياسة غلال لا هوادة فيها ، فأقره المؤتمر على ذلك •

الارهاب الاشتراكي الثوري

ولما رأى الاشتراكيون الثوريون أن كثرة المؤتمر فى غير جانبهم عمدوا قبل انتهاء جلساته الى اصطناع أعمال العنف فى البلاد ، وكانوا يزهون بقولهم انهم ليسوقن الحكومة الى حرب ألمانيا طوعا أو على كره •

واقتحم اثنان منهم دار السفارة الألمانية فى ٦ يولية وأطلقا النار على مرباخ فأردياه قتيلا . فبادر لنين الى السفارة معربا عن أسف الحكومة لما حدث ، ولكنه أبى على الألمان اباء جاسما أن يجلبوا الى موسكو فصيلة ألمانية لحراسة السفارة فعدلوا عن طلبهم واجتزءوا بنقل السفارة الى پسكوف فى المنطقة المحتلة . وشرع لودندرف يهيىء هجوما جديدا على روسيا ولكن سرعان ما انصرف عنه لتطور الأحداث فى الجبهة الغربية •

وأثار الاشتراكيون الثوريون فى ذلك اليوم ، يوم ٦ يولية ، فتنة فى موسكو وأطلقوا القنابل على الكرملن ، ومالأهم العميد مورفييف وكان البلاشفة قد أرسلوه على رأس جيش لقمع تمرد التشكوسلافيين فحاول أن يزحف بجيشه على موسكو فخذله جنوده فانتحر •

وفى يوم ٦ يولية أيضا زحف سافنكوف ـ وكان كرنسكى قد عينه حاكما لپتروجراد ـ على رأس جيش من أعداء البلاشفة زوده الفرنسيون بالميرة والذخيرة فاحتل مدينة ياروسلافل على الفلجا وسيطر على سكة

حديد موسكو ـ أركنجل (١) ولكن البلاشفة ما لبثوا أن أجلوه عنهما وأحبطوا كل المحاولات التى قام بها الاشتراكيون الثوريون فى أكناف البلاد (٢) ٠

وبعد ٣ أسابيع من مصرع مرباخ اغتال اشتراكى ثورى آخر الجنرال ايشرن حاكم كييف العسكرى ٠ أما ميامنو الاشتراكيين الثوريين فقد كان مسلكهم أكثر شؤما من مسلك أسميائهم المياسرين ، اذ جعلوا من أنفسهم معبرا للتدخل الأجنبى وعاضدوا ثورة البرجوازيين المضادة وقاموا بحملة ارهاب فردى على زعماء البلاشفة بلغت ذروتها فى نهاية الصيف ، فقد اغتال أحدهم فى ٣٠ أغسطس ١٩١٨ أورتسكى رئيس تشكا (مخابرات) بتروجراد ٠

محاولة اغتيال لنين

وفى مساء ذلك اليوم (١٨/٨/٣٠) حاولت امرأة منهم أن تفتك بلنين ، فقد كان غشى اجتماعا للعمال فى مصانع متشلسن جنوبى موسكو، ولما غادره وهم بركوب سيارته ابتدرته امرأتان كأنهما تترافعان اليه بشكاة أو تسألانه انصافا وفيما هو ينحنى اليهما أطلقت عليه احداهما ، دورا كپلان ، ثلاث قذائف نفذت احداهما الى احدى رئتيه واستقرت بها واخترقت الثانية عنقه ساحجة العمود الفقرى ونبت عنه الثالثة ٠

أبدى لنين رباطة جأش فأبى أن يحمل وهو يرقى درج داره ولبث أياما على شفا خطر ، ولكن بنيته الموثقة ومنته القوية عصمتاه من الموت

---

(١) زعم بعضهم أن الحلفاء انما ذهبوا الى أركنجل بدعوة من الحكومة البلشفية لحماية عتاد الحرب الروسى من أن يستولى عليه الالمان الذين كانوا فى فنلاندا ٠

(٢) جاء فى محاكمة التروتسكيين قبيل الحرب العالمية الثانية أن بخارين وترتسكى كانا على علم بحركات الاشتراكيين الثوريين وأنهما كانا يكونان معهم مؤامرة ثلاثية كبيرة ٠

وما هى الا أيام حتى أبل من ذينك الجرحين ، الا أنهما أكنا فى بدنه علة دفينة لعلها كانت ذات أثر فى التعجيل بموته من بعد • وقد عاد الى عمله بعد ٣ أسابيع قضاها فى قرية قريبة من موسكو تعنى به امرأته ، وحظر الدخول عليه لغير المقربين من خلصائه وفلاحى القرية وأطفالها • وفى هذه القرية وجد للمرة الأولى منذ أشهر متسعا من وقته للقراءة •

الارهاب البلشفى

جن جنون البلاشفة عندما رأوا أنهم كانوا على وشك أن يفقدوا زعيمهم فينهار بموته كل ما كسبه للبلاد ، ووغرت صدورهم على أعداء الثورة واقتنعوا بضرورة العمد الى الارهاب فمحوا آخر أثر للحرية وأمنوا بذلك أن ترتكب الحرية أخطاء جديدة •

وبعد أن كان سفك الدماء فى الاشهر الاولى غب الثورة وليد أحداث محلية تنجم من تلقاء نفسها ، أمسى فى النصف الثانى من سنة١٩١٨ سياسة أملاها الاستفزاز المتصل • ولكن لنين لم يكن يعمد الى الارهاب جنوحا الى القسوة بل كان يفعله فعل الجندى بالجاسوس الذى يحكم بادانته • ومن ثم أعلنت السلطات فى أوائل سبتمبر أن الذين كانت لهم صلة بمقتل أورتسكى قد قتلوا بالرصاص قصاصا دون محاكمة .

وأصدر پتروفسكى مفوض الشعب للشئون الداخلية بيانا عرض فيه لأحداث اغتيال زعماء البلاشفة وأحداث القتل بالجملة التى يقترفها الحرس الأبيض ومن اليه ، ثم قال « وينبغى أن تكون هناك نهاية لهذه الرخاوة والضعف ، ومن ثم وجب القبض بلا وناء على الاشتراكيين الثوريين اليامنين المعروفين للسوفيتات واحتباس عدد ذى بال من البرجوازيين والضباط على أنهم رهائن لكفالة الأمن ، ويتحتم الاسراع باطلاق النار جزافا اذا بدت أية مقاومة من بيئات الحرس الأبيض ••• »

وأبرق لنين ، بعد ما نقه ، الى قيادة الجيش الخامس يقول : « انا على

ثقة بأنكم لن تأخذكم شفقة ولا رحمة فى اسكات تشيكيى قازان والحرس الأبيض ومعاضديهم من الكولاك المتعطشين للدماء » ٠

وان موقف لنين حيال سياسة الارهاب ليتجلى فى رسالته الى العمال الأمريكيين اذ يقول :

« لقد قتل برجوازيو الاستعمارية الدولية فى حربها عشرة ملايين وشوهوا عشرين مليونا من البشر ، وهى حرب أريد بها أن تقرر من الذى يسيطر على العالم كله أقطاع الطرق من البريطانيين أم من الألمانيين ، فاذا كانت حربنا حرب المضطهدين والمستغلين للمضطهدين والمستغلين تتطلب من الدول جميعا نصف مليون أو مليونا فان البرجوازية تزعم أن التضحية الأولى عادلة والثانية أثيمة ، أما الطبقة العاملة فعكس ذلك ما تراه »

يكون الارهاب ، بوجه عام ، ناجحا حين يريق قدرا وافرا من الدماء. أما الارهاب الذى لم يبلغ غايته فمصيره الاخفاق ٠ وقد أسرف ترتسكى، وكان قد أصبح مفوضا للحرب ، فى الارهاب حتى أخذ عليه زملاؤه البلاشفة أنفسهم « موقفه المفعم غبطة ازاء أشياء مثل القتل رميا بالرصاص » ٠ لقد كان لا يكل ولا يلين بل يظل يجوب روسيا مقبلا مدبرا منظما محرضا مطلقا النار مبشرا بأن أوربا لن تلبث أن تدين كلها بالشيوعية ٠ وقد رد البيض على ذلك الارهاب ما وسعهم أن يردوا ولكن وسعهم كان محدودا ٠ لقد كان الفريقان يهرقان الدماء ، غير أن الحمر أفلحوا لأنهم كانوا أكثر اهراقا ، وذلك هو الذى أنقذ الثورة سنة ١٩١٨ ٠

وقد تجرد لنين لتنظيم شيوعية الحرب وعهد الى ترتسكى فى تنظيم الجيش والانتفاع بالخبراء العسكريين من الضباط السابقين ٠ وقد رئى اتخاذ اجراء يؤمن معه جانب هؤلاء الضباط وتتقى خيانتهم ، فأذيع مرسوم يقول :

« ان القتلة يخونون العمال والفلاحين الروس لينال منهم قطاع الطرق والسفاحين من البريطانيين والفرنسيين واليابانيين والأمريكيين ، فعلى الخونة أن يعلموا أنهم يخونون فى الوقت نفسه أسرهم وأهليهم : آباءهم وأمهاتهم واخوتهم وأبناءهم ٠٠٠ فانا آمر ٠٠ بأن يقبض على أسر المرتدين والخونة » ٠

وكان هذا الأنا هو ترتسكى ٠

وأمر لنين بأن « كل من يعاون السلطات الأجنبية معاونة مباشرة أو غير مباشرة يعد خائنا للبلاد ويحاكم فى المحاكم العرفية لتقضى بقتله » • وأبلغ المحاكم « أن وطننا الاشـــتراكى فى خطر •• ومن واجب الحكومة السوفيتية أن تحمى مؤخرتها ، ولهذا كان من الواجب فرض المراقبة على البرجوازية والقيام بالارهاب جملة وأن يكون الشعار العام : الموت أو النصر ••• »

هذا ، وقد حامت الشبهات حول من فى معسكر الحكومة من المعتدلين وخشى بأسهم اذ كانوا على دراية بأساليب الكفاح السرى على حين يعجز الغراندوقات والصيارفة عن الاستخفاء فى ثياب صيادين وعمال مينـــاء وفلاحين ليتاح لهم رمى القنابل والتحريض على مناوأة النظام الجديد • وبدأ البلاشفة بالارهاب فى صفوفهم قبل أن يشيعوه فى صفوف أعدائهم، فأمروا ــ دون محاكمة ــ باطلاق النار على نفر من أعضاء الحزب كانوا قد فروا من القتال • وأذاع ترتسكى أمرا يقول فيه « لقد قام الدليل على أن ثمة ممثلين للسوفيتات خفوا الى الهرب عندما أخذ الخطر يدانيهم كأنما كان واجبهم الأول أن ينقذوا حياتهم هم • وان هـــؤلاء المخلوقات الذين يهجرون مواقعهم ••• هم خونة •• جزاؤهم الموت » •

وهكذا علم الناس أن الحكم بالقتل ليس امتيازا لأعداء البلاشفة • وحلت كلمة « الارهاب الأحمر » فى معجم الدعــــاوة المناوئة للحكومة السوفيتية محل كلمتى « الخيانة العظمى » و « العمل لألمانيا » •

وقد اقتص البلاشـــفة ــ بعد أن صــــدوا الجنرال كرزنوف عن تسارتسن (١) ودحروه الى ما وراء الدون وحاشوا دنكين الى رقعة ضيقة من شمال القوقاز وقتلوا كرنيلوف وطردوا التشـــكوسلافيين والحرس الأبيض الاشتراكى الثورى من قازان وسمبرســـك وسمارا الى الأورال واعتقلوا لكهارت رئيس البعثة الانجليزية فى موسكو وقمعوا الثورة التى أثارها بمعونة ســـڤنكوف فى يارســـلافل ــ من الاشتراكيين الثوريين لاغتيالهم الرفيقين أورتسكى وڤولودارسكى ولشروعهم فى اغتيــــال لنين ولتسليطهم الارهاب الأبيض على البلاشفة • وهكذا استأصـلوا شـــأفة الاشتراكيين الثوريين فى جميع المدن الهامة فى روسيا الوسطى •

---

(١) Tsaritsyn وقد بدل باسمها فى أدبار الحرب العالمية الثانية اسم ستاليتجراد أى مدينة ستالين وذلك تمجيدا له لما بذل فى الدفاع عن هذه المدينة من بطولة جعلتها تستعصى على المارشال الالمانى فون باولس ، وقد بدل باسمها بعد الحملة على ستالين اسم فولجوجراد أى مدينة نهر الفلجا .

مصرع نقولا رومانوف

وقد شهد شهر يوليو مقتل آل رومانوف فى اكترينبرج ، وتناهى نبأ ذلك الى مجلس مفوضى الشعب وكان مجتمعا يتذاكر بعض الأمور ، فنهض سفردلوف وقال « لقد قتل نقولا فى اكترينبرج بالرصاص طوعـا لقرار السوفيت المحلى • لقد كان يرغب فى الهرب وكان التشك يقتربون• وقد أقرت رياسة اللجنة التنفيذية هذا العمل » وأنصت مفوضو الشعب الى هذا النبأ دون أن يعلق عليه أحد ، ثم اقترح لنين أن يستأنف المجلس تذاكر ما بين يديه من الأعمال •

وقد نعى بعض محبى الســـلام ومحبى الانســـانية على الحكومة البلشفية لجوءها الى العنف ،ولكن محبى العنف لم يملكوا الا أن يعترفوا بأنها استطاعت أن تبسط الأمن وبأن لنين استطاع فى ربيع ســـنة ١٩١٨ أن ينشىء جهازا حكوميا قادرا على النهوض بالأعمال •

وقد أثبت الجنرال جرايفز قائد الجيش الامريكى الذى كان يعاون كلتشاك فى مغامرته سنة ١٩١٩ ، فى كتابه « مغامرة أمريكا فى سيبيريا» الكلمة الآتية :

« لقد جرت أحداث قتل مروعة ، ولكن لم يكن البلاشفة جناتهـا كما شاع وذاع فى مختلف أرجاء العالم • وانى لآخذ بالوثيقة فى أمرى اذ أقول ان أعداء البلاشفة اغتالوا فى شرق سيبيريا مئة نظير كل واحد قتله البلاشفة » •

لنين وترتسكى

كان هناك فى سنوات الحرب الأهلية رجلان يتجسم فيهما الغرض الشيوعى هما لنين وترتسكى •

فأما لنين فقد كان البرجوازيون داخل روسيا وخارجها ينظرون اليه على أنه :

ذلك الدماجوج (١) المتوحش الذى عرفــوه فى أبريل ــ يوليــو ١٩١٧ ٠

ومغتصب الحكم فى أكتوبر ١٩١٧ ٠

ومقوض الجمعية الدستورية فى يناير ١٩١٨ ٠

وخائن صلح برست فى مارس ١٩١٨ ٠

وأما العمال فكانوا يعدونه زعيمهم الذى لا يجارى ولا يمارى ٠

وأما الفلاحون فقد أخذوا شيئا فشيئا ينظرون اليه على أنه صديق قوى البأس وحام لهم لا من أعداء الثورة وأنصار التدخل فحسب ، أولئك الذين يريدون أن يفرضوا عليهم من جديد سيادة المالك الكبير ورجــل الشرطة ، بل كذلك من جور الادارة الشيوعية وشططها ٠ وقد كان مع استمساكه بحظر الاتجار الخاص فى الغلال لا يقصر فى العمل لتحسـين حالة الفلاحين وفى افهامهم أنهم شركاء العمال فى الحكم لا رعايا لهم ، بل انه راح يتألف المثقفين الديمقراطيين وسلك فى مناصب الدولة بعــض الاشتراكيين والمناشفة ممن أخذوا منذ أواخر ســنة ١٩١٨ يدخلون فى الشيوعية بعد أن تبين لهم أين تكون الديمقراطية الحقة ٠

وكان لنين يخلب الألباب بأسلوبه فى خطاب الألوف من العمــال والفلاحين والموظفين والعاملين فى الحزب ، وكان يخالط مندوبى الفلاحين فى المؤتمر ويتحرى منهم ما يهمهم ويشغلهم دون أن يعرفوا من هــو فى حالات كثيرة ، وكان يستمع الى الألوف من الموظفين الاداريين حين يلقون بياناتهم وان كان يعلم مقدما ما سيقولون ٠

كان لنين ــ بخلاف ترتسكى ــ لا يبرح موسكو ، ولكنــه كان على اتصال دائم بما يجول بنفوس مواطنيه فى كل مكان وعلى خبر بما يحدث فى أنحاء البلاد ٠ وكان يشجع الموظفين أحيانا على أن يخرجوا على أمر رؤسائهم اذا تبين لهم أنهــا على غــير حق ، وكان يكافح البيروقراطيــة والتوانى ومراعاة التقاليد غير النافعة ٠ وكان يتحدث بنفسه الى الموظفين

---

(١) Demagogue : زعيم السفلة أو رئيس عصابة او مهرج شعبى ٠

فى التليفون فينجز فى دقائق ما كان يستغرق أياما أو أسابيع . على ان ذلك كله لم يزد على أن يكون مسكنا للداء الذى لا علاج له الا بالتربية الطويلة والتعليم الموصول .

وكان يتحدث فى المؤتمرات والى الصحف بصراحة عما قد يكون فرط منه عن قصور فى المعرفة أو خطأ فى التقدير معلنا للجمهور مايعثر عليه فى الحزب من أدواء وعلل ، ولم يكن ذلك منه وليد ضعف بل آية ثقة ، ثقة بأن كل الأمراض ستعالج وكل الأدواء ستجتث . ولقد ورث الحزب عنه « نقد النفس » هذا فكانت تلك السنة التى سنها لحزبه قمينة بأن تعصم رجاله العاملين من الزخاوة والغرور .

وقد نجم عن نقد لنين للحزب أن أصبحت الجماهير ترى فى شخصه سلطانا خارج الحزب وفوق الحزب ، وفى ذلك ما فيه من الغلو ، فهو لم يكن يعمل الا على أنه رئيس للحزب ، وانما أثمرت جهوده لما لقى من عون عصبة من الرجال المحنكين الموثوق بهم المبرئين من الأطماع الخاصة، أولئك الذين يبلغون الدرجة القصوى من احساس بالواجب والكفاية على العمل ، فى مقدمتهم سفردلوف رئيس اللجنة المركزية التنفيذية وقد مات سنة ١٩١٩ .

أما ترتسكى فهو أحد المثقفين الثوريين الذين يرتفع شأنهم وينخفض مع مد الثورة وجزرها .

وقد أبدى فى سنة ١٩١٧ وفى خلال الحرب الأهلية نشاطا يسترعى الأنظار ، وكان فى المواقف الخطيرة ، كالهجوم الأبيض على بتروجراد ، يستثير بمنطقه أبناء الشعب ويلهب فيهم ببلاغته شجاعة جنونية ، وقد أضفى بروعة بيانه على الثورة الروسية ما كان يعوزها من رومانسية اجتذبت اليها المثقفين ومن اليهم فى بيئات الطبقة الوسطى، أما فى السنوات التى تلت سنة ١٩٢١ فقد انحدر الى متكلم من صغار البرجوازيين ، ثم أكمل انتحاره السياسى بمقالات مناوئة للسوفيت نشرتها له صحيفة دايلى اكسپرس . على أن كل ما وقع منه أو له فى المرحلة الأخيرة من حياته لن يمحو من صحيفته ما نهض به قبل ذلك من مهام جسام فى تلك السنوات الصعاب ، وهو فى ذلك يشبه بلخنوف الذى وقع فى سنة ١٩١٤ مرسوم موته السياسى بمعاضدته لاستعمارية الحلفاء بعد أن قضى ١٢ عاما كان فيها مثال الضعف والتذبذب ، ولكن ذلك

لا يغشى على أعيننا فيحجب عنا حقيقة أعظم شأنا ، هى أنه أول من وضع الأساس للماركسية الروسية ولحزب الطبقة العاملة فى روسيا •

وكان ترتسكى فى سياسته للجنـــود المحترفين يجمع بين الترغيب والترهيب فاكتسب احترامهم وصاروا ينظرون اليه على أنه زعيمهم (١) • على أن نجاحه بين العسكريين قوى فيه النزعة الزعامية المنافية للديمقراطية تلك النزعة التى هى دائما مبعث خطر على الحركات الثورية المنظمة ، وبذلك شرعت دكتاتورية البرولتاريا ذات الطابع الديمقراطى تستحيل فى يده دكتاتورية خالصة • ولعله ، وان لم يفصح عن ذلك صراحة ، قد أراد أن ينظم الدولة البرولتارية على النحو الذى نهجه فى تنظيم الجيش فيفرض على العمال نظاما عسكريا صارما ويعامل الفلاحين على أنهم منتجو غلال لرجال العسكرية الحاكمين ، ولكنه لم يوفق لتحقيق ما لعله قد أراد •

التدخل العسكرى والحرب الأهلية

فزعت حكومات الحلفاء من صلح برست وكان فزعها خشية أشـــياء ثلاثة •

١ ــ أن ترجح كفة القوات الألمانية فى الميدان الغربى على الحلفـــاء بعد أن تعززها القوات التى كانت ترابط فى روسيا •

٢ ــ أن يعلو صوت دعاة السلام فى شتى البلدان ، والسلام يحول بين الاستعماريين ومراميهم •

٣ ــ أن تنتشر عدوى البلشفية بين عمال الغرب وجنوده فيصوبوا رماحهم الى نحور سادتهم ومستغليهم •

(١) وكان ذلك من الاسباب التى استوجبت معاجلته بالعــزل حتى لا يكون فى مقدوره القيام بانقلاب عسكرى •

وأجمعت رأيها أن تتدخل فى روسيا تدخلا مسلحا لارغامها على استعادة النظام الرأسمالى واستئناف محاربة الألمان ، ولم تكن تشك فى أنها بالغة غرضها وشيكا .

كانت الطبقات والطوائف التى أقصيت عن السلطان : سادة الأراضى وأصحاب المصانع والرأسماليون على اختلاف أحزابهم وفرقهم من ديمقراطيين دستوريين واشتراكيين ثوريين ومناشفة وكذلك القوميات البرجوازية المختلفة والأمراء والأشراف ذوو الثياب الموشاة ممن أصبحوا لا يملكون شيئا وقواد الحرس الأبيض والضباط الفارون ورؤساء القوزاق والنواب السابقون ـ كان هؤلاء جميعا لا ينون عن رفع عقائرهم بأن غرس السوفيت لن يجد فى روسيا أرضا يضرب فيها جذوره وأنه لن يلبث أسابيع حتى ينقلع ، وطفقوا يؤكدون للحكومات الأجنبية الاستعمارية أن روسيا أصبحت عدما ، وغدوا ـ وهم الذين كانوا يتجنون على البلاشفة ويتخرقون عليهم أنهم صنائع للألمان ـ يبسطون فى غير تحرج أكفهم للألمان والبريطانيين وغيرهم يستعدونهم على بلادهم ويستنفرونهم الى تدويخ الشعب الذى رغب عن حكومتهم (١) .

وهكذا كان هناك فى النصف الأول من سنة ١٩١٨ قوتان تتحفزان للوثوب على بلاد السوفيت : قوة الحلفاء الاستعمارية فى الخارج وقوة الملاك الرجعية فى الداخل ، وتآزرت القوتان فقدمت الأولى مالا وعتادا وقدمت الثانية أجساما من القوزاق والكولاك .

وألقت جميع شعوب الأرض بحظها فى الجانب المناوىء للكرملن : البريطانيون والألمانيون والبولونيون والفنلانديون والتشكوسلافيون والأمريكيون واليابانيون والاستونيون واللتوانيون والصربيون ، واتسعت رقع الأراضى الروسية التي يرغبون في استلحاقها . وكان البريطانيون أكثرهم تحرقا الى ذلك وكان وزراؤهم أشبه شيء برهط معدمين ترامى اليهم أنه قد عثر على الذهب فى ثرى بلد مجاور فانطلقوا يهرولون اليه وهم فى خوف أن يسبقهم اليه آخرون .

---

(١) ومما يسترعى الانظار أن أنصار الدولية هم الذين كانوا يجاهدون لاستقلال الوطن ، وطن العمال والفلاحين ، وأن الوطنيين كانوا يعملون (عن وعى أو دون وعى) لجعل روسيا شبه مستعمرة للحلفاء ، حتى لقد أصبحت كلمة « وطنى » اذ ذاك مرادفة عندهم لكلمة خائن ، وكلمة « اشتراكى » مرادفة لكلمة المدافع عن الوطن .

وضرب الأسطول البريطاني الحصر على روسيا وأنزل فى أركنجل ومرمنسك جنودا بريطانيين وغير بريطانيين تفوتوا على الألمان فى القسوة المأثورة عنهم فأردوا برصاصهم زعماء السوفيت المحليين ودأبوا يطلقون النار على الفلاحين فيبيدونهم جماعات جماعات ونصبوا حكومة من الحرس الأبيض أسمت نفسها « حكومة شمال روسيا » . وأصدرت لندن بيانا « الى شعوب روسيا » تقول لهم فيه « ان حلفاءكم لم ينسوكم .. لقد قدمنا أصدقاء لمساعدتكم .. فالتفوا حول راية الحرية .. التى رفعناها بينكم .. فان كل ما نرغب فيه هو أن نرى روسيا قوية حرة ، واذ ذاك نجلو عنها .. »

واحتل اليابانيون الأصقاع البحرية وظاهروا الحرس الابيض فى اعادة السلطان الى البرجوازيين وأذاعوا فى ڤلاديفستك بيانا يبذ بيان البريطانيين ايثارا وزهدا .

وجهزت فرنسا بالعتاد مئة ألف من التشكوسلافيين كانوا قد فروا من الجيش النمسوى الى الأقاليم الروسية ، واذاعت على الروس نداء بليغا مؤثرا جديرا بأن يكون صادرا عن « الأكاديمية » .

كانت الحكومة السوڤيتية قد سمحت لهؤلاء الجنود غير النظاميين بالعودة الى بلادهم بطريق سيبيريا والشرق الأقصى ، وكانوا فى بادىء الأمر راغبين عن المداخلة فى الحرب الأهلية ، ولكن الاشتراكيين الثوريين وعمال بريطانيا وفرنسا اتصلوا بهم وأغروهم بحكومة السوڤيت ، ولما طلب اليهم ترتسكى أن يلقوا ما بأيديهم من السلاح أبوا ، فأمر بوقف تيسير السفر لهم فى سكة حديد سيبيريا ، وكان الاصطدام بينهم وبين البلاشفة فى أواخر مايو ١٩١٨ قرب شليابنسك بالأورال . وقد سنى لهم حسن نظامهم النصر على عدوهم المختل النظام .

وقد كانت وثبتهم على حكومة السوفيت أشبه شيء باشارة للكولاك فى اقليم الڤلجا وفى سيبيريا ولعمال مصانع فوتنسك وأشفسك ممن كانوا مسلمين قيادهم للاشتراكيين الثوريين .

ولما افتتح التشكوسلافيون سمارا جعلوها مقرا لحكومة حرس أبيض اشتراكية ثورية تهيمن على اقليم الڤلجا زاعمة أنها تمثل كثرة الجمعية الدستورية التى حلها لنين (١) ، وقد وعدت الفلاحين بتوزيع

---

(١) وكان ميسكى الذى أصبح سفيرا للاتحاد السوفيتى فى لندن من رجال تلك الحكومة .

الأراضى بينهم ، وذلك مناوأة منها لسادة الأراضى السابقين وللبلاشـــفة فى آن ، ولكن وعودهم الوردية لم تخلب ألباب الفلاحين فليس من طبيعة الفلاحين أن يبذلوا النفس والنفيس جريا وراء وعود السياسيين (١) .

وقد ظهرت الصورة نفسها ، ولكن بألوان أخرى ، فى سيبيريا فقد سيطر عليها الأميرال كلتشاك وحاول الاشــــتراكيون المعتدلون أن يحكموا باسم الجمعية الدستورية لولا أن الأميرال ألقى القبض عليهم قائلا « ان ما أنا فى حاجة اليه هو الثياب الداخلية للجيش لا البرلمانات » .

وحشـــد الجنرالات كرنيلوف (٢) والكسييف ودنكين ، بمعونة البريطانيين والفرنسيين ، حرسا أبيض فى شـــمال القوقاز أسموه « جيش المتطوعين» وأثاروا الطبقة العليا من القوزاق على حكومة السوفيت ، وكانت هذه العصبة ضئيلة القوة وكان اقصى أمانيها أن تحتفظ بكيانها لتكون نواة للمتذمرين المتمردين عندما تفتك المجاعة بالشـــعب فيقلب الشـــعب للبلاشـــفة ظهر المجن . وقام الجنرالان كرزنوف وممنتوف ومندوبو الاستعمارية الألمانية (الذين كانوا يعملون فى الخفــاء مراعاة لصلح برست) باثارة ثورة بين قوزاق الدون وسيطروا على اقليم الدون .

ولم يكن فى وسع المانيا وهى تحارب الحلفاء أن تداخل الروس فى شئونهم ، ومع ذلك بذلت قصارى جهدها لتحطيم بلاد السوفيت ، فاقتطعت منهــا أكراينـــا بمعاهدة عقـــدتها مع الرادا الأكراينى وفصمت الصلة بين أكراينا وروســـــيا واقتطعت ماوراء القوقاز واحتلته بكتائب ألمانية وتركية وأرسلت الذخيرة والميرة خفية الى الجنرال كرزنوف . وكانت هناك ــ على نحو ما ــ جبهة موحدة من الألمان والحلفـــاء ، اذ كان قوزاق الدون المشايعون للألمان يعملون بالاتصال مع «جيش المتطوعين» المشايع للحلفاء .

وبهذا عزلت روسيا عن أهم مافيها من منابع الطعام والوقود وخامات المواد ، فنزلت وجبة الخبز التى توزع فى موسكو وبتروجراد

---

(١) ولم يثر أى زعيم تحمس الفلاحين فى تلك السنوات غير مختو الاكراينى الملثاث الذى لم يعد الا بقتل جميع الضباط على اختلاف الحكومات التى ينتمون اليها والذى عبر عن احتقاره للحكومات جميعا بان أصدر أوراقا مالية كتب عليها أنه لا جنـــاح على من يزيف مثلها .

(٢) وقد خلفه بعد موته ، دنكين وكان يقيم فى اقليم كوبان بشرق البحر الاسود.

الى ما جملته كيلو جرام واحد فى الشهر للفرد ، ووقفت مصانع كثيرة عن العمل لقلة الوقود والخامات ، وكانت الأسلحة قليلة وجسور السكك الحديدية مدمرة .

شيوعية الحرب

وكانت الحكومة السوفيتية تعرف أن النصر الذى ظفرت به هو نصر الوقعة الأولى لا الأخيرة وتعرف أنها مقبلة على وقائع أكثر ايغالا فى الجد وامعن اهراقا للدم وتوقن أنها لن تستعيد بغير حمى الوطيس ماسلبته من أقاليم فاشية الغلة وافرة الطعام ملأى بما فى بطنها من وقود ومعادن ، ومن ثم أعدت عدتها لحرب طويلة الأمد ، فجندت كل ذى قدرة على حمل السلاح وسخرت كل مرافق الدولة فى خدمة الجبهة واصطنعت « شيوعية الحرب » فأخضعت الصناعات المتوسطة والصغيرة أيضا لاشرافها واحتكرت تجارة الغلال وفرضت العمل الجسمانى على البرجوازيين ، أحلتهم محل عمال كثيرين ليضطلعوا بأعمال أخطر شأنا ، وهكذا طبق لنين شعاره « لاطعام لمن لا يعمل » .

لقد جعل احتلال الأعداء لرقعة واسعة من الأقاليم الخصبة ومواطن المعادن شيوعية الحرب ضرورة لا غنية عنها .

الثورة فى ألمانيا

وفى خلال هذه الاحداث كانت ألمانيا ترهقها أزمة طعام خانقة ، فقد كان ما فى مخازنها الهزيلة مشفيا على النفاد ، وكان الشعب المضنوك

عيشه متبرما بالحكومة التى ألقت به فى غمار تلك الحـالة ، واذا ثورة أكتوبر فى روسيا تتأجج فتلفحه بلهيبها وتلقنه درس التخلص من العاهل الطاغية . وتحدث الجنود الألمان الذين نقلوا من الشرق الى الغرب بما كان من عقد أواصر الاخاء بينهم وبين جنود الأعداء فانخفضت الروح المعنوية فى جيش الألمان فى مقياس الحرارة الى الصفر ، وفترت عندهم حمية القتـال وزايلتهم الرغبة فيه والمقـدرة عليه فبدءوا يتقهقرون أمام الحلفاء .

وكانت الحكومة الألمانية فى ساعة الهزيمة أشد عداء لروسيا ممـا كانت قبل ، فقطع الأمير ماكس فون بادن آخـر مستشارى الدولة (١) العلاقات بين ألمانيا وروسيا لأن چوفه سفير روسيا فى برلين وكارل ردك رئيس مصلحة الثورات الأجنبية كانا يتصلان بالثائرين الألمان .

انفجر مرجل الثورة الألمـانية فى نوفمبر ١٩١٨ فتمرد الجنـد واعتقلوا قوادهم الذين كانوا يعتزمون مفاوضة الحلفاء فى الصلح وأضرب العمال فى جنوب ألمانيا عن العمل وفر قلهلم الى هولاندا واعتزل فون بادن منصبه وانحاز الأسطول كله الى الثورة ودانت له جميـع مرافىء بحر الشمال والبحر البلطى .

كان لنين وترتسكى يعتقدان أن انهيار ألمانيا لن ينهى احتلالها لأكراينا فحسب بل انه كذلك بشير بنشوء حـكم شيوعى فيهـا ، وكان يداعبهما الأمل فى اقامة اتحاد شيوعى قوامه ٢٠٠ مليون نفس من روسيا وألمانيا ولاتفيا الحرة وبولونيا الحرة يتبوأ مكان الطليعة من أوربا الشيوعية المتحدة ، وشرعا يعدان جيشا من ٣ ملايين جندى لمعاضدة عمال ألمانيا ، غير أن الأمور تمخضت عن أن الحكومة التى استقرت فى ألمانيا كانت حكومة معتدلة على غير صداقة لروسيا (٢) . ذلك أن الفلاحين فى ألمانيا لم يكونوا ثوريين كاخوانهم فى روسيا .

---

(١) Reichskanzler وهو لقب رؤساء الوزارة فى ألمانيا .

(٢) وقد بلغ من ضعف ثوريتها أنها تركت الحرس الابيض الالمانى يغتـال أبرز الزعماء الثوريين وعلى راسهم روزا لكسمبرج وكارل ليبكنشت فأهدرت دمهما وانها قمعت الثورة الشيوعية التى أثارها الاسبرتاكوسيون سنة ١٩١٩ كما ذكرنا قبل .

المؤتمر الثامن للحزب

اجتمع المؤتمر الثامن للحزب فى مارس ١٩١٩ وقد اشتد وقتئذ تدخل الحكومة فى روسيا من ناحية وارتفعت الموجة الثورية فى أوربا (وبخاصة فى البلاد المهزومة) من ناحية أخرى . وقد حضره : ٣٠١ من المندوبين ذوى الأصوات نائبين عن ٣١٣ر٠٠٠ عضو فى الحزب كما حضره : ١٠٢ من المندوبين الذين لهم أن يشاركوا فى المباحثات دون أن يشاركوا فى اتخاذ القرارات .

افتتح لنين المؤتمر بكلمة ناشد فيها الطبقة العاملة أن تثق بالفلاحين الفقراء وان تتآلف الفلاحين المتوسطين أى جمهرة الذين كانوا يعيشون على ملك محدود لا يتسع لغير أيديهم ويغنيهم عن العمل لغيرهم . لقد رأى أن أجتذابهم الى صفوف الثورة ضرورى لنجاحها فى محاربة الحرس الأبيض وفى بناء الاشتراكية (١) .

وأقر المؤتمر لنين على ضرورة انتاج الكماليات وما اليها مما يكفل الراحة للفلاحين المتوسطين ، وذلك على الرغم من بخارين الذى كان يرى أن ليس لهؤلاء شأن كبير فى تقدم الدولة السوفيتية .

ووضع المؤتمر برنامجا وصف فيه الرأسمالية وذكر أن آخر ما تنتهى اليه هو الاستعمار ووازن بين نظام الحكم البرجوازى الديمقراطى والنظام السوفيتى وبين فى تفصيل ما يجب على الحزب من أتمام استصفاء أملاك البرجوازيين وادارة حياة البلاد الاقتصادية وفاق خطة اشتراكية واحدة واشراك نقابات العمال فى تنظيم الاقتصاد القومى واصطناع نظام اشتراكى يسير به العمل والانتفاع بالخبراء البرجوازيين فى الشئون الاقتصادية على أن يعملوا تحت اشراف المنظمات السوفيتية وادماج متوسطى الحال من الفلاحين فى أعمال البناء الاشتراكى بتدرج وبنظام خاص .

---

(١) وكان على حق فى ذلك كما وضح فى خريف سنة ١٩١٩ اذ كان على الفلاحين أن يختاروا بين السوفيت ودنكين فآثروا معاونة السوفيت وبذلك مكنوا لدكتاتورية البروليتاريا أن تمحق أشد أعدائها ضراوة .

وتبدت « المعارضة في الشئون العسكرية » في المؤتمر وكانت تنتظم نفرا من يساريي الشيوعيين وفريقا من العمال الناقمين على أسلوب ترتسكى فى ادارة الجيش ، كانوا يأخذون عليه غلوه فى الحفاوة بالخبراء العسكريين (١) على حين كان يأخذ بالشدة بعض قدامى الشيوعيين من رجال الجيش . وقد نددت المعارضة بفكرة الانتفاع بخبرة ضباط الجيش القديم ذاهبة الى أن ابقاء العصابات المجاهدة خير من تكوين جيش أحمر نظامى ، ولكن المؤتمر أنكر عليها ما ذهبت اليه وندب لجنة حربية لتقوية الجيش الأحمر وتوثيق صلته بالحزب .

وأنكر المؤتمر كذلك رأى جماعة سبرانوف ـ أوسنسكى القائل بالا يتولى الحزب قيادة أعمال السوفيت .

واستقر رأى المؤتمر على اعادة تسجيل أسماء أعضاء الحزب ، فكان ذلك أول تطهير فى صفوفه .

أثر انهيار المانيا

كانت الهزيمة التى حاقت بالمانيا فى نوفمبر ١٩١٨ مفرقا بين مرحلتين متميزتين فى الحرب الأهلية ، ففى المرحلة الأولى كان يكتنف الموقف السياسى شيء من الغموض لما كانت تعمل له ألمانيا من محاولة بسط سيادتها على البرجوازية الروسية ولما كان لأحزاب البرجوازية الصغيرة من أثر ، وبخاصة الحزب الاشتراكى الثورى الذى قام بنصيب كبير فى تلك الحرب وكان له اذ ذاك فى طبقة الزراع نفوذ أى نفوذ ، فلما حاقت الهزيمة بألمانيا تقشع ذلك الغموض وانجلى الموقف ، فتعرت الجيوش المناوئة للسوفيت من كل التمويهات الديمقراطية . وبرزت سافرة تعمل للرجعية ، فأصبح من الواضح أن فى انتصارها انتصارا لرأس المال الأجنبى وقضاء على الاستقلال الروسى ، فانحاز المثقفون ذوو المنازع

(١) وقد قام الدليل من بعد على أن بعض أولئك الخبراء اقترفوا الخيانة .

الديمقراطية الى السوفيتات وانحاز اليها الفلاحون جملة وكان لذلك أثر عظيم اذ أن انتصار البلاشفة فى سيبيريا يرجع الى أعمال جيوش الفلاحين المحلية هناك .

أما الحالة العسكرية فقد خلف فيها انهيار ألمانيا أثرين متناقضين:

١ ـ ازدياد قوة الحلفاء بازاء روسيا ازديادا أغراهم بالمداخلة فى أمورها وضرب الحصار عليها .

٢ ـ استطاعة الحكومة السوفيتية أن تضرب بصلح برست لتفسك عرض الحائط وأن تمسك عن أداء ما فرضه عليها من مغارم وأن تبدأ الكفاح من أجل تحرير ولايات البلطى وروسيا البيضاء (بيلو روسيا) وأكراينا وما وراء القوقاز .

وقد أحسن البلاشفة استغلال الفترة بين هزيمة ألمانيا وتألب الحلفاء على روسيا ، فاستردوا الدون وشمال القوقاز وبحر قزوين وأدخلوا أكراينا فى نطاق الوطن الشيوعى . وكان الحلفاء قد احتاطوا لهذا الأمر ففرضوا على ألمانيا فى شروط الهدنة أن تبقى كتائبها فى أكراينا حتى يأذنوا هم لها بأن تغادرها (١) ، ولكن الجنود الألمان لم يكن لديهم من الحوافز ما يدفع بهم الى القتال فى سبيل هذا الغرض ، ومن ثم افتتح البلاشفة أكرانيا والدون فى سهولة ويسر ، بيد أن دنكين استمر يقاوم فى أقليم كوبان اذ كان ، فى تموينه جيشه بالميرة والذخيرة يعول على الحلفاء لا الألمان . ونجح البلاشفة فى استرداد لاتفيا والاحتفاظ بها برهة ، وأخفقوا فيما عداها من ولايات البلطى . أما الجنود من الانجليز والفرنسيين الذين أتاح لهم الجد السعيد أن يخرجوا سالمين من معارك الفلاندرز وفردون فما كانوا لتطيب لهم المخاطرة بأرواحهم مرة أخرى من أجل مدن روسية يعيبهم النطق بأسمائها ، ولهذا اقتصرت مهمتهم الى حد ما على ايصال الأمداد الى الموالين لهم من القواد الروس وقد هزم هؤلاء جميعا فيما بعد كما سيأتى .

---

(١) وهذا الصنيع منهم فى أعقاب الحرب العالمية الاولى وقع مثله منهم أيضا فى ادبار الحرب العالمية الثانية ، فقد فرضوا على اليابان عند استسلامها أن تبقى جيوشها التى فى اندونيسيا مرابطة هناك حتى تعود جيوش هولاندا الى احتلالها ، فلا يتمكن الشعب الاندونيسى من الظفر بالحرية والاستقلال .

تاليف الدولية الشيوعية

كانت ثورة ألمانيا فى نوفمبر ١٩١٨ ثورة برجوازية ، لا اشتراكية، يقودها الحزب الاشتراكى الديمقراطى وكان لا يفضل المناشفة فى روسيا بشىء ، بيد انها على أية حال ثورة على الطغيان أقصت فلهلم وحطمت الأغلال التى كان يصفد بها العمال . وقد كان للثورة الألمانية بعد الثورة الروسية أثر كبير فى أوربا ، فغمر المد الثورى أنحاء شتى منها ، فأخذت النمسا تجيش بالثورة ثم تكونت جمهورية سوفيتية فى المجر لم تلبث الا قليلا ورفعت الشيوعية علمها الأحمر وقتا قصيرا فى باڤاريا وطفت الأحزاب الشيوعية فى بلدان كثيرة الى السطوح العليا ، وهكذا توطد الأساس لبناء اتحاد من الأحزاب الشيوعية ، تكوينا للدولية الثالثة .

مؤتمر الدولية الشيوعية

واجتمع المؤتمر الأول للأحزاب الشيوعية من مختلف الدول خفية فى موسكو فى مارس ١٩١٩ برياسة لنين ، ومع أن الحصر المضروب حول روسيا والاضطهاد المفروض على المستعمرات حالا دون وصول مندوبين كثيرين الى المؤتمر فقد كانت أهم دول أوربا وأمريكا ممثلة فيه .

وانشأ المؤتمر « الدولية الشيوعية » وانتخب لها « لجنة تنفيذية » يرمز لها بالأحرف ل٠ت٠د٠ش (١) ٠وكان لاتصال لنين

(١) وهى فى الانجليزية E.C.C.I. موجز
Executive Committee of the third Communist International

بالمندوبين الأجانب في المؤتمر وافتتانهم بجاذبيته وقوة شخصيته شأن غير ضئيل فى تكوين المنظمة الجديدة .

ومن أهم أعمال المؤتمر مجاهرته بأن الاشتراكية ذات طبيعة ثورية ومناداته بالبينونة التامة عن الاشتراكيين النهازين (١) واعترافه بحق الشعوب غير الأوربية فى الاستقلال واقراره بأن الديمقراطية السوفيتية تفضل الديمقراطية البرلمانية واذاعته بيانا الى الطبقات العاملة فى جميع البلدان يناشدها فيه أن تكافح فى سبيل دكتاتورية البروليتاريا وانتصار السوفيتات فى أرجاء العالم كله .

وقد انقاد الكثيرون من عمال أوربا بفطرتهم ، على الرغم من زعمائهم ، الى مشايعة أول جمهورية پرولتارية وأهابوا بحكوماتهم أن « ارفعوا أيديكم عن روسيا » وكان لهم وبخاصة فى انجلترا شأن كبير فى عرقلة سياسة التدخل .

لنين وسياسته الدولية

كان لنين قد شغل منذ سنين بالحركات الثورية الدولية التى بدأت منذ نوفمبر ١٩١٨ تؤثر فى الوضع الدولى . وكان ، كما ذكرنا من قبل ، لا يبالى أن تستهدف الثورة الروسية نفسها للضياع لو كان على ثقة بأن فى ذلك افلاح الثورة الألمانية ، فقد كان العالم عنده ينتظم معسكرين اثنين : معسكر الرأسمالية الدولية ومعسكر البرولتاريا الدولية ، وكان يرى تبعا لذلك أن البرولتاريا فى شعب واحد ان هى الا قسم من الجيش الدولى يجب على قواده أن يضحوا به اذا كان ذلك مما يقتضيه النصر العام ، بيد أنه لم يضح بالثورة الروسية لأن أحداث التاريخ جاءت فى صورة لا تحتم بذل هذه التضحية ، لا لأن لنين كان بطلا وطنيا ضعيف النزعة الدولية كما حلا لبعض الكتاب أن يزعموا .

(١) opportunists

وقد اضطلع لنين بأمور شاقة كثيرة تتصل بالدولية أهمها :

١ ـ اقناع الأحزاب الثورية الأجنبية بضرورة دراسة ماتمخضت عنه الثورة الروسية من تجارب لتقبس منها حنكة وبصرا بالأمور ، وذلك دون أن تتخلى عن حرية العمل التى لا غنى عنها فى الأعمال الثورية ٠

٢ ـ تنبيهها الى ضرورة توقى نوعين من العثرات ٠

(أ) مؤازرة النهازين أى الاشتراكيين نصف الاصلاحيين كالاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين فى ألمانيا (أنصار كوتسكى) وحزب العمال المستقل فى انجلترا ، فقد أخفق الثوريون الألمان والمجريون لتقصيرهم فى مباعدة هؤلاء الجيران الذين لا تحمد مداناتهم ٠

(ب) الثرثرة الثورية والنزعات الفوضوية النقابية anarcho-syndicalist كتلك التى أظهرتها بعض الأحزاب الشيوعية الناشئة اذ أبت الاشتراك فى البرلمانات البرجوازية والنقابات غير الشيوعية رغبة منها فى الاحتفاظ بنقائها الثورى ٠

وقد أوضح لنين فى كتابه « ما تبثه شيوعية الجناح الأيسر من خلل وبلبلة صبيانيتين »
The infantile disorder of the left-wing communism
أوضح ضرورة التفرقة بين نوعين من الحلول الوسطى : ما يؤثر منها فى المبادىء الأساسية وما لا يؤثر ، وقال بضرورة اللجوء الى النوع الأخير حين يوجب الأمر ذلك ، وقال ان الحزب هو طليعة الطبقة العاملة ، وذلك يقتضى أن تقف الطبقة العاملة خلفه كتلة متراصة ٠ على أن من السذاجة أن نتوقع من جميع العمال بصيرة نيرة وادراكا تاما للمبادىء الشيوعية ، ولهذا كانت الطريقة المثلى لاجتذاب الطبقة العاملة الى الشيوعية هى الاندماج فى منظماتها كالنقابات العاملية ٠

وتشبه سياسة لنين فى مسألة الدولية سياسته ابان الحرب بازاء القوميات التى تنتظمها روسيا ، فأساسها حق كل شعب فى تقرير مصيره . ولقد رأى بعض الشيوعيين فى ذلك هرطقة لا ماركسية وقالوا بأن مثل هذا الحق يجب الا يستمتع به الا الطبقة العاملة فى كل قومية ، فرد عليهم لنين بأن رأيهم انما هو أن يكون لبرولتارية احدى القوميات أن تضغط برجوازية قومية أخرى وتلك صورة مشوهة من الاستعمارية ، وبأن انكار الفاف من الشيوعيين الروس واليهود

حق القوميات فى تقرير تصيرها هو بعث أو استمرار غير مقرون بالوعى للوطنية الاستعمارية القديمة . لقد كان لنين يسعى الى غرضين :

١ ـ الا تبقى الاستعمارية الروسية القديمة مستخفية فى ثوب مركزية سوفيتية .

٢ ـ ان يجعل الأرض تمور تحت أقدام الوطنيين البرجوازيين وتميد بهم فى الأقليات القومية .

وقد افلحت هذه السياسة فى اجتذاب من فى الاقليات القومية (فى بشكيريا وأكراينا وآسيا الوسطى الخ الخ) من المثقفين الديمقراطيين وغير المشتغلين بالسياسة ، نحو الغرض السوفيتى . وبلغت هذه السياسة ذروتها فى تكوين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية(١) فقضى ذلك مقدما بالموت على أية محاولة يراد بها اعادة الوطنية القيصرية على أساس سوفيتى .

اقتراح الصلح

اقترحت الولايات المتحدة الأمريكية فى اوائل سنة ١٩١٩ على الحكومات المتعددة فى روسيا أن تعقد مؤتمرا للصلح على أساس ان تسوس كل منها ما تحت يدها من الأقاليم وأن يباح للأهلين أن يغيروا حكوماتهم اذا رغبوا فى ذلك ، فقبل لنين هذا المقترح لأنه كان على ثقة أن الأقاليم الحمراء لن ترتد بيضاء (٢) ، وكان البيض أيضا يرون هذا الرأى ولذا ابوا قبول هذا المقترح وتمادوا فى حربهم على البلاد .

---

(١) وكان ذلك فى ديسمبر ١٩٢٢ ابان مرض لنين الاخير .

(٢) بل لقد احمرت جمهورية الشرق الاقصى وهى الاقليم الروسى الوحيد الذى نفذ فيه هذا الشرط .

فزحف الأميرال كلتشوك لعبة الحلفاء فى أمسك أو « حاكم روسيا الأعلى » كما بدا له أن يسمى نفسه فبلغ الفلجا فى ربيع سنة ١٩١٩ ولكنه أرغم على أن يتقهقر على طول الجبهة . ورأى ترتسكى أن يكف عن مطاردته الى الأورال ليفرغ لجيش دنكين ، ولكن اللجنة المركزية للحزب لم تقره على ذلك حتى لا يجد كلتشاك من مظاهرة اليابانيين والبريطانيين له ما يتيح له استعادة قوته ، وأمرت بمتابعة التقدم فاستقال ترتسكى فلم تستجب اللجنة له مكتفية باعفائه من العمل بالجبهة الشرقية . وهزم كلتشاك وقتل رميا بالرصاص انفاذا لأمر اللجنة الثورية فى اركتسك (١) .

وعهد الرجعيون فى صيف سنة ١٩١٩ الى الجنرال يودنتش رأس الثورة المضادة فى الشمال الغربى (ولايات البلطى ونواحى پتروجراد) فى أن يهاجم پتروجراد ليصرف بذلك انتباه البلاشفة عن الجهة الشرقية (٢) . وافلح ضباط العهد القيصرى فى أن يدفعوا بحاميتى حصنين فى مشارف پتروجراد الى التمرد على الحكومة السوفيتية . ولكن الحكومة استطاعت بمعونة العمال والفلاحين أن تستخلص الحصنين من البيض وأن تدحر جنود يودنتش الى استونيا .

وبدأت الأفكار الشيوعية تتطرق الى أذهان الجنود البريطانيين وغيرهم فبدت عليهم آيات التذمر وأخذوا يتمردون ، وثار الملاحون الفرنسيون فى أودسا بزعامة أندريه مرتى فلم يجد الحلفاء مفيضا عن استرداد جنودهم معلقين آمالهم بالجنرال دنكين منظم « جيش المتطوعين » الذى كان يقاتل اذ ذاك فى اقليم كوبان بالجنوب ، وهكذا أصبحت الجبهة الجنوبية هى الجبهة الأساسية .

---

(١) وانتقلت قيادة فلول جيشه الى رجل شاذ الأطوار من سلالة جنكيز خان يؤمن بالبوذية ، هو أنجرن ـ شترنبرج فتقهقر الى منغوليا الخارجية واخذ يشن منها الحملات على الاقاليم الروسية فتبعه الروس الى منغوليا الخارجية فلم يتوان اليابانيون كذلك عن اقتحام منشوريا .

(٢) وكان البلاشفة فى مايو ١٩١٩ قد أوشكوا أن يغزوا بسارابيا لتخليص هنغاريا السوفيتية من ضغط الرومانيين فصرفهم هجوم دنكين عن ذلك .

غزا دنكين اكراينا كلها فى صيف سنة ١٩١٩ وأصبح يهدد مصانع الأسلحة فى تولا (١) ، ولكنه هزم فى أعقاب أكتوبر ١٩١٩ . وفى أوائل سنة ١٩٢٠ استخلصت أكراينا كلها وشمال القوقاز من البيض . وكان الاستعماريون فى خلال ذلك قد أرسلوا يودنتش على پتروجراد مرة أخرى ليلوى الجيش الأحمر عن ملاحقة دنكين ، وتحرج الموقف حتى فكر البلاشفة فى مغادرة پتروجراد ، ولكن ترتسكى أبدى أنه يستطيع صد يودنتش عنها أو القضاء عليه فيها ، وهبت الطبقة العاملة للذياد عن المدينة ودحرت عدوها مرة أخرى الى استونيا فكان فى ذلك القضاء عليه كل القضاء .

وفى يناير ١٩٢٠ وجد البريطانيون ، معلمو العالم ، أنهم ملزمون برفع الحصر الذى ضربوه على بلاد السوڤيت فجلت جنودهم عن البلاد ماخلا الأصقاع الشرقية والقوقاز والقريم .

سوء الحال فى البلاد

وكانت البلاد ، بعد ٤ سنوات من الحرب الاستعمارية وأزيد من سنتين أخريين من الحرب الأهلية ، قد باتت فى حال محزنة من الخراب والفوضى ، فقد نفد الطعام وقل الوقود وارتبكت وسائل الاتصال وقوضت المحطات وهدمت المنازل وغصت بالموتى جنبات الطرق وفشت الأوبئة فأخذ الردى يتخطف الناس وامتلأت المدن بالأراذل والأوشاب واستغلظ أمر قطاع الطرق حتى وثبوا فى ديسمبر ١٩١٩ على لنين نفسه فسلبوه سيارته وتركوه يعود من حيث أتى على قدميه .

---

(١) فأرسلت اللجنة المركزية ستالين وفوروشيلوف وأرجونكدزه وبوديونى لتنظيم الحرب فى تلك الجبهة فلم يقروا ترتسكى على خطته وكانت تقضى بارسال الجيش الاحمر فى بلاد سيئة وسائل النقلة والاتصال فضلا عن أنها آهلة بالفوارق .

ولم يكن لنين كالنائم من فعل السحر على فراش من ذهب وسط أريج الورود والرياحين ، بل كان يرى أن قد حان الوقت الذى ينبغى أن تفتر فيه الثغور باسمة محبورة · كان يريد أن يشاهد تفتح الزهرة الأولى فى الفردوس الأرضى الذى كان يؤمن به أعمق الايمان ، وكان يريد أن يقبل القوم على تعمير البلاد بملء اختيارهم ، فعلى الحزب أن ينبه الرأى العام الى ذلك وأن يحفز الناس بقوة الاقناع الى العمل وأن يضع الكسالى فى موقف يشعرون فيه بالخجل من أن يراهم الناس يتسكعون فى الطرقات · لقد كان السلم فى نظره كفاحا على صورة أخرى جلاها للناس فى قوله :

« تبدأ الآن حرب جديدة ، حرب بلا سفك دماء . ازحفوا الآن لقهر المجاعة والقر والتيفوس والانهيار الاقتصادى والجهل والخراب » فعلى كل رجل ثورى أن يحتطب فى الغاب وأن يحمل الأحجار ، ومن تخلف عن ذلك من أعضاء الحزب الذين تبلغ عدتهم نصف مليون يفصل منه .

وكان خمسة ملايين رجل لايزالون تحت السلاح يتعذر تسريحهم خشية الأحداث المحتملة ، فساق ترتسكى جانبا كبيرا منهم فى ظل النظام العسكرى الى حيث سخرهم فى أعمال منتجة وكان لنين يختلف فى بعض الأحيان الى الأماكن التى يعملون فيها حاملا معه معولا أو مسحاة .

وأمر لنين باعداد خطة لكهربة الصناعة أشرف عليها بنفسه سنة ١٩٢٠ فما كادت حرب التدخل تنتهى حتى بدأ بناء المحطة الكهربية العظيمة فى ڤولكوف كما أمر بانشاء لجنة لرسم الخطط اللازمة لتعمير البلاد تسمى اختصارا جسبلان Gosplan · هكذا كانت الحال عندما عقد المؤتمر التاسع .

المؤتمر التاسع للحزب

عقد المؤتمر فى أخريات مارس من سنة ١٩٢٠ وحضره ٥٥٤ مندوبا ، لهم حق التصويت ، يمثلون ٦١٢ر٠٠٠ عضو بالحزب و ١٦٢ مندوبا ليس لهم الا حق المباحثة ٠

وقد أوصى المؤتمر ببذل أقصى العناية لوسائل الاتصال والصناعة وبين ما لاشتراك نقابات العمال فى انشاء الحياة الاقتصادية من جليل الخطر وعنى ببحث بعض أمور تتصل بالسكك الحديدية والوقود وصناعتى الحديد والصلب وتوليد الكهرباء .

وانكر المؤتمر آراء « جماعة المركزية الديمقراطية » وعدها مناوئة للحزب كما أبى أن يقر اصطناع الاسلوب الدكتاتورى فى الشئون الصناعية .

الغزو البولونى

كانت الحرب فى مارس من سنة ١٩٢٠ تبدو كأنها مشرفة على نهايتها ، اذ أن كلتشاك ودنكين باءا بالهزيمة وانكفأت الجمهورية السوفيتية تدحر البيض وقوات التدخل وتردهم عن الأصقاع الشمالية والتركستان وسيبيريا واقليم الدون وأكراينا ، وكان الحلفاء قد أرغموا على فك الحصار عن بلاد السوفيت وبدأت انجلترا تكف عن التدخل ٠ بيد أن فرنسا كانت لاتزال تعاون فرنجل على تنظيم فلول جيش دنكين فى القريم وتحرض پلسدسكى رئيس الدولة البولونية على القيام بمحاولة جديدة ، فكان هذان — على حد تشبيه لنين — هما اليدان اللتان اعتزمت الاستعمارية الدولية أن تعصر بهما مخنق روسيا .

كان لنين فى ذلك الوقت لايزال مفتونا بحلم الانشاء والتعمير ، وكان يرى أنه يستطيع بالعمل الشاق وفاق خطط مرسومة بعناية فى ظل رقابة صارمة أن يلقى على البلاد بساطا سحريا يفتن الشعوب الأجنبية ، واذ ذاك ـ كما يقول بعضهم متهكما ـ يهب المجندون من بشكيرستان وتركستان وفلاديفستك الى المانيا لمساعدة اخوانهم فى الرأى محتقبين مؤلفات هجل .

الا أن الأحوال والملابسات اذ ذاك كانت تقضى باحلال السلام مهما يبذل فى سبيله من ثمن . وكان لنين على استعداد لقبول أى حل وسط اذ كان يعتقد أن فقدان بضعة فراسخ من الأرض ليس يعنى سقوط امة .

لقد تركت السنوات الثلاث المنصرمة فى جبهته غضونا وجعل منه توقع الكوارث المتتالية شيخا هرما قبل الأوان فتأود ظهره مما ناء به من أحمال وذهب عنه ما كان يتصف به من هدوء ولازمه توتر الأعصاب فى الشئون الدبلوماتية أيضا ، فكان يرسل البرقيات تترى الى لندن وباريس طالبا الصلح مذكرا لورد كرزن بالدموع التى سفحها البريطانيون على دنكين على حين هم ماضون فى تسليح خلفه ڤرنجل .

وقد فسرت بولونيا جنوح لنين الى الصلح بأنه دليل ضعف وخور وتوهمت أن الجيش الأحمر قد نهكته حربه لكلتشاك ودنكين فبات لا يقوى على مقاومة القوات البولونية . لقد أمسكت بولونيا سنة ١٩١٩ عن مؤازرة دنكين لأنها رأت فى شعاره « أن تكون روسيا عظيمة متحدة غير مقسمة » تهديدا للحرية التى ظفرت بها حديثا ، فلما هزم دنكين اعتقدت أنه قد أزفت ساعة الوثوب على البلاشفة .

وبسطت عقاب پلسدسكى البيضاء جناحيها وحلقت تريغ فريسة تنقض عليها فابصرت أقاليم كريمة التربة منبسطة الرقعة لا حدود لها : أكراينا والقوقاز وغاليسيا وروسيا البيضاء ولدون . وزين الجشع والغرور لألفاف الاقطاعيين والأرستقراط على ضفاف الڤستيولا أن يستقبلهم الكرملن بالخبز والملح كما يستقبل الظافرون وتاقت نفوسهم أن يمدوا حدود بلادهم « من بحر الى بحر » من دنتسج الى أودسا ، أن يجعلوا من عاصمتهم أما لعواصم عدة تدور حولها دوران الكواكب بالشمس ، وطابوا نفسا بأن يسخوا على ڤرنجل لقاء ما بذل لهم من عون فيعيدوا الى كبار الملاك وأصحاب رءوس

الأموال فى روسيا ما كان لهم من سلطان . وكان من عميق عطف الحلفاء أن أقروا هذا البرنامج الخيرى .

ولم تطل فترة الاستجمام ، فقد استحالت الأراضى الروسية فى أبريل ١٩٢٠ مرة أخرى ميدان عراك ، فاذا جحافل البولونيين تغزو أكراينا السوفيتية وتدخل كييف فى ٦ مايو واذا فرنجل يؤازرها بالزحف الى حوض الدونتز (١) . ولقى مقاتلو البولونيين عملا سهلا ، اذ كانت البلاد قد ظلت طوال أعوام ستة تسمع أناشيد الغزاة وتعانى بطشهم ، فكان الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ، الكلاب والدواجن ، البساتين والغابات . كل أولئك كانوا عند الغزاة المتعاقبين كتلة واحدة من الأعداء ، فكانت الأشجار تلقى من الابادة مثلما يلقى الرجال الذين يلفظون أنفاسهم وهم معلقون اليها .

وانبعثت من البرارى الروسية روح جديدة ، روح الثبات الراسخ الوطيد والمقاومة الصلبة العنيدة مما يدل على أن كل شىء قد يكون خداعا حتى الرهق والنهك . ووجد لنين بين يديه — كما كان القيصر يجد — كثرة من المجندين ، بيد أنهم كانوا ، كما كان أسلافهم سنة ١٩١٤ ، يعوزهم الكثير من العتاد . وتلقى الكرملن عونا — لم يكن بمنتظر — من ضباط أركان الحرب والمهندسين والأطباء ورجال الفن فى مختلف الصناعات ممن كانوا منذ أسابيع يحاربون تحت لواءى دنكين وكلتشاك ، وانتدب للقتال بعض الارستقراطيين ممن سلبتهم الثورة أملاكهم وأثقالهم ومزقت بيديها الدرنتين سرابيلهم الحريرية . وكتب الجنرال برسيلوف الى لنين يسأله أن يعقد له لواء القيادة على جيش يقاتل به العدو الذى يهدد الأقاليم « الأورثوذكسية » فقبل لنين هذا العون وغيره وأباح لأعداء النظام أن يذودوا عن الوطن .

كان لنين قد اضطر فى أوائل سنة ١٩١٨ ، حين كان الفلاحون يأبون القتال ويهجرون الجيش ، الى أن ينزل فى صلح برست لتفسك عن أكراينا وفنلاندا وكورلاندا وباطوم والقرص (٢) والجزائر التى فى مدخل خليج

---

(١) ولم يكن على قوة تتيح له أن يعمل منفردا ولكن الغزو البولونى مكن له فاستطاع فى يونيه أن يتوغل فى البلاد وأضعف البلاشفة بمناوشاته أمام وارسو ، ولعله قد غير بذلك مسار تاريخ العالم .

(٢) Kars كانت تركيا قد نزلت عنها بعد الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ثم استردتها تركيا كما هو مبين هنا . وكان الاتحاد السوفيتى الى حين غير بعيد يطالب تركيا برد هذا الاقليم اليه .

ريغا ، والى أن يعطي الألمان عددا من السبائك الذهبية ، فلما أنكر القوم عليه ذلك قال ان الفرصة ستواتى لانتضاء السيف مرة أخرى « حين يتبدل شعور الجماهير ، ذلك الشعور الذى أخذ ينضج الآن ، وحين يقول سواد الشعب كلاما يختلف عما يقوله فى الوقت الراهن » وقد حققت الأيام حدسه واقبل مئات الألوف يتوافدون الى الثكنات آلين على أنفسهم ألا يستكينوا لأعدائهم مرة أخرى •

وقد أثار الغزو البولونى فى الجانب السوفيتى احساسا وطنيا ملك نفوس الجنود وبعض أعضاء الحزب الشيوعى • واذ كانت الكثرة فى الجيش من الفلاحين وكان يراد بهم أن يهجروا حقولهم للزحف على البولونيين كان على الدعاة ألا يصبغوا دعوتهم بصبغة الثورة العالمية ، كان عليهم ألا يقولوا لأبناء الارض اننا ذاهبون بكم الى برلين ولندن لنقيم فيهما النظام ونخنق أولئك النظريين الذين يسترون نفعيتهم وراء أحاديث «ماخ» و «كنت» كما عاقب لويس الرابع عشر البوربونى رعاياه الذين زيفوا آراء أرسطو ، كان عليهم ألا يلجئوا الى مثل هذه الدعاوى فان الموجيك (١) رجال أعمال لا شأن لهم بالنظريات •

وارتدت موجة الوطنية التى غمرت روسيا الى بولونيا فأسلست للأوليجارشية (٢) فيها مقاد العمال وفتحت الآذان لسماع دعائهم بأن الحرب انما هى جهاد فى سبيل الوطن. لقد كان لنين وترتسكى يحسبان انهما سيلقيان عونا من عمال بولونيا وفلاحيها ، وقد فسرا اضراب النقابيين البريطانيين والألمان عن شحن الذخيرة والميرة الى بولونيا بأنه وليد العطف على الشيوعية لا أنه بسبب ما أنزلته بهم الحرب من رهق ، كما خيل اليهما أن استيلاء العمال الايطاليين على بعض المصانع فى بلادهم انما كان استجابة لهجوم البلاشفة على بولونيا ، ولهذا داعب الامل قلبيهما أن يشعل عمال بولونيا وفلاحوها ثورة يمتد لهبها الى بلاد أوربا جمعاء ، ولكن هؤلاء كانوا أول من سددوا سلاحهم الى نحور البلاشفة • فقد كانوا — على حد تعبير لنين — « يرون فى الجيش الأحمر بغاة معتدين لا اخوة ومنقذين » ، ذلك أن البولونيين كاثوليكيون ، ولكنيسة روما فى اتباعها نفوذ لا تتمتع بمثله الكنيسة الأورثوذكسية. وقد كانوا يكرهون البلاشفة كذلك لكثرة من فى صفوفهم من اليهود ،

---

(١) Mujik وهو اللفظ الذى يطلق على العامل الزراعى الروسى كما يطلق لفظ الفلاح على العامل الزراعى المصرى . وقد اشتهر الموجيك بضئولة الانتاج وعظم البؤس.

(٢) Oligarchy أى أصحاب السلطة فى حكومة قليلة الافراد أوحكومة الاقلية •

ثم انهم كانوا منذ القديم يكرهون كل من يزحف اليهم من الشرق ، لا يفرقون فى ذلك بين جحافل القيصر الأبيض وجحافل القيصر الأحمر.

وكر الجيش الأحمر كرة مضادة استرد بها كييف وأجلى الغزاة عن أكرانيا وروسيا البيضاء ثم غزا بلادهم فاقتص للعين بالعين وللسن بالسن . وتقدم من وارسو وأوشك أن يلحق بالجيش البولونى هزيمة قاصمة ، فعكف الجنرال الفرنسى فيجان ينظم أسباب الدفاع عن عاصمة بولونيا اذ كانت فرنسا ترغب فى بقاء بولونيا قوية لتفصل بين روسيا والمانيا .

وأذلت تلك الهزيمة كبرياء أوربا الغربية فأمست قصور ذوى الجاه والمال فى باريس ولندن فى مثل عتمة الكاتدرائيات القوطية ، وروع فرساى أن رأت العدو ما زالت له شوكة وبأس ، وبات أولو اليسار فى لندن يتفقدون ابوابهم قبل الرقاد ليطمئنوا الى أنها موصدة وأصبحوا يتساءلون هل توشك حضارتهم أن تزول ؟ أن يزول هذا المسكن ذو الحجرات الست وهذه الأسهم فى مصانع القطن الهندية ودسوت التنس واحتساءشاى العصر والسيطرة على الأمواج وبسط النفوذ البريطانى على الصين ومصر ؟

لقد بلغ من غباوة الساسة المحافظين أن توهموا أن المتجمسين من السوفيت مسوقون بدوافع أكثر غباوة وقساوة من تلك التى تسوق غيرهم ممن يدينون بالآراء المخالفة ، وكان الكثيرون ما برحوا على اعتقادهم أن الكرملن قد غدا بؤرة لبعض المتهوسين الذين يلذ لهم ان يطلقوا النار من أبراجه على عابرى السبل ، وأن أهل موسكو يتبلون حساءهم بما يبترون من أصابع أعدائهم وأن اغتصاب النسوة وافتراع الفتيات ديدن البلاشفة وطريقتهم الأثيرة للتكاثر .

وكانت بولونيا ، الحلقة الكبرى فى القيد الذى تصفد به المانيا ، مخلوقا من صنع بريطانيا وفرنسا ، وقد كلفتهما كثيراً وكانت كالحيوان المرفه الذى يموت ان لم يبالغ فى تدليله .

وهزت الأريحية لورد كرزن فبعث الى الحكومة السوفيتية يقول :

« تقترح الحكومة البريطانية .. تحدوها الى ذلك رغبة جادة .. فى اعادة السلام ، أن تتهادن بولونيا وروسيا السوفيتية .. على أن يعقد مؤتمر .. فى لندن فى أقرب وقت .. ويسر الحكومة البريطانية

أن تتلقى الاجابة سريعا .. وقد أخذت الحكومة البريطانية نفسها بألا تؤازر بولونيا فتقوم بأعمال عدائية لروسيا . »

كان الجيش الأحمر فى ذلك الوقت موشكا أن تنفد ذخيرته وكانت طرق الاتصال سيئة حتى كان من المعسور أن يلقى مددا ونجدة ، وتعذر عليه أن يلم شعثه بعدما كيل له من ضربات ، وأصبح لا يرجى برء الجيش المريض ولو نجح فى بعض نشاطه هنا وهناك . وكان ڤرنجل يهدد من القريم فاستحثت جماعة أركان حرب الجيش الأحمر لنين على الصلح ولكنه طوى كشحا عن هذا النصح وأبى أن يصيخ الى التحذير وأمر بمتابعة الزحف الى وارسو . لم يرد أن يتراجع مختارا كما تراجع يوليوس قيصر عند الثيمس والرين ، وصمم كما صمم نابليون فى موسكو على أن ينصب من نفسه هدفا لقذائف مقلاع القدر .

لقد كان ينظر الى تلك الحرب لا على أنها حرب وطنية لتحرير روسيا البيضاء وأكراينا الغربية بل على أنها قسم من الحرب الطبقية الدولية ، فمتى أشرف الجيش الأحمر على تخوم ألمانيا والمجر لم تجد الرأسمالية الغربية مترسا تسكر به رتجها فلا يمضى ردح من الوقت حتى تقوم فى برلين وباريس حكومتان حليفتان تشدان عضده فيزيح عن كاهله ضغط الحلول الوسطى التى يضطر اليها فى معاملة العشرين مليونا من صغار البرجوا فى بلاده .

لو أن هذا الزحف أفلح لكان له من المزايا والثمرات ما لا يحصى عدا ، ولكنه أخفق ، ويعزى هذا الاخفاق الى خطأ فنى وقع فيه ترتسكى رئيس المجلس الحربى الثورى اذ أمر الجنود الحمر بالتقدم المتصل حتى ألفوا أنفسهم منبتين عن الميرة والذخيرة والكتائب الاحتياطية فلم يملكوا الا أن يتقهقروا خاسرين حتى لا يصطلمهم العدو اصطلاما . وأمسك ترتسكى فى الجبهة الجنوبية عن اقتحام لفوف وأرسل الفرسان لنجدة الجبهة الغربية فاضطر الجيش فى الجبهة الجنوبية الى التراجع (١) .

---

(١) وزعم بعضهم أن مرد هذا الاخفاق الى أن ستالين نفس على توخاتشفسكى معاون ترتسكى ما أحرزه من نصر بلغ أبواب وارسو واشفق أن يثوب الرجل من تلك الحملة قوى النفوذ عالى المقام فأوعز الى فورشيلوف أن ينثنى عن مهاجمة وارسو ويزحف على لمبرج . وهذا الزعم يذكرنا بما فعله خسرو باشا وزير الحربية العثمانية فى سنة ١٨٣٢ اذ نفس على رشيد محمد باشا تعيينه واليا على مصر وقائدا للحملة التى وكل اليها استخلاص مصر من يدى محمد على ، فحبس خسرو باشا عن الحملة ما تحتاج اليه من أمداد وقطع عنها العتاد واستصدر أمرا سلطانيا بالهجوم حين كانت الاحوال غير موالية فمنيت الحملة بالهزيمة .

وشحب حلم الثورة العالمية بعد هزيمة وارسو فى اغســـطس ١٩٢٠ وكان لنين أول من اعترف بأن متابعة الحرب عمل اذا أمكن أن يسوغ من وجهة النظر الوطنية فليس له مسوغ من الوجهة الشيوعية، ومن ثم بدأ يفاوض البولونيين فى الصلح ، وكانوا عاجزين عن التقدم يخشون أن يكر عليهم البلاشفة كرة مضــادة ، فأنكروا مطامعهم فى الأقاليم التى الى الغرب من الدنيبير . وعقد صلح ريغا فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٠ وبه ظفرت بولونيا بغاليسيا وقسم من روسيا البيضاء (١) ، فهو صلح غير مرض للشعور القومى الروسى ولكنه على أية حال ترك الجمهورية وليس لها أعداء خارجيون وحرر قواتها لتوجهها الى آخر بقايا الثورة المضادة .

وقد كفت بولونيا بعد ذلك عن تحريض الشعوب الروســية على الانفصال عن روسيا وعادت فى سياستها الى كتلة غرب أوربا .

مؤتمر الشعوب الشرقية

وبددت هزيمة البلاشفة فى مشــــارف وارسو أمل لنين فى ثورة شيوعية تنشب وشيكا فى الغرب ، فاتجه ذهنه الى الشرق : لئن أمكن فل نفوذ رجال الكهنوت وارساليات المبشرين الدينيين ومن الى ذلك من العناصر الرجعية المتخلفة من القرون الوسطى لم يبق ثمة ما يعوق الشرق عن أن يتمخض عن ثورة ، وان ثورة فى الهند لكفيلة أن تعصف بانجلترا وتشيع فيها الخراب ، ولهـــذا كان من الواجب مؤازرة « الحركات البرجوازية الديمقراطية » فى البلدان المستعمرة .

وافتتح فى سبتمبر ١٩٢٠ فى باكو مؤتمر حافل لشعوب الشرق، ووقع الاختيار على تسنقييف لافتتاحه ، فخطب المؤتمرين قائلا :

(١) وقد بادر الجيش السوفيتى باسترداد هذه الاراضى عنـدما انقضت جحافل هتلر على بولونيا فى أوائل الحرب العالمية الثانية .

« انما تنشب الثورة الحقة عندما يتحد معنـــا ال ٠٠٠ر٠٠٠ر٨٠٠ الذين يعمرون آسـيا ، وعندما تتوثق عرى الاتحاد بيننا وبين القـــارة الافريقية ، وعندما نرى تلك المئات من ملايين البشر قد أخذت تتحرك ٠ وعلينا الآن أن نشن على الرأسماليين البريطـــانيين والفرنســـيين حربا مقدسة حقيقية ٠٠٠ علينا أن نصارح أنه قد دقت الساعة التى يتوح فيها لعمال العالم أجمع أن يثيروا عشرات الملايين ومئات الملايين من الفـــلاحين وأن ينشئوا فى الشرق جيشا أحمر وأن يثيروا الفتن فى ساقة البريطانيين ويمدوها بالعتاد وأن يطيحوا بكل ضابط بريطانى صفيق الوجه يتبذخ على تركيا وفارس والهند والصين » ٠

فوثب المؤتمرون عن مقاعدهم هاتفين للحرب المقدسة على الغرب ٠

نهاية حرب التدخل

اعتزمت الجمهورية السوفيتية بعد ابرامهـا الصلح مع بولونيا أن تقضى القضاء المبرم على ڤرنجل ، ذلك البارون الألمانى الذى تحميـــه البورصة الفرنسية كما كان ترتسكى يصـفه فى ازدراء ٠ وذلك وصف صحيح فى جوهره فقد كان ڤرنجل رجلا شريف النجار ينتمى الى ألمانيى ولايات البلطى ، وكان يبذ سائر الزعماء البيض دهاء وفطنة فى الأمور السياسة ، ولهذا فانه ، مع أرستقراطية منازعه ، قد فطن الى أن أمله فى النجاح رهن باعترافه فى صراحة تامة بأن النظام القديم لن يبعث من جديد ، ومن ثم اتخذ الثـائر القـديم ستروفه وزيرا لخارجيتـه مؤملا أن ينقذ النظام القديم نفسه بـ « سياسة يسارية تباشر انفاذها ايد يمينية » ٠

كان ڤرنجل فى ذلك الوقت قد احتل كوبان والدون وتقدم حتى أضحى على مقربة من حوض الدونتز فغدا يهدد مناجم الفحم وكان تحت امرته فصائل مصادمة من الحرس الأبيض كثرتها من الضباط ، بيد أنه ، على فرط سعيه لم يظفر بتأييد عدد كاف من الفلاحين والقوازاق بدعم بهم

جيشه ، فلم يغن عنه شيئا ما أمده به البريطانيون والفرنسيون من أحدث أنواع المدافع والبنادق والدبابات والمركبات المصفحة والطائرات ، ودحره البلاشفة فى نوفمبر ١٩٢٠ الى القريم ثم أجلوه عنها .

وفى أواخر سنة ١٩٢٠ بدأ البلاشفة يزحفون على ما وراء القوقاز فرفعوا عن أذربيجان الروسية نير البرجوازيين الوطنيين (المسافاتيين) وحرروا جورجيا من سلطان المناشفة وخلصوا أرمينيا من جبروت الطاشناق فانتهت الحرب الأهلية ولم يبق من قوات التدخل غير اليابانيين فى الشرق الاقصى . يضاف الى ذلك بعض محاولات مخفقة للتدخل قام بها الأتامان سيميونوف والبارون أنجرن فى الشرق والفنلانديون البيض فى كاريليا سنة ١٩٢١ وهكذا احتفظت جمهورية السوفيت باستقلالها وحريتها وانتصرت انتصارا تاريخيا .

اسباب انتصار الجمهورية السوفيتية

كان الجيش الأحمر يعمل فى أحوال وملابسات سيئة وكان أعداؤه من قوات التدخل والحرس الأبيض يفوقونه بحسن النظام وحداثة العتاد وكثرة الخبراء الحربيين وباحتلالهم الأقاليم الكريمة الأرض الفاشية الغلة الملأى بالمعادن . ولو رجعنا البصر الى أنباء الصحف الأوربية والأمريكية وتعليقات مراسليها اذ ذاك لما وجدنا بينها صحيفة واحدة رأت احتمال أن ينتصر البلاشفة ، ولكن البلاشفة انتصروا وخيبوا ظن تلك الصحف .

ولهذا الانتصار أسباب نجملها فيما يأتى :

١ ـ كانت جيوش التدخل وحرس البرجوازيين الأبيض مجهزة بكل شيء الا شيئا واحدا هو عطف شعوب روسيا ومعاونتها ، والجيش الذى يحارب شعبه ينتهى غالبا الى الخيبة والاخفاق ، أما الجيش الأحمر فقد اطمأنت اليه تلك الشعوب وآنست فيه اخلاصا ورضيت عن الاهداف التى يقاتل فى سبيلها فعاضدته ما وسعها ولم تقصر فى امداده بحاجته .

٢ ـ وقد استطاعت الحكومة السوفيتية أن تجتذب البلاد كلها الى خدمة الجبهة ، فالجيش الذى لا تسنده ساقة من الخلف مقضى عليه بالهزيمة .

٣ ـ وقد كان مقاتلة الجيش الاحمر على بصر ببواعث القتال فقوى ذلك عندهم روح البطولة والبذل وضاعف من كفايتهم للنضال .

٤ ـ وكانت قيادة الجيش فى جبهته وفى مؤخرته بيد الحزب البلشفى المتحد فى نظامه المتضامن فى الاضطلاع بتبعاته القوى فى روحه الثورية وفى استعداده للبذل فى سبيل غرضه القدير على تنظيم الملايين ، وكان تثقيفه السياسى فى أيدى رجال مثل لنين وستالين ومولوتوف وكالنين وسفردلوف وكويبشف وزدانوف وكان به مفوضون حربيون يحذقون فى التنظيم والدعاوة وقواد من طراز جديد مثل فرنزة وفوورشيلوف وبوديونى .

٥ ـ وقد اندس بعض من البلاشفة فى صفوف الحرس الأبيض وما فتئوا يفسدون عليه أمره ويستفزون الشعب باسمه ويثيرونه عليه .

٦ ـ وحظى البلاشفة بمعاضدة فريق من الطبقات العاملة فى شتى بلاد العالم فقد أضرب العمال عن شحن الذخائر للغزاة وجعلوا شعارهم « ارفعوا أيديكم عن روسيا » فأرغموا رأسماليى بلادهم على وقف التدخل واستدعاء جنودهم من ميدان القتال . قال لنين « لقد بسط البرجوازيون الدوليون أيديهم الينا بالأذى فكفها عنا عمالهم هم أنفسهم ».

فتنة كرونشتات

انتبه الناس ، عندما افاقوا من كابوس الحرب الأهلية ، الى نقصان الغذاء والكساء وندرة الثقاب ونفاد الكيروسين وشح الصابون وما الى ذلك مما كانوا قد أنسوه فى تلك الغاشية فأخذوا يطلبون هذه الحاجات ويلحون

فى طلبها . واستشرى التذمر بين الفلاحين الذين اســـتولوا على الأرض وتحرروا الى الأبد من سادتها السابقين ، اذ أصبحوا لا يفهمون معنى لبقاء شيوعية الحرب بعد انتهاء الحرب ولا يجدون مسوغا لاستيلاء الحكومة على منتجاتهم .

وسرى التذمر فى العمال أيضا ، أولئك الذين أشعلوا الحرب الأهلية وأبدوا فيها وعيا طبقيا ناضجا وبذلا سخيا وبطولة مجيدة ، فقد أخرب الكثير من المصانع التى كانوا يعملون فيها فاضطر الكثيرون منهم الى اللياذ بالقرى فى طلب القوت والى القيام فى سبيل العيش بأعمال غريبـة لم يألفوها . لقد انقطعوا عن أن يكونوا عمالا فصاروا أخلاطا لا ينتمون الى طبقة .

ولم يكن أنصار الثورة المضادة بغافلين عن اســـتحكام الضيق واستفحال التذمر فأخذوا يتآزرون فى العمل مستبدلين بشعارهم القديم « لتسقط السوفيتات » شعارا جديدا يقول « مع السوفيتات ولكن بغير الشيوعيين » .

وانفجرت ثورات الكولاك فى ســـيبيريا وأكرانيا واقليم تمبوف الزراعى ، وقد ظهرت الكتائب الحمراء على الثوار ولكن الثورة لم تقمع .

وبلغت تلك الحالة الثورية ذروتها فى كرونشتات ، كرونشتات التى كانت أعنف بلاد روسيا كفاحا فى سبيل الثورة فانقلبت بها الحال وتمرد النواتى ورفعوا لواء العصيان ، وهم غير أولئك الذين كانوا هنـاك سنة ١٩١٧ وكان لهم شأن كبير فى ثورة أكتوبر ، فقد برح أولئك تلك الجزيرة وتفرقوا فى أرجاء البلاد(١)، حيث قاتلوا فى صفوف الجيش الأحمر ودفعوا ثمنا غاليا لتحمسهم للثورة . هذا الى أن بعضا منهم ولى مناصب ذات تبعات فى الشئون الحربية والادارية وحل محلهم فلاحون مجلوبون من شواطىء البحر الأسود جندوا تجنيدا جبـــاريا ولم تزل تهيمن عليهم عقلية الفلاحين ومشاعرهم ، يسخطهم استيلاء الحكومة على منتجـــاتهم ، ولذلك كان انتقاضهم كما كان انتقاض تمبوف تعبيرا عن تذمر الفلاحين .

وقد سيطر المنتقضون على ذلك الحصن الحصين وعلى الأسطول فتهلل أعداء الثورة الدوليون .

---

(١) كما برح المنظمة الشيوعية فى كرونشتات كثير من أعضائها الاولين فاضعف ذلك من تكوينها ومكن لأعداء الثورة .

وحملت أخبار الفتنة الى لنين فى مؤتمر للحزب فنهض قائلا «لست أشك فى أن هذه الفتنه ستقمع تماما فى أيام قلائل ·· غير أنه يجب ان ندرس فى عنايه النتائج السياسية والاقتصاديه التى تستخلص من هذه الأحداث » ·

بيد أنه كان من الواجب أن يبدأ بسحق الفتنة ، كان من الواجب أن يعطل المحطة اللاسلكية التى يسيطر عليها الثوار حتى لا تحيى الآمال عند جماهير المتذمرين فى طول البلاد وعرضها · وقد كان النظام الجديد قائما منذ سنوات وأصبح له اذ ذاك تلاميذه فى المدارس العسكريه وله وحدات من الجيش مواليه للنين لا تتردد فى الامتثال لأوامره سواء أمرها بقتل القيصر نقولا أو كارل ماركس ·

ولم ينتظر لنين وترتسكى حتى يتحرر فم النيفا من الجليد الطافى فوق أمواهه بل جعلا وحدات الجيش الموالية للزعامة البلشفية تعبر النيفا الى ذلك الحصن الذى يكتنفه الماء زاحفة فوق تلك الصحراء الجليدية فى سرعة ونظام وصمت متعرضة لقذوفات الأعداء لا يقيها منها جدار أو خندق فكان متمردو كرونشتات يصطادون جنودها اصطياد القناصة للأرانب · وضاعف نكبة الجنود أن أخذ الجليد يذوب تحت نعالهم فكانوا يهوون الى قعر النهر زرافات ووحدانا ، ولكن الشاطىء ما فتىء يرسل على الحصن صفوفا جديدة من الجند حتى تم لهم تدويخه ·

لقد كلف النصر المنتصرين أكثر مما كلف المهزومين ، ولكن الفتنة أحبطت فى سهولة على غير ما كان يتوقع الاشتراكيون الثوريون ومن اليهم من أنصار الثورة المضادة الذين يظاهرهم الاستعماريون الأجانب ·

التذمر من شيوعية الحرب

على أن لنين قد فطن الى أن هذا التذمر الذى أبداه الفلاحون ليس الا أنات تعبر عن متاعب حقة والى أن البطش بالمتذمرين ليس بالعلاج الشافى ·

لقد كان لشيوعية الحرب فضل كبير فى كسب الحرب الأهلية . وكان الزراع أنفسهم يذعنون راضين لاستيلاء الدولة على ما يفيض عن حاجتهم من المنتجات الزراعية ولانفرادها بتوزيع السلع ، وظلوا يسهلون تموين الجيش الأحمر ما ظلت الجيوش البيضاء تتهددهم بارجاع كبار الملاك الى أملاكهم المستصفاة والتمكين لهم ثانية فى البلاد ، بيد أن الشيوعيين كانوا ينظرون الى شيوعية الحرب على أنها خطوة نحو الاشتراكية لا رجوع فيها. وكانوا - باستصفائهم المصانع - قد جردوا الرأسماليين من القاعدة الاقتصادية التى يقومون عليها . أما فيما يتصل بالزراعة فقد كانوا يعزون أنفسهم بأن الأرض ، وان كان الفلاحون قد وضعوا أيديهم عليها ، لاتزال ملكا للدولة تحتكر محصولاتها وتحدد أسعارها وتتولى توزيعها على الشعب كله .

ولكن الزراع لم يكونوا يعلمون أن القوم فى موسكو ينظرون اليهم على أنهم مستأجرون ليس الا ، فعز عليهم ألا تنتهى شيوعية الحرب بانتهاء الحرب .

الديمقراطية والدكتاتورية

وأثيرت مسألة الديمقراطية والحرية الاقتصادية فافترقت الآراء فى اتجاهات ثلاثة :

١ - الاتجاه الذى مضت فيه «معارضة العمال» برياسة شليابنكوف أحد عمال بتروجراد وهو اتجاه نقابى أكثر منه ماركسيا ، غايته أن يعاد بناء الدولة فى صورة اتحاد حر من جماعات المنتجين على أن تكون نقابات العمال هيكلا لها وأن يقلل من المهام التى يضطلع بها الحزب . لقد كان شليابنكوف يرى أن أرقى منظمات العمال هى النقابات العمالية لا الحزب الشيوعى . وكان هذا الرأى لا يعدم له نصراء بين أولئك العمال الذين سرحوا من الجيش أو من الأعمال الادارية فأصبحوا متعطلين تجرى الدولة

عليهم الأرزاق فنمت فيهم عقلية المستهلكين المضادة للنظام البرولتارى الذى هو أساس الاشتراكية ٠

٢ ـ الاتجاه النظامى الدكتاتورى يعبر عنه ترتسكى وغايته تعميم نظام العمل بالتزام سياسة شيوعية الحرب التى قام الدليل على صلاحها فى ادارة شئون الجيش وفى تحويل بعض كتائب الجيش فى الجبهة الشرقية الى « جيوش عمل » تقوم بالانتاج الصناعى ، ومن ثم كان برنامجـــه أن يجعل نقابات العمال منشآت حكومية تضم جميع العمال الأجراء اجبارياً وتديرها الدولة من الأعلى ٠

فهو يبتغى اذابة النقابات فى الدولة على نقيض ما كان يرتئيـــه شليابنكوف من اذابة الدولة فى النقابات ٠

٣ ـ وقد أنكر لنين هذين الاتجاهين ورأى الخير فى أن ينهج نهجاً وسطا بينهمـــا يعصم من الفوضى ويحتفظ لدكتاتورية البرولتـــارية بديمقراطيتها ٠ على أن لنين لم يوفق بنفسه الى الحل المنشود بل كان الذى اهتدى الى ذلك الحل هو من يدعى ردزوتاك ، وهو حل يحتفظ للنقابات باستقلالها عن الدولة لتذود عن مصالح العمال فى وجه الحكومة وتحد من بيروقراطيتها التى لم يكن من الممكن أن تبرأ منها دكتاتورية البرولتارية فى تلك المرحلة من حياتها ٠

وهذا الاصرار على أن يكون أســـاس الدكتاتورية البرولتـــارية ديمقراطيا هو من أبرز مميزات اللنينية وأظهر أوجه الخلاف بينهـــا وبين ما قد يسمى بالترتسكية. فالنظام السوفيتى هو عند لنين أقصى الأنظمة الحكومية ديمقراطية ، ولكن ديمقراطيته لا تتسع للمســـتغلين ، ومع أن حكومته دكتاتورية فهى دكتاتورية للبرولتاريا لا على البرولتاريا ٠

أما ترتسكى فالحكومة عنده تعمل لمصلحة الجماهير ، ولكن دون أن تصيخ الى رأى الجماهير ، بل هى تقود الجمـــاهير وتنتفع بالدعاوة فى تسييرها فى السبيل الذى تختاره هى لها. وقد كان ترتسكى ينظر الى تخلف الشعب الروسى فى مضمار الحضارة فيرى أنه لن يحظى بالاشتراكية الا أن حظيت بها الشعوب التى نالت قسطا أوفر من الحضارة ، ومن ثم لم يكن لروسيا فى ذاتها خطر كبير بل كل ما كان لها من خطر هو أنها كانت وسيلة لاشعال الثورة العالمية المنشودة ، فليس هناك ما يسوغ التوسع فى انتهاج الأساليب الديمقراطية فيها ٠

وقد كان لنين أيضا يرى أن الثورة العالمية هي الغاية التي ما بعدها غاية وأن الثورة الروسية ان هي الا بضعة منها ولكنه كان يعلم أن التاريخ ليس طيعا فيسير في السبيل الذي يريده على السير فيه ، وكان يعلم أن روسيا قد خاضت أقسى المحن وأن لديها فرصة البقـــاء اشتراكية ولو تشبثت البلاد المتقدمة في الصناعة برأسماليتهـــا ، فلا عبرة في بلوغ الاشتراكية بالتقدم قبل ذلك في مضمار الرأسمالية وقد كانت شيوعية الحرب أكثر ملاءمة حين كان من المتوقع أن تنشب الثورة العالمية ، ولـكن الأمل في نشوبها جعل يضمحل ثم اذا هو قد انهـار جملة بانهيار الحركة الثورية في ألمانيا في خريف سنة ١٩٢٣ ٠

السياسة الاقتصادية الجديدة

كانت السياسة التي اتخذها لنين سنة ١٩١٩ في مسألة الفـلاحين والتي أوجزت في المؤتمر الثامن تنطوي على جرثومة السياسة الاقتصادية الجديدة ، ومع ذلك فقد ترك شيوعية الحرب قائمة بعد الحرب مســـايرة لرفاقه وكانوا يرون فيها خطوة في سبيل الاشتراكية لا رجوع فيها ٠

لقد كان لنين واقعيا ولكنه لم يكن يساير الواقع على حساب النظريات بل ان واقعيته لم تكن الا تطبيقا عمليا لنظريته الجدلية ٠ وكان فيه من الشجاعة ما يدعه يرى الوقائع كما هي لا كما يريد لها أن تكون ، وكان له من المقدرة ما يجعله يرى في ســياسته الواقع غير المرضي الذي يحتال رفاقه ليوفروا عن أنفسهم ألم رؤيته ، ولم يكن يرى بأسا في التراجع حين تكرهه الأحوال والملابسات ، بيد أنه لم يكن يفعل ذلك الا في اللحظة التي يرى أنه اذا تأخر عن التراجع فيها فاته الأوان ، فقد ظل قبيل صـــلح برست لتفسك مرخيا العنان لترتسكي تاركا اياه يسير في طريقه ما رأى أن ثمة بصيصا من الأمل في أن يعجز الاستعماريون الألمان عن التقدم ، فلما أوشكت طريق النجاة أن تنقطع دونه سار فيها قدما ، وهكذا كان

موقفه من شيوعية الحرب ، فلولا أن هدد الفلاحون بانتقاض عام لما آزمع انتهاج السياسة الاقتصادية الجديدة ٠

وجوهر تلك السياسة أن يستبدل باستيلاء الحكومة على كل مايفيض عن حاجة الزارعين (مقابل ثمن معين) فرض ضرائب عينية متدرجة متى أداها الزارع كان حرا فى بيع ما فضل له من المحصول ٠ وقد استتبع ذلك اباحة حرية التجارة الخاصة فى داخل البلاد ـ وفى نطاق محدود ـ حرية التملك الخاص للمنازل والأعمال الصـــــناعية ، فكثرت المتلكات الزراعية في روسيا كثرة لم تعرفها من قبل ، ولم تكن تلك شيوعية بل كانت نقيضا لها ٠ وهكذا استطاع الفلاحون بزعامة لنين أن يقهروا لنين ويجعلوه يحظر الاعتداء على ملكية الأراضي ويحملوه على الكف عن محاولة تكوين المزارع التعاونية ٠ لقد كان ذلك تراجعا ولا شك ولكنه لم يكن تسليما باطلاق ٠ كان لنين يوازن بين تغييره خطته وتغيير الجيش اليابانى خطته ، اذ لجأ الى محاصرة حصن بورث أرثر بعد أن اخفق فى اقتحامه، ولم يكن مخطئا فى خطته الأولى لأنها كانت الخطة الوحيدة الصالحة. اذ ذاك و « كان من المهم أن يستبين للجميع أن الحصن لن يؤخــذ بالهجوم الخاطف وأن من الخطأ المضى فى تلك الخطة » ولكن الهدف ظل على حاله لم يتبدل . وسقطت بورث أرثر فى النهاية . وكذلك آثر لنين أن يتراجع هونا ما عن شيوعية الحرب ، التى هى الهجوم المواجه، ليستجم ثم يستأنف الهجوم .

وقد رأى الترتسكيون والمعارضون أن السياسة الاقتصادية الجديدة تقهقر محض (١) مع أنها لم تكن وليدة هزيمة اذ أن الحزب كان قد ظفر بالنصر على قوات التدخل والحرس الأبيض ، والحق أن تلك السياسة كانت رد فعل للتقــدم السريع الذى تم للحزب دون أن يكون مجهزا تجهيزا كافيا حتى لقد أوشك أن تنقطع الصلة بينه وبين قواعده .

---

(١) وقد شكت روزا لكسمبرج أيضا أن لنين « قد غرس فى الارض عنصرا اجتماعية جديدا وقويا معاديا للاشتراكية ، عنصرا يضطلع بمقاومة تفوق كثيرا فى صلابة عنـادها وعظم خطرها ما كانت عليه مقاومة ملاك الاراضى الارستقراط » ٠

المؤتمر العاشر للحزب

اجتمع المؤتمر العاشر للحزب فى ٨ مارس ١٩٢١ فحضره ـ ٦٩٤ مندوبا لهم أصوات يمثلون ٧٣٢ر٠٠٠ عضـــو و٢٩٦ مندوبا لهم حق المباحثة دون الاشتراك فى اتخاذ القرارات •

وأقر الحزب لنين على رايه فى مسألة النقـــابات وحمل على الزمر المعارضة ناعيا عليها أنها « فى واقع الامر تؤازر الأعداء الطبقيين للثـورة البرولتارية » وأمر بحلها ، وفوض الى اللجنة المركزية أن توقع العقوبة بمن ينتهك حرمة النظـــام من أعضائها ووجه نظر الحزب الى ما للوحدة والتضامن فى التبعة من كبير الشأن فى ذلك الوقت الذى خامر فيه الشك صغار البرجوا واعتراهم التردد ، وندد بما يسمى « معارضة العمال » وصرح بأن ترويج الآراء النقابية الفوضوية ينافى عضوية الحزب •

وأقر المؤتمر ستالين على وجوب الأخذ بأيدى شعوب آسيا الوسطى، تلك الشعوب التى كانت تسام الخسف والاضطهاد •

تطهير الحزب

وهكذا تغلب الحزب على المعــارضة المزدوجة : معارضة اليســاريين الذين غشيهم الفزع فجعلوا يرفعون عقائرهم بأن فى السياسة الاقتصادية الجديدة عودة الى الرأســمالية وانتهاء لسلطان السوفيتات • ومعــارضة المستضعفين الذين لم يكونوا يؤمنون بامكان أن تتطور روسيا وتتحول الى الاشتراكية ، ومن ثم جعلوا يطالبون بامتيــازات كثيرة تمنح لرأس المال الخاص الوطنى والأجنبى •

وقد تبينت اللجنـــة المركزية ضرورة تطهـير الحزب من المذبذبين

والمشاكسين حتى تزيد من صرامة نظامه وتقوى من ثقة الجماهير به(١)

لقد كان تكوين هذا الحزب هو أهم ما قام به لنين نحـــو النظرية الثورية والعمل الثورى . وكان أعظم ما فرضه لنين على نفسه أن يصـون لهذا الحزب وحدته ونقاءه فى تلك الملابسات الجديدة التى نشـــأت بعد استيلائه على السلطة . وقد كان لنين من قبل دائم المشاحنة فى الحزب دائب العمل على تطهيره . وكان للشرطة القيصرية أيضا فضل فى تصفية الحزب مما يشوبه . اذ لم يكن هناك ما يبعث الناس على تعريض أنفسهم لمتاعب الجمة بانتظامهم فى سلك الحزب دون أن يكون لديهم من نفوسهم حوافز حقيقية(٢) . وقد ازداد عدد الاعضاء بين ثورتى فبراير واكتوبر من ٨٠٫٠٠٠ الى ما يقرب من ٢٥٠٫٠٠٠ ، ومع ذلك ظل ثم احتمال أن ينهار النظام الشيوعى من أساسه ، فلما عقد الصلح ارتفع عدد الأعضاء الى ثلاثة أرباع المليون ، وبذلك شابت نقاءه أوزاع من كل من هب ودب، فأضحى تطهيره ضرورة لا غنى عنها . وقد قامت لجنته المركزية بذلك سنة ١٩٢١ وأقصت عنه ما يقرب من ١٧٠٫٠٠٠ عضو أى نحو ٢٥٪ من مجموع أعضائه فقوى بذلك نظامه وازدادت ثقة الجماهير به .

أثر السياسة الاقتصـادية الجديدة

كانت اعادة الرأسمالية اعادة جزئية أمرا يمكن تحمله لأن شيوعية الحرب كانت قـد نجحت نجاحا كاملا فى تحقيـق أغراضها السياسية فبقيت القوة السياسية فى أيدى طلائع الطبقة العاملة واحتفظت الدولة البرولتارية بجميع المرافق الهامة وبالنصيب الأوفر من الاعمال الصناعية واحتكرت المصارف المالية والتجارة الخارجية ، بل لقد كانت تلك الاعادة

---

(١) وكان المؤتمر الثانى للدولية الشيوعية الذى اجتمع فى أثناء الحرب البولونية وحضره مندوبون من ٣٩ دولة قد فرض اتخاذ « نظام حديدى » عنيف لتطهير الحـــزب تطهيرا منظما من عناصر البرجوازية الصغيرة .

(٢) هذا مع غض النظر عن أمثال ملنفسكى ممن اندمجوا فيه ليتجروا بأسراره .

الجزئية ضرورية لأن « الخراب والحرمان اللذين خلفتهما الحرب الأهلية قضيا علينا أن نعمل طويلا على ضمد جراحنا» وذلك باعادة السوق الداخلية التي يتيسر بها لرءوس الاموال أن تتجمع ٠

وقد بدأت السوق تعمل فى توزيع المنتجات وتبادلها ولكن السلع كانت أندر فى السوق من الجنود فى الجبهة أيام برست ٠ وقد كان لنين يعجب كيف يستطيع المرء أن يتحدث فى حرية البيع والشراء حيث لا شيء يمكن بيعه أو شراؤه ٠

وقد شجعت السياسة الاقتصادية الجديدة متوسطى الحال من الفلاحين على الانضمام الى الدولة فى مكافحة عصائب الكولاك ، وبدأت الحالة الاقتصادية تتحسن وئيدا ولكن المجاعة التى ألمت بالبلاد سنة ١٩٢١ عوقت التئام جراحها ٠

بيد أن هذه السياسة الجديدة أنشأت فى الحياة طبقة من الرأسماليين الجدد فيهم كل ما كان فى الرأسماليين القدامى من معايب ومثالب ٠ واذ كان هؤلاء المنتفعون بالسياسة الاقتصادية الجديدة Nepmen يتمتعون بحماية القانون والشرطة فقد أخذ الشيوعيون ينظرون اليهم على أنهم السادة الجدد وصاروا يحسبون أن قد ماتت الثورة ٠

وكانت الحالة على شيء من القتمة عندما اجتمع المؤتمر الحادى عشر للحزب ٠

المؤتمر الحادى عشر للحزب

عقد هذا المؤتمر فى مارس ١٩٢٢ فحضره ٥٢٢ مندوبا لهم أصوات يمثلون ٥٣٢٫٠٠٠ عضو (بعد أن فصل الحزب ربع أعضائه) و ١٦٥ مندوبا لهم حق المناقشة دون غيرها ٠ وكان هذا المؤتمر آخر مؤتمر دعا اليه لنين وهو فى تمام قواه العقلية ٠

راجع المؤتمر نتائج السياسة الجديدة بعد سنة من تطبيقها ٠ وألقى

لنين خطبة كانت من أهم ما خطب وما كتب ، أوضح فيها ضرورة الأتحاد الوثيق بســـواد الفلاحين ، وقال ان النظام الاقتصادى الجديد سيطبق لتنتعش الاعمال التى تتولاها الدولة ، الدولة التى يجب أن تكون قادرة على التعلم من الاعمال الرأسمالية وعلى منافستها ، فالرأسمالى « يبتز الارباح ولكنه يحذق عمله ، وأنتم ، أنتم تحاولون أساليب جديدة دون أن تجنوا أرباحا ٠٠٠ أنتم رجال مقدسون خلقاء أن تدخلوا الجنة أحياء ، ولكن هل تعرفون أعمالكم ؟٠٠ يجب أن نبرأ من الزهو الشيوعى ٠ أجل ستطول منافستنا للرأسماليين وسنلقى فيها عنتا كبيرا ، ولكن علينا ألا نجزع».

« فلقد كنا عاجزين عن الاحتفاظ بكل المراكز التى افتتحناها ، بيد أن ذلك لم يكن الا لأنا كنا ــ وقد ارتفعنا فوق ذروة تحمس العمال والفلاحين ــ قد افتتحنا رقعة من الأرض شاسعة شسوعا أضطرونا معه الى التراجع ٠ وفى وسعنا أن نتخلى عن شقة طويلة وأن نمضى فى تراجعنا طويلا دون أن نخسر الشىء الجوهرى » ٠

يصيح المناشفة والاشتراكيون الثوريون مرددين أننا نفعل ما كانوا يقولون به دائما ٠ ولكنهم قالوا به فى اللحظة المخطئة قبل أن نظفر بما ظفرنا به ، ولأنهـم يلجون فى هـذا القول « سـنمضى نحن فى رميهـم بالرصاص » و « ان الأمر لعلى غاية من الوضوح ، فعندما يتراجع الجيش متقهقرا يجب أن يتضاعف نظامه مئة مرة مما كان عليه عند الهجوم اذ أن الصفوف فى تلك الحالة تندفع جميعا الى الأمام ، أما فى حال الارتداد فان التزاحم فى الاندفاع الى الخلف يعرض الجيش للدمار » لكل لحظة مخرج واحد من الورطة ، وقد كان المخرج فى سنة ١٩١٧ هو السلام وكان فى سنتى ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ هو النصر فى الحرب الأهلية وهو الآن الاحتفاظ بالنظام فى أثناء الارتداد ٠

ثم قال « ان جميع الأحزاب الثورية التى سقطت حتى الآن انما كان سقوطها لأن الصلف داخلها فأعجزها أن تتبين أين موضع قوتها وكانت تحجم أن تتحدث بضعفها ، أما نحن فلن نسقط لأننا لا نخشى أن نتحدث بما يعترينا من ضعف » ٠

وكانت هذه الكلمة من أهم وصايا لنين للحزب ٠

كانت صحته فى خلال ذلك المؤتمر على غير ما يرام ، ولهـــذا كان النصيب الذى اضـطلع به من أعمـال المؤتمر أقل ممـــا جرت عادته أن يضطلع به ٠

المؤتمر الثاني عشر للحزب

.. وقعدت بلنين سوء حالتـه الصحية عن حضور هـذا المؤتمر الذى اجتمع فى أبريل ١٩٢٢ ، وقد حضره ٤٠٨ من المندوبين ذوى الأصـوات يمثلون ٣٨٦ر٠٠٠ عضـو بالحزب (فقـد تابع الحزب تطهير صفوفه من المارقين والجانحين) و ٤١٧ مندوبا لهم حق المباحثة والمجادلة دون الاشتراك فى اصدار القرارات ٠

أقر المؤتمر لنـين على توصياته التى أثبتهـا فى مقالاته ورسـائله الأخيرة (١) ، وندد بأولئك الذين وجدوا فى السياسة الاقتصادية الجديدة تكولا عن الاشتراكية واستسلاما للرأسمالية كما ندد بما اقترحه رادك وكرسين من منح الرأسماليين الأجانب امتيازات واسعة ليعاونوا البلاد فى انهـاض صناعهـا ولم يقبل ذلك الا فى أضـيق نطاق ، وأنكر ما قال به بخارين وسوكلنكوف من ضرورة كف الحكومة عن احتكار التجارة الأجنبية ورفض ماذهب اليه ترتسكى من وجوب تسخير الفلاحين فى اقامة الصناعة درءا لانفصام عرى الاتحاد بين الفلاحين والعمال ٠ وأقر ستالين على ماجاء فى تقريره من احلال المساواة بين شعوب الاتحاد السوفيتى محل التباين القائم اذ ذاك ومكافحة النزعات القومية داخل حدود البلاد ٠ وقد عارض الزعيم الوطنى الجورجى مدفانى فى ذلك وأبى قبول تكوين اتحاد لما وراء القوقاز يضم الأرمن ومن اليهم (٢) ٠

وأبدى المؤتمر رضاه عن نتائج السـياسة الاقتصادية الجديدة فى السنتين الماضيتين ٠

---

(١) كاجتذاب الفلاحين الى المشاركة فى اقامة الاشتراكية واتباع الاساليب الاشتراكية فى الزراعة تدريجا : فى بيع المحصولات أولا ، ثم فى انتاج المحصولات ٠

(٢) وعقب المؤتمر دعا بعض عمال الحزب من الجمهوريات القومية الى مؤتمر لبحث المسألة القومية رفعوا فيه النقاب عن حقيقة جماعة من البرجوازيين التتر برياسة سـلطان جليف وجماعة من الوطنيين الاوزبكيين برياسة فيض الله خوجايف ٠

تكوين الاتحاد السوفيتي

استخلص الجيش الأحمر وعصائب المجاهدين من مشايعى الحزب partisan فلاديفستك من اليابانيين فى أكتوبر ١٩٢٢ ومن ثم بدت ضرورة توثيق الروابط بين مختلف الجمهوريات السوفيتية وعقد الاتحاد فيما بينها ٠

وقد عقد المؤتمر الأول لسوفيتات الاتحاد فى ديسمبر من سنة ١٩٢٢ وتقرر فيه تكوين اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية U.S.S.R. فكان هذا الاتحاد الاختيارى نصرا لسياسة لنين وستالين فى مسألة القوميات ٠

الاحتضار الطويل

شب لنين مسلم الجسد قوى المنة ، بيد أنه أسرف فى النشاط وأفرط فى العمل وكان يكد ذهنه بامعان ليرى بانعام أية صعوبة تنشأ فى أية لحظة ، فكأنما كانت أفكاره سانية (ساقية) يديرها تيار الماء فلا تفتأ تدور لتنفخ الحياة فى صورة العالم التى كان يراها فى أحلام يقظته ، ولاتنى تقشع السحب الغائمة التى يتلبد بها جو نظرياته ٠ كان ذهنه شعلة متوهجة تنير لأتباعه طريقهم وكان هو نفسه الوقود لتلك النار المشتعلة ٠

وقد بدأ ، قبيل اجتماع المؤتمر التاسع للحزب ، يستشعر الاعياء ، ثم ازداد به الرهق حتى لم يشترك فى المؤتر الحادى عشر الا بقدر ، لقد أضحى وما يستقر الى مكتبه نصف ساعة حتى يحس كأنما تضغط رأسه يد غير رفيقة فيطيش صوابه ويمسى عاجزا عن لم شتيت أفكاره ٠

وأقنعوه أن يستجم طرفا من الوقت فدلف الى قرية جوركي الصغيرة القريبـه من موسـكو وحل داراخلوية على حافة الغـابة ، بيـد انه كان ـ كغيره من الحـكام المطلقي السلطة ـ تلاحقهم شكوكهم وهواجسهم حيث رحلوا وحلوا فلا تدع لهم سـبيلا الى الراحة والجمام ، فرجع الى موسكو بعد أسابيع وعاد الى ممارسة أوجه نشـاطه ، ونهكت قدرة شرايينه على التقلص فاذا هي أقل استجابة لمطالب مخه ، فعـانى المخ أذى عضويا ، وظل تصلبه sclerosis يشتد عنده ولكنه ما فتىء يقاوم ويقاوم (١) حتى جرفه التيار ذات يوم فلم يستطع مقاومته ، وفى أدبار مايو من سنة ١٩٢٢ أضرب جسم لنين عن العمـل · أراد أن ينهض فقعد به المرض عن النهوض ، وهم أن يحرك سـاعده فلم تستجب له عضـلاته ، فحاول أن يتـكلم فاذا هـو لا ينبس ببنـت شـفة · لقـد رماه النزف الدموى haemorrhage بالفالج وبالبكم ·

لقد بطش بالعصاة فى السنوات الأربع التى ولى فيها الحكم وأخمد سورة الفوضى وكسر شرة المجاعة ، بيد أنه ما لبث الآن أن راح ينهزم أمام عدوه الجديد المستكن فى بدنه ·

وأعيد ، وهو يعانى عسرا فى التنفس ، الى قرية جوركي ليخلد الى النوم والراحة ، فبدأت العـافية تثوب اليه بعد ٣ أشهر ، وأخذ يتصل ما كان قد انقطع من خيوط حياته فقوى على النطق وأصبح فى مقدوره أن يحرك ساعده وأن يخطو فى صعوبة وعناء فأضجع فى الكرسى ذى العجل ·

وكانت احدى الرصاصات الثلاث التى أطلقتها عليه دورا كيلان سنة ١٩١٨ ماتزال مستقرة على مقربة من صلبه فأزالها الأطباء دفعا للمرض وتسكينا للألم · وسطعت شمس الصيف على غابة جوركى فأذاب شعاعها سقم المريض ومحا الشحوب من محياه، فظن المريض أنه برىء وأخذ يخادع الأطباء ويجاوز بعمله القدر المباح له ، وأفضى الى أصدقائه فى سبتمبر أنه لما يتم أنشودته وأنه ليس لديه وقت للموت ·

وبدا عليه التحسن فى أكتوبر فسمح له أن يعود الى عمله ، ولكنه أرغم على التنحى عن جانب كبير منـه الى كمنف وتسيوروپا · وقد برز للنـاس واستوى على كرسيه مرة أخرى فى مجلس مفوضى الشـعب وفى اللجنـة المركزية لسوفيتات الحزب · وقـدم فى ١٨ نوفمبر تقريراً الى

---

(١) وكانت الانباء السارة الواردة من مؤتمر جنوا ، بأن الروس أفلحوا هناك فى التحريش بين أعدائهم وفى عقد معاهدة مرضية مع ألمانيا وحدها ، أجل من أن يتحملهـا لنين ·

المؤتمر الرابع للكومنترن ، ثم خطب بعد يومين فى سوفيت موسكو فى الاحتفال لمرور خمس سنوات على الحكم البلشفى ولاستعادة البلاشفة فلاديفستك وطرد آخر جندى أجنبى من البلاد • فصرح بأن السياسة الاقتصادية الجديدة أثمرت ثمرتها ، فقد أدار المنتفعون بهذه السياسة Nepmen دولاب التجارة ، وقد آن أن يبطش بهم قبل أن تشتد سواعدهم وتغلظ أعناقهم ، وحق على الدولة آن تقيم النظام الاشتراكى سلما الى الشيوعية وأن تفرغ لنشر الصناعة وتنمية الموارد الطبيعية فى البلاد •

كانت تلك آخر خطبة له فقد أخذت صحته تتهور مرة خرى فى ديسمبر ١٩٢٢ فلم يجد مناصا من التخلى عن الشطر الاكبر من أعماله الادارية ، بيد أنه لم يمسك عن الكتابة وعمد فى كتاباته مثل « ذكريات من ثورة سنة ١٩١٧ » الى تجلية بعض أمور تتصل باللنينية والثورة كما تحدث فى رسالته «الخير أن يكونوا قلة ولكنهم جياد» Better less but well فى تنظيم التفتيش على العمال والفلاحين تنظيما يبتغى به تقوية العنصر الديمقراطى فى دستور السوفيت ، ورأى أن تدمج المصلحة التى يختص بها ذلك (هى مصلحة فحص الحسابات Audit Department فى لجنة المراقبة المركزية للحزب على أن يندب لها نفر من الأفذاذ منحدرون من أصل عاملى يدربون تدريبا خاصا ليشرفوا على سير العمل فى آلتى الدولة والحزب • أما مقاله الأخير « فى التعاون فخاص بسياسة الفلاحين وهو تمهيد لسياسة الحزب الأخيرة التى تحول روسيا الريفية الى دولة اشتراكية •

وفى ٩ مارس ١٩٢٣ هم لنين أن ينهض من فراشه فاذا هو لا طاقة له ، فحمل مرة أخرى وقد اعتراه الشحوب والهزال الى تلك الدار الحلوية فى جوركى حيث أضجع فى الكرسى ذى العجل ينظر الى الحديقة ويستحضر فى ذهنه صور حياته المنسية فى سيبيريا وجنيف ولندن والكرملن ويستعيد الى ذاكرته منظر الصحيفة التى نشر فيها أولى مقالاته والمحطة الفنلاندية التى سافر منها الى الخارج والقمطر الذى كان يكتب عليه فى سملنى • ومع أنه كان مصابا بتعذر النطق فان حالته لم تكن تبعث على اليأس ، بل لقد بدا فى ديسمبر ١٩٢٣ ويناير ١٩٢٤ كأنما قد مست جسمه عصا سحرية فأخذ ينقه ويسير فى طريق الشفاء ، واستعاد قدرته على النطق وغدا يخطو فى الغرفة دون سند ، ولكن يده ظلت عسيرة الحركة لا تطاوعه على ضبط اليراع •

وقد ظل الناس اذ ذاك في جهل بخطر هذا المرض وعلى غير بصر بأن لنين لم يكن هو الذى يدير الأمور بل كان يقبض على ناصيتها ستة نفر هم ترتسكى وتسنفييف وكمنف وريكوف وكالنين وستالين (١) •

وبدأت السماء ترسل الجليد على جوركى ندفا فبدت الأرض لامعة كأنها مغطاة بالقز والديباج ، وخرج الناقه يتنزه راكبا ومعه بندقيته يمسك بأنبوبتها الفولاذية في لذة فتشيع فى أقطار نفسه الغبطة بأنه لا يزال حيا •

ولكن النهاية دهمته على حين بغتة ، وطاف به طائف من الموت لبث يحاصره ثلاث سنوات ويتحيف أعصابه عصبا اثر عصب ، فأخذ يلهث ويشهق ، وقضى ساعة فى هذيان لا يرى ولا يسمع ولا يحس شيئا ، ثم زايلته الحياة فى قرية جوركى فى مغرب ٢١ يناير من سنة ١٩٢٤ •

وهكذا كان ختام حياة دامت ٥٤عاما منها ٣٤عاما فى طور الرجولية قضى الشطر الأوفى منها فى المحبس والمنفى والمهجر ولم يحظ بحرية العمل فى بلاده الا خمس سنوات قبل مرضه نهكته وقضت عليه •

وقد صدف فى سبيل واجباته عن متع الحياة كافة ولم يبتغ لنفسه جزاء ولا شكورا ، وكان يقتضى الناس أن يبذلوا أكثر مما يطيقون فكان الكثيرون من أصدقائه يتجافون عنه فى السويعات الخطيرة فيقف وحده أو مع القلائل الذين بدءوا المسيرة معه وصاحبوه حتى آخر الطريق • لقد كان يجمع بين تفريغ النفس للغرض وبين الشجاعة والحكمة والمهارة وسعة الفهم ، فليس يدانيه فى ذلك رجل آخر من رجال التاريخ ، ولذلك خلده التاريخ باسمه الذى اختاره حين كان يضطلع بعمله خفية فى السراديب •

---

(١) وكانت مدة مرض لنين قاتمة لما تخللها من مشاحنات بين الزعماء فكان ترتسكى فى ناحية مواجهة لستالين وتسنفييف وكمنف وجيرسنسكى ، واتخذ النزاع صورة لاريب فى أنها كانت مؤلمة لنفس الزعيم الذى يزدهف نحو الموت •

وقد أفاض ترتسكى فى القول بأن لنين كان يعضده وأن الآخرين حدوا من حريته فى القول ، واقر بان من أهم ما كان ينقمه عليه خصومه أنه كان يعدل نفسه بلنين ويعد نفسه ندا له ونظيرا أى رجلا فوق مستوى الحزب •

كتب فيليب مولر أن وصية لنين قد احتوت الجملة الآتية :

« ان الرفيق ستالين فظ غليظ ••• واقترح على الرفاق أن يلتمسوا السبيل لاقصائه عن هذا المنصب (يقصد أمانة السر العامة للحزب) وأن يجعلوا فيه آخر يختلف عن ستالين من كل الوجوه فيكون أكثر صبرا واخلاصا وأدبا واكتراثا بالرفاق » •

وقد حزن لموته عمال العالم أجمع وأعلنت الطبقة العاملة الدولية وقف العمل خمس دقائق فى يوم تشييعه فوقفت القطرات والمصانع .

وأرسل جثمانه الى موســكو فاضجع فى قاعة الأعمدة بنــادى الأشراف القــديم ، وطفقت قطرات السكك الحــديدية تفرغ أحمالها من الناس القادمين من جميع أرجاء روســيا ليجتازوا بجثمان زعيمهم الذى كانوا قد أعطوه قيادهم والذى جعل منه موته شـــخصية لا يقاس بها الآخرون ، جعله رمز الثورة وغرض العمال .

فهرس

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
١٩٦٨

